ناثانيل فيلبريك

في قلب البحر

مأساة الحوّاتة إسّكس

ترجمة:
محمد أ. جمال

kalemat

t.me/qurssan

في قلب البحر

مأساة الحوّاتة إسكس

In the Heart of the Sea

The Tragedy of the Whaleship Essex

ناثانيل فيلبريك

Nathaniel Philbrich

ترجمة:

محمد أ. جمال

2020

/kalemat

t.me/qurssan

إلى ميليسا

t.me/qurssan

t.me/qurssan

«وَبِكَثْـرَةِ عَظَمَتِكَ تَهْدِمُ مُقَـاوِمِيكَ. تُرْسِلُ سُـخْطَكَ فَـيَـأْكُلُهُمْ كَـالْقَشّ، وَبِرِيحِ أَنْفِكَ تَـرَاكَـمَتِ الْمِيَـاهُ. انْتَصَبَتِ الْمَجَارِيَ كَرَابِيَـةٍ. تَجَمَّدَتِ اللُّجَجُ فِي قَلْبِ الْبَحْرِ».

سفر الخروج (15: 7 –8)

«هذه نهاية طريق الحيتان والحوت
الذي بصق عظام نانتوكت بين العباب
هذه نهاية الركض على الأمواج
سُكبنا كما المياه
من الذي سيُخرج سيد اللوياثانين مُحطّم الصواري
من مقابر الكويكرز عديمة الشواهد
راقصاً؟».

روبرت لويل – مقبرة الكويكرز في نانتوكت

t.me/qurssan

t.me/qurssan

مقدمة

23 فبراير 1821

كطير جارح هائل، مضت سفينة التحويت (الحوّاتة) بتمهّل على مقربةٍ من الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية، مبحرة في خطوط متعرجة عبر بحر الزيت الحي. ذلك لأن المحيط الهادئ في عام 1821 كان مرعى واسعاً لمستودعات الزيت ذات الدم الحار، المعروفة باسم حيتان العنبر.

لم تكن عملية حصاد حيتان العنبر -أضخم ما هو موجودٌ من الحيتان ذوات الأسنان- سهلة. يخرج من السفينة ستة رجال على قارب صغير، يجدّفون إلى حيث تجمُّع الحيتان، يقذفون هدفهم بالحرابين[1]، ثم يُشرعون في طعنه بالحراب حتى الموت. بوسع الكائن الذي يبلغ وزنه ستّين طناً، تدمير قاربهم بحركة من ذيله، ملقياً بالرجال في قلب المحيط البارد، غالباً على بعد أميال من السفينة.

ثم يحين الدور على المهمة المذهلة: تحويل الحوت الميت إلى زيت. ويكون ذلك عبر استخراج الشحم منه وتقطيعه، ثم غليه حتى يتحول إلى ذلك الزيت الممتاز الذي يضيء الشوارع ويُشحِّم ماكينات الحُقبة الصناعية. حدوث كل هذا داخل المحيط الهادئ

(1) الحربون: حربة صيد الحيتان. [المترجم]

t.me/qurssan

اللامحدود، يعني أن الحوّاتين في أوائل القرن التاسع عشر لم يكونوا مجرد صيّادي بحر أو عمال مصانع فقط، وإنما أيضاً مستكشفين؛ يحطمون باستمرار حدود العالم المعروف، ويمرقون إلى أعماق البادية المائية الهائلة، التي تفوق مساحتها يابسة الأرض مجتمعة.

لأكثر من مئة عام، ظلّ المركز الرئيسي لتجارة الزيت العالمية جزيرة صغيرة تدعى نانتوكت، تقع على بعد أربعة وعشرين ميلاً من ساحل نيو إنغلند الجنوبي. من أهم المفارقات التي ميّزت حوّاتي نانتوكت، أن كثيراً منهم كانوا كويكريين، وهم أبناء طائفة دينية تدعو لمبدأ اللاعنف، على الأقل فيما يخص التعامل مع البشر. ذلك المزيج بين التحكم الصارم بالنفس، مع إيمان بجلالة المهمة يكاد يقترب من التقديس، نتج عنه ما سماه هرمان ملفيل «كويكريون منتقمون».

تلك كانت الحوّاتة دوفين تمضي بالقرب من ساحل تشيلي، لم يمض على إبحارها سوى شهور قليلة في رحلة ستستغرق ثلاثة أعوام. في ذلك الصباح من فبراير 1821، لمح المراقب شيئاً غير عادي: قارباً صغيراً يستحيل وجود مثله في المحيط المفتوح، تتلاعب به الأمواج. زيميري كوفين، قبطان السفينة البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً، سدّد منظاره على ذلك القارب الملغّز بفضول.

أدرك بسرعة أنه قارب تحويت؛ مستدق النهايتين ويبلغ طوله خمسة وعشرين قدماً. لكنه يختلف عن أي قارب تحويت رآه من قبل. فقد كان جانبا القارب قد رُفعا لنصف قدم، وقد ثُبت فيه صاريان مرتجلان، ممّا حول قارب التجديف إلى

t.me/qurssan

سكونة[1] بدائية. وكان من الواضح أن الأشرعة، المتيّبسة بفعل الملح والشمس، قد سحبت القارب أميالاً وأميالاً عديدة. لم يجد كوفين أحداً على مجداف التوجيه. استدار بمواجهة الرجل على دفة الدوفين وأمره: «أدرِ الدفة».

أمام عيني كوفين اليقظتين، وجّه مديرُ الدفة السفينةَ إلى أقرب مسافة ممكنة من القارب المهجور. ورغم أن قوة دفع الدوفين قد حملتها سريعاً إلى الهدف، إلا أن الثواني القليلة التي استغرقتها في الاقتراب من القارب، أهدَت لطاقم السفينة مشهداً لن يغيب عن ذاكرتهم لما بقي من حيواتهم.

فقد رأوا في البداية عظاماً، عظاماً آدمية، مبعثرة على أرض القارب وعلى مقاعد المجدّفين. وبدا وكأن قارب التحويت لم يكن إلا عريناً بحرياً لوحش مفترس آكل للبشر. ثم رأوا رجلين، متكوّرين في نهايتي القارب المتقابلتين، تغطي بشرتيهما القروح وتبرز أعينهما جاحظة من تجاويف جمجمتيهما، كانت لحاهما متكتلة بعجين من الملح والدماء. وكانا يمتصان النخاع من عظام رفاقهما الميتين.

وبدلاً من استقبال منقذيهما بابتسامات الارتياح، اضطرب الناجيان، اللذان كانت شدة الجوع والظمأ قد أصابتهما بالهذيان، بل أنهما خافا منهم حتى، وراحا يتمسكّان بقطع العظام وهما يقضمان منها بنهم يائس وتوحّش مرتعب، مثل كلبين سغبَين وُجدا عالقَين في فخّ.

(1) سكونة: مركب شراعي ذو صاريَين او اكثر. [المترجم]

t.me/qurssan

لاحقاً، بعدما قُدم للناجيين الطعام والماء (وتخليا أخيراً عن عظامهما)، وجد أحدهما في نفسه القوة والشجاعة ليحكي حكايته؛ حكاية مثّلت أسوأ كوابيس الحوّاتين: أن تعلق في قارب بعيد عن اليابسة، بلا شيء تأكله ولا ماء تشربه. حكاية عن حوت -وربما كان ذلك أسوأ ما في الأمر- بمكر البشر، يبحث عن الانتقام.

وعلى الرغم من ندرة ذكرها في يومنا هذا، إلا أن حادثة إغراق الحوّاتة إسّكس بواسطة حوت عنبر غاضب، تُعدّ واحدة من أشهر الكوارث البحرية في القرن التاسع عشر. فقد كان كلّ طفل أمريكي، قد قرأ عنها، غالباً، في المدرسة. إذ كانت هذه الحادثة هي التي ألهمت هرمان ملفيل مشهد الذروة في رواية (موبي دِك).

لكن نقطة نهاية رواية ملفيل -غرق السفينة- لم تكن إلا مجرد بداية لمأساة الإسّكس الحقيقية. كأن غرق السفينة ليس إلا إشارة بدء لتجربة معملية مريعة، صُممت لاكتشاف إلى أي مدى قد يذهب الحيوان البشري في معركته ضد البحر العاتي. فقد نجا من الرجال العشرين الذين هربوا من تحطيم الحوت للسفينة؛ ثمانية فقط. كان الرجلان اللذان أنقذتهما الدوفين قد أبحرا ما يقرب من 4500 ميل بحري في المحيط الهادئ. أبعد بخمس مئة ميل على الأقل مما أبحره القبطان ويليام بلاي في رحلته الملحمية على قارب مفتوح، بعدما تخلّى عنه بحارة باونتي المتمردون، وأكثر بخمسة أضعاف من رحلة إرنست شاكلتون إلى جزيرة جورجيا الجنوبية المساوية لرحلة بلاي في الشهرة.

لقرابَة 180 سنة، فإن كل ما عرفناه عن تلك النكبة قد جاء في 128 صفحة سرّد فيها أوين تشايس، ضابط الإسّكس الأول،

t.me/qurssan

أنباء الحادثة. وتوجد شذرات متفرقة من حكايات ناجين آخرين، إلا أنها افتقدت إلى حُجة تشايس وعمق رؤية حكايته التي نُشرت بمساعدة كاتب شبح بعد نجاة الضابط الأول بتسعة أشهر. ثم في عام 1960، وُجدت مفكرة قديمة في عليّة منزل ببلدة بن يان في نيويورك. ولم يكن، إلا بعدما وصلت إلى يد الخبير في شؤون التحويت النانتوكتي إدوارد ستاكبول بعد عشرين سنة؛ أن عُرف أن مالكها الأصلي هو توماس نيكرسون، صبيّ المقصورة في سفينة إسكس. كان نيكرسون، الذي صار في أواخر حياته مالكاً لنُزل في نانتوكت، قد كتب حكايته عن المأساة، بعدما حثّه على ذلك كاتب محترف يُدعى ليون لويس، الذي قد يكون واحداً من ضيوف نُزله. أرسل نيكرسون للويس مفكرته التي تحوي مسودته الوحيدة في 1876. لكن لسبب ما، لم يُعِدّ لويس المخطوطة للنشر، وأعطاها في النهاية إلى جاره، الذي مات وهي لا تزال في حوزته.

نُشرت حكاية نيكرسون أخيراً في طبعة محدودة بواسطة جمعية نانتوكت التاريخية عام 1984.

من منظور الجودة الأدبية، فإن سردية نيكرسون لا يمكن مقارنتها بحكاية تشايس المنمقة. فهي ركيكة وغير منظمة كتبها هاو، لكنه هاو كان على دفة إسكس عندما ضربها الحوت. كان نيكرسون آنذاك في الرابعة عشرة من عمره، وهو أصغر أفراد طاقم السفينة، وكانت حكايته هي حكاية طفل مندهش على أعتاب الرجولة، إنها رواية يتيم (مات والداه قبل أن يبلغ عامه الثاني) يبحث عن بيت. كان توماس نيكرسون في الحادية

t.me/qurssan

والسبعين من عمره عندما وضع أخيراً قلمه على الأوراق، لكنه كان بوسعه استرجاع الماضي البعيد وكأنه الأمس، وقد عزّزت ذكرياته المحادثات التي تبادلها مع ناجين آخرين. وسنعطي لتشايس، في الحكاية التالية، حقّه، لكنّ نسخته من الأحداث ستقارن لأول مرة بنسخة صبي المقصورة، الذي يمكن أخيراً سماع شهادته بعد غرق الإسكس بمئة وثمانين عاماً.

عندما كنت طفلاً، كان أبي، توماس فيلبريك الأستاذ بجامعة بيتسبرغ ومؤلف عدة كتب في أدب البحار الأمريكي، يحكي لي ولأخي قبل النوم حكاية الحوت الذي هاجم السفينة. وقد كتب عمي الراحل تشارلز فيلبريك، الفائز بجائزة ولاس ستيفنز في الشعر عام 1958، قصيدة من خمس مئة سطر عن سفينة الإسكس عنوانها «ماض اليم»، نُشرت بعد وفاته عام 1976. كانت تستدعي ويقوة ما كان يسمّيه: «ماض نسيناه ويجدر بنا أن نعرفه». تصادف أني بعد عشر سنوات، انتقلت مع زوجتي وطفليّ إلى مدينة الإسكس الأصلية: جزيرة نانتوكت.

أدركت بعدها أن أوين تشايس وهرمان ملفيل وتوماس نيكرسون وعمي تشارلي، ليسوا الوحيدين الذين كتبوا عن الإسكس؛ فهناك المؤرخ النانتوكتي البارز إدوارد ستاكبول، الذي توفي عام 1993، نفس العام الذي بدأتُ فيه بحثي. وهناك توماس هيفرنان، مؤلف «أغرقها حوت: أوين تشايس والإسكس» -1981، وهو بحث أكاديمي استثنائي اكتمل قبل اكتشاف مخطوطة نيكرسون. وأخيراً، هناك رواية هنري كارليسلي الفاتنة «الرجل جوناه» – 1984، والتي تحكي قصة الإسكس من وجهة

t.me/qurssan

نظر قبطان السفينة جورج بولارد.

لكنّي، حتى بعد أن قرأت كل هذه المقاربات المختلفة، ظللت أرغب في معرفة المزيد عمّا حدث، أتساءلُ: لماذا تصرّف الحوت بالطريقة التي فعل؟ وكيف أثّر الجوع والظمأ على بصيرة الرجال؟ ما الذي حدث بالضبط أغرقتُ نفسي في كل ما سجلته الوثائق عن حوّاتي ذلك المان، قرأت عن أكل لحوم البشر والنجاة في البحر، وعن سيكولوجية التضوّر جوعاً وفسيولجيته، والملاحة، وعلم المحيطات (أوقيانوغرافيا)، وعن سلوك حيتان العنبر، وبناء السفن قرأت في كل ما يمكن أن يساعدني لفهم ما مرّ به هؤلاء الرجال التائهون في محيطٍ واسع لا يغفر ولا يرحم.

أدركت في النهاية أن مأساة إسكس قد قدمت لملفيل ما هو أكثر من نهاية لواحدة من أعظما كُتب في الأدب الأمريكي. فقد تحدثت عن مسائل العِرق والطبقة الاجتماعية والقيادة وعلاقة الإنسان بالطبيعة، التي شغلت الكاتب خلال كتابته موبي دِك. ووفرت له أيضاً صورة نمطية نابعة من مكان حقيقي جعله نقطة انطلاق سفينته الخيالية بيكد: جزيرة صغيرة كانت ذات يوم محطّ أنظار العالم. كانت نانتكت في عام 1821 متقدمة تكنولوجياً، مولعة بالسعي وراء الثراء، ذات وازع دينيّ بأنها هي من ستقرر مصيرها الخاص. وباختصار، فقد كانت هي كل ما ستصبح عليه أمريكا. لم يكن أحدٌ تخيل أنه بعد جيل واحد أو أكثر، ستنهار، وسيحدث ذلك مثلما حدث مع الإسكس، لارتباطها الوثيق بالحيتان.

t.me/qurssan

طاقم الإسكس

القبطان: جورج بولارد، الابن.

الضابط الأول: أوين تشايس.

الضابط الثاني: ماثيو جوي.

موجّهو القوارب: بينجامين لورنس، أوبيد هيندريكس، توماس تشابل.

المُضيف: ويليام بوند.

البحارة: أوين كوفين، إيزاك كول، هنري دي ويت، ريتشارد بيترسون، تشارلز رامزديل، بارزيلاي راي، صمويل رييد، إزاياه شيبارد، تشارلز شورتر، لاوسون توماس، سيث ويكس، جوزيف ويست، وويليام رايت.

صبي المقصورة: توماس نيكرسون.

t.me/qurssan

مخطط الأشرعة للحوّاتة إسكس

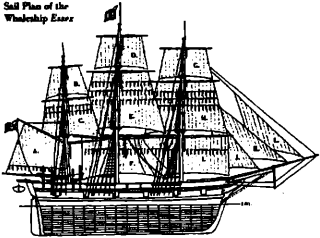

A. شراع مطبن
B. شراع مطبن أعلى الصاري
C. شراع مطبن عال
D. شراع رئيسي أعلى الصاري
E. شراع رئيسي عال
F. شراع سفلي/شراع رئيسي
G. شراع امامي أعلى الصاري
H. شراع امامي عال
I. شراع أمامي
J. شراع زمام أمامي سفلي
K. شراع مثلث/شراع الزمام
L. شراع طيار

مخطط للحوّاتة إسكس

A. ملفاف
B. سلم القلعة الأمامية
C. الصاري الأمامي
D. فرن التحويت
E. الباب الرئيسي
F. الصاري الرئيسي والمضخات
G. المطبخ
H. قارب تحويت احتياطي مثبت على رف علوي
I. صاري المطبن
J. سلم المؤخرة
K. الدفة
L. قارب تحويت احتياطي
M. قارب الميمنة
N. قارب الميسرة الخلفي
O. قارب الوسط

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الأول
نانتوكت

سيصِفُ تلك اللحظة لاحقاً بقوله: «كانت أسعد لحظة في حياتي»، لحظة أن وضع قدمه لأول مرة على سطح الحوّاتة إسّكس. كان في الرابعة عشرة من عمره، ذا أنف عريض ووجه متلهف. وقد تعلّم مثل كل صبية نانتوكت أن «يعبُد هيئة السفينة». قد لا تبدو الإسّكس بهذه الأهمية وهي لا تزال عارية من تجهيزاتها ومسلسلة في رصيف الميناء. لكنها بالنسبة لتوماس نيكرسون كانت فرصة العمر. أخيراً، بعد ما بدا له أنّه انتظار أبدي، سيخرج نيكرسون إلى البحر الواسع.

تضرب شمس يوليو الحارقة أخشاب الإسّكس القديمة المتشبعة بالزيت، فتصير درجة حرارة ما تحت السطح جهنّمية. لكن هذا لم يمنع نيكرسون من استكشاف كل زاوية فيها، من الهيكل الحجري لفرن التحويت على السطح، إلى أعمق جزء في المخزن الفارغ المظلم. وبينهما كان عالم شاسع مقسّم وذو صرير، كائن حيّ لحمه من أخشاب البلوط والصنوبر، يعبق برائحة الزيت والدم وعصير التبغ والطعام والملح والعفن والقطران والدخان. كتب نيكرسون: «رغم سوادها وقبحها، لم أكن لأستبدلها ولو بقصر».

t.me/qurssan

في يوليو 1819، كانت الإسكس واحدة من أسطول نانتوكت لسفن التحويت في المحيطين، الهادئ والأطلنطي، الذي بلغ تعداده أكثر من سبعين سفينة. ومع المنحنى الصاعد الواثق الذي تتّخذه أسعار زيوت الحوت، فيما يغرق اقتصاد العالم في الكساد؛ كانت قرية نانتوكت في سبيلها لأن تُصبح أغنى مدينة امريكية.

عاش مجتمع المدينة البالغ تعداده حوالي سبعة آلاف فرد على تلٍّ معتدل الانحدار، في بيوت متزاحمة تتوّجها طواحين الرياح وأبراج الكنائس. شبّهها البعض بالميناء الراقي المزدهر في مدينة سايلم، وهو إطراء كبير لجزيرة تبعد أكثر من عشرين ميلاً عن القارة الأمريكية في المحيط الأطلنطي جنوب كيب كود. لكن إن كانت المدينة تلتمع على التل في هدوء أثيري، فإن ساحلها بالأسفل يشتعل بالنشاط. فمن المستودعات ومصانع الحبال المنخفضة الطويلة، تخرج اربعة أرصفة تحميل تمتد لأكثر من مئة ياردة داخل المرفأ. ترسو في الميناء أو تُربط في الأرصفة عادة من خمسة عشر إلى عشرين حوّاتة، بالإضافة إلى عشرات المراكب الأصغر، غالباً من السلوبات[1] والسكونات التي تحمل البضائع التجارية من وإلى الجزيرة. كان كل رصيف عبارة عن متاهة من المراسي والصواري ومراجل التحويت وبراميل الزيت، ويحتشد بالبحارة وعمال الشحن والحرفيين. وكانت حركة عربات الأحصنة ذوات العجلتين المسماة بالكلاش، لا تفتأ في رواحٍ وغدوّ.

(1) السلوبة sloop: مركبٌ شراعي بصارٍ واحد. [المترجم]

t.me/qurssan

كان مشهداً مألوفاً لتوماس نيكرسون. فقد اعتاد أبناء نانتوكت على اتخاذ الساحل ساحة للعبهم، وجدّفوا في قوارب التحويت المتداعية في المرفأ، وتسلقوا حبال السفن. أما بالنسبة لغير سكان الجزيرة، فقد كان واضحاً أن أطفالها هم «نوع مختلف من الأحداث، قرروا من البداية أنهم سيصيرون بحارة لا جدال... كانوا يتسلقون حبال المراكب كالقرود -وهم صغار في العاشرة أو الثانية عشرة- وينزلقون على أطراف عوارض الأشرعة بمنتهى السلاسة واللامبالاة». وربما كانت الإسكس هي سفينة نيكرسون الأولى، لكنه كان يستعد لتلك الرحلة طوال حياته.

لم يكن ذاهباً لوحده، فقد كان أصدقاؤه بارزيلاي راي وأوين كوفين وتشارلز رامزديل، الذين تتراوح أعمارهم جميعاً بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة؛ مبحرين معه على الإسكس. كان أوين كوفين ابن خالة قبطان الإسكس الجديد، ومن الواضح أنه هو من أحضر أصدقاءه الثلاثة معه بالمحاباة. وكان نيكرسون أصغرهم. كانت الإسّكس قديمة، وصغيرة إلى حد ما بارتفاعها البالغ 87 قدماً وإزاحة ماء بمقدار 238 طناً، لكن سمعتها في نانتوكت كانت أنها سفينة حسنة الطالع. فخلال ما يقرب من عقد ونصف، ظلت تعود من رحلات تستغرق سنتين في كلّ مرة، بكمّ من زيت العنبر كافٍ لجعل مالكيها من الكويكريين أغنياء. كان قبطانها السابق دانيل راسل ناجحاً بما يكفي في رحلاته الأربع معها، ليتولى قيادة سفينة أورورا الأكبر منها. وسمحت ترقية راسل للضابط الأول السابق لأن يترقّى ويحل محله في

قيادة الإسكس، ولأوين تشايس الذي كان واحداً من موجّهي القوارب -أو حملة الحربونات- ليصبح ضابطها الأول. ترقى أيضاً ثلاثة من أعضاء الطاقم ليصبحوا موجّهي قوارب. ويبدو أن الإسّكس لم تكن سفينة محظوظة فقط، بل سعيدة أيضاً، فهي على حد تعبير نيكرسون «في المجمل كانت سفينة مرغوبة».

وبما أن مجتمع نانتوكت كان، مثل كل مجتمعات المدن البحرية في تلك الآونة، مهووساً بالإشارات والطوالع، فإن سمعة السفينة شكّلت فارقاً كبيراً. ومع ذلك، فقد سرى الحديث بين الرجال على الأرصفة في بدايات يوليو من هذا العام، أنه بينما كانت الإسّكس في طور أعمال الترميم والتجهيز، ظهر في سماء الليل نجمٌ مذنّبٌ.

كانت نانتوكت مدينة تُحب أسطح المنازل. ففي كل منزل تقريباً، سواء كانت ألواح سقفه مدهونة بالأحمر أو متروكة للطقس ليحولها بنفسه إلى الرمادي، كانت توجد منصة مثبتة على السقف تُسمى الممشى. ورغم أن غرض الممشى الرئيسي كان تسهيل إطفاء نار المدفأة بأكياس الرمل، فقد كان الممشى أيضاً مكاناً مثالياً لمراقبة البحر بالمناظير بحثاً عن أشرعة السفن العائدة. وفي الليل، عادة ما كانت مناظير نانتوكت تتوجه مباشرة إلى السماء، ففي يوليو 1819 نظر سكان الجزيرة تجاه الجانب الشمالي الغربي منها. احتفظ التاجر الكويكري أوبيد مايسي بسجلات وافية التفاصيل، لما اعتبرها «أكثر الأحداث استثنائية» في حياة الجزيرة. عندما شاهد السماء من منزله في شارع بليزنت، كتب «يُعتقد أن المذنب (الذي يظهر في كل الليالي

t.me/qurssan

الرائقة) ضخم جداً وذو ذيل طويل على غير العادة، إذ يمتد إلى أعلى على عكس الشمس، في اتجاه شبه عمودي، وهو يحيد تجاه الشرق، ويشير تقريباً إلى نجم الشمال».

يُفسر ظهور المذنب، منذ بدء الزمان، على أنه علامة تنبّئ بقرب حدوث شيء غير متوقع. وقد علّقت جريدة نيو بيدفورد ميركيوري التي يقرؤها سكان نانتوكت، لعدم وجود جريدة خاصة بهم: «من المعروف أن ظهور مثل هذا الزائر الغريب يسبق عادة وقوع حدث استثنائي». لكن مايسي رفض هذا التفكير، «لندع الفلسفة العقلانية للجزء العلمي من المجتمع، لكن تظل حقيقة أن حتى أكثر العلماء علماً لا يعرفون إلا أقل القليل عن موضوع المذنبات؛ هي واحدة لا شكّ فيها».

كان هناك، على الأرصفة وفي مكاتب الشحن، الكثير من التخمينات، ولم تكن فقط بخصوص موضوع المُذنب. إذ انتشر الحديث طوال الربيع والصيف عن مشاهدات في أنحاء ساحل نيو إنغلند لما وصفته الصحف بأنه «وحشٌ بحري غريب»؛ ثعبان ذو عينين سوداوين مثل عيني الحصان، وذو جسد طوله خمسون قدماً يشبه سلسلة من البراميل الطافية على سطح المياه. إن أي بحار، خاصة لو كان يافعاً وسريع التأثر بالانطباعات مثل توماس نيكرسون، كان ليتساءل، ولو بشكل عابر، عن أن كان ذلك الوقت هو الوقت المناسب للخروج في رحلة بحرية حول كيب هورن.

من الطبيعي أن يكون سكان نانتوكت مُتطيّرين؛ إذ تتحكم بحياتهم قوة مرعبة غير متوقعة، ألا وهي البحر. فبسبب الحركة المستمرة للمياه الضحلة، بما في ذلك شريط نانتوكت الساحلي

t.me/qurssan

قبالة الميناء، فإن فعلاً بسيطاً كالقدوم إلى الجزيرة والذهاب منها كان كثيراً ما يتحول إلى درس مروّع وأحياناً كارثيّ في علم الملاحة. خاصة في الشتاء، عندما تصير العواصف في أعنف حالاتها. كانت المراكب تتحطم بمعدل أسبوعي تقريباً. وقد دفنت الجزيرة جثثاً كثيرة للبحارة الذين ألقت بهم الأمواج على شواطئها. كانت نانتوكت، والتي يعني اسمها «الأرض البعيدة» في لغة سكانها الأصليين الوامبانواج، كومة من الرمال يجرفها محيط لا يرحم. وكان كل سكانها، حتى لو لم يغادروا من الجزيرة قط، على دراية تامة بقسوة البحر.

أدرك المستوطنون الإنجليز، الذين بدأوا في التوافد على الجزيرة عام 1659، مخاطر البحر. لذا حاولوا أن يقتاتوا لا من صيد الأسماك وإنما من الزراعة والرعي في هذه الأرض المعشوشبة التي لا ذئاب فيها. لكن تزايد أعداد قطعان الماشية مع ارتفاع أعداد المزارع هدّدا بتحويل نانتوكت إلى هشيم تذروه الرياح. فكان أن لا مناص من التوجه إلى البحر.

في كل خريف، كان يظهر جنوب الجزيرة الكثير من (الحيتان المناسبة) التي تبقى هناك حتى بداية الربيع. أُطلق عليها ذلك الاسم لأنها كانت «الحيتان المناسبة للقتل»[1]. كان

---

(1) الترجمة الشائعة هي (حيتان صحيحة- Right whales)، لفظة «مناسبة» تأتي من سياق جملة «الحيتان المناسبة للقتل The Right whales to kill». الاسم العلمي لهذا النوع هو (إيوبالاينا Eubalaena).

[المترجم]

t.me/qurssan

الحوت المناسب يرعى في مياه نانتوكت مثل ماشية بحرية، مصفّياً مياه سطح المحيط الغنية بالغذاء بصفائحه المُشعرة البالينية[1]، داخل فم مفتوح في ابتسامة أبدية. ورغم أن المستوطنين الإنجليز في كيب كود وشرق لونغ آيلاند كانوا يصطادون الحيتان منذ عقود، فلم يجد أيٌّ من سكان نانتوكت في أنفسهم الشجاعة لمطاردة الحيتان بالقوارب، وبدلاً من ذلك فقد تركوا للوامبانواج حصاد الحيتان التي ألقتها التيارات على الشواطئ، وهي المعروفة باسم الحيتان المنجرفة.

في 1690 تقريباً، كانت مجموعة من النانتوكتيين واقفين على قمة التلّ وينظرون إلى البحر، فشاهدوا عدداً من الحيتان ترشّ المياه وتلعب مع بعضها البعض. أومأ واحد منهم برأسه تجاه الحيتان فيما المحيط خلفها وقال: «هذا هو الحقل الأخضر، الذي سيخرج إليه أبناؤنا وأحفادنا ليحصلوا على خبزهم». وتحقيقاً لنبوءته، فقد جاء واحد من أبناء كيب كود اسمه إيتشابود بادكوك بعدها بقليل، ليعلّم أبناء الجزيرة فنّ قتل الحيتان.

كانت أطوال القوارب الأولى لا تزيد عن العشرين قدماً، وكانت تخرج من شاطئ الجزيرة الجنوبي. ومثلما هو متوقع، كان

(1) الصفائح البالينية هي صفائح وشعيرات في فم الحوت أشبه بالمصفاة. يشفط الحوت كماً هائلاً من مياه المحيط التي تمرّ على مُرشح الصفائح البالينية، حيث تعلق بها أية حيوانات بحرية تصادف وجودها، ثم ينفث المياه خارجاً محتفظاً بالحيوانات التي تشكل غذاءه. [المترجم]

t.me/qurssan

طاقم قارب التحويت يتكون من خمسة مجدّفين ووامبانواجيّين ورجل أبيض نانتوكتي واحد على مجداف التوجيه. وهُم ما أن يقتلوا الحوت، حتى يسحبوه معهم إلى الشاطئ، حيث يحصدون منه الشحم الذي يُغلونه حتى يصير زيتاً. ومع بداية القرن الثامن عشر، كان إنجليز نانتوكت قد أسّسوا نظاماً للعمل بالسخرة، ممّا وفر لهم تدفقاً مستمراً من العمالة الوامبانواجية. ولولا سكان الجزيرة الأصليين، الذين فاق عددهم سكان نانتوكت البيض حتى عشرينات القرن الثامن عشر، لما كانت الجزيرة لتصبح ميناء تحويت ناجحاً.

في عام 1712، كان الريان هاسي يجوب بقاربه المياه بحثاً عن حيتان مناسبة بالقرب من شاطئ نانتوكت الشمالي، عندما ألقته عاصفة شمالية شرسة إلى البحر المفتوح على بعد عدة أميال. هناك، رأى عدة حيتان من نوع لم يعرف مثله من قبل. على عكس الحوت المناسب الذي ينفث المياه بشكل عمودي، كان هذه الحيتان تنفثها إلى الأمام وعلى شكل قوس. وعلى الرغم من الرياح الصعبة والبحر عكر المزاج، فقد استطاع هاسي أن يقتل إحداها بحربونه. اتّسعت حول الحوت الميت بقعة الزيت والدماء في الماء، حتى بدت كمشهد قادم من صفحات العهد القديم. أدرك هاسي بسرعة أن هذا الكائن هو حوت عنبر كانت الأمواج قد ألقت بواحد مثله على الساحل جنوب الغربي من الجزيرة قبل سنوات. لم يتميز حوت العنبر فقط بأن الزيت المستخلص من شحمه أفضل بكثير من ذلك المستخلص من الحوت المناسب، ما يجعل احتراقه أكثر نظافة وسطوعاً، بل أن هناك أيضاً في

t.me/qurssan

راسه الذي يُشبه المكعب مخزون كبير من زيت أفضل بكثير، يُسمى هذا الزيت بالعنبرية، ويمكن ببساطة إفراغه في براميل خشبية جاهزة. (يشبه سائل العنبرية إلى حد كبير السائل المنوي، وهذا التشابه هو ما أعطى الحوت اسمه[1]. قد يكون حوت العنبر أسرع وأكثر عدوانية من الحوت المناسب، لكنه أكثر قيمة بمرات كثيرة. ولما لم تعُد لدى النانتوكتيين مصادر دخل أكثر، فقد قرروا تكريس أنفسهم لمطاردة حيتان العنبر. وسرعان ما تفوّقوا على المحوّتين المنافسين في لونغ آيلاند والأرض الأمريكية.

بحلول عام 1760، كان النانتوكتيون قد قضوا تماماً على الحيتان المحلية. لكن هذا لم يهمّ، ففي ذلك الوقت كانت قوارب تحويتهم الشراعية قد تضخمت، وصارت مزوّدة بأفران تحويت قادرة على معالجة الزيت في المحيط المفتوح. وطالما لم يعودوا الآن مضطرين للعودة باستمرار إلى الميناء لتوصيل كتل الشحم الضخمة؛ فقد اتسع نطاق إبحار أسطولهم. ومع اندلاع الثورة الأمريكية كان النانتوكتيون قد بلغوا حافة دائرة القطب الشمالي والساحل الغربي لإفريقيا والساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية، حتى بلغوا جزر فوكلاند.

في خطابه أمام البرلمان عام 1775، تحدث رجل الدولة البريطاني إدموند بيرك عن سكان الجزيرة وقال إنهم قادة

---

(1) ماء الرجل في الإنجليزية: Sperm، ومن هنا جاءت تسمية حوت العنبر Sperm Whale. [المترجم]

t.me/qurssan

سلالة أمريكية جديدة، «قوم عصريون» بلغ نجاحهم في التحويت مدى فاق ما بلغته أوروبا مجتمعة. نمى لدى النانتوكتيين إحساس إنجليزي بأنهم قوم أرقى، مواطنون درجة أولى، لا سيما وهم يعيشون على جزيرة تبعد عن البرّ الأمريكي الرئيسي قدر بعد الجزيرة البريطانية عن فرنسا، ما حدا برالف والدو إمرسون إلى تسميتهم بـ «دولة نانتوكت».

ثم عادت ثورة وحرب 1812 بنتائج كارثية على صناعة التحويت، بعدما أغارت سفن الأسطول البريطاني على سفن الشحن البحري. لكن لحسن الحظ كان النانتوكتيون قد كونوا رأس مال ضخم وخبرة متأصلة في التحويت، الأمر الذي جعلهم قادرين على تجاوز تلك الفترة الصعبة. ومع عام 1819، كانت نانتوكت في طريقها لاستعادة مجدها القديم، بل وتجاوزه بعدما بدأ الحوّاتون في المغامرة داخل المحيط الهادئ. لكن صعود نجم مغامرات تحويت حوت العنبر في المحيط الهادئ كان له أثر جانبي مؤلم؛ فبدلاً من استغراق الرحلة في المتوسط تسعة أشهر، صار العادي هو استغراقها عامين أو ثلاثة في المرة الواحدة. ولم تعرف نانتوكت من قبل مثل ذلك الصدع الكبير الجديد بين الحوّاتين والناس العاديين. وإلى غير رجعة ذهبت الأيام القديمة التي كان يشاهد فيها النانتوكتيون من الشواطئ الرجال والأطفال وهم يطاردون الحيتان. أصبحت نانتوكت عاصمة التحويت في العالم، لكن عدداً غير قليل من أهلها لم يروا حوتاً قط.

في صيف 1819، كان الناس لا يزالون يتحدثون عن تلك

t.me/qurssan

المرة، قبل تسع سنوات، عندما لُمح قطيع من الحيتان المناسبة بالقرب من شمال الجزيرة. خرجت قوارب التحويت فوراً، واحتشد على شواطئ الجزيرة جمعٌ غفير لمتابعة قتل حوتين وجرّهما إلى الميناء، في افتتان. كان ذلك لأهل نانتوكت بمثابة التجلي الديني؛ أخيراً رأوا أمامهم بأم أعينهم اثنين من تلكم الكائنات التي طالما سمعوا عنا، الكائنات التي تعتمد عليها حياتهم. سُحب أحد الحوتين إلى رصيف الميناء، وقبل أن ينتهي اليوم جاء الآلاف -ربما كان بينهم الطفل ذو الأعوام الخمسة توماس نيكرسون- ليشاهدوه. ولنا أن نتخيل شدة فضول النانتوكتيين وقتها بينما تكاد تخرق نظراتهم الكائن العملاق، وهم يلمسونه ويلكزونه، قائلين لأنفسهم: «إذن، هذا هو الحوت».

شيّدت نانتوكت لنفسها نظاماً اقتصادياً لا يعتمد على مصادر الجزيرة الطبيعية. ولم تعد تُربة الجزيرة تُجهد من الإفراط في الزراعة. ومع انخفاض تعداد الوامبانواج الضخم إلى حفنة بسبب الأوبئة، اضطر مالكو السفن للبحث عن أطقم البحارة في الأراضي الأمريكية. اختفت الحيتان بالكامل من المياه المحلية، ومع ذلك بقيت نانتوكت في ازدهار مستمر؛ صارت الجزيرة، مثلما وصفها أحد زوارها: «أرضاً رملية قاحلة، لا يخصبها إلا زيت الحوت».

على مدار القرن السابع عشر، رفض النانتوكتيون الإنجليز كل محاولات بناء كنيسة في الجزيرة، يرجع هذا جزئياً لأن امرأة تُدعى ماري كوفين ستاربك منعت ذلك. وقيل أن لا شيء ذا أهمية كان يحدث في نانتوكت دون موافقة ماري. ماري كوفين

t.me/qurssan

وناثانيل ستاربك كانا أول بريطانيين تزوجا على الجزيرة. في عام 1662 أسسا مركزاً مربحاً للتجارة مع الوامبانواج. وكلما هبط على الجزيرة كاهن جوال يرغب في تأسيس كنيسة أبرشانية، كانت ماري تردّه بحسم. ثم في 1702، حدث أن وقعت ماري أسيرة لكاريزما كاهن كويكري اسمه جون ريتشاردسون. عندما تحدث مع عدد من آل ستاربك في غرفة معيشتهم، نجح ريتشاردسون في حث غدد ماري الدمعية على العمل. اعتناق ماري للكويكرية رسخ لذلك المزيج العجيب بين الروحانية والجشع، الذي سيعطي الفرصة لنانتوكت لتزدهر كميناء تحويت.

اعتمد الكويكريون، أو أعضاء مجتمع الأصدقاء إن أردنا تسمية أكثر ملائمة، على تجربتهم الخاصة مع الوجود الرباني، أو «النور الداخلي»، لإرشادهم، عوضاً عن الاعتماد على كاهن بيوريتاني لتفسير النصوص. لكن العدد المتنامي للكويكريين النانتوكتيين لم يتكون من أفراد مستقلين فكرياً؛ كان يُتوقع من الأصدقاء الانصياع للقواعد السلوكية المحددة سلفاً أثناء الاجتماعات السنوية، ما يدعم إحساس الانتماء للجماعة المحكومة بحرص، مثل أي مجتمع في نيو إنغلند. إن كان هناك أي فارق، فهو في إيمان الكويكري باللاعنف ورفضه المزدري للغطرسة الدنيوية؛ وهما مبدآن لا يتعارضان بأي شكل مع سعي المرء للثراء. وبدلاً من بناء المنازل الفاخرة أو ابتياع الملابس الحديثة، فقد استثمر النانتوكتيون الكويكريون أرباحهم في التحويت. ونتيجة لذلك، استطاعوا تفادي الركود الذي قضى على كثير من تجار تحويت القارة الأمريكية. وبسرعة أسس أبناء

t.me/qurssan

ماري ستاربك وأبناء عمومتهم من آل مايسي وآل كوفين، سلالات سلالة تحويت كويكرية.

لم يرَ النانتوكتيون أي تعارض بين سبل معيشتهم ودينهم. فقد منحهم الرب نفسه السلطان على أسماك البحر. عبّر عن ذلك بيليج فولجر، حوّات أصبح من شيوخ الكويكر، في أبيات الشعر:

أنت يا ربّ من خلقت الحوت العجيب
ذلك الوحش العظيم ذا الحجم الرهيب
عارم الرأس، هائل الجسد، كبير الذيل
أما قوّته، فلا يتخيلها إنسان

لكنك، أيها الربّ الخالد، من حكمت
علينا، نحن البشر الضعاف الفانين، بالانخراط
(بأنفسنا، بأزواجنا، وبأبنائنا الذين نرعى)
مع هذا الوحش المخيف في معارك حامية

رغم أن النانتوكتيين الكويكريين هيمنوا على اقتصاد الجزيرة وثقافتها، إلا أنه كانت هناك مساحة للآخرين، ومع بداية القرن التاسع عشر أصبح ثمة برجان لكنيستين أبرشانيتين يحيطان بالجزيرة من الشمال والجنوب، مثلما يحيط القوسان بالجملة. لكن الكل تشارك في الحفاظ على الرسالة الروحية ذاتها: الابقاء على الحياة في الجزيرة مسالمة، ونشر الخراب الدموي في البحر. هكذا كان حوّاتو نانتوكت قتلة ومسالمين،

t.me/qurssan

أصحاب ملايين في ملابس البسطاء، أفعالهم ليست إلا تحقيقاً لمشيئة الرب.

***

في طيات المدينة التي عرفها توماس نيكرسون يكمن شعور مُقلق بالتداعي. كل ما يتطلّبه الأمر هو مسيرٌ في شوارعها الرملية الضيقة، لتكتشف أنه برغم برجي الكنيسة وبعض القصور القليلة، كانت نانتوكت أبعد ما تكون عن مدينة سايلم. «يبدو أن مواطني نانتوكت الطيبين لا يجدون في الشوارع المنضبطة أو في الأرصفة النظيفة أمراً مهماً»، هكذا رأى زائرٌ كويكري المدينة. فالبيوت كانت متواضعة ومسقوفة بالخشب، ولم يكن من النادر احتواء بعضها على أغراض مستخلصة من بقايا سفن، «فالأبواب الأرضية يمكن استخدامها كأغطية ممتازة لفتحات المجاري...، وألواح مؤخرة السفينة الخشبية -التي تحمل اسمها- تصلح لهدفين: كسياج ممتاز، ولإطلاع الغريب، إن تاه، في أية مدينة هو».

فبدلاً من استخدام أسماء الشوارع التي وُضعت لأغراض ضريبية عام 1798، تحدث النانتوكتيون عن شارع إليشا بنكر وشارع القبطان ميتشل. كتب النانتوكتي والتر فولجر الابن، الذي صادف كونه أحد مالكي سفينة الإسكس: «يعيش السكان معاً كأسرة واحدة كبيرة، ليست في بيت واحد، وإنما في صداقة عامة. لا يعرف الواحد منهم أقرب جيرانه فقط، بل الكل. وإن كنت تسعى لمقابلة أي شخص، فبوسعك سؤال أي ساكن تصادفه، وسيكون قادراً على توصيلك لمسكنه وإخبارك بوظيفته، وأية تفصيلة أخرى تبحث عنها».

t.me/qurssan

لكن حتى داخل المجتمع الأُسري المتماسك هذا، كانت هناك استثناءات. كان توماس نيكرسون يقف خارجه ويشاهد عن بعد. الحقيقة الحزينة هي أنه فيما كانت أمّ نيكرسون ريبيكا جيبسون نانتوكتية، فإن والده توماس نيكرسون الأب كان من كيب كود، وإن توماس الابن ولد في مدينة هارويتش عام 1805. وانتقلت أسرته بعد ستة أشهر إلى نانتوكت قاطعاً نانتوكت ساوند، لكن هذا جاء متأخراً ستة أشهر. إذ كان النانتوكتيون ينظرون باستعلاء للقادمين من خارج الجزيرة، ويصفوهم بالغرباء أو بلقب أسوأ كوفيين، وهو مصطلح ظهر في الأصل للذم في أبناء كيب-كود، لكنه توسّع ليشمل كل من ساء حظه كفاية ليولد في البرّ الرئيسي.

ربما كان توماس نيكرسون ليحظى ببعض الاحترام على الجزيرة لو كانت أمه من نسل سلالة نانتوكتية عريقة، تحمل اسماً مثل كوفين أو ستاريك أو مايسي أو فولجر أو جاردنر. لكن هذا لم يكن الحال. ففي جزيرة تستطيع أغلب عائلاتها الادعاء بأنهم ينحدرون مباشرة من سلالة أحد «المستوطنين الأوائل»، كان آل جيبسون وآل نيكرسون بلا شبكة من أبناء العمومة مثل تلك دعمت أغلب النانتوكتيين. قال أوبيد مايسي: «ربما لا يوجد مكان آخر في العالم مثل نانتوكت سكانه متّصلون بهذه الدرجة من صلات القرابة، ما يضيف كثيراً من التناغم في حياة الناس، ويزيد من انتمائهم للمكان». إن أصدقاء نيكرسون ورفاقه في السفينة، أوين كوفين وتشارلز رامزديل وبارزيلاي راي، بوسعهم أن يعتبروا أنفسهم من هذه المجموعة. قد يلعب توماس معهم،

وقد يخرج للبحر معهم، لكنه في أعماقه فهِم جيداً أنه مهما حاول، فسيظل في النهاية مجرد كوفي.

يعتمد مكان معيشة المرء في نانتوكت على مكانته في تجارة التحويت. فلو كان تاجراً أو مالك سفينة، فهو يعيش غالباً في شارع بليزنت على التلّ، بعيداً عن صخب أرصفة الميناء ونتانة روائحها. (في الأعوام اللاحقة، بعدما صاروا يطمحون لمساحات أوسع وظهور أبهى، سيتهافت هؤلاء الأغنياء على الشارع الرئيسي). في المقابل، كان القباطنة يميلون لاختيار الشارع الذي يمنحهم أفضل إطلالة على المرفأ: شارع أورانج. يستطيع القبطان من منزله في شرق شارع أورانج، مشاهدة سفينته بينما تُجهّز على الرصيف، ومتابعة نشاط المرفأ. أما الضباط، فقد عاشوا عند سفح التل (تحت الضفة كما يُسمى) في شارع يونيون، في ظلّ البيوت التي يطمحون لامتلاكها ذات يوم.

في تقاطع الشارع الرئيسي مع شارع بليزينت، كان يقع منزل لقاءات مجتمع الأصدقاء الكبير، الذي بُني عام 1792 بقطع من منزل الاجتماعات الأكبر، الذي كان يوماً ما يلوح فوق حقل مقابر الكويكريين عديمة الشواهد في نهاية الشارع الرئيسي. نشأة نيكرسون كأبرشاني لا تعني أنه لم يدخل من قبل هذا البيت أو غيره من منازل لقاءات الكويكريين في شارع برود. يدّعي واحد من زوار المدينة أن نصف من حضروا لقاءات الكويكريين في العادة لم يكونوا أعضاء في مجتمع الأصدقاء. في بداية ذلك الصيف، سجّل أوبيد مايسي يوم 29 يونيو أن اجتماع الكويكريين

t.me/qurssan

في منزل اللقاءات الجنوبي حضره 2000 شخص، أكثر من ربع تعداد سكان الجزيرة.

وفي حين أن كثيراً من الحضور كانوا في الاجتماع لأسباب روحية، كانت للمراهقين والشباب دوافع أخرى لحضوره. لا يوجد مكان آخر في نانتوكت يعطي فرصة للشباب لمقابلة أفراد من الجنس الآخر مثل قاعة اللقاءات. وقد وصف ابن نانتوكت تشارلز ميرفي في قصيدة كيف استغل الشبابُ من أمثاله لحظات الصمت الطويلة في لقاء الكويكر:

أن تجلس بعينين نهمتين تتملّى
كلّ ذلك الجمال المجتمع هناك
وتحدّق بعجب وانبهار أثناء اللقاءات
في كل الأشكال والبدع المتنوعة

لكن توجد نقطة أخرى مفضّلة للعشاق من الشباب، عند قمة التل خلف المدينة، حيث تقف طواحين الرياح الأربع. هناك يستطيع الأزواج الاستمتاع بمشهد خلاب للمدينة والمرفأ، خاصة بعد بناء المنارة الجديدة التي تُرى من على بعد.

الأمرُ المثير للتعجب، هو كم كان من النادر أن يخطو نانتوكتي، حتى لو كان صغيراً ومغامراً مثل نيكرسون وأصدقائه، خارج أبواب مدينته الصغيرة. وقد اعترف تاجر زيت حوت في أحد الخطابات: «رغم صغر الجزيرة، لم أذهب قط إلى أقصى شرقها أو غربها. بل أجرؤ على القول إني لسنوات عديدة لم أبتعد عن المدينة ميلاً واحداً». في عالم الحيتان وثعابين البحر ونُذر السوء في سماء الليل، ينظر الفلاحون والحوّاتون

t.me/qurssan

والنانتوكتيون على حد سواء، إلى المدينة كملاذ، مكان مُسيّج آمن تجري فيه الأمور بالطرق الأليفة التي يعرفها الجميع من زمن الأسلاف الأوائل، مكان يمكن تسميته بالوطن.

لكن تحت الواجهة الكويكرية النانتوكتية، كان الشغف يغلي في العروق. قد تبدو الحياة هناك مكبوتة ومنظمة، خاصة عندما تراهم بالمئات، وأحياناً بالآلاف في اجتماعات كل أحد وخميس، الرجال في معاطفهم السود الطويلة وقبعاتهم عريضة الحواف، والنساء في أرديتهن المحتشمة وقلنسواتهن المطرزة بعناية. لكن هناك عوامل أخرى غير الكويكرية والإرث المشترك تُحرّك النفس النانتوكتية، أهمها الهوس بالحوت. فمهما حاول الواحد منهم إخفاءه، يظل هناك شيء من الوحشية كامناً في هذه الجزيرة، شهوة للدماء، تربط كل أب وأم وابن بنوع من الالتزام العشائري تجاه صيد الحيتان.

يُزرع ذلك الهوس في أطفال نانتوكت بدءاً من عمر مبكر. فإن أولى الكلمات التي يتعلمها الرضيع تتضمن لغة المطاردة. على سبيل المثال كلمة «تاونور townor»، من لغة الوامبانواج، وتعني أن الحوت شوهد للمرة الثانية. وتحكي حكايات ما قبل النوم عن قتل الحيتان والهرب من آكلي لحوم البشر في المحيط الهادئ. حكت إحدى الأمهات بفخر كيف أن ابنها ذا التسعة أعوام ربط شوكة في طرف كرة من خيوط الصوف، وشرع في مهاجمة قط العائلة بها كما يفعل الحوّات بالحربون. وصادف أن تواجدت الأم في الغرفة في اللحظة التي هرب فيها الحيوان المذعور، فأخذت كرة الخيوط محاولةً عدم التفكير فيما كان

t.me/qurssan

سيحدث لو لم تكن موجودة. ومثل موجّه قارب محنّك صاح الفتى: «افسحي الطريق يا أمي! افسحي! إني أسمع صوته عبر النافذة!».

وقيل أن هناك كان مجتمع سري من شابات الجزيرة، اللواتي أقسمن أن لا يتزوجن من الرجال إلا من قتلوا بالفعل حوتاً. ولمساعدة تلكم الشابات على معرفتهن بأنهم صيادون، فقد اعتاد موجّهو قوارب التحويت على ارتداء دبابيس التثبيت (دبابيس من البلوط، تُستخدم للحفاظ على حبل الحربون في المجرى المخصص له بقارب التحويت) في طيّات ستراتهم. موجّهو القوارب على الأرجح شباب أصحاب بِبُنية رياضية متميزة، وذوو مستقبل يلوح في أفقه لقب ربان؛ ما يجعل الطلب عليهم كعُزاب هو الأعلى في نانتوكت.

وبدلاً من الشرب بنُخب صحة المرء، كان النانتوكتيون يسبقون شرابهم بنُخب ذي طابع مظلم:

الموت للأحياء
ومديد العمر للقتلة
وبالتوفيق لزوجات البحارة
وحظّ مُزيّت للحوّاتين

وبرغم التبجح في تلك الأغنية القصيرة، إلا أن الموت كان حقيقة حياتية مألوفة لجميع النانتوكتيين. ففي عام 1810 كان هناك سبعة وأربعون طفلاً بلا أب في نانتوكت، وكان ربع عدد النساء اللواتي تجاوزن الثالثة والعشرين (متوسط عمر الزواج آنذاك) قد رمّلهن البحر.

t.me/qurssan

ظل نيكرسون يزور قبري والديه في المدافن الشمالية حتى مع كبر سنه. ولا شك من أنه زارهما أيضاً في عام 1819، شاقاً طريقه بين شواهد هذه الرقعة المسوّرة من الأرض المعشوشبة المحترقة بالشمس، في الأسابيع القليلة التي سبقت خروجه على متن الإسكس. كان والده أول من رحل، عندما كان في الثالثة والثلاثين من عمره، في التاسع من نوفمبر للعام 1806 . وقد كُتب على شاهدة قبره:

تسحقنا يدك كما العثّ

مصيرنا التراب

أجسادنا الفانية لا تصمد طويلاً

والجمال إلى زوال

أما أم نيكرسون، التي وضعت خمسة أبناء، فقد ماتت بعده بأقل من شهر، في الثامنة والعشرين من عمرها. أكبر بناتها كانت في الثامنة، وابنها الوحيد توماس لم يكمل عامه الثاني. قالت شاهدة قبرها:

بسرعة تذوي حياة الفانين

مثل فقاعة في الهواء

سلالة آدم العديدون

كلهم إلى زوال

لم يكن نيكرسون، الذي تربّى على يدي جده وجدته، اليتيم الوحيد في الإسكس. فإن صديقه بارزيلاي راي كان أيضاً قد فقد كلا وَالديه. أما أوين كوفين وتشارلز رامزديل فقد رحل والد كل منهما. وربما تلك كانت رابطتهم الأقوى. فكل منهم كان طفلاً

t.me/qurssan

بلا أب، مثل كثيرين من النانتوكتيين. وسيمثل ضابط السفينة بالنسبة إليهم أربعتهم ما هو أكثر من مراقب عمل مُتطلب؛ قد يكون أول صورة أبوية سلطوية يعرفها هؤلاء الفتية.

ربما لم يحدث أن شرخ الإخلاص في العمل مجتمعاً إلى ذلك الحد الذي شرخ به مجتمع حوّاتي نانتوكت. إن علاقة الحوّات بأسرته كانت أقرب للعقاب منها للحياة؛ يخرج الحوّات في رحلات تصل لعامين اثنين أو ثلاثة، ثم يعود لبيته أربعة شهور. ومع غياب أزواجهن الذي يطول إلى هذا الحد، كانت نساء نانتوكت ملزمات ليس فقط بتربية الأطفال، ولكن بإدارة الكثير من شؤون الجزيرة. ويرجع جانب كبير من الفضل في إدارة شبكة العلاقات الشخصية والتجارية النانتوكتية المعقدة، إلى نساء الجزيرة. يصف العمل الكلاسيكي «خطابات من مزارع أمريكي»، الذي كتبه ج. هيكتور سانت جون دي كريفكور؛ إقامة كاتبه الطويلة في نانتوكت قبل اندلاع الثورة بسنوات. وهو يقول عن النساء هناك أنّهن: «راجحات العقل مدبرات للأمور... ممّا يؤهلهن لمكانة أعلى من بقية الزوجات».

لقد ساهمت الكويكرية في تقوية النساء. وبتركيز الدين على المساواة الروحية والعقلية بين الجنسين، نما سلوك ساهم في توسيع عيون أهل نانتوكت لرؤية حقيقة ما يحدث أمامهم كل يوم: وهو أن النساء اللواتي كن يتلقين في نانتوكت تعليماً أفضل مما يتلقاه الرجال، كن بمثل ذكاء وقدرة الرجال.

وقد حافظت نساء الجزيرة، بحكم الضرورة والاختيار، على حياة اجتماعية نشطة، فقد كنّ يتزاورن فيما بينهن باستمرار

t.me/qurssan

بحسب وصف كريفكور. هذه الزيارات كانت أكثر من مجرد تبادل للنميمة، كانت جلسات تُسيَّر فيها الكثير من أعمال الجزيرة ومعاملاتها. لاحقاً ستتذكر نسوية القرن التاسع عشر لوكريشا كوفين موت التي ولدت وتربت في نانتوكت، كيف كان يمشي الزوج العائد من رحلته البحرية مع زوجته، مصاحباً إياها في لقاءاتها مع بقية الزوجات. ستعلق لوكريشا بعد أن تنتقل إلى فيلادلفيا، كيف كان ذلك التصرف يثير حفيظة واستغراب أي شخص من أبناء البرّ الأمريكي الرئيسي، حيث ينفصل مجتمع كل جنس عن مجتمع الآخر تماماً.

بعض من نساء نانتوكت تكيّفن إلى حد كبير مع إيقاع (ثلاث سنوات في البحر، ثلاثة شهور في البيت) الذي يفرضه التحويت على البيت. كتبت ابنة الجزيرة.إليزا بروك في مذكراتها ما سمّته أغنية الفتاة النانتوكتية:

ثم أهرع للزواج من بحّار، أُرسله بعدها إلى البحر
فالحياة المستقلة هي الحياة بالنسبة لي
لكن من حين لآخر أحبّ أن أرى وجهه
الذي يشعّ بنور الرجولة
بجبينه العريض النبيل، وعينيه السوداوين الحنونتين
يكاد قلبي يقفز إلى حضنه عندما يقترب
لكن عندما يقول: «وداعاً يا حبي، أنا ذاهب للبحر»
أبكي لفراقه أولاً ثم أضحك، فقد استعدت حرّيتي

ما أنَ تتزوج المرأة النانتوكتية حتى تستقر على كتفيها عباءة القوة والمسؤولية. يقول كريفكور: «ما أن تنتهي مراسيم الزواج،

t.me/qurssan

حتى يتوقفن عن كونهن مرحات مبتهجات، دورهن الجديد في المجتمع يجعلهن ينخرطن في أفكار أكثر جدية مما تعودن عليه من قبل... تتبوأ الزوجة الجديدة بالتدريج موقع النصح والتوجيه في بيتها، وقريباً يخرج الزوج إلى البحر، ويتركها تتعلم وتمسك بمقاليد الأمور في الحكومة الجديدة التي تولتها».

لكريفكور مزعم لا يفتأ يثير غضب الأجيال اللاحقة من أبناء نانتوكت المخلصين وهو: إن الكثير من نساء الجزيرة عرفن إدمان الأفيون، «لسنوات عديدة تبنّين ذلك التقليد الآسيوي، تناول جرعة من الأفيون كل صباح، وقد تجذّرت تلك العادة لديهن حتى لم تعد الواحدة منهن تعرف كيف تعيش دون هذا الترف». ربما من المستحيل أن نعرف بدقة لماذا تناولن ذلك المخدر، نظراً لما بيننا وبينهن من زمن. لكن النظر إلى الصورة التي وصلتنا -مجتمع من المجتهدين يحاول أفراده التعايش مع وحدة ضاغطة- يجعل فهم لِم تناولت النساء الأفيون أمراً أيسر. كان المخدر موجوداً بوفرة على الجزيرة (كان جزءاً أساسياً في صندوق إسعافات كل حوّاتة)، ضع هذا بجوار ما هو معروف عن سعة حالة النانتوكتيين، يسهل بعدها فهم كيف كان تعاطيه منتشراً إلى هذه الدرجة في نانتوكت.

لا يوجد كثير من الشك في أن بناء الحميمية -الجسدية والعاطفية- بين الزوجة والزوج لا بد أنه كان أمراً عسيراً، تحت تأثير الضغط الذي تشكله الشهور القليلة المتاحة لهما بين الرحلات. تدعي بعض روايات الجزيرة الموروثة أن النساء تعايشن مع غياب أزواجهن الطويل باللجوء إلى مساعدات

جنسية معروفة باسم «هو-لا-يزال-في-البيت». رغم أن هذه المزاعم، مثل تلك عن تعاطي المخدر، تتعارض مع السمعة الكويكرية الرزينة للجزيرة، إلا أنه في عام 1979 وُجد مُخبأ بمدفأة بيت يقع في المنطقة التاريخية من الجزيرة، قضيبٌ ذكري من الجبس طوله ست بوصات (مع مجموعة من الخطابات تعود للقرن التاسع عشر وزجاجة من صبغة الأفيون). كما أن كونهن زوجات خارقات لا يعني أن نساء الجزيرة كن بلا رغبات جسدية طبيعية. فمثلهن مثل أزواجهن، كانت نساء نانتوكت كسائر البشر الطبيعيين يحاولن التكيف مع وضع حياة استثنائي.

ربما استمتع توماس نيكرسون بلحظاته الأولى على سطح الإسّكس، مستكشفاً دواخلها المظلمة الحارة، لكن الحماس الأولي سرعان ما تلاشى. فطوال الأسابيع الثلاثة القادمة، خلال أسخن صيف مرّ به من عاشه، سيعمل نيكرسون وباقي طاقم الإسّكس الذي يتراكم بالتدريج في تحضير السفينة. كانت تغطي أرصفة ميناء نانتوكت، حتى في الشتاء، طبقة من الرمل المنقوع في الزيت ذات رائحة نتنة، لدرجة أن الناس قالوا إن لم ترَ نانتوكت بعدما تعبر منارة (برانت بوينت)، ستشمّها. ولا بد أن رائحة الأرصفة في شهري يوليو وأغسطس من ذلك العام كانت عفنة لدرجة تجعل حتى الحوّات القديم يتهوّع.

في ذلك الوقت، كان من المعتاد جعل أعضاء الطاقم الجدد يساعدون في تجهيز سفينة التحويت للرحلة القادمة. لم يكن يُتوقع من البحّار في أي مكان آخر في نيو إنغلند أن يساعد في شدّ الحبال وتخزين المؤن على سفينته. تلك كانت أدوار مجهّزي

t.me/qurssan

السفن وعمال الشحن والمموّنين. لكن في نانتوكت، حيث اشتهر التجار الكويكريون بقدرتهم على تخفيض النفقات وزيادة الأرباح، اختلفت الأعراف السائدة.

لم يكن عمل الحوّاتين مقابل راتب، إنما مقابل حصة أو نصيب مُتفق عليه مسبقاً من الحصيلة النهائية بعد تمام الرحلة. يعني هذا أن كل ما يقدر مالكو السفينة على جعل البحارة يفعلونه قبل الرحلة كان بلا مقابل، أو حسب تعبير نيكرسون «تبرع بالعمل» من ناحية البحّار. قد يعطي صاحب السفينة دفعة مقدمة للبحار لمساعدته في شراء الملابس والمعدات التي يحتاجها لرحلته، لكنها دفعة تُستقطع -مع الفائدة- من نسبته بعد الرحلة.

نسبة توماس نيكرسون كصبي مقصورة كانت «طويلة» جداً (أو هزيلة)[1]. رغم أن أوراق رحلة الإسّكس عام 1819 قد ضاعت، إلا أننا نعلم أن سَلَف نيكرسون في الوظيفة ذاتها، (جوزيف أندروود) القادم من سايلم، تلقى نسبة 198/1 من عوائد الرحلة السابقة. إذا كانت حمولة الإسّكس (1200 برميل من زيت العنبر) تُباع بسعر 26,500 دولار، وبعد خصم مصاريف الرحلة من العائد الكلي، وخصم مصاريف أندروود الشخصية من نسبته، حصل أندروود على 150 دولاراً مقابل عامين من

(1) صفة الطول هنا نابعة من طول الرقم في مقام النسبة، حيث أن 2/1 أكثر من 200/1 وأكثر من 2000/1، فكلما كانت النسبة أطول يعني أنها أقل. [المترجم]

t.me/qurssan

العمل. ورغم أن هذا كان أجراً بائساً، فقد نال فتى المقصورة سكناً وإعاشة لمدة عامين، وصارت لديه خبرة كافية ليبدأ مشواره المهني كحوّات.

مع نهاية يوليو، كانت أجزاء الإسكس العلوية -كل ما هو في مستوى سطح السفينة وما فوقه- قد أُعيد بناؤها بالكامل، ممّا شمل رصف السطح بطبقة جديدة من خشب الصنوبر وبناء مطبخ جديد. وفي مرحلة ما -على الأرجح قبل انضمام نيكرسون للطاقم- كانت الإسّكس مطروحة على جانبها للتحيس، إذ تُنصب بين صواري السفينة والأرصفة أنظمة مرفاع ببكرة هائلة لوضع السفينة على جانبها، عندها يغلَّف القاع المكشوف بالنحاس لحماية السفينة من العوالق البحرية القادرة على تحويل خشب القاع، ذي البوصات الأربع سُمكاً، إلى قشرة مسامية ناعمة.

في العشرين من عمرها، وصلت الإسّكس إلى نقطة تبدأ عندها أعراض تدهور بنيوي خطيرة في الظهور على معظم السفن. زيت الحوت يلعب هنا دور المادة الحافظة الطبيعية، مانحاً الكثير من سفن التحويت عمراً أطول من أعمار السفن التجارية العادية. لكن كل شيء له حدود. فهناك العفن، ودود السفن، وحالة تُدعى بداء الحديد، تتسبب عندها المفاصل الحديدية الصدئة في إضعاف ألواح البلوط، وغيرها من المشكلات المحتملة بعد كل هذا العمر من العمل الشاق.

والرحلات الطويلة حول كيب هون كانت مشكلة أخرى. سيكتب أويد مايسي في مذكراته: «إن قضاء السفن وقتاً طويلاً

t.me/qurssan

في البحر دون إصلاحات، يُقصِّر من عمر السفن لسنوات عديدة». وقد خضعت الإسّكس بالفعل لعدة أيام من الإصلاحات في أمريكا الجنوبية خلال رحلتها السابقة. إنها سفينة قديمة علقت في حقبة جديدة من التحويت، ولا يوجد من إلى متى ستتحمل.

دائماً ما يكون المُلاك مترددين في استثمار أموالهم في إصلاح سفينة أكثر مما تتطلبه الضرورة القصوى. بينما لم يكن لديهم خيار آخر سوى إعادة بناء الجزء العلوي من الإسّكس، ربما كانت هناك بعض الأجزاء المشكوك في أمرها تحت خط الماء، التي قرروا التعامل معها لاحقاً، هذا إن لم يكونوا قد تجاهلوها تماماً. في ذلك الصيف، كان مُلّاك الإسّكس الأساسيون، جيدوين فولجر وأبناؤه، في انتظار استلام سفينة تحويت جديدة أكبر بكثير: الأورورا. بالتالي لم تكن تلك السنة التي يفضلون فيها إنفاق مبالغ طائلة على سفينة قديمة مثل الإسّكس.

بوسع مُلاك السفن النانتوكتيين أن يكونوا بنفس وحشية الحوّاتين دون اللجوء إلى سفك الدماء. ربما كانوا «كويكريين» مهذبين، لكن هذا لم يمنعهم من مطاردة الأرباح بحمية ماحقة.

في رواية موبي دِك كان بيلداد، أحد أصحاب البيكود، كويكرياً ورعاً، لم يمنعه وازعه الديني من عرض حصص ضئيلة جداً على أفراد الطاقم (عرض على إسماعيل[1] نصيب 1/777).

---

(1) (إسماعيل Ishmael) بطل رواية موبي دِك وراويها. [المترجم]

t.me/qurssan

يمثل بيلداد نسخة كويكرية هزيلة من جون د. روكفلر. حاملاً الإنجيل في يد ودفتر الحسابات في الأخرى، لا يتوجه إلا إلى حيث توجد إمكانية لتحقيق أرباح أكثر من وراء رحلة تحويت.

يدعي بعض الملاحظين أن الكويكرية بدلاً من أن تقود أهل الجزيرة إلى النماء والبركة، كانت المصدر الحقيقي للشرور التي ازدهرت بين مُلاك السفن النانتوكتية. يقول ويليام كومستوك في ما سجله من أخبار سفن التحويت النانتوكتية في عشرينيات القرن التاسع عشر: «مع الأسف، لا يجد غضب الكويكريين منفذاً للتنفيس عنه بأفعال خارجية يُحرّمها دينهم، فيكمن في القلب ويفسده. وبينما يتخذون من الحب والنوايا الطيبة شعاراً لأعمالهم، تُسمّم مشاعر الحقد والضغينة كل فعل إنساني كريم وطيب يشرعون فيه».

كان جيدوين فولجر وبول مايسي اثنين من أصحاب الأسهم الرئيسيين في الإسّكس، وعضوين بارزين في مجتمع الصفوة الكويكري على الجزيرة. لكن طبقاً لنيكرسون، فإن مايسي كان المسؤول عن تجهيز الإسّكس في صيف 1819. كانت محاولته لتقليل النفقات بالتقطير في المؤن إلى أقل درجة. وذلك لم يكن فعلاً نادراً؛ كتب كومستوك: «كثيراً ما أهمل مالكو سفن التحويت تموين سفنهم كما ينبغي، معتمدين على القبطان في التقتير على طاقمه بالطريقة التي يراها مناسبة. وهم بهذه الطريقة يوفّرون بضعة دولارات تزيدهم ثراءً، بينما يتضوّر البحارة جوعاً». قد يكون من الظلم تحميل بول مايسي مسؤولية النهاية الحزينة التي صار إليها الإسّكس ورجالها، لكن الخطوة الأولى في ذلك

t.me/qurssan

الطريق الحزين كانت قرار مايسي بالتوفير في اللحم والبسكويت.

في بدايات القرن التاسع عشر، لم يستثمر أهالي نانتوكت أموالهم في السندات أو البورصة، بل في سفن التحويت. بشراء أسهم في العديد من السفن بدلاً من استثمار الأموال كلها في سفينة واحدة، تعمّ عواقب الاستثمار على الجميع، طيبة كانت أو غير ذلك. هكذا كان يتوقع المستثمرون أمثال مايسي وفولجر عوائد كلية من التحويت تتراوح بين 28٪ و44٪ كل عام.

إن ما يجعل هذا المستوى من الربحية أكثر إثارة للدهشة، هو حال الاقتصاد العالمي في عام 1819. فبينما كانت سفن الأسطول النانتوكتي تزيد باستمرار، كان اقتصاد البرّ الرئيسي ينهار بالجملة. قالت صحيفة محلية في بالتيمور ربيع ذلك العام: «أيام ثرائنا الوهمي قد ولّت»، واصفة حال الاقتصاد وقتها بأنه «ديون غير مسددة، مساكن مهجورة، شوارع خاملة، تجارة متدهورة، وخزائن مستنفدة». لكن نانتوكت ظلت استثناء مذهلاً. فمثلما سمحت لها جغرافيتها المنعزلة بالاستمتاع بطقس تيار الخليج الدافئ لأطول فترة في العام، مانحة إياها موسم زراعة أطول بكثير؛ سمح لها اقتصادها المختلف -على الأقل في ذلك الوقت- بأن تكون واحة من الازدهار في الصحراء الاقتصادية المحيطة.

بين الرابع والثالث والعشرين من يوليو، انطلقت من الجزيرة عشر سفن تحويت في أزواج. كانت الأرصفة مشتعلة طوال الوقت بالعمال المنهمكين في العمل على تجهيز سفنهم للخروج

إلى البحر. لكن جيدوين فولجر وبول مايسي وقبطان الإسكس جورج بولارد، أدركوا جيداً أن كل التجهيزات لا قيمة لها إن لم يستكملوا طاقم السفينة الذي يجب أن يبلغ قوامه واحداً وعشرين رجلاً.

ولأن العمالة النانتوكتية غير متوفرة بما يكفي، فقد اعتمد أصحاب السفن على الغرباء عن الجزيرة، الذين لا يملكون خبرات بحرية سابقة، وقد عُرف أولئك بلقب خُضر الأيادي. يأتي غالبية خضر الأيادي من كيب كود بحكم قربها، ويوفر الوكلاء البحريون في المدن المتناثرة على الساحل الشرقي من القارة لأصحاب السفن كثيراً منهم أيضاً، عادة ما كانوا يرسلونهم إلى نانتوكت في مجموعات على متن سُفن البريد والشحن المحلي.

نادراً ما يكون انطباع خضر الأيادي الأول عن الجزيرة إيجابياً. فما أن يرى الصبية على الواجهة البحرية القادمين الجدد، حتى يصيحون: «يا أخضر اليد، تعال لأزيّتك». يتبع ذلك مسيرٌ طويلة من رصيف الميناء إلى قاعدة الشارع الرئيسي، حيث تُباع الملابس والسلع المختلفة في ما يطلق عليه «منتجع ومحل لقاءات البحارة الكبير». هنا يتسكع الرجال الباحثون عن سرير لهم على سفينة، أو من يرغبون في تمضية وقت بقائهم في نانتوكت بين غيوم أدخنة التبغ مسترخين على المقاعد والصناديق الخشبية.

علىَ هذه الجزيرة التي تعجّ بالنشاط، يُتوقع من الملاحين الباحثين عن وظيفةٍ ممارسة البري في الخشب بالسكين. إن

t.me/qurssan

طريقـة اسـتـخـدام الرجل لسكينه في البـري هي طريقـتـه في الإعراب عن الوظيفة التي يبحث عنها. فإن الحوّات الذي مرّ برحلة كـاملة على الأقل، يبـري بالسكين مـوجّهـاً إياه بعيـداً عنه، هذه إشـارة تعني أنه يبحث عن مقعد موجّه قـارب. أما موجّهو القـوارب، فـإنهم يبـرون بالسكين في الاتجـاه المعـاكس، أي نحـو أنفسهم، ما يعني أنهم جاهزون للقيام بدور ضابط السفينة. أما خضـر الأيادي، الذين لا يعرفون بعد الشيفـرات النانتوكتيـة، فهم يبرون بالطريقة التي يرونها مناسبة.

يشعر كثير من خضر الأيادي وكأنهم صاروا في بلد أجنبية يتحدث أهلها لغة غريبة. فقد استخدم النانتوكتيون كلهم، بما فيهم النساء والأطفال، المصطلحات البحرية في كلامهم، وكأنهم كلهم بحـارة مخـضـرمـون. يقـول أحـد زوار المدينة: «كل طفل هنا بوسـعـه أن يخبـرك باتجـاه هبـوب الريح، وأية امـرأة عـجـوز في الشارع تتحدث بألفاظ وتعبيرات بحرية، كأن تقول: الإبحار هنا وهناك، وتحية بحّار رفيق قديم، والرسو معه، مثلها مثل ربان حوّاتة جاء لتوه من الساحل الغربي فيصف الأبعاد لمالك أرض باسـتـعـمـال طول ذراع صـاري المقـدمـة أو طول مَرس السـاري الأساسي في سفينته». بالنسبة لخضر الأيادي الذي كان لقاء أغلبهم الأول بالبحر في سفينة البريد التي جاؤوا عليها، كل ذلك لم يكن إلا حـديثـاً ضـبـابيـاً غـامـضـاً، خـاصـة وأن كـثـيـراً من الكويكريين يسـتـخـدمـون الضـمـائر (thee وthou) بدلاً من (you وyour) العادية.

كانت لهجـة النانتوكتيين مـربكة ومركّبة. فكثير من كلماتهم

t.me/qurssan

كان لها نُطق غريب، يختلف بشدة حتى عن نطق أقرب جيرانهم في كيب كود وجزيرة (مارثاز فينيارد). يستخلص الحوّات من الحوت (الزيت ile) وليس (oil)، ويحفظ ملابسه في (صندوق chist) وليس (chest)، وعليه أن يحافظ على نصل حربونه (حاداً shurp) وليس (sharp). خاصة عندما (يهاجم atteking) وليس (attcking) حوتاً (ضخماً lirge) وليس (larg). ينام (القبطان keppin) وليس (captain) في (قمرة kebbin) وليس (cabin)، ونادراً ما يكون رجلاً (متزوجاً merrid) وليس (married)، أما (الضابط met) وليس (mate) عليه أن يحتفظ بسجل لكل أحداث (الرحلة viege) وليس (voyage).

ثم كان لديهم أيضاً كثير من التعبيرات الغريبة. فإن فشل النانتوكتي في مهمة ما، فهذا (foopaw)، وهو ما يبدو تحريفاً للتعبير الفرنسي (زلة faux pas) الذي يعود لحقبة ما بعد الثورة، عندما عمل النانتوكتيون بالتحويت في مدينة دانكرك الفرنسية. لا يخرج النانتوكتي ببساطة للتمشّي بعد ظهر يوم الأحد، إنما هو يمارس (rantum scoot)، أي نزهة بلا وجهة محددة. تُعرف الأطعمة الفاخرة هناك باسم (manavelins). أما الشخص أحول العينين، فهو «قد ولد في منتصف الأسبوع، عن يوم الأحد في كلا الاتجاهين».

يمرّ أخضر اليد بنوع من الامتحان، من قبل مالك السفينة وقبطانها. يروي أحدهم: «باختصار، استجوبوا كل منا عما يخص محَل ميلاده ووظيفته السابقة، وفُحِصت هيئاتنا وأجسادنا، خاصة العيون؛ فالرجل حاد النظر كان جوهرة في

t.me/qurssan

نظر قبطان التحويت المتمرس». كان بعض من خضر الأيادي قليلي التعليم وبالغي السذاجة، إلى حد أنهم أصروا على الحصول على أطول نسبة ممكنة، معتقدين أن كلما زاد الرقم في المقام كلما ارتفع نصيبهم، وبالطبع، فقد كان أصحاب السفن كرماء إلى حدٍّ امتناعهم من ردّ طلب هؤلاء.

لقد تنافس قباطنة التحويت في الحصول على البحارة. لكن، مثلما هو الحال في كل الأمور النانتوكتية، كانت هناك قواعد صارمة على الكل أن ينصاع لها. وبما أن القباطنة الجدد كان عليهم أن يتراجعوا أمام البقية جميعاً، فكل ما أُتيح للربان بولارد كان ضمّ أولئك الذين لم تكن للآخرين رغبة فيهم. وهكذا انتهى يونيو ولا يزال طاقم سفينته يفتقر إلى نصف دزينة من الرجال.

في الرابع من أغسطس، توقف أوبيد مايسي عند شركة التأمين البحرية في تقاطع الشارع الرئيسي مع الشارع الفيدرالي، لينظر إلى ميزان الحرارة المثبّت على سطح الشركة الخشبي المائل. فسجل في مذكراته: «93 فهرنهايت [33.9 سيليزية]، ولا توجد رياح تقريباً، ما يجعل التعرض لأشعة الشمس أمراً غير محتمل».

في اليوم التالي: الخامس من أغسطس، خرجت الإسكس، وقد اكتمل تجهيزها، من حاجز الميناء إلى المياه العميقة. حان الآن وقت عملية التحميل، يمكنك أن ترى هنا سلسلة من القوارب الصغيرة أو الصنادل، تنقل البضائع والمتاع من الرصيف إلى السفينة. أول ما يُخزن في السفينة هي طبقة

t.me/qurssan

البراميل السفلية؛ حاويات ضخمة مطوقة بالحديد يتسع كل منها لتخزين 268 غالوناً من زيت الحوت. تُملأ الحاويات بمياه البحر للحفاظ عليها منتفخة ومشدودة. تُرصّ فوقها براميل مختلفة الأحجام مليئة بالمياه العذبة. يحتلّ حطب النار مساحة كبيرة من فراغ التخزين، وتحتل مساحة مماثلة آلافٌ من ضلوع البراميل التي سيستخدمها صانع براميل السفينة في صنع المزيد منها للزيت. فوق كل هذا تقع براميل الغذاء التي تكفي لمدة عامين ونصف. ولو كان الرجال سيأكلون بقدر ما يأكله بحارة السفن التجارية (والذي كان غالباً أكثر بكثير مما كان في حالة حوّاتي نانتوكت) فلا بدّ ان الإسكس حملت على الأقل أربعة عشر طناً من اللحوم (لحوم خنزير وبقر مملحة)، وأكثر من ثمانية أطنان من الخبز، وآلاف الغالونات من المياه العذبة. وكانت هناك أيضاً كميات هائلة من أدوات التحويت (حرابين وحراب... إلخ)، وملابس وخرائط وأشرعة (على الأقل طقم أشرعة احتياطي واحد) وأدوات ملاحة وأدوية وخمور الروم والجن وما إلى ذلك. بالإضافة إلى ثلاثة قوارب تحويت مطلية حديثاً معلقة على أذرع السفينة الخارجية، كان هناك قاربان احتياطيان على الأقل؛ واحد مُخزّن بالمقلوب في الربع الخلفي من السطح، والآخر مثبت على قوائم احتياطية في مؤخرة السفينة.

مع انتهاء تحميل الإسكس بعد ستة أيام -لم ينقطع العمل إلا بسبب مطر عنيف لفترة وجيزة سجل أوبيد مايسي حدوثه في التاسع من اغسطس- صارت الإسكس كاملة الحمولة مثلما

t.me/qurssan

يجب أن تكون عليه عند عودتها محملة بزيت الحوت إلى نانتوكت. يفسر هذا أحد سكان الجزيرة بالقول: «إن استهلاك المؤن التدريجي أثناء الرحلة، يحدث بالتوازي مع تراكم زيت التحويت... هكذا تكون سفينة التحويت كاملة الحمولة أو شبه كاملة طوال مدة الرحلة».

ولكن لا يزال هناك أمر غير مكتمل: فما زالت السفينة بحاجة إلى سبعة رجال لملء الأسرّة الشاغرة في عنبر البحارة. في مرحلة ما، أرسل جيدوين فولجر لأحد الوكلاء في بوسطن، طالباً منه أيّ عدد من البحارة السود يستطيع توفيره.

***

رغم أنه لم يكن أسود البشرة، إلا أن (أديسون برات) جاء إلى نانتوكت في ظروف مشابهة لتلك التي أحضرت سبعة من الإفريقيين الأمريكان للجزيرة للعمل على الإسكس. في 1820، وجد برات نفسه في (بوسطن) يبحث عن سفينة:

«شرعتُ في البحث عن رحلة، لكن في تلك الأيام كانت التجارة خاملة وأجور الملاحين لم تتجاوز العشرة دولارات في الشهر، وكان هناك ملاحون أكثر مما تحتاجه السفن في المرفأ، وادركت أن تلك ليست أياماً مناسبة لخضر الأيادي. لكن بعد البحث لبضعة أيام، سمعت أن هناك سفن تحويت تطلب أيادي عاملة لرحلاتها في المحيط الهادئ. لم أتردد، وأسرعت للمكتب لأسجل اسمي. وتلقيت اثني عشر دولاراً كدفعة مقدمة، أنفقتها كلّها على شراء ملابس إبحار جديدة... وجدتُ نفسي في

t.me/qurssan

السفينة ذاتها مع ستّ أيادٍ عاملة أخرى، وأرسلونا جميعاً مع البريد إلى نانتوكت».

تقترح حكاية برات أن رحلات التحويت كانت أدنى درجة في عالم الملاحة البحرية. فقد ينظر النانتوكتيون أمثال توماس نيكرسون وأصدقائه لرحلتهم الأولى على أنها خطوة أولى ضرورية في الطريق إلى مهنة مريحة وطويلة. لكن بالنسبة للرجال الذين يُحضِرهم الوكلاء من مدن مثل بوسطن، فتلك كانت قصة أخرى؛ لا يعتبرون رحلات التحويت بداية طريق مهم، وإنما ملاذاً أخيراً ويائساً.

كان البحارة ذوو البشرة السوداء الذين وافقوا على الخروج في رحلة الإسّكس هم: صمويل ريد، ريتشارد بيترسون، تشارلز شورتر، لاوسون توماس، إزاياه شيبارد، هنري دي ويت، ويليام بوند. خيارات هؤلاء كانت أضيق حتى من خيارات أديسون برات في 1820. لا أثر لاسم أي منهم في سجلات بوسطن أو نيويورك في هذه الفترة، وهو ما يعني أنهم لم يكونوا أصحاب عقارات. سواء كانت بوسطن بيتاً لهم أم لم تكن، لا بدّ أن أغلبهم قضى عدة ليال في الفنادق المطلة على البحر في النهاية الشمالية للمدينة؛ أماكن ذات سمعة غير ناصعة، يتجمع فيها البحارة المتجولون، سود البشرة أو بيضها، باحثين عن سرير على سفينة.

عندما ركبوا سفينة البريد إلى نانتوكت، عرف البحارة ذوو الأصول الإفريقية شيئاً واحداً على الأقل: ربما أنهم لن يتلقوا أجراً جيداً مقابل الوقت الذي سيقضونه على متن سفينة

t.me/qurssan

التحويت النانتوكتية، إلا أن أجرهم لن يقل عن راتب بحار أبيض بنفس الخبرات. فمنذ أن كان الأمريكيون الأصليون يشكلون أغلبية الأيدي العاملة في نانتوكت، دفع مُلّاك السفن النانتوكتية للرجال حسب مراكزهم لا حسب ألوانهم. يعود هذا جزئياً للميول الكويكرية المضادة للعبودية، لكن كثيراً منه يعود أيضاً للحياة الخشنة على ظهر السفن. في المواقف الصعبة، لا يأبه القبطان إن كان البحار أبيض اللون أم أسود، يهتمّ فقط بمعرفة أيّ من رجاله يستطيع الاعتماد عليه في المهام المختلفة بقلب مطمئن.

لكن مع ذلك، فلم يتلقّ البحارة السود الذين يصلون الجزيرة كخضر أياد معاملة مساوية للنانتوكتيين قط. ففي عام 1807، روى زائر للجزيرة التالي:

«بعد اختفاء الهنود، حلّ الزنوج محلهم. البحارة الملونون مطيعون أكثر من البيض، لكنهم مدمنون على الهرج، فعندما يحين موعد الإبحار، يصعب إقناعهم بركوب السفينة، وبعد الوصول، يصعب إبقاؤهم عليها. ورغم أن الزنوج أكثر انصياعاً من الهنود، إلا أنهم أقل ذكاءً منهم. ولا يوجد منهم من يتبوأ مقعد موجّه قارب أو ضابط».

لم تجلب الأخلاقُ الرفيعة وحبُّ الخير البحارةَ السود للجزيرة الكويكرية، وإنما احتياج صناعة التحويت النهم والاستغلالي للعمالة. كتب ويليام كومستوك، الذي كان لديه الكثير ليقوله عن شرور مُلّاك السفن الكويكريين: «يُعامل المسؤولون في السفينة الأفارقةَ كالبهائم. إن وقعت تلك

t.me/qurssan

الصفحات بين يدي أي من إخوتي الملونين، دعوني أنصحكم بالهروب من نانتوكت كما لو أنها الدوامات النرويجية[1]». حتى نيكرسون اعترف أن قباطنة التحويت النانتوكتيين كان يُقال عنهم أنهم «حُداة الزنوج». وكثير من النانتوكتيين أطلقوا على المركب التي تحضر لهم شحنات خضر الأيادي من نيويورك على لقب النخّاسة.

مع حلول مساء الأربعاء الحادي عشر من أغسطس، كان الجميع، عدا الربان بولارد، على متن الإسكس. إلى جوارها، خارج حاجز ميناء المدينة، رست حوّاتة أخرى: تشيلي، بقيادة القبطان أبسالوم كوفين. كان من المفترض أن تغادر تشيلي في اليوم التالي. تلك كانت فرصة لما يسميه الحوّاتون (gam): تبادل الزيارات بين طاقمي السفينتين، دون تدخل من القباطنة لكبح احتفالاتهم الصاخبة. وبوجود حاجز الميناء بينهم وبين المدينة، فهم ربما استغلوا تلك الفرصة لقضاء وقت مرح قبل انغماسهم الاضطراري في حياة السفينة المنضبطة.

في لحظة ما من ذلك المساء، عاد نيكرسون إلى عنبره، ورقد فوق المرتبة المحشية بقشور الذرة المتعفنة. وبينما كان يغط في النوم داخل السفينة المتمايلة برفق، لا بدّ أنه شعر بما وصفه حوّات يافع ذات مرة «فخرٌ كبير ببيتي العائم».

---

(1) الدوامات النرويجية Norway Maelstrom: دوامات بحرية في بحر النرويج، تُعد من أخطر الدوامات في العالم، اعتبرتها الأساطير القديمة مكاناً لتجمع الوحوش البحرية العملاقة. [المترجم]

t.me/qurssan

إنّه في الغالب لم يكن يعلم في تلك الليلة بآخر ما تتبادله الألسنة النمامة عن الأحداث الغريبة في أراضي المدينة. فقد ظهرت فجأة في حقول اللفت أسراب من الجراد. كتب أوبيد مايسي: «غطى الجراد سطح الأرض بالكامل. لا يوجد على قيد الحياة من رآها من قبل بهذا العدد الهائل». مذنّب سماوي في يوليو والآن غزو جراد؟

سيتضح لاحقاً أن أياً من السفينتين الراسيتين قبالة حاجز ميناء نانتوكت في ليلة الحادي عشر من أغسطس عام 1819، لن تنال نهاية سعيدة لرحلتها. لن تعود تشيلي إلا بعد ثلاثة أعوام ونصف، محملة فقط بخمس مئة برميل من زيت العنبر، ربع الكمية التي تحتاجها لملء خزانات سفينة بحجمها. بالنسبة لكابتن كوفين ورجاله: تلك كانت رحلة كارثية.

لكن لا شيء يمكن مقارنته بما كان القدر يخبّئه للواحد والعشرين رجلاً على متن الإسّكس.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثاني
وقوع

في الخميس، الثاني عشر من أغسطس 1819، حضر القبطان جورج بولارد الابن إلى الإسّكس في قارب تابع للميناء. في الثامنة والعشرين من عمره، قبطان للمرة الأولى، كان بولارد شاباً، ولكن ليس إلى درجة تثير الدهشة. قضى بولارد من سنواته الأربع السابقة ثلاث سنوات وخمسة أشهر على متن الإسّكس، كضابط ثان ثم كضابط أول. وباستثناء دانييل راسل قبطان الإسّكس السابق، لا يوجد من يعرف هذه السفينة خيراً من جورج بولارد.

حمل بولارد معه خطاباً من مُلاّك الإسّكس يبلغون فيه القبطان الجديد، بلغة موجزة ومباشرة، ما يتوقعون منه بالضبط. كان سلَفه القبطان دانييل راسل قد تلقى خطاباً شبيهاً قبل رحلة سابقة، جاء فيه:

الصديق المحترم:

بما أنك الآن ربان سفينة إسّكس الراسية خلف حاجز الميناء، أوامرنا هي: عليك أن تخرج إلى البحر مع أول هبة ريح مناسبة، وأن تتابع طريقك إلى المحيط الهادئ، وتسعى لحصد حمولة من زيت العنبر، وعندما يتم هذا، عليك أن تعود فوراً إلى

t.me/qurssan

مكاننا هذا. يُمنع منعاً باتاً الانخراط في تجارة غير مشروعة. ممنوع عليك أو على أي شخص ينتمي لسفينة الإسكس أن يقوم بأي نوع من التجارة، إلا لو كانت ضرورية للحفاظ على سفينة الإسكس أو طاقمها. نتمنى لك رحلة قصيرة مثمرة، وقسطاً وافراً من السعادة.

بالنيابة عن مالكي الإسّكس

جيدوين فولجر، بول مايسي

شعر بولارد بثقل الحمل الذي وضعه أصحاب السفينة على عاتقه. ولم يكن ذلك كل ما فكر فيه، وإنما أيضاً في ما تركه خلفه. فقبل شهرين من الآن، تزوج من (ماري ريدل) ذات التسع عشرة سنة في الكنيسة الأبرشانية الثانية حيث يخدم والدها، التاجر وصانع الحبال ميسور الحال، كشماس.

وفيما كان القبطان يتسلق جانب الإسّكس، ثم يتخذ طريقه للخلف حيث الربع الأخير منها، علم بولارد أن المدينة كلها تراقبه ورجاله الآن. كانت السفن طوال شهور الصيف تغادر الميناء، أحياناً ما تخرج أربع أو خمس سفن في الأسبوع الواحد. لكن مع مغادرة إسكس وتشيلي، ستهدأ الحركة لشهر أو أكثر قبل أن تغادر سفينة تحويت أخرى، هذه مدة طويلة بالنسبة لسكان نانتوكت الذين يعدّون حركة السفن التسلية الوحيدة في حياتهم الروتينية.

إن مغادرة الجزيرة على متن حوّاتة كان أمراً صعباً، خاصة وأن معظم رجال الطاقم لا يملكون أدنى فكرة عما يفعلون. تخبُّط خضَر الأيادي حول سطح السفينة أو التصاقهم بالصواري في ارتباك وخوف بهذا الشكل، قد يؤدي لإحراج أي قبطان

t.me/qurssan

بدرجة كبيرة. الأمر برمته يحدث على مرأى من الملاحين القدامى، وأيضاً بالطبع، أصحاب السفينة، الذين يشاهدون ويحكمون من موقعهم في ظلال طواحين الرياح على قمة التل الكبير.

لا بدّ أن القبطان جورج بولارد ألقى نظرة أخيرة متوترة على المدينة، بينما يعطي أوامره برفع المرساة.

كانت سفن التحويت، حتى الصغيرة منها القديمة، دقيقة ومعقدة. للإسّكس ثلاثة صواري، وصار أمامي مائل. ثُبّت على كل صار عدد من العوارض الأفقية، عليها تُربط الأشرعة المستطيلة. كان هناك من الأمراس [حبال السفينة] لتثبيت العوارض أو للتحكم في الأشرعة ما يزيد عن العشرين. من منظور أخضر اليد الواقف على سطح السفينة، بدت الإسّكس كشبكة عنكبوت هائلة.

كانت فكرة أن لكل حبل اسم، أكثر من مضحكة لأخضر اليد. كيف يستطيع أي إنسان، حتى بعد ثلاث سنوات من الإبحار، الادعاء أنه يعرف أي منها يذهب إلى أين وماذا يفعل ماذا؟ بالنسبة لصغار النانتوكتيين مثل نيكرسون وأصدقائه، كان ذلك أمراً محطماً للأعصاب، خاصة وأنهم بدأوا مغامرتهم معتقدين أنهم يعرفون أكثر مما اتضح أنهم يفعلون. يروي نيكرسون: «وقع أفراد الطاقم فريسة للهرج والارتباك والخرق. ضباط السفينة كانوا بلا شك رجالاً أذكياء ونشطين... ولا ريب أنهم انزعجوا من استعراض الحماقة الحادث رغماً عنهم أمام عيون سكان المدينة».

t.me/qurssan

وبما أن العادة جرت على أن يظل القبطان واقفاً في الربع الخلفي أثناء الإقلاع، فقد تابع بولارد المشهد الأخرق من مكانه عاجزاً عن التدخل. أما الضابط الأول أوين تشايس، فكان في الجزء الأمامي من سطح السفينة، يحاول بأقصى طاقته فرض شيء من النظام على كل هذه الفوضى. كان واجبه هو تنفيذ أوامر بولارد، فكان يصيح في الرجال حيناً ويلاطفهم حيناً آخر، وكأن كل لحظة تردّد منهم أو خطأ يبدرُ عنهم إهانة شخصية له.

كان بولارد وتشايس معاً على متن الإسّكس منذ العام 1815، عندما انضم لها تشايس كبحار عادي في الثامنة عشرة من عمره لأول مرة. ترقى تشايس بسرعة، وفي الرحلة التالية صار موجّه قارب، لكنه الآن وفي الثانية والعشرين من عمره، صار ضابطاً أول (كان ماثيو جوي ضابط السفينة الثاني أكبر من تشايس بأربعة أعوام). ولو مضت هذه الرحلة على ما يرام، فستكون لدى تشايس فرصة طيبة في أن يصبح قبطاناً قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين.

بالنسبة لمقاييس أوائل القرن التاسع عشر، يُعتبر تشايس رجلاً طويلاً، إذ بلغ طوله خمسة أقدام وعشر بوصات [1,77متر]؛ أطول بكثير من القبطان بولارد الذي كان رجلاً ضئيلاً يميل للبدانة. وفيما كان والد بولارد قبطاناً مثله، كان والد تشايس مزارعاً. ولربما لأنه كان ابن مزارع في جزيرة تدّخر المجد كله لمرتادي البحر، فقد امتلأ تشايس بطموح يفوق المعتاد، وهو مع بداية رحلته الثالثة، لم يحاول إخفاء تلهفه ليصير قبطاناً. سيكتب لاحقاً: «لا يحتاج الرجل الذكي النشيط إلى أكثر

t.me/qurssan

من رحلتين ليتأهّل كفاية لموقع القيادة. فخلالهما يتعلم، عبر الخبرة وعبر الأمثلة التي يقابلها، كل ما يحتاج لتعلمه». كان أصغر من القبطان بخمس سنوات، لكنه شعر أنه امتلك مفاتيح كل ما يحتاجه لأن يقوم بوظيفة بولارد. كما أن سلوك الضابط الأول الواثق إلى حد الغرور، جعل من الصعب على بولارد أن يفرض طريقته في القيادة، وهو القبطان الجديد الذي يبزغ لأول مرة من تحت عباءة سلفه ذي الصحيفة المليئة بالإنجازات.

وبينما كان أفراد الطاقم يجمعون الحبال والأمراس تجهيزاً لرفع المرساة، تأكد تشايس أن كل ما على السطح آمنٌ ومحكم. ثم أمر رجاله بالاتجاه إلى الملفاف؛ الذي يتكون من أسطوانة خشبية طويلة مثبتة أفقياً فيها صفّان من الفتحات في كل ناحية. يُقدم الملفاف الموضوع أمام فتحة القلعة الأمامية، القوّة الميكانيكية المطلوبة لعمليات رفع الأثقال على سطح السفينة. تمركز ثمانية رجال على ناحيتي الملفاف أربعة في المقدمة وأربعة في المؤخرة، يحمل كل منهم عتلة خشبية.

كان العمل على الملفاف بشكل متناسق أمراً صعباً ومحطماً للظهر. يُحكى عنه: «للعمل عليه يجب على البحارة... القيام بجذبة مفاجئة في اللحظة ذاتها، ولمراعاة التناغم في الحركة فهم ينظمونها بأغنية أو صيحة يؤديها واحد منهم».

وما أن زحزح الرجال المرساة عن ركودها، حتى حان دور افراد الطاقم المتمركزين في المقدمة لفك أربطة الأشرعة. حينها امر بولارد تشايس (الذي يخاطبه دوماً حسب التقاليد بلقب «مستر تشايس») أن يسحب المرساة، ويخبره عندما تُرفع تماماً.

t.me/qurssan

الآن يبدأ العمل الحقيقي، فهذه العملية (رفع المرساة المثقلة بالطين حتى مقدمة السفينة) تتطلب وقتاً طويلاً إلى حد لا يطاق، خاصة مع خضر الأيادي الأغرار. لكن المرساة في النهاية عُلّقت على حاجز الأمواج في جانب السفينة، مثبتة بحلقة في نهاية ساقها على عارضة خشبية بارزة تُعرف برجام المرساة.

الآن بدأت مذلّة بولارد وتشايس العلنية تصبح جادة. كانت هناك أشرعة إضافية يجب أن تُشرع في اتجاه النسيم الجنوبي الغربي الذي يتصاعد بالتدريج. كان على الطاقم المخضرم أن يجعل الأشرعة كلها تتطاير في لحظة. لكن في حالة الإسكس، لم يحدث هذا إلا بعد أن أبحرت السفينة أكثر من تسعة أميال من حيث رفعوا المرساة. حينها كانت الأشرعة العلوية كما يقول نيكرسون «مهيأة للريح». وطوال هذه المدة، عرف القبطان وضابطاه أن سكان المدينة كانوا يتابعونهم عبر المناظير خلال كل لحظة فظيعة تلو الأخرى.

كصبي مقصورة، كان على نيكرسون أن يكنس سطح المركب وأن يلفّ أية خيوط وحبال تائهة. عندما توقف لثوان ليشاهد جزيرته الحبيبة تبهت في الخلفية، اقترب منه الضابط الأول. وبالإضافة إلى شدّ أذنيه، صاح فيه: «أيها الولد، توم، أحضر مقشّتك ونظّف الأرض. في المرة القادمة لن أكتفي بالحديث معك، بل ستدفع مؤخرتُك الثمن».

ظنّ نيكرسون وأصدقاؤه النانتوكتيون أنهم عرفوا تشايس سابقاً، لكنهم أدركوا الآن، نفس ما اكتشفه شاب نانتوكتي آخر، أنه «في البحر، تصبح الأشياء مختلفة». عادة ما يمر ضابط

t.me/qurssan

سفينة التحويت النانتوكتية بتحوّلٍ على طريقة جيكل/هايد عندما يغادر جزيرته الأم، فهو ينسلخ عن جلده الكويكري ليصبح قائداً آمراً ناهياً صاخباً. كتب ويليام كومستوك: «كثيراً ما ستسمع أمٌّ نانتوكتية تتباهى بابنها الضابط على سفينة أنه باصق نيران . وتعني انه طاغية قاسٍ، وهو ما يُعدّ على هذه الجزيرة ذروة الكمال الإنساني».

هكذا رأى نيكرسون أوين تشايس وهو يتحوّل من شاب عقلاني مهذب متزوج جديثاً من امرأة تُدعى بيغي، إلى متنمّر بلا ضمير يخزه عند استخدامه القوة ليُطاع، يسبّ بألفاظ صدمت الفتية الذين ربّتهم أمهاتهم وجدّاتهم. يتذكّر نيكرسون: «رغم أني كنت قبل بضع ساعات في غاية الحماس للخروج في هذه الرحلة، إلا اني الآن شعرت بظلمة مفاجئة تغمرني. رايت أفقاً لا يُسرّ يلوح برحلة طويلة تحت إمرة مُشرف صارم، وأنا لست إلا طفلاً لم يسمع مثل تلك التهديدات أو الألفاظ من قبل».

كان ذلك أكثر من مجرد إدراك أن حياة التحويت أصعب مما تخيل من قبل. والآن، وقد اختفت الجزيرة خلف الأفق، بدأ نيكرسون في فهم، مثلما يحدث مع كل مراهق على أعتاب النضج، أن أيام الطفولة الرائقة قد ولّت بلا رجعة. «ثم أدركت لأول مرة أني وحيد في عالم شاسع قاسٍ لا يرحم... بلا قريب ولا صديق يمنحني ولو كلمة طيبة». ولم يكن قبل ذلك الحين أن عرف نيكرسون ما قال إنه «مقدار التضحية التي قمتُ بها».

في هذا المساء قُسّم الرجال على ورديّتين. وباستثناء

t.me/qurssan

«الكسالى»؛ أمثال الطباخ والمُضيّف وصانع البراميل، الذين يعملون نهاراً وينامون ليلاً، يتبادل الرجال الخدمة في أداء مهمات السطح كل أربع ساعات. ومثل أطفال يقسّمون الفرق في ساحة اللعب، تبادل الضابط الأول والثاني الدور في اختيار الرجال الذين سيخدمون في ورديتهم. يقول ويليام كومستوك: «أول ما يفعله الضباط، هو تحديد أبناء جزيرتهم من الغرباء. إن شرف أن تكون مواطناً رومانياً في أيام مجد روما، لم يكن ليقارب حتى شرف أن تكون ابناً لتلك الكثبان الرملية التي تُدعى نانتوكت، لو كنتَ على متن واحدة من سفنهم». بعد اختيار النانتوكتيين (منهم نيكرسون الذي اختاره تشايس)، يتبادل الضباط الاختيار من أبناء كيب كود والسود.

بعدها يحين الدور على اختيار ملّاحي قوارب التحويت، وهي مسابقة يتنافس فيها كلا الضابطين والقبطان الذي يقود قاربه الخاص. يأخذ القبطان والضباط هذا الاختيار بجدية شديدة، لأن أولئك هم جنودهم الذين سيقودونهم في معركة التحويت. يقول أحد الحوّاتين: «ثمة منافسة شديدة بين الضباط، يصاحبها شيء من التوتر والغيرة الواضحين».

مرة أخرى يحاول كل ضابط أن يستحوذ لقاربه على أكبر عدد من الرفاق النانتوكتيين يستطيع الحصول عليه. وجد نيكرسون نفسه في قارب تشايس، مع بينجامين لورنس النانتوكتي موجّهاً للقارب. عُيّن أوين كوفين، صديق نيكرسون (وابن خالة القبطان)، في قارب القبطان مع عدة نانتوكتيين آخرين. أما ماثيو جوي، أقل الضباط رتبة، فقد تُرك معه

t.me/qurssan

نانتوكتي واحد في قاربه. أما الرجال الثلاثة المتبقّون دون وقوع الاختيار عليهم كمجدّفين، فقد أصبحوا حراساً للسفينة، وواجبهم هو رعاية الإسكس أثناء التحويت.

يتضمّن أول أيام رحلة التحويت طقساً آخر: خطاب القبطان لطاقمه. يقال أن هذا التقليد القديم يعود إلى يوم أغلق نوح عليه باب سفينته، وفيه يُقدم القبطان نفسه رسمياً. تلك كانت لحظة يحضرها كل من على متن السفينة، من الضباط إلى خضر الأيادي، باهتمام بالغ.

وما أن بدأ بولارد الحديث، حتى تأثّر نيكرسون بالفارق بين القبطان والضابط الأول. فبدلاً من أن يصيح في الرجال ويشتمهم، تحدث بولارد «بلا عجرفة ولا لغة غير لائقة بالرجال المحترمين». وأوضح ببساطة أن نجاح الرحلة يعتمد على طاقمها، وأن طاعة الضباط واجبة. وأن أي بحار سيرفض طاعة أي أمر، لن تكون عليه الإجابة على ذلك فقط أمام الضباط، وإنما أمام القبطان نفسه. ثم صرف الرجال قائلاً: «حدّد الورديات يا مستر تشايس».

كان رجال الإسّكس يأكلون وينامون في ثلاثة أماكن مختلفة: قمرات القبطان والضابطين، في الجزء الخلفي من السفينة. ثم الستيردج، حيث يعيش موجّهو القوارب والنانتوكتيون الصغار، أمام قمرات الضابطين. ثم في النهاية القلعة الأمامية، الربع المزدحم ضعيف الإضاءة من السفينة، في مقدمتها الأمامية، يفصلها عن الستيردج غرفة دهن الحوت. لم يكن الفاصل بين القلعة الأمامية وباقي أرباع السفينة فاصلاً مادياً فقط، بل

t.me/qurssan

وعرقياً أيضاً. فطبقاً لأديسون برات، الذي كان أخضر يد على سفينة نانتوكتية عام 1820، كانت القلعة الأمامية «مليئة بالمظلمين»، بينما يبقى في الستيردج، البحارة البيض الذين هم ليسوا من الضباط. وهذا ما يعكس التعصب المتوقع من حوّات نانتوكتيّ. اعتبر توماس نيكرسون نفسه «محظوظاً كفاية للهروب من الحبس مع عدد كبير من السود» في قلعة الإسكس الأمامية.

لكن القلعة الأمامية كانت لها مميزاتها. فقد كفلت عزلتها (الوسيلة الوحيدة لدخولها كانت عبر باب أرضي على السطح) لساكنيها الحرية لإرساء قواعد عالمهم. فعندما أبحر ريتشارد هنري دانا مؤلف «عامان أمام الصاري» على سفينة تجارية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، فضل البقاء في القلعة الأمامية على الستيردج، حيث «تكون تحت أعين الضباط، فلا تستطيع أن ترقص ولا تغني ولا تدخن ولا تتذمر ولا تصنع ضجيجاً ولا تندمج في اللذة مع بحار آخر». في القلعة الأمامية انغمس البحارة الأفارقة الأمريكيين في التقليد البحري القديم: رواية الحكايات. متبادلين القصص عن الممرات البحرية ورفاق السفن وحوادث الغرق وكثير من الحكايات البحرية. وقد رقصوا وغنوا وعزفوا على الكمان، وصلّوا للربّ. واستمراراً في اتباع سنن البحارة على مرّ الأزمان، انتقدوا الضابطين والقبطان.

t.me/qurssan

مقطع عرضي لسفينة التحويت إسّكس

Cross-section of the Whaleship *Essex*

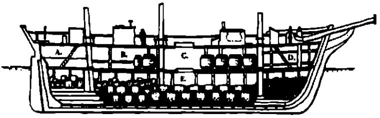

A. قمرات القبطان والضباط
B. الستيردج
C. غرفة دهن الحوت
D. القلعة الأمامية
E. مخزن

في الصباح التالي، وجد كثير من خضر الأيادي انفسهم يعانون من دوار البحر. يروي نيكرسون: «كانوا يتدحرجون ويتقلّبون على السطح، وكأنهم جاهزون للموت أو للإلقاء في البحر». كان لدى النانتوكتيين ما اعتبروه علاجاً خارقاً لدوار البحر، دواء يراه مرهفو الحس أسوأ من الداء. إذ يجعلون المريض يبتلع قطعة من دهن الخنزير مربوطة بخيط، ثم يسحبونها بالخيط من بطنه للخارج مرة أخرى. وإن عادت له أعراض المرض، تُكرر العملية من البداية.

لم يكن تشايس مستعداً للتربيت على ظهور رجاله الحساسين. في الثامنة صباحاً بالضبط، أمر أن يتحرك كل من له يد لتنظيف السطح وإعداد السفينة للتحويت. وعلى الرغم من أن تعداد الحيتان في مياه جنوب شرق الجزيرة كان يتضاءل عبر

t.me/qurssan

السنوات، فقد كان لا يزال هناك احتمال أن تتعثر السفينة فيما يسميه النانتوكتيون بـ(قطيع) من حيتان العنبر. والويل كل الويل للرجال غير الجاهزين حينما يُلمح الحوت.

لكن ليُلمح الحوت، يجب أن يكون هناك مراقبٌ متمركز بالأعلى، وهو ليس بالموقع المثالي لطاقم من خضرِ أيادٍ يعانون من دوار البحر. يُتوقّع من كل رجل أن يتسلق الصاري الرئيسي ويقضي ساعتين بحثاً عن الحيتان. بلغ الضعف والقيء والغثيان من بعض الرجال مبلغه، حتى أنهم شكّوا في قدرتهم على التشبث بأعلى الصاري لساعتين. قال نيكرسون إن أحدهم بلغ به الأمر إلى حدّ أنه اعترض قائلاً إنه «من غير المنطقي، بل من العبثي» أن يتوقعوا منهم البحث عن الحيتان، وإنه «لن يفعل، ويتمنى أن لا يتوقّع منه القبطان ان يفعل».

إن حقيقة أن البحّار المعترض الذي لم يُذكر اسمه والذي أشار للقبطان بدلاً من الضابط الأول؛ تُلمّح إلى أنه أوين كوفين ابن خالة بولارد. فقد حاول كوفين، بائساً وخائفاً بشدة على حياته، استغلال قرابته للقبطان لإرجاء تنفيذ أوامر الضابط الأول. لكن محاولته كانت عقيمة، بحسب نيكرسون الذي لم تخلُ حكايته من السخرية، تبع هذا التعليق «كلمات ناعمة» من الضابطين، مع «بعض التحدي لتشجيع أرواحهم»، ولم يمض وقت طويل قبل أن يتناوب كل خضر الأيادي على رأس الصاري.

***

كمتَزلج يهبط من جبل جليدي، اتخذت سفينة التحويت النانتوكتية طريقاً غير مباشر إلى كيب هورن، مساراً رسمته

t.me/qurssan

الرياح السائدة في المحيط الأطلنطي. ففي البداية دفعتها الرياح الغربية جنوباً وشرقاً تجاه أوروبا وإفريقيا. ثم التقطت أشرعتها رياح تُدعى بالتجارية الشمال شرقية، أخذتها معها عبر المحيط مرة أخرى في اتجاه أمريكا الجنوبية. وبعد عبورها لخط الاستواء في منطقة بلا رياح تُعرف باسم (حزام الركود الاستوائي)، انطلقت جنوباً ثم غرباً بالرياح التجارية الجنوب شرقية إلى منطقة الرياح المتفاوتة. ثم صارت في نطاق الرياح الغربية التي جعلت دورانها حول كيب هورن أمراً عسيراً.

كانت أولى محطات انزلاقهم الجنوبي في الأطلنطي للتزود بالمؤن هي في جزر الأزور والراس الأخضر، حيث يمكن شراء الخضروات والماشية بأسعار أبخس بكثير ممّا تقابلها في نانتوكت. تمنح مثلُ هذه الوقفات الحوّاتين فرصةً لشحن أي زيت حصدوه في رحلتهم عبر الأطلنطي.

في الخامس عشر من أغسطس، بعد خروجها من نانتوكت بثلاثة أيام، كانت الإسكس في طريقها للأزور مع رياح جنوبية غربية تهبّ مباشرة على ميمنة السفينة. تمنى الضباط أن يتمكّنوا من تعويض الوقت الضائع بسبب الخروج في وقت متأخر من الموسم. وكالعادة، فقد كانت أشرعة أعلى الصاري كلها مُشرعة، لكن في ذلك اليوم نصّبت الإسكس شراعاً إضافياً مؤقتاً (studding sail) وهو مستطيل من القماش منصوب على عارض إضافي مُثبت مؤقتاً على صاري الشراع الأمامي العالي.

كان من النادر أن تنصب سفن التحويت أشرعتها الإضافية، خاصة في الأماكن التي يحتمل أن تُلمح فيها حيتان. وفيما كانت

t.me/qurssan

السفن المتاجرة مع الصين تتحدد قيمتها تبعاً لسرعتها في توصيل الحمولة، فقد كانت الحوّاتات في أغلب الوقت غير متعجلة. إن استخدام الأشرعة الإضافية يعني أن القبطان يحاول بلوغ آخر ربع عقدة تستطيع سرعة السفينة بلوغها. تلك الأشرعة كانت صعبة التصيب وأصعب في الإنزال، خاصة مع طاقم غرٍّ. وبما أن تلك الأشرعة تنفرد وراء عوارضها، فإنها تصبح في خطر أن تقع في الماء إن بدأت السفينة في التمايل من جانب إلى آخر. بالنسبة لحوّاتة مليئة بخضر الأيادي، فإن دخول مياه تيار الخليج الهائجة أغلب الوقت بأشرعة إضافية متطايرة مثل هذه؛ يشير إلى سلوك عدواني، إن لم يكن طائشاً، من جهة قائدها.

بمزيد من الأشرعة التي تتلقّف الرياح، مضت الإسّكس بسرعة ربما كانت من ستّ عُقد إلى ثمان. وحين رصد المراقب سفينة في الأمام. أمر بولارد موجّه الدفة أن يتّجه ناحيتها، وبسرعة لحقت الإسكس بما اتضح أنها سفينة التحويت ميداس، التي خرجت من ميناء نيو بيدفورد قبل خمسة أيام. تبادل القبطان بولارد وقبطان الميداس صيحات المزاح وتخمينات الموقع، وبعدها بقليل صارت الإسّكس في المقدمة. ولا ريب أن كامل طاقمها استمتع بحقيقة أن سفينتهم أثبتت أنها ما دعاه نيكرسون «أسرع السفينتين».

لاحقاً في ذلك اليوم، أخذ الطقس في التدهور. إذ تجمعت الغيوم في السماء حتى صارت أقرب إلى الظلمة ناحية الجنوب الغربي. يتذكر نيكرسون أنه «أمسى البحر غاضباً، ممّا أدى

t.me/qurssan

لتمايل السفينة وتعثّرها بشكل كبير». وبدا واضحاً أن ثمة عاصفة وشيكة، لكن الإسكس «استمرت في طريقها بأشرعة مفرودة طوال الليل، ولم يزعج الضباطُ الطاقمَ إلا فيما يتعلق بمواعيد ورديّاتهم».

مع حلول اليوم التالي أصبحوا في تيار الخليج، وكانت السماء تمطر بغزارة. يعرف النانتوكتيون تيار المحيط المخيف الدافئ هذا أكثر ربما من ملاحو العالم كلهم. ففي القرن الثامن عشر اصطادوا حيتان العنبر على حوافه، من كاليفورنيا إلى برمودا. وفي عام 1786، استخدم بينجامين فرانكلين، الذي كانت أمه أبياه فولجر نانتوكتية الأصل، المعرفة التي استقاها من ابن خاله قبطان التحويت النانتوكتي تيموثي فولجر لوضع أول مخطط لتيار الخليج.

لاتخاذ قرار إنزال الأشرعة، تؤخذ كثير من العوامل في الاعتبار، نفسية وبحرية. لا يوجد ربان يحب أن يكون جباناً بلا داع. في المقابل، فإن القيام بمخاطرات غير ضرورية، خاصة في بداية رحلة قد تدوم لثلاثة أعوام؛ أمرٌ غير حكيم. وفي مرحلة ما، صارت الظروف صعبة لدرجة أن بولارد أمر بطيّ شراعي أعلى الصاري: المظلي والأمامي، لكن مع ذلك تُرك الشراعان الإضافي والرئيسي أعلى الصاري مفرودين، وهما أول شراعين يُنزلان عادة عندما يسوء الطقس. ولربما أراد بولارد أن يرى أداء الإسكس عندما تُدفع إلى حدودها القصوى. فتابعوا الإبحار رافضين الإذعان.

طبقاً لتشايس، كان بوسعهم رؤية غيمة سوداء هائلة تسرع

t.me/qurssan

تجاههم من الجنوب الغربي. وكان ذلك هو الوقت الذي تحتّم عليهم إنزال الأشرعة فيه. لكنهم قرّروا مرة أخرى الانتظار، مُعتبرين تلك الغيمة عاصفة غير مهمّة سيبحرون عبرها. سيعترف تشايس لاحقاً أنهم «أساؤوا كلياً تقدير حجم قوتها وبطشها».

بتأجيله لطيّ الأشرعة أمام العاصفة القادمة، كان بولارد يتكبر على الحكمة البحرية المتوارثة ويتجاهلها. كان لضباط البحرية الإنجليزية قول مأثور هو: «لا تترك عاصفة تأخذك على غفلة، لا تترك عدوّاً يهزمك بالمفاجأة». قيل أنه كلما كانت حدود غيمة العاصفة أكثر حدّة ووضوحاً، كلما كانت رياحها أسوأ. البرق والرعد أيضاً علامات سيئة. عندما أخذت شوكات البرق المسننة في اللمعان في قلب ظلمة السماء المخيفة ودوّى الرعد، بدأ بولارد أخيراً في توزيع الأوامر. لكن الأوان كان قد فات.

في مواجهة عاصفة تقترب، كان هناك خياران أمام السفينة: إما أن تواجه العاصفة بمقدمتها، لتخفيف الضغط على الأشرعة بتركها تواجه الريح، أو الدوران 180 في الاتجاه المعاكس بعيداً عنها، والسماح للريح بنفخ السفينة معها؛ إذ يرفع هذا الضغطَ عن الأشرعة الأمامية بوقوعها إلى درجة ما في ظل الخلفية. في السفن التجارية، التي تعمل عادة بأقل عدد ممكن من الرجال، يفضّل بعض القباطنة الاتجاه مباشرة إلى داخل العاصفة؛ يرجع هذا جزئياً إلى أن التقدم إلى الأمام هو ديدن السفن في العواصف. لكن أغلب القباطنة يفضلون الدوران

t.me/qurssan

مبتعدين عن العاصفة، وهي استراتيجية تتطلب منهم توقع وصولها بينما يطوي الطاقم الأشرعة العليا والخلفية. أما محاولة الهروب من الريح في آخر بضعة ثوانٍ من وصولها فهو «إساءة تقدير لها، أو انعدام للبصيرة».

وهذا بالضبط ما حدث للإسّكس. فبينما كانت العاصفة تقترب، تلقى رجل الدفة الأوامر بأن يدور مبتعداً عنها، «ويسبقها»، لكن للأسف، فإن سفينة بحجم الإسّكس تحتاج وقتاً للاستجابة لأوامر موجّهها. وعندما ضربت العاصفة السفينة، كانت في نصف استدارتها، فتلقّتها على جانبها، وهو أسوأ وضع ممكن.

صرير الريح بين الأمراس والتجهيزات، خفقان الأشرعة المحموم، زفزفة الرياح بين الصواري والعوارض الخشبية؛ كل تلك الأصوات كانت كفيلة بإثارة رعب خضر الأيادي. بدأت الإسّكس في الميل مع الريح، ببطء في البداية، يحافظ عليها ويُثقلها الوزن الكبير للأرينة والصابورة[1] وأطنان المؤن في الخزانة. ثم مع تعاظم الريح، استسلمت السفينة في النهاية لضغطها الهائل.

يمكن تشبيه السفينة المائلة بزاوية خمس وأربعين درجة أو أكثر، برجل سمين يجلس على الطرف القصير من أرجوحة غير متوازنة. إن كان الطرف على الناحية الأخرى من محور

---

(1) الأرينة: عارضة أساسية تمتدّ على طول قَعر المركب. الصَّابُورَةُ: ما يوضع في بطن السفينة من الأثقال لئلا تميد. [المترجم]

الأرجوحة طويلاً بما فيه الكفاية، فسيصير في النهاية رافعة قادرة على رفع الرجل في الهواء مهما كان وزنه، فيما تهبط الناحية الأخرى إلى الأرض برفق. في حالة الإسّكس، كانت الصواري والأشرعة المضغوطة بفعل الريح هي الروافع التي رفعت هيكل السفينة إلى نقطة اللارجوع، فكفأتها على جانبها حتى غمرت أطراف العوارض المياه. مالت الإسكس °90 تقريباً على جانبها، أي وقعت على «أطراف عوارضها» بلغة البحر.

تمسك من كانوا على السطح بأقرب ما طالته أيديهم من أجسام ثابتة، خائفين من أن يقعوا عبر فتحات تصريف المياه في الجدار الجانبي الذي صار الآن مغموراً. أما من كانوا تحت السطح ففعلوا كل ما بوسعهم لحماية أنفسهم من الأجسام المتساقطة حولهم. لا ريب أن الطباخ كان يحاول الهروب من المطبخ إن لم يكن قد هرب بالفعل، فالفرن الثقيل والأواني المعدنية كانت في طريقها لتحطيم محيطها الخشبي الهش. اختفى قاربا التحويت اللذان كانا على ميسرة الإسّكس تحت الأمواج، يدفعهما للأسفل وزن السفينة المنقلبة الهائل. وطبقاً لتشايس، فقد «وقع الطاقم بأكمله لوهلة من الوقت تحت تأثير أقصى درجات الرعب والارتباك».

لكن، وسط كل تلك الفوضى ساد إحساس مفاجئ بالسكينة، على السطح على الأقل. فعندما تقع السفينة على جانبها، يقوم هيكلها بدور حاجز عن الرياح والمطر. وبالرغم من أن السفينة كانت ممدّدة على المياه، إلا أن رجالها كانوا محميين مؤقتاً من قوى الطبيعة المتصارعة. استغل بولارد الفرصة لحزم الطاقم

t.me/qurssan

وشدهم من جديد. يتذكر نيكرسون أنّ «محيا وجه القبطان رابط الجأش المتماسك، أعاد للجميع بسرعة شيئاً من صوابهم». وبسرعة جاء الأمر بقطع كُرُور الأشرعة [حبالها] وترك أقمشتها تطير. لكن «انكفاء السفينة على جانبها منع سير الأمور على النحو المطلوب».

إن استمرت الريح في تثبيت السفينة على أطراف عوارضها، فقد تستقر تدريجياً في البحر بينما تتدفع المياه عبر فتحاتها إلى داخل الهيكل. وكلما طال وقت تمدّدها الجانبي كلما زادت فرص تزحزح الصابورة والخزين مع اتجاه الريح، ما قد يكوّن انقلاباً كارثياً في سير الأمور، إن حدث، فقد لا تتعافى السفينة بعدها أبداً. كانت الأمواج قد أطاحت بالمطبخ تماماً بالفعل عن السطح. بدا عندها أن من الضروري قطع الصواري، كحلّ يائس أخير.

انهمر المطر ولمع البرق ومضى الزمن ببطء زاحف بينما يتعلق الرجال بالحواجز والأعمدة، لكن قبل أن تهبط الفؤوس، انتفضت السفينة عائدة للحياة. شعر الرجال بهذا في أياديهم وأرجلهم ومعداتهم التي انفكت بعد شدة متوترة. انتظروا دفعة جديدة من الرياح تلقيهم مرة أخرى، لكن الصابورة قامت بدورها في تثبيت جاذبية السفينة، وارتفعت الصواري الثلاثة حتى خرجت العوارض من الماء. وبينما كانت الصواري تتأرجح في السماء، اندفعت مياه البحر عبر السطح خارجة من فتحات التصريف في الجوانب. فاهتزت الإسكس حتى عادت للوضع العمودي، وعادت سفينة مرة أخرى.

الآن، بعد أن لم يعُد الهيكل يلعب دور حاجز للرياح، أدرك الضباط أن شدة العاصفة قد مرت. لكن حتى لو كانت الريح قد خفتت، فإنها لا تزالُ تهبّ بقوة. مقدمة السفينة الآن تشير إلى قلب الريح التي تنفخ الأشرعة عبر الصواري. الأمراس تئن بأزيز غريب غير مألوف، بينما تغسل الأمطارُ السفينة، والأمواج تضربها كالسياط. اهتزت السفينة، وفقد خضر الأيادي توازنهم لوهلة، ولم تكن ستقع هذه المرة، وإنما تعود إلى الخلف، فيما المياه تفور حول مؤخرتها العريضة التي تدفع الأمواج، وقاربا التحويت الاحتياطيان يتخبطان في الكوثل.

كان الرجوع للخلف في السفن مربعة الأشرعة أمراً خطيراً. فالأشرعة تلتصق بالصواري، ما يجعل لفّها شبه مستحيل. لقد سبّب الضغط الشديد انفعالاً هائلاً على الدعامات والعوارض. وبما أن التجهيز لم يصمَّم لتلقي الريح من ذلك الاتجاه، فقد تنهار الصواري الثلاثة كأحجار الدومينو على السطح. كانت النوافذ في الكوثل بالفعل على وشك الانكسار، سامحة للريح والأمطار لدخول قمرة القبطان. وكانت دفّة السفينة الطويلة النحيلة، التي صارت بلا فائدة، على وشك الانكسار تحت ثقل المياه عليها.

أخيراً صارت مقدمة الإسّكس مع اتجاه الريح، وامتلأت الأشرعة، وأخذت تمضي إلى الأمام مرة أخرى. وصار بوسع الطاقم الآن فعل ما كان عليهم فعله.قبل العاصفة: طيّ الأشرعة.

بينمَا كان الرجال على الصواري يصارعون الأقمشة، تحول اتجاه الريح إلى الشمال غربي، وعادت السماء للسطوع. لكن

t.me/qurssan

الحال على سطح الإسّكس ظل غائماً. تضررت السفينة بشدة، وتمزّقت الكثير من الأشرعة، بما فيها الشراع الإضافي والشراع الرئيسي أعلى الصاري، حتى صارت أسمالاً بالية. دُمّر المطبخ تماماً. وانكسر قاربا التحويت على ميسرة السفينة عن دعاماتهما وانجرفا في البحر، أما القارب الإضافي الذي في المؤخرة فقد حطمته الأمواج؛ ممّا يعني ترك قاربين فقط قابلين للإبحار. بينما تحتاج سفينة التحويت إلى ثلاثة قوارب على الأقل، بالإضافة إلى قاربين احتياطيين. ربما يمكن إصلاح قارب المؤخرة، لكن ستظل السفينة بلا قوارب احتياطية. حدق القبطان بولارد في الهشيم حوله، وأعلن أن السفينة ستعود إلى نانتوكت للإصلاح.

لكن ضابطه الأول هو من اعترض. إذ حثّ تشايس على المضي قدماً برغم الضرر. وأصرّ على أن فرصتهم جيدة، وأنهم سيكونون قادرين على الحصول على قوارب تحويت إضافية في الأزور، حيث سيصلون عما قريب للتموّن. اصطف الضابط الثاني مع رفيقه الأول. عادة ما تكون إرادة القبطان هي قانون السفينة، لكنه بدلاً من أن يتجاهل الضابطين، توقّف وأخذ حجتهما بعين الاعتبار. وبعد أربعة أيام من قيادته الأولى، تراجع القبطان عن قراره. يروي نيكرسون أنه «بعد قليل من التأمل والمشاورة مع الضابطين، ظهر أن من الحكمة متابعة طريقنا والثقة في الحظّ والعناية الإلهية، التي ستقودنا حتماً لتعويض خسارتنا».

العذرُ الذي قيل للطاقم كان: بما أن الريح الآن في اتجاه

t.me/qurssan

الشمال الغربي، فإن العودة إلى نانتوكت ستستغرق وقتاً طويلاً. لكن نيكرسون ارتاب أن لتشايس وجوي دوافع أخرى. كلاهما عرف جيداً أن أفراد الطاقم لم يتقبلا معاملة الضابطين بسهولة. بالإضافة إلى أن وقوع السفينة سيؤخذ كنذير شؤم من قبل البحّارة الذين صاروا عنيدين وشرسين. إن عادت السفينة إلى نانتوكت، سيقفز كثير من الرجال عن السفينة ولن يعودوا. رغم فداحة خسارة قاربي التحويت، إلا أن ذلك لم يكن الوقت المناسب للعودة إلى الميناء.

إن عدم ذكر تشايس لحقيقة أن بولارد اقترح في البداية الرجوع في روايته للواقعة لم يكن أمراً مفاجئاً، خاصة مع عدم رضا كثير من الرجال عن القرار النهائي. وبحسب تشايس، فلم يكن الوقوع إلا عقبة ثانوية. «أصلحنا الأضرار بسهولة نسبية، وتابعنا طريقنا». لكن كان لنيكرسون رأيٌ مختلف. هزت الوقعة كثير من رجال الإسكس ورغبوا بترك السفينة. وكلما مروا بالقرب من سفينة عائدة في اتجاه الوطن، يرثي خضر الأيادي أنفسهم بكلمات أحدهم: «واحسرتاه! ليتني كنت على متن تلك العائدة للوطن، فرحلات التحويت ما جلبت على قلبي إلا السقم». رغم أنهم لم يروا حوتاً حتى الآن.

t.me/qurssan

الفصل الثالث
أول دماء

بعد وقفة التموين في الأزور، التي وفرت للسفينة الكثير من الخضروات الطازجة فقط لكن لا قوارب تحويت، اتجهت الإسكس جنوباً إلى جزر الرأس الأخضر. بعد أسبوعين صارت جزيرة بوا فيستا في نطاق بصرهم. على عكس تلال الأزور الخضر المتعددة، كانت منحدرات الرأس الأخضر بُنّية ذابلة، بلا أشجار تمنح حماية من الشمس الاستوائية الحارقة. نوى بولارد الحصول على بعض الخنازير من جزيرة مايو التي تقع على بعد عدة أميال في الجنوب الغربي.

في الصباح التالي، ما أن اقتربوا من الجزيرة، لاحظ نيكرسون أن بولارد وضابطيه يتصرفون بغرابة، يتبادلون كلمات متحمسة تآمرية بينما ينقّلون المنظار من يد ليد، متدارسين شيئاً ما على الشاطئ. ما اعتبره نيكرسون «سبب مرحهم» ظل لغزاً لم يتضح لبقية الطاقم إلا بعد أن اقتربوا كفاية من الجزيرة ووجدوا حوّاتة محطمة على شاطئها. هنا مصدر محتمل لبعض قوارب التحويت، شيء يحتاجه رجال الإسكس أكثر من لحم الخنزير.

وقبل أن يخرج بولارد على أحد قواربه متجهاً للحطام، انطلق قارب تحويت من الشاطئ متخذاً الإسكس وجهة له. على

t.me/qurssan

القارب كان القائم بأعمال القنصل الأمريكي فرديناند جاردنر. أوضح جاردنر أن تلك الحوّاتة هي أرخميدس من نيويورك. فيما كانت تقترب من المرفأ ارتطمت بصخرة مغمورة، ما أرغم القبطان على أن يهرع بها إلى الشاطئ قبل أن تتدمر بالكامل. كانت متضررة إلى أقصى درجة، اشترى جاردنر الحطام كله، لكن لم يكن لديه إلا قارب تحويت واحد ليبيعه.

رغم أن قارباً واحداً أحسن من لا شيء، تبقى الإسّكس بحاجة ماسة إلى مزيد من القوارب. بهذه الإضافة الجديدة، وهي إضافة قديمة مهلهلة، ستملك الإسّكس الآن في المجمل أربعة قوارب تحويت. يتركها هذا مع قارب احتياطي واحد. في مجال خطير مثل التحويت، تتضرر القوارب باستمرار في مواجهاتها مع الحيتان، حتى أن بعض المراكب تملك ما يصل لثلاثة قوارب احتياطية. بامتلاكها لأربعة قوارب، سيكون هامش الخطأ المتاح لطاقم الإسّكس في غاية الضيق. تلك كانت حقيقة مقلقة؛ حتى خضر الأيادي علموا أنّ ذات يوم قد تعتمد حيواتهم على تلك الزوارق الهشة الصغيرة.

اشترى بولارد القارب، ثم أبحر بالإسّكس إلى الخليج الصغير الذي يقوم بدور مرفأ جزيرة مايو، حيث أضافت تلال الملح البيض -من البحيرات المالحة في باطن الجزيرة- إحساساً بالعزلة على المشهد. رست الإسّكس بجوار سفينة تحويت نانتوكتية أخرى؛ الأطلسية، التي كانت تُفرغ ثلاث مئة برميل من الزيت، لتُشحن إلى نانتوكت. بينما تفاخر القبطان بارزيلاي كوفين وطاقمه بالسبعة حيتان التي قتلوها منذ خرجوا من

t.me/qurssan

نانتوكت في الرابع من يوليو، كان رجال الإسّكس لا يزالون يصلحون أضرار الوقع الذي مروا به في تيار الخليج، ولم يروا حوتاً حتى الآن.

كانت حبوب الفاصولياء البيضاء هي وسيط التبادل على جزيرة مايو، ببرميل ممتلئ بها، أخذ بولارد قارب تحويت إلى الجزيرة ليحصل على بعض الخنازير. نيكرسون كان على المجداف الخلفي من قاربه.

كان الميناء بلا مرافئ ولا أرصفة. ولما كانت الأمواج عالية، فقد اتضح أن الوصول بالقارب إلى الشاطئ كان أمراً في غاية الصعوبة. على الرغم من أنهم اتجهوا لأفضل بقعة مناسبة من الميناء، إلا أن بولارد ورجاله تعثروا. يحكي نيكرسون «غلبت الأمواج قاربنا وقلبته، ورمتنا على الشاطئ مدحورين. لم يهتم الرجال كثيراً، إذ لم يتأذ أحدٌ، لكنهم طربوا بشدة لرؤيتهم قبطانهم ينقلب بهذا الشكل المزري».

t.me/qurssan

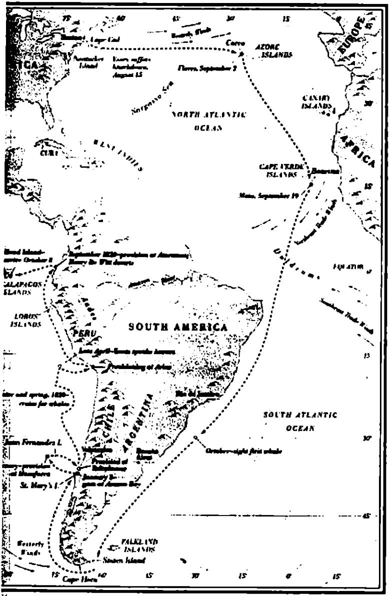
AZORE ISLANDS
EUROPE
CANARY ISLANDS
NORTH ATLANTIC OCEAN
CUBA
CAPE VERDE ISLANDS
AFRICA
GALAPAGOS ISLANDS
SOUTH AMERICA
PERU
CHILE
ARGENTINA
SOUTH ATLANTIC OCEAN
Juan Fernandez I.
St. Mary's I.
Westerly Winds
FALKLAND ISLANDS
Staten Island
Cape Horn

t.me/qurssan

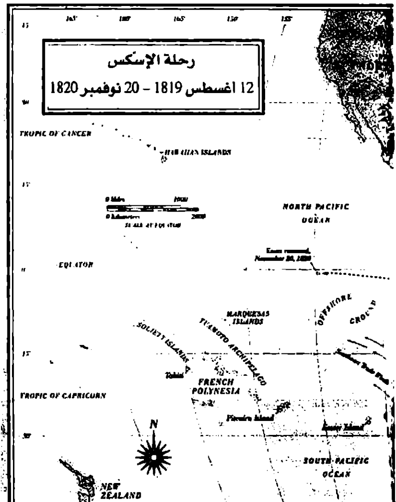
رحلة الإسكس
12 اغسطس 1819 – 20 نوفمبر 1820
TROPIC OF CANCER
NORTH PACIFIC
OCEAN
EQUATOR
MARQUESAS
ISLANDS
OFFSHORE
GROUND
TUAMOTU ARCHIPELAGO
Tahiti
FRENCH
POLYNESIA
TROPIC OF CAPRICORN
Pitcairn Island
Easter Island
N
SOUTH PACIFIC
OCEAN
NEW
ZEALAND

t.me/qurssan

قـايض بولارد نصف برميـل من الفـاصـوليـا مـقـابل ثلاثين خنـزيراً. حـوّل قـبـاع الخنازير وفـضـلاتهـا سطح الإسّكس إلى زريبة. أثرت حـالة الحيوانات المزرية على نيكرسـون المرهف، قال عنهـا إنهـا كانت «هـياكل عظمـية تقـريبـاً»، وأشار إلى أن عظـامهـا كانت تكاد تخرق جلدها فيما تتمشى على سطح الإسّكس.

لم يكن، قـبل عـبـور الإسّكس خط الاسـتـواء وبلوغـهـا دائرة عرض 30 جنوبـاً –تقـريبـاً منتصـف المسـافة بين (ريو دي جـانيـرو) و(بوينس آيـرس)– أن لمحـوا أول حـوت في رحلتهم. يتطلب الأمـر بصـراً حـاداً لرؤيـة نافورة الحوت: نفـخـة بيـضـاء بـاهـتـة في الأفق البعيـد تدوم لثوان قليلة. لكن رؤيتهـا هي كل مـا يحـتـاجـه المراقب ليجـار: «هـا هي تنفث!»، أو فقط: «B-l-o-o-o-w-s!».

بعد ما يزيد عن ثلاثة أشهر بلا حيتـان، أجاب الضابط على السطح فـي حـمـاس: «كم تبـعـد؟». تعليـق المراقب التـالي لم يوجّه فـقط موجّـة الدفة ناحيـة الحيتان، بل أدخل الطاقم كله في حمى مسـتـمـرة. إن رأى المراقب حوتـاً يقـفـز في الهـواء يصـيح: «هـا هي تقفـز»، إن لمح طرف ذيل الحـوت الأفقي يصـيح: «هـا هـو المفلطح»، أي رؤية لرذاذ أو رغـوة متـاثرة يجعله ينادي: «ثمـة مـيـاه بيـضـاء»، وإن رأى نافورة أخرى يصيح ثانياً: «B-l-o-o-o-w-s!».

تحت إرشـادات الريـان والضـبـاط، بدأ الرجـال في تجـهـيـز قـوارب التـحـويت. ثُبـتت فـي مـؤخـرات القـوارب براميـل حـبـال الحـرابين، واسـتُلّت رؤوس الحـرابين والحـراب من أغـمـدتهـا، وشُـحـذَت على عـجل لمرة أخـيـرة. يتـذكـر تلك اللحظات أحـد الحـوّاتين السـابقين واصـفـاً إياها «كل شيء كـان يموج بالحـيـاة

t.me/qurssan

«الهرج». قارب بولارد كان الوحيد على ميمنة السفينة، قارب شايس كان على الميسرة من الخلف، وأمامه قارب جوي في الوسط.

على بعد ميل من قطيع الحيتان، أبطأت السفينة سرعتها عبر دعم الشراع الرئيسي، حتى صارت أقرب إلى التوقف التام. هنا يركب الضابط في مؤخرة قاربه ويتخذ موجّه القارب موقعه في المقدمة، بينما يظل المجدّفون الأربعة على سطح السفينة. تنزل القوارب إلى المياه باستخدام أنظمة مرفاع ببكرة تعرف بالبكّارة. ما أن تصبح القوارب طافية على المياه بجوار السفينة حتى ينزلق المجدّفون على حبال البكّارة إلى القارب أو يتسلقون نزولاً جدران السفينة الخارجية، لينضموا لموجّه القارب والضابط. الطاقم المتمرس بوسعه فكّ قارب تحويت عن حامله وتجهيزه في أقل من دقيقة. ما أن ابتعدت القوارب الثلاثة، حتى صار واجب حراس السفينة الثلاثة هو رعايتها لحين عودتهم.

في مرحلة الهجوم الأولى، يقف الضابط أو القبطان في مؤخرة القارب على مجداف التوجيه، بينما يشغل موجّه القارب المقدمة حيث مجداف الحربون. خلف الموجّه يجلس مجدّف المقدمة، غالباً ما يكون أكثر المجدّفين خبرة في القارب. وظيفته هي قيادة الطاقم عندما يسحبهم الحوت بالحبل ما أن يصيبه الحربون. خلفه يوجد مجدّف وسط الزورق، والذي يعمل على المجداف الأطول والأثقل، إذ يصل طوله لثمانية عشر قدماً ويزن خمساً وأربعين رطلاً. خلفه يكمن مجدّف البرميل، وهو المسؤول عن برميلي حبال التحويت. وظيفته ترطيب الحبل باستخدام

t.me/qurssan

آنية صغيرة تشبه الدلاء تدعى بيجين بعد أن يصيب الحوت الحربون. تمنع الرطوبة الحبل من الاحتراق مع الاحتكاك بينما يجري حول المثقلة، وهي ثقل معدني ينتصب عمودياً في مؤخرة القارب. بعد مجدّف البرميل يجلس المجدّف الأخير، غالباً ما يكون أخف أفراد الطاقم، وظيفته هي التأكد من عدم تشابك الحبل بينما ينجذب من مؤخرة القارب.

تُثبت ثلاثة من المجاذيف على ميمنة القارب واثنان على ميسرته. إن صاح الضابط «اسحب ثلاثة»، يجدّف فقط الرجال المثبتة مجاذيفهم على اليمين. أما «اسحب أثنين» فتكون موجّهة لمجدّف المقدمة ومجدّف البرميل، اللذين يقع مجذافاهما على اليسار. صيحة «أفاست» تعني التوقف عن التجديف بالكامل، بينما «الكل للخلف» تعني أن يجدّف الجميع بالاتجاه العكسي حتى يتحرك القارب للخلف. «قدم كل شيء» كان الأمر الذي يعني بداية المطاردة، ويخبر الرجال أن يتعاونوا معاً، يضرب المجدّف الأخير بمجدافه فيتبعه البقية. بتجديف الرجال الخمسة بأقصى قوة على رأسهم القبطان أو الضابط يحثهم على المتابعة، ينطلق قارب التحويت كصاروخ صغير. دائماً ما تشعل المنافسة طاقم الحوّاتة بالحيوية. يُعطي القارب الأسرع لرجاله الستة ما يتبخترون به بين بقية رجال السفينة؛ هكذا كان الترتيب الهرمي الاجتماعي للسفينة يتحدد.

بمسافة تقرب للميل بين السفينة والحيتان، لا تزال أمام طواقم القوارب الثلاثة مساحة واسعة لاختبار سرعتهم. يتذكر نيكرسون «تلك المنافسة كانت محل جدال وانفعال أفراد الطاقم

t.me/qurssan

أكثر من غيرها في الرحلة، فلا يوجد من يسمح لنفسه بالخضوع للآخرين».

بينما تسبح الحيتان المطمئنة في سرعات بين ثلاث وأربع عقد، تهبط عليها القوارب الثلاثة في خمس أو ست عقد. ورغم أن الجميع يتشارك في النجاح الذي يحققه أحدهم في النهاية، إلا ان لا أحد يرغب في أن يسبقه الآخرون، فلطالما عُرف عن طواقم التحويت إعاقة بعضهم عن عمد في سباقهم خلف أسراب حيتان العنبر.

عادة ما تقضي حيتان العنبر تحت الماء فترات بين عشرة إلى عشرين دقيقة، رغم أن هناك حالات مسجلة لغطسات دامت لتسعين دقيقة. قاعدة الحوّات التقريبية تقول إن الحوت قبل أن يغطس ينفخ مرة لكل دقيقة سيقضيها تحت الماء. يعلم الحوّاتون أيضاً أن الحوت يحافظ تحت الماء على سرعته واتجاهه اللذين كان عليهما قبل أن يغطس. هكذا يستطيع الحوّات الخبير أن يحسب بدقة مثيرة للإعجاب أين ومتى سيظهر الحوت المغمور مرة أخرى.

كان نيكرسون هو المجدّف الأخير في قارب تشايس، ما جعله أمام الضابط الأول على مجداف التوجيه مباشرة. كان تشايس هو الرجل الوحيد على القارب الذي بوسعه رؤية الحوت في الأمام. ومع أن لكل ضابط أو قبطان أسلوبه الخاص في القيادة، إلا أنهم جميعاً يتشاركون في مداهنتهم وتملقهم لرجال الطاقم بكلمات تستفز الوحشية والهياج الكامنة فيهم، والتعطش الدموي لمطاردة وقتل أضخم الثدييات على الكوكب، بشهوة تكاد

t.me/qurssan

تكون جنسية. تضاف إلى ذلك شدة الأعصاب الناجمة عن الصمت الاضطراري للطاقم، الذين لا يرغبون في إثارة انتباه الحوت لوجودهم. سجل ويليام كومستوك الكلمات الهامسة لضابط نانتوكتي:

«أخرجي من مكمنك بحق السماء. القارب يتحرك، الكل نائم. أترون؟ أترون؟ ها هي نائمة. أحبكم يا رفاقي الأعزاء، نعم، نعم، أنا أحبكم، سأفعل أي شيء من أجلكم، سأهبكم دماء قلبي لتشربوا. خذوني للحوت فقط هذه المرة، جدّف. أيها القديس بيتر، أيها القديس جيروم، يا قديس ستيفن، يا قديس جيمس ويا قديس جون، أيها الشيطان على عصَوين. احملوني معكم، دعوني أداعبها، دعوني أتحسس أضلعها. هيا، هيا، إلى الأمام. أوه، أوه... تقدموا، تقدموا. قف يا ستاربك [حامل الحربون]، لا تحمل سلاحك هكذا، ضع يدك على نهاية العصا. الآن، الآن، ارم، ارم».

اثبت تشايس أن طاقمه هو الأسرع ذلك اليوم، فبسرعة صاروا على مسافة رمية حربون من الحوت. صارت العيون كلها الآن على موجّه القارب، الذي قضى مسافة تزيد عن الميل في التجديف بأسرع ما يستطيع. يداه ملتهبتان وعضلات ذراعيه ترتعش من الإرهاق. مولياً ظهره طوال الوقت إلى الكائن الذي يكمن ذيله على بعد أقدام قليلة -أو ربما بوصات- منه، ذيله، الذي تزيد المسافة بين طرفيه على اثني عشر قدماً، يرقص صعوداً ونزولاً على مسافة يستطيع منها بلوغ رأسه في يسر. يستطيع الآن سماع الهدير الأجوف المبتل لرئتي الحوت تضخان

t.me/qurssan

الهواء من داخل جسده البالغ ستين طناً إلى خارجه والعكس.

لكن بالنسبة لقاذف الحربون المستجد، بينجامين لورنس ذي الأعوام الاثنين والعشرين، كان الضابط الأول مرعباً مثل أي حوت. ولما كان تشايس موجّه قارب على الإسكس من قبل، فقد كانت لديه فكرة واضحة عن كيفية إصابة الحوت بالحربون، واستمر في إطلاق النصائح الهامسة المتتابعة المشبعة بالشتائم. طوى لورنس طرف مجدافه تحت شفير القارب وثبّت قدمه على مقعده، والتقط الحربون. ها هو هناك، أمامه، جسد الحوت الأسود يلتمع تحت أشعة الشمس. في الجانب الأمامي من رأسه على اليسار كانت فتحة النفث، غمرت نافورتها لورنس ببخار كريه الرائحة سيبقى على بشرته لوقت طويل.

بقذف الحربون، يتحول ذلك الكائن العملاق المسالم إلى وحش غاضب هلع يستطيع بسهولة نقله إلى العالم الآخر بحركة بسيطة من ذيله الهائل. أو أسوأ، قد يستدير الحوت ويهجم عليه بفم مشرع وأسنان حادة. عُرف عن موجّهي القوارب الجدد أن الواحد منهم قد يفقد وعيه ما أن يجد نفسه في الموقف المروع الذي يتحتم عليه فيه مواجهة حوت عنبر غاضب.

عرف لورنس الواقف على مقدمة القارب فيما الأمواج تتكسر من حوله، أن الضابط الأول يراقب كل حركة يقوم بها، فإن خيب أمله، سيجعل من أيامه التالية جحيماً.

صاح تشايس: «أعطه إياها! أعطه إياها!».

لم يتحرك لورنس، ثم سمع الجميع فجأة صوت انكسار الواح خشب الأرز المصنوع منها القارب، ثم صار الرجال الخمسة

في الهواء. جاء من تحتهم حوت آخر، ضرب بذيله قاربهم ضربة جسيمة قذفتهم في السماء. تحطم جانب قارب التحويت كله، وتشبث الرجال بالحطام، خاصة وأن بعضهم لا يعرف العوم. علّق نيكرسون «أظن أن الوحش كان خائفاً مثلنا بالضبط، فقد اختفى تماماً بعد ظهور وجيز لذيله العملاق». ولذهولهم الشديد، لم يُصب أحد.

ترك بولارد وجوي المطاردة وعادا ليلتقطا طاقم تشايس، في نهاية لليوم محطمة لمعنويات الرجال، خاصة وأنهم عادوا ينقصهم قارب تحويت مرة أخرى، وهي خسارة بحسب تعبير نيكرسون «تهدد بتخريب رحلتنا».

بعد إصلاح قارب تشايس بعدة أيام، لمح المراقب حيتاناً مرة أخرى. خرجت القوارب وأُطلقت الحرابين -بنجاح- وأزّت حبال التحويت في طريقها خارجة ساحبة معها المثقلة، لينطلق القارب وطاقمه في أول «زحلقة نانتوكتية» كما ستُسمى لاحقاً.

لطالما تحدث الملاحون التجاريون بسخرية عن السرعات البطيئة في المتوسط لسفن التحويت، لكن الحقيقة أنه لا يوجد بحّار على الأرض في بدايات القرن التاسع عشر، عرف السرعات التي خبرها الحوّاتون النانتوكتيون. وبدلاً من أن يفعّلوها في أمان السفينة العملاقة ثلاثية الصواري، عرفها النانتوكتيون في قوارب من خمسة وعشرين قدماً مزدحمة بنصف دزينة من الرجال والحبال والحرابين المسنونة والحراب. تراقص القارب من جانب إلى جانب وتقافز أعلى وأسفل بينما يسحبه الحوت بسرعات كانت لتجعل أكثر الفرقاطات البحرية

t.me/qurssan

رشاقة تتمرغ في أعقابها. عندما تأتي المقارنة إلى السرعة في الماء، فالنانتوكتي -المعلق في جانب حوت يسحبه لأميال وأميال بعيداً عن سفينة التحويت التي هي في الأساس بعيدة مئات الأميال عن اليابسة- هو أسرع بحار في العالم، بسرعة خمسة عشر (البعض يدّعون أنها وصلت لعشرين) عقدة.

لم تقتل الحرابين الحيتان، كانت ببساطة وسيلة تمكّن طاقم زورق التحويت من ربط أنفسهم بفريستهم. بعدما يتركون الضحية يُتعب نفسه -بالغطس لأعماق بعيدة أو شق سطح الماء في طريقه- يبدأ الرجال في الاقتراب بأنفسهم، بوصة تلو بوصة، لمسافة تسمح لهم بطعن الحوت. لم يتمكن الرجلان، الضابط والموجّه، من مواجهة كائن عنيف جريح يتلاعب بالقارب في الأمواج فقط -وهو أمر في غاية العنف قد يؤدي لزحزحة مسامير مقدمة القارب ومؤخرته من ألواح الخشب- بل تمكّنا أيضاً من الابتعاد عن طريق حبل التحويت الذي يمر في منتصف القارب ويرتعش مثل سلك بيانو. كان ذلك عملاً إعجازياً بطريقتهم الخاصة، على زورق صغير وهش مثل قارب التحويت. بحلول تلك النقطة، يكون الموجّه قد تراجع للمؤخرة والضابط، الذي يُمنح كما جرت العادة شرف القتل، قد تقدم ليحتل موقعه في المقدمة.

إن كان لا يزال في الحوت شيء من الحيوية المتبقية، يأخذ الضابط من القارب مجدافاً ويضربه في أوتار ذيله. ثم يحمل حربة القتل التي يتراوح طولها بين أحد عشر واثني عشر قدماً، ذات نصل يشبه بتلات الزهور صُمم ليخترق أعضاء الحيتان

t.me/qurssan

الحيوية. لكن انتزاع حياة الكائن الثديي العملاق ذي طبقات الشحم السميكة لم يكن سهلاً. أحياناً كان الضابط يحتاج لطعنه خمس عشرة مرة، باحثاً عن الشرايين الرئيسية الملتوية المختبئة حول رئتيه، يمخض دواخل الحوت بحركات عنيفة سرعان ما تجعل محيط قارب التحويت يتحول لنهر أحمر من الدم.

عندما تجد الحربةُ هدفها أخيراً، يبدأ الحوت في الاختناق بدمائه، وتتحول نافورته إلى مضخَّة من الدماء الحارة تدفع الضابط ليشبهها بـ«مدخنة مشتعلة». بينما تهطل الدماء عليهم مطراً، يهرع الرجال بقاربهم لمسافة آمنة، ثم يتوقفون لمشاهدة الحوت بينما يدخل في فورته الأخيرة. ضارباً الماء بذيله، قابضاً على الهواء بفكيه -حتى وهو يتقيأ قطعاً ضخمة من السمك والحبّار- يعوم الحوت في دوائر تضيق باستمرار. وفجأة، مثلما بدأ الهجوم برمية حربون، ينتهي. يتوقف الحوت عن الحركة. يصبح جثة سوداء عملاقة تطفو منزلقة بين دمائها وقيئها.

قد تكون هذه أول مرة يشارك فيها نيكرسون في قتل حيوان ذي دم دافئ. ففي نانتوكت، حيث أكبر حيوان من ذوات الأربع هو الفأر النرويجي، لم تكن هناك حتى غزلان ولا أرانب للاصطياد. ومثلما يعرف أي صياد، فإن القتل يحتاج التعوّد عليه. مع أن ذلك المشهد الدموي الوحشي يفترض أن يكون حلم كل شاب نانتوكتي، إلا أن مشاعر أخضر اليد ذي الثمانية عشر عاماً إينوخ كلاود تحكي في المذكرات التي كتبها في رحلة تحويته الأولى «من المؤلم مشاهدة موت أصغر مخلوقات الرب، لكن الألم يكون أعظم بكثير عند مشاهدة موت كائن هائل كان يفيض

t.me/qurssan

«الحياة مثل الحوت! عندما رأيت أضخم الكائنات كلها ينزف «يرتعش ويموت، ضحية لمكر الإنسان، تضاربت مشاعري «تقلّبت».

***

ثم يُسحب الحوت الميت إلى السفينة.

حتى عندما يجدّف الرجال الخمسة كلهم -أحياناً ما يقدّم الضابط على مجداف التوجيه يد المساعدة للمجدّف الأخير- لا «تجاوز سرعة قارب يسحب حوتاً الميل الواحد في الساعة. مع «صول تشايس ورجاله إلى السفينة، كان الليل قد هبط.

الآن، حان وقت الجزارة. رفع الرجال الحوت إلى ميمنة الإسكس بحيث يشير رأسه لمؤخرة السفينة. ثم نُصِبت منصة «، تقطيع، وهي لوح خشبي يستخدمه الضباط للتثبيت أثناء «تقطيع الجثة. ورغم أن تعرية الحوت قد شُبهت من قبل بتقشير «برتقالة، إلا أن الأمر في واقعه كان أقل أناقة من ذلك.

يصنع الضابط الأول ثقباً في جانب الحوت، فوق زعنفته مباشرة، يقحمون فيه خطافاً عملاقاً يتدلى من الصاري. ثم «استحضار قوة الملفاف الهائلة إلى العمل، تميل السفينة إلى أحد جانبيها، بينما يئنّ نظام المرفاع ببكرة المثبت في الخطاف من فرط الإجهاد. عندها يقتطع الضباط بدايةً قشرة عرضها خمسة أقدام تقريباً من الدهن المتاخم للخطاف. وشيئاً فشيئاً «ينشّر الدهن في جثة الحوت المعلقة بالخطاف إلى الملفاف، تدور «ببطء في الهواء. المحصلة النهائية تكون شريحة طولها خمس «عشرون قدماً تقطر دماً ودهناً تتدلى من الحبال، يُطلق عليها

t.me/qurssan

«البطانية». تُفصل هذه البطانية عن الحوت، وتُنقل إلى غرفة دهن الحوت تحت السطح، حيث تُقطع إلى قطع أصغر يسهل التعامل معها. ويستمر حصد الدهن من جثة الحوت.

ما أن يُنزع عن الحوت كامل دهنه حتى يُقطع رأسه. يبلغ رأس حوت العنبر حوالي ثلث طوله. الجزء العلوي منه يحتوي على تجويف يمتلئ بما يقرب من مئة جالون من العنبرية spermaceti؛ زيت نقي عالي الجودة يتصلب نسبياً ما أن يتعرض للهواء. بعدما يرفع المرفاع ذو البكرة الرأس إلى السطح، يثقب الرجال ثقباً في قمته، ويستخدمون الدلاء لاستخراج الزيت. قد يؤمر رجل أو اثنين بالدخول إلى التجويف للتأكد من استخراج آخر قطرة من زيت العنبرية. لم يكن هناك مناص من حدوث بعض الانسكاب العرضي، فيصير سطح السفينة فوضى زلقة بالزيت والدماء. قبل التخلص من جثة الحوت المشوهة، يبحث الضباط بالنصال في أمعاء الحوت، بحثاً عن مادة غامضة بلون الرماد تسمى العنبر الرمادي Ambergris. ساد الاعتقاد أنها تنتج عن الحوت عندما يصيبه عسر الهضم أو الإمساك. العنبر الرمادي مادة دهنية تستخدم في صنع العطور، وتساوي أكثر من وزنها ذهباً.

مع ذلك الوقت يكون مرجلا التحويت المعدنيان العملاقان قد امتلأ بقطع الدهن. للتعجيل من عملية التصفية، يُقطع الدهن لقطع صغيرة حجم كل منها قدم مكعّب، ثم تُقطع إلى شرائح سمكها بوصة واحدة تشبه صفحات الكتب يُطلق عليها أوراق الإنجيل. لا يشبه دهن الحوت بأي حال المخزون الدهني

t.me/qurssan

في أجساد الحيوانات الأرضية. فعوضاً من كونه رخواً مترهلاً، فإن دهن الحوت قاس سميك يكاد يكون غير قابل للاختراق، الأمر الذي يُجبر الحوّات على شحذ نصاله طوال الوقت.

استُخدمت الأخشاب لإشعال النيران تحت المراجل، لكن ما أن تبدأ مرحلة الغلي حتى تطفو على سطح السائل قطع متغضنة من الدهن تُعرف البقايا أو المقرمشات، تُقشد من على السطح ويُلقى بها في النار كوقود. هكذا يتغذى اللهب الذي يُذيب دهن الحوت بالحوت نفسه. رغم أن ذلك كان استخداماً كفأً للمواد المتاحة، إلا أنه ينتج عنه دخان أسود سميك ذو رائحة نتنة لا يمكن نسيانها. يروي أحد الحوّاتين «رائحة البقايا المحترقة مثيرة للغثيان لحدّ لا يمكن وصفه، وكأن كل روائح العالم وُضعت ومُزجت معاً».

في الليل، بدا بحارة الإسكس وكأنهم في مشهد من جحيم دانتي. يروي أخضر يد من كنتاكي: «في مشهد التصفية أمرٌ غريب ووحشي، نوع من الفظاظة غير قابلة للشرح، ما يجعل من الصعب وصفه بأية درجة من الدقة. ثمة إحساس مجرم في بقع الدماء المتناثرة على السطح، وكتل الجلد والدهن الملقاة هنا وهناك، والوحشية الجليّة في ملامح الرجال، التي يغذّيها انعكاس النار الأحمر على وجوههم. كان مشهداً أكثر من مناسب لأغراض ملفيل الفنية الشريرة في موبي-دِك. يحكي لنا إسماعيل: «لعقت ألسنة اللهب الحادة الظلام، وكانت بين الحين والحين تمتد متطاولة من الوقود السناجي، فتضوي كل حبل عالٍ من حبائل السفينة كأنها النار اليونانية المشهورة. ومضت

t.me/qurssan

السفينة اللاهبة في طريقها كأنما قد فُوّض إليها القيام بعمل انتقامي[1]».

قد تستغرق تصفية الحوت ثلاثة أيام. تُرتّب مناوبات خاصة للتصفية تدوم بين خمس إلى ست ساعات، ممّا يمنح الرجال ساعات نوم شحيحة. الحوّات الخبير ينام بملابس التصفية دون تغيير (عادة ما تكون قميصاً قديماً قصير الأكمام وسروالاً مهترئاً)، مؤجلاً أية محاولة لتنظيف نفسه حتى تمتلئ براميل الزيت وتُرص في الخزانة، وتمرّ السفينة بعملية تنظيف كاملة. لكن نيكرسون وأصدقاءه نفروا من ذلك المزيج المُقزز من الزيت والدم والدخان الذي يغطي بشرتهم وملابسهم، فكانوا يغيرونها بعد كل مناوبة. وبعدما انتهت تصفية الحوت الأول، كانوا قد أفسدوا كل قطعة ملابس أحضروها في صناديقهم.

ما أجبرهم على شراء ملابس إضافية من صندوق مهملات السفينة -المقابل النانتوكتي لمتجر الشركة- بأسعار خرافية. خمّن نيكرسون أنه إذا عادت الإسّكس إلى نانتوكت، فسيكون ورفاقه من خضر الأيادي مدينين لأصحاب السفينة بما يقرب من تسعين بالمئة من مستحقاتهم من الرحلة. وبدلاً من أن يحذّر الضابطان المراهقين من مغبة الاستسلام لصندوق المهملات، اكتفيا بتركهم يتعلمون مبادئ اقتصاد التحويت بالطريقة الصعبة. ما سيقول عنه نيكرسون: «لم يجب حدوث ذلك».

---

(1) المقاطع المقتبسة من رواية موبي-دِك، منقولة بتصرف من ترجمة د.إحسان عباس للرواية. [المترجم]

t.me/qurssan

ذات ليلة، في مكان ليس بعيداً عن جزر فوكلاند، كان الرجال على الحبال ينزلون الأشرعة العليا عندما سمعوا صرخة؛ صرخة ارتعاب حادة عالية قادمة من جانب السفينة. لا بدّ أن أحدهم وقع عن حافتها.

كان ضابط المناوبة على وشك إعطاء أمر بالتوقف عندما سُمعت صرخة أخرى، من ثم، وربما بضحكة متوترة، أدرك أحدهم أن ذلك لم يكن إنساناً، وإنما بطريقاً، بطريقاً يتمايل بجانب السفينة. صيحاته المدوية في أرجاء الليل بدت وكأنها صراخ بشريّ. بطاريق! لا بدّ أنهم صاروا بالقرب من (أنتاركتيكا).

تلاشت الرياح في اليوم التالي، تاركة الإسّكس قابعة في سكون تام. لعبت الفقمات حول السفينة، وصف ذلك نيكرسون: «تغطس وتعوم وكأنها تسعى للحصول على انتباهنا». كانت هناك أيضاً بطاريق متعددة، بالإضافة إلى النوارس وطيور الأطيش التي تجول في السماء؛ وهذا ما دلّ على أن الإسّكس كانت تقترب من اليابسة، دون شك.

في حين شكلت الفُقم والطيور بعض الإلهاء، كانت المعنويات على السفينة قد بلغت الحضيض. الرحلة إلى كيب هورن كانت حتى الآن كادحة مؤلمة غير مريحة. مضت عليهم الآن أربعة أشهر في البحر ولم يظفروا إلا بحوت واحد، ناهيك عن الواقعة التي عطلتهم عدة أيام وخيمت على الرحلة بغيمة كئيبة باقية. لو استمرت الرحلة على هذا المنوال، فستبقى الإسّكس في العراء البحري أكثر بكثير من عامين حتى تستطيع تحصيل حمولة زيت

t.me/qurssan

كاملة. ومع مخاطر كيب هورن الأسطورية التي تلوح في الأفق، ودرجة حرارة تنخفض باستمرار، بلغت شدة الأعصاب على متن الإسّكس مرحلة خطرة.

عرف ريتشارد هنري دانا بالخبرة المباشرة كيف أن معنويات طاقم السفينة قد تتدهور لدرجة أن حتى أبسط الحوادث قد تقع على القلوب موقع الظلم الفادح غير المحتمل:

«يومياً، وعلى مدار الساعة، تحدث آلاف الأحداث الصغيرة التي لا يستطيع الجميع، الذين لم يعودوا على طبيعتهم بعد تلك الرحلة الطويلة المملة، هضمها أو حسن تقديرها. حروب صغيرة، إشاعات عن حروب صغيرة، همسات عما يدور في خفاء القمرات، سوء فهم للكلمات والنظرات، إساءات ظاهرية، وغيرها الكثير مما جعلنا نصل لمرحلة يبدو فيها كل شيء على خطأ».

على متن الإسّكس، كان أفراد الطاقم غير راضين عن الأكل. لم يأت على الإسّكس حين من الوقت تجلّت فيه الفوارق بين الضباط والبحارة أكثر من وقت تناول الطعام. في القمرة، يأكل الضباط مثلما كانوا يأكلون في نانتوكت؛ على أطباق، بأشواك وسكاكين وملاعق، وخضروات كثيرة طالما لا تزال متوفرة وصالحة للأكل، بالإضافة إلى تموين السفينة العادي من لحم البقر والخنزير المملح. إن توفر أي لحم طازج -مثل لحم الخنازير المُبتاعة من مايو- ينال الضباط منه نصيب الأسد. وبدلاً من (الهارد-تاك hardtack: بسكويت بصلابة الجبس)، يوفر لهم خادم السفينة باستمرار الخبز الخارج من النار لتوه.

t.me/qurssan

أما الرجال في الستيردج والقلعة الأمامية فتختلف تجاربهم الغذائية إلى حد كبير. فبدلاً من أن يجلسوا للأكل على مائدة، يجلس البحارة على صناديقهم حول إناء خشبي كبير يُطلق عليه الطفل، يحتوي على قطعة ضخمة من لحم البقر أو الخنزير، يشار إليها بالحصان أو بالرمّة. كان اللحم مالحاً إلى حد أن الطباخ عندما يضعه في برميل من الماء المالح ليوم (ليصبح طرياً كفاية للمضغ)، يصير أقل ملوحة. على البحارة أن يحضروا معهم أدوات طعامهم الخاصة، التي هي عادة مدية ذات غمد وملعقة، بالإضافة لكوب قصديري للشاي أو القهوة.

وبدلاً من إعطائهم نصيباً مما يأكله الضباط، لا ينال الواقفون على الصواري إلا أنصبة ضئيلة لا يمكن وصفها بالمغذية. أحياناً ما تُعزز حصتهم اليومية من الهارد-تاك واللحم المملّح بقليل من الـ(داف duff)؛ قطع من البودنغ المصنوع من الدقيق أو حلوى الزلابية المغلية في خرق قماشية. قُدّر أن البحار في مطلع القرن التاسع عشر، كان يستهلك يومياً ما يعادل 3800 سعرة حرارية. لكن من غير المحتمل أن أولئك في القلعة الخلفية لأية حوّاتة في 1819 تناولوا ما يقرب من ذلك الكم. يقول أخضر يد على حوّاتة نانتوكتية: «يا حسرتي ويا أسفي على اليوم الذي عرفت فيه التحويت. فما الذي يعنيه ربح العالم كله لرجل قضّى وقته وهو يتضوّر جوعاً؟».

ذات يوم بعد عبورهم جزر فوكلاند بقليل، نزل الرجال ليجدوا أن محتوى الطفل صار أفقر حتى من المعتاد. انعقد اجتماع مرتجل، وقرروا أنهم لن يلمسوا اللحم حتى يراه القبطان

t.me/qurssan

بولارد ويقدموا له شكوى رسمية. اتخذ الرجال مواقعهم على السطح بينما مضى أحدهم حاملاً إناء اللحم على كتفه في طريقه إلى مؤخرة السفينة. كان نيكرسون حينها مكلفاً بتزفيت شباك شراع الزمام الرئيسي، متخذاً موقعاً علوياً سمح له برؤية مشهد المواجهة كاملاً.

ما أن وصل الطفل إلى الربع الخلفي حتى خرج القبطان من قمرته. نظر بولارد إلى إناء اللحم، وشاهد نيكرسون وجهه يتبدل من الأحمر إلى الأزرق إلى الأسود. الطعام كان مسألة حساسة بالنسبة للقبطان بولارد؛ يعرف أكثر من الجميع أن مالكي الإسكس الأشحاء قطعوا من تموينها إلى حدّ يرثى له. إن كان هناك أي أمل لتوفير المآكل للرجال لعدة سنوات، عليه أن يقتطع من حصصهم الآن. ربما كان ذلك ثقيلاً على قلبه، لكن لم يكن لديه خيار آخر.

بإحضارهم الطفل إلى الربع الخلفي، كان الرجال قد استحلوا أرض الكوثل المقدسة، المحجوزة عادة للضباط. حتى إن كان غضبهم مسوّغاً، يبقى ذلك تحدياً لسلطات السفينة لا يمكن أن يتقبله أي قبطان يحترم نفسه. تلك كانت لحظة حرجة بالنسبة لقائد يحتاج باستماتة لإيجاد وسيلة للتعامل مع انزعاج طاقمه الذي قد تنجم عنه نتائج كارثية.

أنزل بولارد عن كتفه عباءة التحفظ التي يرتديها طوال الوقت وصاح: «من الذي أحضر الطفل للكوثل؟ تعالوا وأخبروني أيها الأنذال الملاعين».

لم يجرؤ أيٌّ منهم على الحديث. مضى الرجال في طريقهم

t.me/qurssan

للريح الخلفي مثل الغنم، يختبئ كل منهم في ظل الآخر. كان ذلك بالضبط هو الخضوع الذي احتاج القبطان -لأول مرة- إلى رؤيته.

خطا بولارد على أرض الربع الخلفي بغيظ، عالكاً مضغة من التبغ وباصقاً على السطح وهو يردد: «أتلقون بطفلكم في وجهي؟».

في النهاية، اتجه للجزء الأمامي من الربع الخلفي، خلع معطفه وقبعته وداس عليهما، ثم صرخ: «أيها الحقراء، ألم أعطكم كل ما تستطيع السفينة أن توفره لكم؟ ألم أعاملكم كالرجال؟ ألم تنالوا طعاماً وشراباً يكفيكم؟ ماذا تريدون أكثر بحقّ الجحيم؟ أتريدون أن أتوسل إليكم لتأكلوا؟ أم تحبون أن أمضغ لكم طعامكم بدلاً عنكم؟».

وقف الرجال مصعوقين. تجوّلت عينا بولارد بين الحبال حتى وقعت على نيكرسون الجالس وفرشاة القار بين يديه. أشار بإصبعه ناحيته وصاح: «انزل هنا أيها القذر الصغير. سأقتلكم جميعاً ثم سأفرقع الشمال-غربية وأعود إلى البيت».

بلا أدنى فكرة عما يعنيه القبطان بـ«فرقعة الشمال-غربية»، اتخذ نيكرسون طريقه للسطح قافزاً، مؤمناً أنه إن لم يُقتل، فعلى الأقل سيُجلد. لكن لحسن حظ الجميع، صرف بولارد الرجال قائلاً: «إن سمعت منكم أي شيء يخص الحصص، سأربطكم جميعاً معاً وأجلدكم حتى تتوسلوا الرحمة».

وبينما تشتت الرجال، سمعوا بولارد يغمغم بما سيلقبونه جميعاً في السرّ بـ«مونولوج القبطان»، الذي سيحاكونه لاحقاً

بطقطوقة هزلية ستبقى في ذاكرة نيكرسون حتى بعد سبعة وخمسون عاماً:

ثلاثون خنزيراً من جزيرة ماي
وداف كل بضعة أيام
وزبد وجبن أكثر مما تستطيعون هضمه
وتطلبون مزيداً من اللحم؟ عليكم اللعنة

سلوك بولارد كان التصرّف الطبيعي المتوقع من قباطنة سفن التحويت النانتوكتية، الذين اشتهروا بالتقلب بين التحفظ والشفاه المطبقة وبين الغضب العارم. كان بولارد، طبقاً لنيكرسون «في العادي شخصاً مهذباً ولطيفاً حيثما تطلب منه الأمر... استعراض العنف هذا كان واحداً من نوباته القليلة التي تذهب مع غروب الشمس، في اليوم التالي كان طيباً لطيفاً مثل العادة».

على الرغم من ذلك، تغير كل شيء على سطح الإسّكس. أثبت القبطان بولارد أن لديه الحزم الكافي لتأديب الرجال. من تلك اللحظة فصاعداً، لن يتذمر أحدٌ منهم بشأن الغذاء.

t.me/qurssan

الفصل الرابع
ثمالة نيران

في الثامنة من صباح الخامس والعشرين من نوفمبر من عام 1819، صاح المراقب «يابسة!». إذ رأى من بعيد ما بدا وكأنه صخرة عملاقة تعلو فوق المياه. أعلن القبطان بلا تردد أن هذه هي جزيرة ستاتن الواقعة قبالة الحافة الشرقية من كيب هورن. كان الرجال يحدقون ذاهلين في هيئة الجزيرة الأسطورية الشبيهة بأبي الهول، عندما اختفت الجزيرة فجأة في الهواء الغائم؛ لم تكن إلا ركاماً من الضباب.

مخاطر كيب هورن كانت مضرب المثل. في 1788 حاول القبطان ويليام بلاي وطاقم سفينته باونتي، الدوران حول ذلك الرأس المخيف. بعد شهر طويل قضوه مع الرياح المعاكسة والصقيع المتساقط وبحر عاتٍ يهدّد بتحطيم السفينة، قرر بلاي أن الطريق المنطقي لبلوغ المحيط الهادئ هو العكس تماماً، وأدار الباونتي ليعبر بها رأس الرجاء الإفريقي الصالح. بعد خمس وعشرين عاماً، أثناء حرب 1812، استطاعت سفينة أكبر بكثير، فرقاطة أمريكية بحرية تسمى أيضاً الإسكس يقودها القبطان ديفيد بورتر، الدوران حول كيب هورن. سيصير بورتر ورجاله في النهاية مشاهير لبطولتهم في مواجهة القوات البريطانية في

t.me/qurssan

المحيط الهادئ، لكن كيب هورن استطاعت زرع الخوف في قلوب لا تعرفه. «معاناتنا (على الرغم من قصر العبور) كانت هائلة لدرجة أني أنصح كل من يتولى المحيط الهادئ قِبلة، أن يجد لنفسه طريقاً آخر غير كيب هورن».

لكن حوّاتي نانتوكت كان لهم رأي آخر؛ كانوا يعبرونه بانتظام منذ 1781، عندما قاد القبطان بول ورث الحوّاتة بيفر التي تقارب الإسكس حجماً، وسلك من هناك طريقه للمحيط الهادئ. فعلها بولارد وتشايس حتى الآن ثلاث مرات على الأقل، بالنسبة لبولارد كانت تلك المرة الرابعة أو ربما الخامسة. لكن يظل عبور كيب هورن أمراً لا يأخذه أي قبطان على انه مسلّم به، خاصة قبطان مثل بولارد، كاد أن يفقد سفينته في مياه تيار الخليج المسالمة بالمقارنة.

بعد اختفاء سراب الجزيرة من أمامهم بقليل، رأى رجال الإسكس شيئاً مريعاً لدرجة أنهم تمنوا لو كانت عيونهم تخدعهم مرة أخرى: خيطاً من الغيوم السود كالحبر قادماً من الجنوب الغربي في اتجاههم. وفي الحال، ضربت العاصفة السفينة مثل طلقة مدفع. في ظلام مخيف، جرى الرجال لإنزال الأشرعة. الغريب أن أداء الإسكس كان جيداً بشكل غير متوقع في المياه الوعرة، بشراع رئيسي عالٍ نصف مُنزل وبشراع زمام العاصفة «ركبت السفينة الأمواج مثل نورس، دون أن يصيبها حتى ما يملأ دلواً من الماء». مثلما ادّعى نيكرسون.

لكن الآن، مع هبوب الرياح الجنوبية الغربية، يلوح في الأفق خطر دفع السفينة رغماً عنها للارتطام بصخور الرأس المسننة.

t.me/qurssan

صارت الأيام أسابيع بينما تصارع السفينة الرياح والأمواج في درجة حرارة تقترب من الصفر. في هذه الدرجة من الجنوب، لا يغيب الضوء بالكامل عن سماء الليل. ومع غياب التعاقب الطبيعي للضوء والظلام، استطال العبور لما بدا وكأنه اختبار طويل رتيب لقدرة الحوّاتين على الاحتفاظ بعقولهم.

استغرق عبور الإسكس حول كيب هورن شهراً. لم يكن قبل يناير من العام الجديد، 1820، أن رأى المراقب في الأفق جزيرة سانتا ماريا، نقطة تجمع الحوّاتين قبالة ساحل تشيلي. في خليج أراوكو جنوب الجزيرة وجدوا عدة سفن نانتوكتية، بما فيها السفينة تشيلي التي أبحروا برفقتها من الجزيرة قبل خمسة أشهر.

الأخبار في الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية لم تكن على ما يرام. فمن ناحية كان الوضع السياسي في تشيلي وبيرو على شفا الانفجار. فقد خُرِّبت في السنوات الأخيرة مدن عديدة على طول الساحل في النزاع القائم بين الوطنيين، الذين يحاولون انتزاع حكم أمريكا الجنوبية من إسبانيا، والملكيين، الذين لا تزال مصالحهم مرتبطة ببلدهم الأم. رغم أن المتعنتر البريطاني وبطل البحرية لورد كوكرين كان يساند الوطنيين الذين بدأوا في الهيمنة، إلا أن المعركة لا تزال مستمرة، خاصة في بيرو. الحذر كانت كلمة السر عندما تضطر سفينة للوقوف على الساحل للتمون.

كانت أغلب السفن تعاني من موسم تحويت بائس. في حين كانت ندرة الحيتان تحافظ على أسعار زيت الحوت مرتفعة في

t.me/qurssan

نانتوكت، كانت تلك أياماً قاسية على الحوّاتين في المحيط الهادئ. بعد خروجه مع طاقمه لحصد زيت العنبر، عاد جورج سواين قبطان سفينة الإندبندنس لنانتوكت في نوفمبر، وتنبأ «لن تملأ سفينة مخازنها من الزيت في البحار الجنوبية بعد الآن». خشى أوبيد مايسي أن القبطان سواين قد يكون على حق، وقال لمذكراته: «لا بدّ من العثور على مكان جديد لا تزال فيه الحيتان كثيرة، أو ستصير أعمالنا غير جديرة بمتابعة المحاولة». بصلوات تأمل أن لا تطولهم تلك التكهنات المظلمة، عاد أفراد الإسّكس للبحر المفتوح.

بعد عدة شهور عجاف بموازاة الساحل التشيلي، تخللتها وقفة تزود بالمؤن في مدينة تالكاهوانو، بدأت الإسّكس في تلقي بعض النجاحات قبالة بيرو. في خلال شهرين، غلت المراجل بما ملأ 450 برميلاً من الزيت، ما يوازي أحد عشر حوتاً. أي أن الرجال كانوا يقتلون في المتوسط حوتاً كل خمسة أيام، وهو معدل سرعان ما أرهق الطاقم.

ولم تأت الرياح العنيفة عليهم إلا بمزيد من الإرهاق. فإن شدة الرياح ووعورة البحر جعلت كل مرحلة من عملية التحويت تتطلب ضعفي المجهود. فبدلاً من أن توفّر لهم منصة ثابتة لقطع الدهن وغلي الزيت، تمايلت الإسكس بين الأمواج الهائجة التي جعلت رفع وإنزال قوارب التحويت بأمان شبه مستحيل؛ يتذكر نيكرسون: «تضررت قواربنا كثيراً خلال رفعها من الماء، وفي أكثر من مرة تحطمت إلى أشلاء بسبب تراقص السفينة العنيف». لذا كانت القوارب المتضررة في حالة إصلاح دائم تقريباً.

t.me/qurssan

مع تزايد براميل الزيت الممتلئة في الخزانة، اعتاد خضر الأيادي على حياة التحويت الوحشية أكثر فأكثر. وأدّت طبيعة العمل التكرارية -سفينة التحويت في النهاية ليست إلا مصنعاً- إلى تجريد الرجال من عواطفهم تجاه الأعجوبة الطبيعية الهائلة المتمثلة في الحوت. فبدلاً من أن يروا ضحيتهم ككائن جبار يزن ستين طناً، بمخ يبلغ ستة أضعاف حجم مخ كل منهم (وربما ما كان أجدر بإثارة إعجاب مجتمع التحويت الذكوري، هو قضيب الحوت الذي يبلغ طوله أطول الرجال)، فضل الحوّاتون التفكير فيه على أنه، مثلما وصفه أحد المعلقين، «حوض زيت غني ذاتي الدفع». كانت الحيتان تسمّى بكم الزيت الذي قد ينتج عنها، فيقال (حوت الخمسين برميلاً). ورغم أن الحوّاتين لاحظوا بدقة عادات الكائن وسلوكه، إلا أنهم لم يبذلوا أدنى محاولة لاعتباره شيئاً آخر غير مادة خام، في مكوناتها الأساسية (الرأس، الدهن، العنبر الرمادي...إلخ) ربحٌ لهم. أما ما عدا ذلك (أطنان اللحم والعظام والأحشاء) فيُلقى ببساطة بعيداً، مشكلاً وليمة عائمة متقيحة من الفضلات تجذب الطيور والأسماك، وبالطبع القروش. وبالضبط مثلما ستتناثر جثث الجاموس المسلوخة في براري الغرب الأمريكي قريباً، تناثرت جثث الحيتان المنحورة في أعماق المحيط الهادئ أوائل القرن التاسع عشر.

حتى أخبث جوانب عملية التحويت صارت أيسر على خضر الأيادي، بعدما بدأوا في تثمين حقيقة أن كلّاً منهم صار جزءاً من عملية، مثل عمليات زراعة المحاصيل واستخراج المعادن الثمينة، صُمّمت لتعود عليهم بالربح. لهذا السبب تولد لدى الحوّاتين

t.me/qurssan

القدامى ولع خاص بعملية تصفية الدهن، آخر مراحل تحويل الحوت ذي القلب النابض والدم الحار إلى أوراق نقدية. يعترف الكاتب تشارلز نوردهوف: «إنه لأمر مريع، على الرغم من ذلك يجد فيه الحوّات المتمرس متعة. فلزخم الدخان في منخريه طيب العود، وفي قذارة الزيت يرى مستقبلاً مليئاً بالدولارات».

ولم تكن النقود دافعهم الوحيد. فكلّ حوت ميت، كل برميل زيت جديد، يعني أن البيت صار أقرب. حتى أن وقت التصفية كان في العادة الوقت الذي يطفو فيه على سطح القلوب الحنين إلى البيت. يدعي ويليام مايسي: «في مثل تلك اللحظات، تعود الزوجات والأبناء إلى الذاكرة بشوق ومحبة. ومع صوت كل إسكابة تغلق برميلاً، تتبعها الصيحة المبتهجة «أبعد البرميل»، يشعر كل منهم أن البيت يدنو. لا يسع المرء إلا ملاحظة أن أكثر لحظات الرحلة سعادة لدى الحوّاتين القدامى، هي لحظات الغلي والعودة للبيت».

وكان خلال هذين الشهرين الطويلين المرهقين قبالة ساحل بيرو، أن استلم طاقم الإسكس ما يشكل بالنسبة لأي حوّات المحفز الأعظم: خطابات من الوطن.

فبالقرب من نهاية مايو، قابلت الإسّكس سفينة جديدة قبطانها السابق دانييل راسل : الأورورا، التي ابتاها له جيدوين فولجر وأبناؤه. خرجت الأورورا من نانتوكت في اليوم التالي للكريسماس، محملة بأخبار عمرها خمسة أشهر فقط، طرفة عين أو أقل في مفهوم الزمن عند الحوّاتين. عندما خرجت الأورورا من نانتوكت كانت أسعار الزيت هي الأعلى في تاريخه،

t.me/qurssan

والناس لا يزالون يتحدثون عن الحريق في مدرسة رودا هاريس بالجزء الأسود من المدينة، الذي يُطلق عليه غينيا الجديدة، وكانوا يصطادون أسماك القدّ بمعدل مئتي سمكة لكل قارب قبالة ساحل القرية النانتوكتية سياسكونسيت.

لكن ما أثار اهتمام الرجال أكثر من غيره، كان ما قدمه القبطان دانيل راسل لضابطه السابق بولارد، من جعبة خطابات وكومة جرائد. بعدما استخرج الضباط خطاباتهم، تُركت البقية بين أيدي الطاقم. يتذكر نيكرسون: «كان من المسلي مشاهدة خائبي الأمل منا الذين لم يتلقوا أيّة خطابات. كانوا يترصدون خُطانا على سطح السفينة بينما نقرأ خطاباتنا، ويجلسون بجوارنا، وكأن فيها ما يفيدهم». وبعدما قنطوا من معرفة أي شيء قد يخص عائلاتهم، لجأ تعيسو الحظ هؤلاء بحثاً عن العزاء في ما سماه نيكرسون «طيات الصحف اللامبالية». من جهته، قرأ نيكرسون الصحف مرات من الكثرة حتى أنه حفظ ما فيها عن ظهر قلب.

إن لقاء الإسّكس بالأورورا وفر لبولارد فرصة الحديث مع قبطانه السابق ذي الأعوام الأربعة والثلاثين من العمر. كانت الأورورا أكبر بكثير، تحفة فنية هندسية، ستعود إلى نانتوكت بعد عامين بخزان زيت ممتلئ. سيقال لاحقاً أن القبطان دانيل راسل عندما رحل عن الإسّكس، قد أخذ حظها معه.

أحد المواضيع التي ناقشها القبطانان كان الاكتشاف الحديث لمنطقة تحويت جديدة. وكأنما أراد أن يدحض توقعات سواين المقبضة عن زوال حيتان العنبر من المحيط الهادئ، فقد

سبق وأن خاض جورج واشنطن جاردنر قبطان سفينة جلوب في 1818 في مجاهل المحيط أكثر مما جرؤت أية سفينة تحويت نانتوكتية أن تفعل من قبل؛ ألف ميل أو أكثر من ساحل بيرو، إلى أن بلغ رقعة من المحيط مليئة بحيتان العنبر. وعاد إلى نانتوكت في مايو 1820 بأكثر من ألفي برميل من الزيت.

عُرف اكتشاف جاردنر بعدها باسم الأرض البحرية، وصار موضوع حديث الحوّاتين الأوحد طوال ربيع وصيف 1820. بعدما عرف بولارد أن الحيتان تظهر في الأرض البحرية خلال نوفمبر، قرر أن يتوقف للتموين مرة أخرى في أمريكا الجنوبية، حيث سيؤمن لسفينته الكثير من الفاكهة والخضروات والمياه، يتبعها بوقفة سريعة في جزر غالاباغوس حيث سيحرز كماً كبير من السلاحف العملاقة (المعروفة بجودة لحمها)، بعدها سيخرج بسفينته متولياً هذه الوجهة الجديدة من المحيط.

في وقت ما من سبتمبر، ستقف الإسكس لوهلة في أتاكاميس؛ وهي قرية صغيرة في الإكوادور الهندية يسكنها تقريباً ثلاث مئة هندي وإسباني، في شمال خط الاستواء القريب. بجوارهم كانت ترسو سفينة أشباح، الحوّاتة جورج من لندن إنجلترا. باستثناء القبطان بنيفورد واثنين آخرين، أصيب كل أفراد طاقم الجورج بحالة خطيرة من الإسقربوط، بعد قضاء وقت طويل في البحر. حالتهم كانت من الشدة إلى حدّ أن القبطان بنيفورد استأجر منزلاً على الشاطئ وحوله إلى مستشفىً لرجاله. هنا كان دليل واضح على المخاطر التي تنتظر من يقضون فترات طويلة في البحر المفتوح.

t.me/qurssan

بالرغم من فقرها، كانت أتاكاميس -سمّاها الحوّاتون تاكاميس- قرية جميلة، إلى حد أنها بالنسبة لبعض البحارة بدت كجنة عدن. سيقول عنها فرانسيس أولمستيد الذي ستحط سفينته هناك في ثلاثينيات القرن التاسع عشر: «لم يكن في وسعي إلا الإعجاب بالكثرة والنمو لكل ما ينتمي لمملكة الخضروات؛ أكثر ثمار الأناناس حلاوة كانت في كل مكان بين أيدينا، بينما ترفرف وريقات شجر جوز الهند والموز مع النسيم. يوجد هنا برتقال وليمون حامض وشتى الفواكه متناثرة في وفرة غير مفهومة. أشجار التين أيضاً بدأت تنمو في الأنحاء، أما نباتات النيلة فكانت تنمو من تلقاء نفسها مثل الأعشاب العادية».

لكن كانت هناك أيضاً وحوش تجوس في أعماق الغابة الكثيفة التي تحيط بالمدينة، بما فيها النمور المرقطة. ولكي يحموا أنفسهم منها ومن البعوض وبراغيث الرمال، فقد عاش أهل القرية في أكواخ من البامبو قشية الأسقف، تستند إلى أعمدة ترفعها عن الأرض حوالي عشرين قدماً.

كانت أتاكاميس شهيرة بصيد الطيور. بعدما وضعت سفينة التحويت النانتوكتية لوسي أدامز مراسيها بقليل، خرج بولارد مع ربانها شبائيل هاسي ذو السبعة والثلاثين عاماً، فيما وصفه نيكرسون ببعثة صيد الديوك الرومية؛ تجهيزاً لما سيستغرق اليوم كله، فقد خبز طباخا السفينتين الفطائر والأطعمة الشهية ليأخذها الصيادان معهما إلى البراري. افتقر الصيادون لما يخرجون به الطيور من مكامنها. سيتذكر نيكرسون: «لكوني الأصغر، فقد وقع الاختيار عليّ لأقوم بدور كلب الصيد». وهكذا

خرجوا «بين المروج والغابات إلى ساحات الصيد».

بعد ثلاث ساعات سمعوا «أكثر عواء مريع يمكن تخيّله». حاول القبطانان بأقصى ما في وسعهما تجاهل العواء وتابعا الطريق، حتى بات من الواضح أنهما متجهان إلى مصدره. تساءل نيكرسون، ماذا قد يكون؟ نمر متعطش للدماء مثلاً؟ لم ينطق أيّ منهما بكلمة. في النهاية، توقف صيادا الحيتان النبيلان و«تبادلا النظرات للحظة، وكأن كل منهما تمنى قول شيء، لكن الحرج منعه أن يكون أول من يصرح به». وكأن تلك كانت هي الإشارة المنتظرة، استدارا وذهبا في اتجاه المدينة، قائلَين دون اهتمام أن قيظ ذلك المساء الشديد يجعل الصيد مملاً، وأنهما سيعودان مرة أخرى عندما يعتدل الطقس.

لكن هذا لم يخدع كلب صيدهما المرتجل، كتب نيكرسون «كانا خائفين من أن حيواناً مفترساً ما قد يلتهمهما، وأني كنت أصغر من أن أتمكن من العودة لأخبر زوجتيهما القلقتين بما حل بهما». في رحلة لاحقة لذلك المكان، سيكتشف نيكرسون أن مصدر الصوت الذي زرع الرعب في قلبي قبطاني التحويت كان طائر ضئيل غير مؤذ أصغر من طيور القرقف.

في الأتاكاميس، حدث شيء سيؤثر بعمق على معنويات الطاقم: هجر البحار الإفريقي الأمريكي هنري دي ويت السفينة.

لم تكن في فعلة دي ويت أية مفاجأة، فلطالما هجر البحارة سفن التحويت. فما أن يُدرك أخضر اليد إلى أي مدى سيكون ما يتقاضاه قليلاً، كثيراً ما كان يضع نهاية لرحلته، لا يوجد ما

t.me/qurssan

يحفز على المتابعة إذا توفّرت أمامه خيارات أفضل. لكن توقيت الهجر كان أسوأ ما يمكن على القبطان بولارد. بما أن كل قارب كان يحتاج لطاقم من ستة رجال، فلن يبقى على السفينة إلا اثنان من الحراس كلما خرج البقية للصيد. لا يكفي رجلان بأية حال لرعاية سفينة مربّعة الأشرعة بحجم الإسكس. إن قامت عاصفة، سيكون من المستحيل تقريباً عليهم طيّ الأشرعة. على الرغم من ذلك، لم يكن أمام بولارد، الذي يرغب في الإسراع للوصول إلى الأرض البحرية في نوفمبر، بديل سوى الخروج إلى البحر بأيدٍ ناقصة. هكذا كان على الإسكس أن تبحر مبتعدة عن أمريكا الجنوبية أكثر مما فعلت في أي وقت من قبل، ينقصها عضو طاقم وقارب تحويت.

في الثاني من أكتوبر، خرجت الإسكس متولية جزر غالاباغوس الواقعة على بعد ست مئة ميل تقريباً من ساحل الإكوادور. يشير إليها بعض البحارة باسم «غاليباغوس»، وتُعرف أيضاً بإنكانتاداس Encantadas، التي تعني المسحورة أو الملعونة باللغة الإسبانية. كانت التيارات القوية غير المتوقعة التي فارت باستمرار حول نتوءات الجزر البركانية الأرضية تسبب إحساساً زائفاً أنها تتحرك.

حتى قبل اكتشاف الأرض البحرية، كانت غالاباغوس وجهة تموين مفضلة للحوّاتات؛ فإن بعدها الشديد عن القارة جعلها ملجأً آمناً من الاضطرابات السياسية في أمريكا الجنوبية. وكانت تقع أيضاً في نطاق تزوره حيتان العنبر باستمرار. في 1793، قبل أن تدور البيفر حول كيب هورن بعامين، زار

t.me/qurssan

غـالاباغـوس القـبطانُ جـيـمس كـولنت، الذي كـان في رحلة استكشافية تبحث إمكانية التحويت في المحيط الهادئ. ما وجده فيها كان مزيجاً من المخدع الخاص لحيتان العنبر والحضانة لأطفالها. وقد شهد وطاقمه أمراً ربما لم يشهده إنسان قبلهم: جماع حيتان العنبر، حيث يعوم الذكر الضخم أعلى وأسفل الأنثى. ولاحظوا أيضاً وجود أعداد كبيرة من الحيتان الصغيرة، «ليست أضخم من خنزير بحر صغير»، مثلما كتب كولنت، «أميل إلى القول إننا كنا حينها في نقطة التقاء حيتان العنبر من سواحل المكسيك وبيرو وخليج بنما، التي جاءت هنا للتكاثر». وأشار إلى أن بين كل الحيتان التي قتلوها كان هناك ذكر واحد.

ملحوظة كولنت توافق نتائج آخر الأبحاث عن حيتان العنبر في غالاباغوس. هال وايتهيد، واحد من أهم خبراء حيتان العنبر في العالم، بدأ في متابعة حيتان تلك المنطقة عام 1985. باستخدام قارب شراعي مجهز بمعدات تكنولوجية حديثة ومعقدة، رصد وايتهيد الحيتان في المياه ذاتها التي جابتها الإسكس قبل 180 عاماً. ووجد أن قطيع حيتان العنبر التقليدي، الذي يتراوح عدده ما بين الثلاثة حيتان إلى العشرين حوتاً، يتكون بشكل حصري تقريباً من الإناث الناضجات وصغار الحيتان. أما الذكور فلم تشكّل أكثر من 2٪ من نسبة الحيتان التي راقبها.

تتعاون الإناث فيما بينها لرعاية الصغار. تتنقل عجول الحيتان بين أنثى ناضجة وأخرى طوال الوقت، هكذا يكون هناك دوماً أحد الناضجين لرعاية الصغير بينما تتغذى الأم تحت آلاف

t.me/qurssan

الأقدام من سطح المحيط على الحبار. وما أن يرفع حوت ناضج ذيله مُشرعاً في غوص طويل، يسبح العجل لأقرب ناضج آخر.

يهجر الذكور الصغار الأسرة في السادسة من العمر تقريباً، وتسبح إلى دوائر العرض العليا حيث المياه أبرد. حيث تعيش هناك فرادى أو برفقة ذكور آخرين، ولا تعود لمياه الولادة الدافئة إلا في النصف الثاني من عشريناتها. وحتى ذلك الحين، تظل عودتها مترددة متقطعة؛ يقضي الذكر عندها حوالي ثماني ساعات مع أية مجموعة ينضم إليها، قد يتزاوج، لكنه لا يكوّن أية صلات عميقة، ثم يعود مرة أخرى للمياه الباردة في الأعالي. قد يصل عمر الحوت لستين أو سبعين عاماً.

تشبه شبكات حيتان العنبر الأنثوية العائلية إلى حد كبير مجتمع الحوّاتين، الذين تركوا بيوتهم في نانتوكت؛ ففي كلا المجتمعين لا ينفكّ الذكور عن الترحال. وبتكريسهم أنفسهم لقتل حيتان العنبر، فقد حاكى النانتوكتيون نظام العلاقات الاجتماعية لضحاياهم ذاتها.

أثناء عبورهم لغالاباغوس الذي استغرق ستة أيام، قتل طاقم الإسكس حوتين، رافعين مخزونهم إلى سبع مئة برميل؛ نصف حمولة السفينة تقريباً. لهم الآن ما يزيد عن السنة في البحر، وهم إن قابلوا بعض الحظ السعيد في الأرض البحرية، فستكون هناك فرصة للعودة إلى نانتوكت خلال عام ونصف. لكن مع وصولهم إلى جزيرة هود في أقصى شرق جزر غالاباغوس، لم يعُد همهم الرئيسي قتل الحيتان، وإنما إبقاء سفينتهم طافية، إذ وجدوا تسريباً في الإسكس.

بين شـواطئ خليج ستيفـن البيض كـمـا العظام، والتي بدت وكـأنهـا تتوهج في الليل، أشـرف الضبـاط على إصـلاح الإسّكس. ففي حماية مرسى مرتجل آمن من الحوادث، مالت الإسّكس على جانبهـا كاشـفـة عن المنطقـة المعطوبة. بعد ستّ سنوات، سيقـوم القـبطان سـيـث كـوفـين بالـعـمليـة نفسـهـا لإصـلاح تسـريب في الأورورا، السـفـينة التي كـانت قـد عُـهـد بهـا في رحلتهـا البكر للقـبطان دانيـيل راسل. انـزعج كوفين من اكتـشـاف أن سفـينتـه الجديدة متآكلة، وشرع في عملية سدّ الشقوق باستخدام مزيج من الطبـاشـيـر والطين، مـادة دهنيـة كانت تسـتـخـدم في تشـحـيم عوارض السفن. ولربما عانت الإسّكس العجوز من مشاكل شبيهة في قعرها.

جذبت انتـبـاه نيكرسـون بعدهـا جـزيرة هـود، فيستذكر: «بدت الصـخـور وكـأنهـا كانت وقودَ نار مسـتـعـرة، وحيثمـا وُجدت تربة، تجـدهـا وكـأنهـا سـعـوطٌ جافٌ». وبمـا أن سطح جـزيرة هـود كـان مـغطى بالحـصى والصـخـور، فـإن مـجـرد مـحـاولة المشي فـوق أحـجـارهـا البـركـانيـة التي ترنّ بصـوت مـعـدني عليـهـا مع ضـغـط الأقدام، كانت في غاية الصعوبة.

في أربعينيات القرن التاسع عشر، تأثر هرمان ملفيل كثيراً بجـزر غالاباغوس، فكتب عنها سلسلة من المشاهد بعنوان الجزر المسـحـورة (The Encantadas). بالنسـبـة لـه، كـان هنـاك شيء مـا غيـر آدمي إلى حدّ مـرعب في هذه الجـزر. فقـد وصـفهـا بالمكان الذي «لا يمسّه التغيّر»، وتحدّث عن كونها غيـر صـالحـة للسكنى أبداً.

t.me/qurssan

«يمرّ به خط الاستواء، فلا يعرف ذاك الأرخبيل خريفاً ولا ربيعاً. الخراب نفسه يقف عاجزاً أمام جزر ليست أكثر من ثمالة نيران. في حين يُحيي الغيثَ الصحاري من الموت، لا يمسّ ذاك الأرخبيل المطر. ومثل يقطينة سورية تُركت لتذبل تحت الشمس، يُصدعّ أرضه جفافٌ أبدي تغذّيه سماء مستعرة. تنوح أرواح الجزر المسحورة وتصرخ: (ارْحَمْنِي، وَأَرْسِلْ لِعَازَرَ لِيَبُلَّ طَرَفَ إِصْبَعِهِ بِمَاءٍ وَيُبَرِّدَ لِسَانِي، لأَنِّي مُعَذَّبٌ فِي هذَا اللَّهِيبِ[1])».

من أكثر الأشياء جاذبية بالنسبة لمرتادي البحار على جزر غالاباغوس: السلاحف. زار عالم التاريخ الطبيعي تشارلز داروين عام 1835 جزر غالاباغوس على متن سفينة البيغل. ولاحظ هناك أن السلاحف على كل جزيرة، مثل عصافيره الشهيرة[2]، تختلف بدرجة ملحوظة عن بعضها في ألوانها وأشكال درقاتها. كانت السلاحف مثيرة لاهتمام ديفيد بورتر قبطان فرقاطة البحرية الأمريكية والتي اسمها إسّكس أيضاً عام 1813، لكن شأنه فيها كان مختلفاً، إذ حمل منها كمّاً كبيراً –ما

---

(1) الإنجيل – سفر لوقا 16:24. [المترجم]

(2) عصافير داروين Darwin's finches: عدة أنواع من الطيور تعيش على جزر غالاباغوس، لاحظ تشارلز داروين في رحلته للجزر أنها تختلف عن بعضها إلى حد ملحوظ رغم أنها كلها تعود إلى سلف واحد، ممّا ساعده على الوصول إلى نظريته عن التطور والانتقاء الطبيعي. [المترجم]

يقـرب من أربعة أطنان- لإطعام رجاله خلال رحلتهم إلى جزر ماركيساس.

مع وصول سفينة التحويت إسّكس إلى تلك الجزر بعد سبعة أعوام، كان البحارة قد ابتدعوا نهجاً عملياً راسخاً يعرف باسم «الترينة turpining». مسلّحين بأحزمة قماشية، ينتشر الملاحون في أرجاء الجزيرة المستهدفة، متتبعين آثار خطوات السلاحف العميقة على السطح الصخري، آملين أن يقودهم الأثر لضحاياهم. متوسط وزن السلحفاة هو 35 كيلوجراماً، ولكن ليس من الغريب إيجاد واحدة تزن 180 كيلوغراماً أو أكثر. وإن وجد البحّار سلحفاة أكبر من قدرة الفرد على حملها ينادي: «تانهوا!»، تحريفاً لكلمة الوامبانواج «تاونور!». لكن في أغلب الأحيان يحمل كل رجل واحدة. بعدما يقلب السلحفاة على ظهرها، ويثبتها بصخرة كبيرة تمنعها من الاعتدال على أقدامها، يثبت الحوّات أطراف الأحزمة في أقدام السلحفاة، ثم يحملها على ظهره. إن المشي بسلحفاة تزن 35 كيلو على ظهر المرء على أرض جزيرة هود الصخرية لعدة أميال في درجة حرارة استوائية تتجاوز الأربعين؛ ليس أمراً سهلاً، خاصة وأن البحار الواحد يتُوقع منه إحضار ثلاث سلاحف في اليوم. اعتبر نيكرسون أنّ الترينة أصعب عمل اضطر للقيام به على الإطلاق، خاصة وأن السلحفاة «تحاول التملص طوال الوقت» بينما هي معلقة على ظهر البحار المتعرق.

أثناء وجودهم في جزيرة هود، وقع بينجامين لورنس، موجّه قارب أوين تشايس، في مشكلة. فبعد اصطياده لسلحفاة، ذهب

t.me/qurssan

فيما حسب أنه اتجاه السفينة، ليدرك بعد فوات الأوان أنه ذهب في الاتجاه المعاكس. وفي النهاية تخلى عن السلحفاة وجرى إلى رمال الشاطئ الحارقة وبدأ في تتبع خطواته راجعاً من حيث أتى.

قاربَ اليومُ على نهايته ولم تزل الإسكس غائبة عن مدى بصره، وبدأ لورنس يعاني من شدة الظمأ. عثر على سلحفاة أخرى، فشرع في قطع رأسها الشبيه برؤوس الأفاعي. كان الدم المنبثق من عنقها المنحور بارداً بشكل غريب بدرجة (16°) تحت حرارة الشمس اللاسعة (43°). بعدما شرب حتى ارتوى، ترك لورنس السلحفاة الميتة على الشاطئ وتابع بحثه عن السفينة. وجدها أخيراً ساعة الغسق، لكنه خوفاً مما سماه نيكرسون: «السخرية التي ستصيبه لعودته خاوي الوفاض»، هرع إلى دواخل الجزيرة مرة أخرى بحثاً عن سلحفاة. ولم يعد إلا بعد حلول الظلام الكامل، حاملاً سلحفاة، متعثراً على الشاطئ، فتلقاه الرجال الذين خرجوا بحثاً عنه بترحاب.

في الأيام الأربعة التالية، جمع أفراد الطاقم من جزيرة هود 180 سلحفاة. ثم انطلقت الإسكس إلى جزيرة تشارلز القريبة. سمحت الرحلة البحرية القصيرة لنيكرسون أن يراقب تلك المخلوقات التي كانت أغلب الوقت مكدسة مثل الحجارة في المخزن، على الرغم من أن بعضها تُرك ليتجول على سطح السفينة. من الأسباب التي جعلت الحوّاتين يفضلون سلاحف غالاباغوس، كانت قدرة تلك المخلوقات على البقاء حية لأكثر من عام بلا طعام ولا ماء. ولم يكن لحم السلاحف فقط ممتلئاً

لذيذاً بعد كل ذلك الوقت، وإنما كانت تنتج أيضاً ما يقرب من خمس كيلوجرامات من الدهن الذي وصفه نيكرسون بأنه «رائق ونقي وذو نكهة غنية مثل أفضل زبدة صفراء».

أصر بعض البحارة أن السلاحف لا تشعر بآلام الجوع إبان وجودها على الحوّاتة، لكن نيكرسون لم يكن متأكداً من ذلك. بينما تتابع السفينة رحلتها، لاحظ نيكرسون أنها تلعق كل شيء تقريباً على السطح. تضوّر السلاحف التدريجي لا ينتهي إلا بعد نحرها لتؤكل.

على جزيرة تشارلز أنشأ الحوّاتون مكتب بريد مرتجل؛ صندوق بسيط أو برميل تحميه درقة سلحفاة عملاقة، يمكن ترك البريد فيه ليُنقل إلى نانتوكت. أثناء الحرب عام 1812، استغل القبطان ديفيد بورتر هذا المكتب ليحصل على أفضلية تكتيكية من المعلومات المستقاة من الخطابات التي تركها قباطنة التحويت البريطانيين. أما رجال الإسكس، فجزيرة تشارلز قدمت لهم فرصة للرد على الخطابات التي أحضرتها لهم الأورورا. وجمعوا من هناك أيضاً مئة سلحفاة أخرى. ادعى نيكرسون أن هذه السلاحف، التي كانت نادرة بشكل مُحبط، كانت الألذّ في كل جزر غالاباغوس.

وكان على جزيرة تشارلز أن حصلوا على سلحفاة عملاقة تزن 270 كيلوغراماً. احتاجت لست رجال لينقلوها إلى الشاطئ فوق أعمدة متقاطعة. لا أحد يعرف كم قد يبلغ عمر سلحفاة بهذا الحجم، لكن في جزيرة البيمارل القريبة، توجد سلحفاة عملاقة تُدعى بورت رويال توم، حُفر على درقتها كم لا يُحصى

t.me/qurssan

من الأسماء والتواريخ، أقدمها يعود لعام 1791 (ظل توم على قيد الحياة حتى عام 1881).

سجل نيكرسون، الذي أبدى اهتماماً داروينياً بالطبيعة، ملاحظات دقيقة تخصّ كثيراً من الكائنات الأخرى التي تسكن جزيرة تشارلز، بما فيها السلاحف الخضر والبجع ونوعين من الإغوانة. لكن في يومه الأخير على الجزيرة، هزّ نيكرسون حدثٌ أقرب للنظرة الملفيلية من النظرة الداروينية.

في الثاني والعشرين من أكتوبر، قرر موجّه القارب الإنجليزي توماس تشابل أن يدبر مقلباً. دون أن يخبر أحداً، أحضر تشابل اللعوب (الذي كان بحسب نيكرسون «مولعاً بالمزاح أياً كان ثمنه») مشعل نيران معه من السفينة. وبينما يجوس الآخرون في الجزيرة مفتشين عن سلاحف، أشعل النار في شجيرات صغيرة. ولما كان ذلك في قلب موسم الجفاف، فقد خرجت النار بسرعة عن السيطرة، وحاصرت السلاحف مثلما حاصرت الصيادين، قاطعة عليهم طريق العودة إلى السفينة. لم يكن هناك بدّ من الجري عبر جسم النار نفسه. ورغم أن شعورهم وأطراف ملابسهم قد سُفعت، لكن لم تحدث إصابات خطيرة، على الأقل ليس لرجال الإسكس.

مع عودتهم للسفينة، كانت النيران تغطي كامل الجزيرة. كان الرجال حانقين من فكرة أن أحدهم هو مرتكب ذلك الفعل الغبي الشنيع، أكثرهم غضباً كان بولارد. يحكي نيكرسون: «غضب القبطان كان غير محدود، وأقسم أن يصب انتقامه على رأس مشعل الحريق ما أن يعرفه». وخوفاً من عقاب القبطان، لم

t.me/qurssan

يكشف تشابل عن دوره في إضرام ذلك السعير إلا بعدها بكثير. يعتقد نيكرسون أن الحريق قتل آلاف من السلاحف والطيور والعظاءات والثعابين.

تركت الإسّكس على الجزيرة بصمة ستدوم طويلاً. عندما عاد نيكرسون لجزيرة تشارلز بعد سنوات كثيرة، كانت لا تزال أرضاً خراباً سوداء. «أينما كانت النيران مشتعلة، لم يظهر شجر ولا نباتات ولا أعشاب منذ ذلك الحين». ستصبح تشارلز من أوائل الجزر في أرخبيل غالاباغوس فقداناً لسكانها من السلاحف. رغم قيامهم بدورهم في خفض عدد سكان العالم من حيتان العنبر، إلا أنهم على هذه الجزيرة البركانية الصغيرة، قاموا بإبادة أنواع كاملة من الوجود.

عندما رُفعت المرساة في الصباح التالي، ظلت تشارلز مستعرة. في الليل، بعد إبحار يوم كامل غرب خط الاستواء، كان لا يزال بوسعهم رؤيتها تحترق في الأفق. بوهج أحمر لجزيرة تحتضر في الخلفية، خاض رجال الإسّكس العشرون أقاصي المحيط الهادئ، بحثاً عن حوت آخر ليقتلوه.

t.me/qurssan

الفصل الخامس
الهجوم

حتى في عصرنا هذا، عصر السفر فائق السرعة والتواصل اللحظي، لا يزال استيعاب مدى اتساع المحيط الهادئ أمراً عسيراً. فإن أبحرت غرباً من بنما [أمريكا الوسطى]، ستحتاج لقطع 11,000 ميل للوصول إلى شبه جزيرة ملايو [ماليزيا، الجنوب الشرقي لقارة آسيا]، تقريباً أربعة أضعاف المسافة التي ابحرها كولومبوس لبلوغ العالم الجديد. وإن أبحرت من مضيق بيرنغ [المضيق الفاصل بين قارتي آسيا وأمريكا الشمالية] ستحتاج لقطع 9600 ميل لبلوغ أنتاركتيكا [القارة القطبية الجنوبية]. الهادئ عميق أيضاً؛ تختبئ تحت سطحه الأزرق تشكيلة مدهشة من الجبال، بينها وديان هابطة حتى عمق يربو على الستة أميال من المياه المظلمة. جيولوجياً، منطقة حزام النار حول المحيط الهادئ، بزلازلها وبراكينها، هي الأكثر نشاطاً في العالم؛ تظهر فيها الجزر وتختفي كل يوم. وصف هرمان ملفيل هذا المحيط البالغة مساحته 64 مليون ميل مربع أنه «قلب الأرض النابض بالموج».

بحلول السادس عشر من نوفمبر من عام 1820، كانت الإسّكس قد أبحرت أكثر من ألف ميل غرب غالاباغوس، متتبعة

t.me/qurssan

خط الاستواء وكأنه شريان حياة خفي يقود السفينة إلى قلب أكبر محيط في العالم. كان حوّاتو نانتوكت يألفون المحيط الهادئ، أو على الأقل جزءاً منه. على مدار العقود الثلاثة السابقة، كان ساحل أمريكا الجنوبية فناء لعبهم الخلفي. وعرفوا أيضاً حافته الغربية بدرجة كبيرة. في مستهل هذا القرن، خرجت الحوّاتات الإنجليزية، بقيادة قباطنة نانتوكتيين في الغالب، ثم دارت حول رأس الرجاء الصالح ومضت لتبحث عن الحيتان بمحاذاة أستراليا ونيوزيلندا. في 1815، مات حزقيا كوفين، والد أوين ابن خالة بولارد، مصاباً بالحمى أثناء وقفة تزويد بالمؤن في جزيرة تيمور، بين غينيا الجديدة وجاوا الإندونيسية.

متمدداً بين جزيرة تيمور والساحل الغربي لأمريكا الجنوبية، يقع وسطُ المحيط الهادئ، ما وصفه أوين تشايس أنه «محيط غير مطروق تقريباً». ربما حوى دليل القبطان بولارد الملاحي خطوط طول وعرض جزر لها أسماء مثل (أوهيفاهاو، ماروكيني، أويهي، مووي)، لكن باستثناء ذلك، وباستثناء بعض الشائعات غير المبهجة عن وحشية السكان الأصليين وأكلهم للحوم البشر، لم يكن هناك شيء آخر.

كل هذا كان على وشك أن يتغير. ما لا يعرفه بولارد أنه قبل أسابيع قليلة، بالتحديد في التاسع والعشرين من سبتمبر، وقفت سفن التحويت النانتوكتية إيكويتر وبالاينا لأول مرة في جزيرة أواهو من جزر هاواي. وفي 1823 سيكون ريتشارد مايسي أول نانتوكتي يتوقف لتموين سفينته في جزر سوسايتي Society

t.me/qurssan

Islands» المعروفة الآن باسم بولينيزيا الفرنسية. لكن بحسب ما توفر لبولارد ورجاله من معرفة في نوفمبر 1820، كانوا على حافة عالم مجهول تحفه مخاطر لا يمكن حتى تخيلها. وإن استطاعوا تجنب مصير السفينة التي كاد رجالها أن يموتوا بالإسقربوط في أتاكاميس قبل حتى أن يبلغوا سواحل أمريكا الجنوبية، لن يتبقّى لهم وقت للاستكشاف الحر. لقد استغرقوا أكثر من شهر ليقطعوا كل تلك المسافة، وسيستغرقون المدة نفسها على الأقل ليعودوا. ليس معهم للتحويت إلا شهور قليلة قبل أن يتوجب عليهم العودة لأمريكا الجنوبية وفي النهاية إلى نانتوكت.

اتضح حتى الآن، أن كل الحيتان التي لمحها المراقب مراوغة إلى حد محبط. يروي نيكرسون: «لم يحدث خلال تلك الفترة ما يستحق الذكر، باستثناء مطاردة بعض أسراب الحيتان بلا نتيجة تذكر». انتشر التوتر بين ضباط الإسكس، ما دفع أوين تشايس لإجراء تعديلات في نظام قارب تحويته. عندما اقترب ورجاله من حوت في السادس عشر من نوفمبر، كان تشايس، وليس موجّه دفته بينجامين لورنس، من حمل الحربون. ذلك كان تبدلاً جذرياً في مسار الأحداث الطبيعي، ومهيناً بالنسبة للورنس. لا يرفع الضابط الحربون إلا إن كان قد فقد الثقة في قدرة موجّه دفته على إصابة الحوت. يحكي ويليام كومستوك عن واقعتين غلب فيهما على الضباط التقزز من محاولات موجّهي قواربهم الفاشلة حتى أنهم أمروهم بالرجوع للخلف وحملوا الحديدة بأنفسهم. كتب كومستوك عن أحدهم الذي صرخ: «من أنت؟

مـاذا أنت يا حثـالة نانتوكت البـائسـة؟ لست إلا طفـلاً باكيـاً من تشـيـمني كورنـر. إنك لخائف من الحوت بحق نبتـون». وعندمـا انفجـر الموجّه في البكاء انتزع الضـابط منه الحربون وأمره بتولي مجداف التوجيه.

بضابطه الأول في المقدمة وموجّه دفته منفيّ في آخره، دنا القارب من رقعة مياه تنبـأ تشـايس أن الحوت سيخـرج للسطح فيـهـا. كان تشـايس، بكلمـاته «واقـفـاً في الصدارة والحـربون في يدي، قـابضـاً عليه بقوة، متوقعـاً في كل لحظة خروج أحد أفراد القطيع الذي نطارد لتنال منه رميتي». خرج الحوت بالفعل، لكن لسوء الحظ أسفل القـارب مبـاشـرة، ملقيـاً تشـايس وطاقمـه في الهواء. بـالضـبط مـثلمـا حدث في محاولتهم الأولى لقـتل حوت قـبـالة سـاحل جـزر فـوكـلاند. وجـد تشـايس ورجـالـه أنفسـهـم متشبثين بحطام قارب تحويتهم.

مع قلة قـوارب التـحويت الإضـافيـة على السطح، كان يُتوقع من ضبـاط الإسكس بعض الحـذر. لكن الحـذر، على الأقل حينمـا يتـعلق بمطـاردة الحيـتـان، لم يكن في قـامـوس الضـابط الأول. كرجل يحفظ عن ظهـر قلب القـول المأثور «حوت مـيت أو قـارب مسحوق»، يحتفي تشـايس بالمخاطرة في عـالم التحويت، فتجده يصفهـا في كتابته «مهنة التحويت تتطلب طموحاً عظيمـاً، وتثير في النفس حماساً شريفاً، لا مكان فيها لرجل ضعيف».

بعد أربعـة أيام، في العشـريـن من نوفمـبـر، وعلى بعد 1500 ميل بحريّ غرب غالاباغوس و40 ميلاً جنوب خط الاستواء، رأى المراقب نافورة. كان ذلك في الثامنة من صباح يوم رائق مشمس،

t.me/qurssan

بلا رياح إلا نسيم رقيق؛ كان يوماً مناسباً لقتل الحيتان.

وما أن وصلوا إلى مسافة نصف ميل عن القطيع، حتى أبطأ حماة السفينة -الذين صاروا اثنين- سرعتها بتوجيه الشراع الرئيسي إلى الوراء، ونزلت القوارب الثلاثة إلى الماء. وصدح صوت الحيتان الغافلة عما ينتظرها.

وجه تشايس رجاله ليجدّفوا إلى بقعة بعينها، حيث انتظروا «بمشاعر مضطربة»، متفرسين في الماء بحثاً عن ظل حوت عنبر على وشك الانبثاق. يروي لنا تشايس مرة أخرى أنه من كان يحمل الحربون، وبسرعة خرج حوت صغير أمامهم وأطلق نافورته. استعد الضابط الأول لإطلاق حربونه، ولكنه للمرة الثانية وفي أيام قلائل، وقع في مشكلة.

كان تشايس قد أمر لورنس، موجّه قاربه السابق، أن يوجّه القارب مقترباً من الحوت. فعل لورنس مثلما أُمر، واقترب إلى درجة أن الحوت، بعدما اخترقه الحربون، هلع، وبحركة عنيفة ضرب القارب المُرَقع بذيله فشقّ جانبه. مع تسرب المياه إلى القارب، قطع تشايس حبل الحربون بضربة بلطة وأمر رجاله بحشر قمصانهم ومعاطفهم في الفتحة. ثم جدّفوا عائدين للسفينة، تسلقوا إلى سطحها، ورفعوا إليهم القارب.

بحلول هذا الوقت، كان طاقما قارب بولارد وجوي قد اشتبكا بحيتان. غاضباً من سقوطه خارج السباق مرة أخرى، بدأ تشايس في العمل على قاربه المحطم مهتاجاً، آملاً إصلاحه، بينما لا تزال هناك حيتان للقتل. رغم أنه كان بإمكانه تجهيز وإنزال القارب الاحتياطي (الذي حصلوا عليه في جزر الرأس

t.me/qurssan

الأخضر، ويستقر الآن معلقاً في الربع الخلفي)، شعر تشايس أن إصلاح القارب المتضرر وذلك بشد بعض الأقمشة على الفتحة سيكون أسرع من تجهيز الآخر. وبينما كان يثبت بالمسامير حواف النسيج في خشب القارب، كان توماس نيكرسون، مجدّفه الأخير ذو الخمسة عشر عاماً، يدير عجلة دفة الإسكس موجّهاً السفينة تجاه بولارد وجوي، اللذين سحباهما حوتاهما لأميال في اتجاه الريح. وكان في تلك اللحظة أن رأى نيكرسون شيئاً قبالة ميسرة المقدمة.

ما رآه كان حوتاً، حوت عنبر عملاق، أضخم من كل ما قابلوا حتى الآن، ذكرٌ يبلغ طوله خمسة وثمانين قدماً بحسب تقديرهم، ويزن قرابة الثمانين طناً. كان على بُعد أقل من مئة ياردة، قريباً لدرجة انهم رأوا بجلاء رأسه العملاق ذا الندوب مصوباً نحو السفينة. لكنّهم لاحظوا أن هذا الحوت لم يكن ضخماً فحسب، بل كان يتصرّف بغرابة. فبدلاً من أن يهرب هلعاً، كان يقترب طافياً ببطء على سطح الماء، نافخاً من حين لحين المياه من فتحته، وكأنه يخبرهم أنه يراقبهم. بعد نفختين أو ثلاث، غطس الحوت، ثم خرج على بعد خمس وثلاثين ياردة من السفينة.

وحتى بعد أن صار على مرمى حجر من الإسكس، لم ير تشايس في الحوت تهديداً. كتب «لم نجد في مظهره أو سلوكه في البداية ما يثير الانتباه». ثم فجأة شرع الحوت في الحركة. تحرك ذيله العملاق البالغ عرضه عشرون قدماً لأعلى ولأسفل. ببطء في البداية، مع قليل من التهادي يميناً ويساراً، ثم بدا

t.me/qurssan

يتسارع حتى صارت رغوة المياه تلتف مثل التاج الأبيض حول رأسه الذي يشبه البرميل الهائل، متولياً ميسرة مقدمة الإسّكس هدفاً. وفي ثانية صار الحوت على بعد ياردات قليلة، «قادماً لأجلنا بخفة وسلاسة» مثلما يتذكر تشايس.

وفي محاولة يائسة لتجنّب الصدمة المباشرة، صرخ تشايس في نيكرسون: «أدر الدفة»، وأطلق عدداً من الرجال صرخات التحذير، لكن يتذكر نيكرسون: «لم تكد أصواتهم تبلغ أذني، حتى تبعها صوت ارتطام مروّع». لقد اصطدم الحوت بالسفينة عند السلاسل الأمامية.

اهتزت الإسّكس وكأنها ارتطمت بصخرة. ووقع الرجال كلهم على وجوههم. تزحلقت سلاحف غالاباغوس على السطح. يستذكر تشايس: «نظرنا لبعضنا في ذهول تام. وقد شُلت ألسنتنا عن الحديث».

وبينما كانوا يتعافون من أثر السقطة، كان لتشايس ورجاله كل حقّ في الذهول. لم يحدث من قبل في تاريخ صناعة التحويت النانتوكتية أن سُمع بحوت يهاجم مركباً. في 1807 اصطدمت الحوّاتة (يونيون) بحوت دون قصد وغرقت، لكن ما حدث هنا يختلف كلياً.

بعد الخبطة، عبر الحوت تحت السفينة، مرتطماً بقاعها في قوة شديدة أوقعت الأرينة الزائفة، وهي عارضة خشبية ثقيلة أبعادها 6×12 بوصة. ثم طفا الحوت بجوار ميمنة الإسّكس. بدا الكائن، مثلما يتذكر تشايس «مصعوقاً من شدة الضربة»، وظل طافياً بجوار السفينة، ذيله على بعد أقدام قليلة من مؤخرتها.

t.me/qurssan

وبحركة غريزية التقط تشايس رمحاً. يحتاج الأمر فقط لرمية واحدة محكمة التصويب، بعدها يكون الضابط الأول قد قتل الحوت الذي تجرأ وهاجم السفينة. إن هذا المخلوق العملاق قد يُنتج زيتاً يعادل ما ينتجه حوتان أو ربما ثلاثة من الحجم الطبيعي. ولو عاد جوي وبولارد غانمين ذلك اليوم، ستغلي المراجل بما يملأ 150 برميل زيت على الأقل في الأسبوع القادم؛ أكثر من 10٪ من سعة الإسكس الكلية. ربما يعودون بعدها لنانتوكت بعد أسابيع بدلاً من شهور. ندت عن تشايس حركة لطعن الحوت الذي لا يزال متمدداً بجوار الإسكس، ثم تردّد. كان ذيل الحوت على مقربة من دفة السفينة. وإن ثارت ثائرته، فقد يحطم الحوت أداة توجيه السفينة الحساسة بذيله. قرر تشايس أن بعدهم عن الأرض يجعل من الحماقة المخاطرة بدمار الدفة.

كان ذلك الحذر جديداً على طبائع الضابط الأول. كتب نيكرسون «لكن ربما إن كان بوسع تشايس التنبؤ بما سيحدث بعدها، كان سيختار أهون الشرين ويقتل الحوت حتى لو كان في اختياره خطر خسارة الدفة».

يستطيع حوت العنبر أن ينجو من اصطدام مباشر مع سفينة بفضل الوسادة الطبيعية، الممتدة لثلث طوله، من مقدمة رأسه وحتى أعضائه الحيوية؛ تجويف ضخم ملئ بالزيت لدرجة تخفف من شدة أية صدمة. في أقل من دقيقة، كان الثور البحري العملاق قد استفاق وعاد للحياة.

نافضاً عن نفسه الخمول، انحرف الحوت مع اتجاه الريح، عائماً ما يقرب من ست مئة ياردة مبتعداً. وأخذ في القبض على

t.me/qurssan

الهواء بفكه وضرب الماء بذيله، «وكأن الغضب أعمى بصيرته» مثلما كتب تشايس. عاد بعدها الحوت ليعوم عكس الريح، متجاوزاً مقدمة الإسكس بسرعة عالية. وبعد مئات الياردات مبتعداً عن السفينة توقف فجأة، ودار ليواجهها. وخوفاً من أن تصيب السفينة المياهُ، أمر تشايس في هذه اللحظة الرجال أن يجهزوا المضخات. يتذكر الضابط الأول: «بينما كان انتباهي مشتتاً، انتبهت لصيحة رجل عند الفتحة الأرضية (إنه يتجه ناحيتنا مرة أخرى!)». دار تشايس ليرى مشهداً من «الغضب والانتقام» سيطارد مخيلته لأيام طويلة.

بنصف رأسه ذي الندوب خارج المياه، وذيله الهائل الذي يضرب المحيط تاركاً خلفه أثراً طويلاً من المياه البيضاء، اتجه الحوت إلى السفينة بضعفي سرعته العادية؛ ما لا يقل عن ست عقد. تمنى تشايس لو أنّهم «تجاوزوا الخط الذي يأتي منه قبل أن يبلغهم، ما قد يجنبهم ما سيحدث إن صدمهم مرة أخرى من دمار حتمي»، وصاح في نيكرسون: «أدر الدفة»، لكن أوان تغيير المسار قد فات. نطح الحوت السفينة أسفل جانبها المعلق عليه المرساة في ميسرة المقدمة، وتردد صوت تهشم خشب البلوط. هذه المرة كان الرجال مستعدين للصدمة، لكن على الرغم من ذلك تسببت قوتها في رقص رؤوس الحوّاتين فوق رقابهم، بينما ترنحت السفينة بعدما صفعتها مقدمة رأس الحوت. تابع ذيل الكائن الضخم ضرب الماء لأعلى ولأسفل، دافعاً السفينة التي تزن 238 طناً للخلف، حتى دخلت المياه من مؤخرة السفينة، مثلما حدث عند الوقعة في تيار الخليج.

t.me/qurssan

جرى من الرجال واحدٌ كان في قاع السفينة إلى سطحها صارخاً: «السفينة تمتلئ بالمياه». نظرة سريعة من الباب السفلي كشفت أن المياه غطت بالفعل السطح السفلي، حيث يُخزن الزيت والمؤن.

لم تعد الإسّكس تعود للخلف، وإنما تهبط لأسفل. أما الحوت، بعد أن هزم خصمه الغريب، فقد فك نفسه عن حطام الخشب والهيكل المطليّ بالنحاس، وعام مع اتجاه الريح، ولن تقع عليه عين بعدها أبداً.

***

كانت السفينة تغرق.

القلعة الأمامية، حيث ينام البحارة السود، كانت أول ما غُمرت المياه من مساكن، صارت صناديق الرجال البحرية وأفرشتهم تطفو على سطح المدّ المفاجئ. ثم تدفقت المياه إلى الخلف ودخلت غرفة دهن الحوت، ثم إلى الستيردج حيث ينام نيكرسون وبقية النانتوكتيين. ولم يمرّ وقت طويل قبل أن تبلغ قمرات الضباط والربان.

وبينما كانت أخشاب الجزء السفلي تئن تحت وطأة الماء، أخذ المُضيف الأسمر ويليام بوند على عاتقه، ومن تلقاء نفسه، إنقاذ صناديق تشايس وبولارد وأدواتهم الملاحية –وهو ما نمّ عن حصافة عالية– من القمرات الأمامية التي يتسارع معدل غمرها بالمياه. في الآن ذاته، كان تشايس وطاقمه يفكون قارب التحويت الاحتياطي ويجهزونه في وسط السفينة.

أخذت الإسّكس في الميل ناحية اليسار إلى حد خطير.

t.me/qurssan

غطس بوند لمرة أخيرة. حمل تشايس والرجال قارب التحويت لحافة السطح، التي باتت تعلو عن المحيط الآن بضع بوصات فقط. بعدما حُمل القارب بالصناديق وما تيسر من المعدات، تزاحم فيه الجميع، بما فيهم بوند، بينما أخذت تلوح فوقهم الصواري والعوارض المائلة. لم يكونوا قد ابتعدوا مسافة قاربين بعد عندما انقلبت الإسكس خلفهم في المحيط.

في هذه اللحظة، كان أوبيد هيندريكس، موجّه قارب بولارد، ينظر إلى الخلف بشكل عابر، ولم يستطع تصديق ما رآه. من على تلك المسافة، بدت الإسكس وكأن عاصفة هائلة ضربتها، إذ كانت أشرعتها تتطاير في كل اتجاه بينما تقع السفينة على أطراف عوارضها.

صرخ: «انظروا، انظروا، السفينة تنقلب، ما الذي جرى لها؟».

لكن عندما استدار الرجال لينظروا، لم يكن هناك ما يرونه. كتب تشايس: «من بين شفتي كل رجل خرجت الصرخة نفسها، صرخة رعب ويأس وحزن، بينما تبحث عيونهم غير المصدّقة عن السفينة في كل أنحاء المحيط». اختفت الإسكس من الأفق.

وعلى الفور، أطلق طاقما القاربين سراح الحوتين، وبدأوا في التجديف عائدين حيث كان يجب أن تكون الإسكس، يحاول كل منهم بجنون تخمين ما حدث لسفينتهم. لم يتخيل أيٌّ منهم، بحسب كلمات نيكرسون، «أن حوتاً قام بذلك». بعد قليل استطاعوا رؤية هيكل السفينة «طافية على جانبها وكأنها صخرة».

t.me/qurssan

وفيما كان جوي وبولارد يقتربان، كان الرجال الثمانية المحتشدون في قارب تشايس يحدقون بصمت في السفينة. يتذكر تشايس: «شحبت الوجوه وانطبقت الشفاه وارتسم الرعب على محيا الجميع، وكأننا قد سُلّطت علينا جميعاً اللعنة ذاتها».

بين هجوم الحوت الأول وحتى لحظة هروب الرجال من السفينة المنقلبة، لم تمر أكثر من عشر دقائق. في جزء صغير من ذلك الوقت، قاد الهلع الرجال الثمانية لفكّ وتجهيز القارب الاحتياطي المُعلق في ربع السفينة الخلفي، عملية تستغرق عادة عشر دقائق كاملة على الأقل، وتحتاج لتعاون الطاقم بأكمله. وها هم الآن محتشدون في قارب التحويت، بلا ملابس غير التي على أجسادهم في هذه اللحظة. ولم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً.

وكان حينها أن تشايس قدّر قيمة الخدمة الجليلة التي قدمها لهم ويليام بوند. فقد أنقذ بوصلتين، ونسختين من كتاب (الملاح العملي الأمريكي الجديد - ناثانيل بوديتش)، وأسطرلابين. سيقول تشايس لاحقاً عن تلك الأشياء: «وسائل نجاتنا المحتملة، بدونها، كنا لنفقد كل أمل».

أما بالنسبة لنيكرسون فقد غلبه الأسى، ليس على نفسه وإنما على السفينة؛ تلك السفينة السوداء العملاقة التي كانت عالمه كله، وقد غلبها الموت. وقد رثاها بقوله: «هنا يرقد حطام ما كانت سفينتنا الجميلة، ما كانت قبل دقائق بكامل أبهتها ومجدها، فخر قبطانها وضباطها، ومعبودة رجالها».

لم يمض وقت طويل قبل أن يقترب القاربان إلى حد يسمح

t.me/qurssan

بتبادل الحديث مع قارب تشايس، لكن أحداً لم ينطق. كان قارب بولارد أول من وصل. توقف رجاله عن التجديف على بُعد ثلاثين قدماً. وقف بولارد على مجداف التوجيه وتأمل ما كان من قبل قائدها المغوار. في النهاية جلس في قاربه بعد أن غلبه الذهول والرعب والارتباك، «لا يكاد يمكنك التعرف على ملامحه»، بحسب وصف تشايس. في النهاية قال القبطان: «يا إلهي! ماذا حدث يا مستر تشايس؟».

رد تشايس: «أغرقنا حوت».

حتى بمعايير حيتان العنبر الهائلة، يظل ذكر الحوت ذي الخمسة وثمانين قدماً طولاً، حوتاً عملاقاً. في عصرنا الحالي، لا يزيد طول ذكر حوت العنبر، الذي هو في العادة أضخم من الأنثى ثلاث أو أربع مرات، عن خمسة وستين قدماً. يشكّ خبير الحيتان هال وايتهيد في كون حوت الإسكس بالحجم الذي وصفه تشايس ونيكرسون. وعلى الرغم من ذلك، تمتلئ سجلات حوّاتي نانتوكت بحيتان أنتجت كمّاً من الزيت لا يمكن أن يكون إلا من حوت بحجم حوت الإسكس. إنها لحقيقة مثبتة أن الحوّاتين في القرنين التاسع عشر والعشرين قد قتلوا أعداداً كبيرة جداً من ذكور حيتان العنبر؛ فالذكر ليس فقط أطول من الأنثى، بل إن من مسببات طوله هي ضخامة حجم أعضاء مادة العنبرية في جسده. في 1820، قبل أن يقضي القتل الانتقائي على حيتان العالم الذكور الضخمة، ربما كانت هناك بالفعل إمكانية لمقابلة حوت عنبر طوله خمسة وثمانون قدماً. بل إن الدليل الأقوى على ذلك ربما هو ذلك الكامن في قاعات متحف

تحويت نانتوكت مرتكزاً إلى الحائط: فكٌ عظمي يبلغ ثمانية عشر قدماً من الطول، مأخوذ من ذكر حوت يُقدّر طوله بثمانين قدماً على الأقل.

لحوت العنبر مخٌ أضخم من مخّ أي حيوان عاش على الأرض في أي وقت مضى، يفوق حتى مخّ الحوت الأزرق العظيم. قد يعود كبر حجم مخ حوت العنبر لقدرته المعقدة على توليد وتحليل الأصوات. تحت فتحة النفث، يوجد لدى حوت العنبر ما يسميه الحوّاتون أنف القرد، وهو نظام تصفيق غضروفي يعتقد العلماء أنه مصدر صوت النقر الذي يستخدمه الحوت «ليرى» العالم من خلال صداه. تستخدم الحيتان إشارات النقر للتواصل من مسافات تزيد عن خمسة أميال. تميل الإناث لاستخدام سلسلة من النقرات التي تشبه شفرة مورس تُعرف باسم كودا coda، بينما تُطلق ذكورها إشارات أبطأ وأعلى تسمى كلانج clang. يُعتقد أن الذكور تستخدم الكلانج لتقديم أنفسها كذكور مؤهلة للعلاقة مع الإناث ولتحذير الذكور المنافسة.

كثيراً ما سمع الحوّاتون عبر جدران سفنهم أصوات حيتان العنبر. صوت الحوت، الذي هو عبارة عن نقرات ثابتة متتابعة يفصل الواحدة منها عن الأخرى بالكاد نصف ثانية، يشبه إلى حد مُريك صوت طرقات المطرقة، إلى حد أن الحوّاتين أطلقوا على حيتان العنبر لقب السمكة النجار. في صباح العشرين من نوفمبر 1820، لم يكن حوت العنبر هو الكائن الوحيد الذي يملأ المحيط بصوت النقرات، أوين تشايس فعل ذلك أيضاً، عندما كان يثبّت بالمسامير قطع النسيج في قعر قارب تحويت مقلوب.

t.me/qurssan

مع كل ضربة من مطرقته في جانب القارب المتضرر، كان تشايس يرسل دون قصد أصوات النقر عبر خشب القارب إلى المحيط. سواء كان الحوت قد حسب تلك الأصوات قادمة من حوت آخر أو لا، فيبدو أن النقرات قد جذبت انتباه الكائن.

خمن تشايس أن الحوت عندما اصطدم بالسفينة أول مرة، كان يسبح بسرعة ثلاث عقد، وهي سرعة الحوت الطبيعية في الماء. يقول وايتهيد، الذي ارتطمت مركبته البحثية بالخطأ ذات مرة في أنثى حوت حبلى، إنه من المحتمل أن صدمة الحوت الأولى في الإسكس كانت بالخطأ.

وأيّاً كان السبب الذي حفّز المواجهة، فمن الواضح أن الحوت لم يكن مستعداً لمواجهة شيء صلب وثقيل مثل سفينة التحويت التي تزن 238 طناً، أي ثلاثة أضعاف وزنه تقريباً. ربما كانت الإسكس حوّاتة عجوز منهكة، لكنها بُنيت لتحمل نصيبها من الضرر. فقد صُنعت بالكامل تقريباً من البلوط الأبيض، واحد من أقوى وأصلب أنواع الأخشاب. وقد نُحتت أضلعها من جذوع ضخمة، سمكها لا يقل عن قدم مربع. مُدّت فوقها الواح السطح الأمامية والخلفية، من خشب البلوط، بسماكة أربع بوصات لكل منها. فوقها طبقة من الصنوبر الأصفر يزيد عن نصف البوصة سُمكاً. ويمتد من أسفل الجزء المغمور تحت سطح الماء (نقطة الاصطدام وفقاً لنيكرسون) طبقة من النحاس. ما اصطدم به الحوت إذن كان جداراً خشبياً مصمتاً.

وما بدأ كنطحة غير مقصودة بالرأس، ربما تصاعد ليصبح هجوماً كاملاً.

t.me/qurssan

وبمثل ذكور الأفيال، تميل ذكور حيتان العنبر إلى الوحدة. فتتنقل من مجموعة إناث وصغار إلى مجموعة أخرى طوال الوقت، وتصارع أي ذكر تقابله في طريقها. إن كمّ العنف في تلك الاشتباكات أسطوري. وقد وصف أحد الحوّاتين ماذا حدث عندما حاول ذكر حوت عنبر الانضمام لمجموعة فيها ذكر آخر:

«عندما حاول الحوت الجديد الانضمام للقطيع هاجمه أحد ذكورها القدامى، إذ انقلب على ظهره وهاجم بفكه المفتوح... نالت القضمة من قطع ضخمة من الدهن واللحم. تراجع كلا الحوتين ثم هجما بكامل قوتيهما مجدداً. انغلقت الفكوك على بعضها، وتصارعا، بدا أن كلاً منهما يحاول كسر فك الآخر. تطايرت قطع كبيرة من لحم رأس.كلا الحيوانين. بعدها انسحب كلاهما أو فكّا قبضتيهما الفكية عن بعضهما، ثم هجما مرة أخرى. الصراع في المرة الثانية كان أكثر عنفاً، ولم يكن في الإمكان رؤية الكثير بسبب الرذاذ المتناثر. تكررت دورة التراجع ثم الهجوم مرتين أو ثلاثاً قبل أن تهدأ المياه، بعدها صار بوسعنا رؤية كلا الحوتين ممدّدين رأساً لرأس لبضع ثوان. ثم ابتعد الحوت الأصغر ببطء ولم يحاول أن ينضم للمجموعة مرة أخرى... خرج بعدها قارب تحويت وحصل على الحوت الأكبر. فكه كان مكسوراً متدلياً من اللحم، وكثير من أسنانه كانت مكسورة أيضاً، وفي رأسه جروح عميقة».

بدلاً من قتال السفينة بفكه وذيله -الطريقة التي تقلب بها الحيتان عادة قوارب التحويت- فإن حوت الإسكس نطحها

t.me/qurssan

برأسه، ما قال عنه تشايس: «شيء لم يُسمع عن مثله من الحوّاتين القدامى وذوي الخبرة». لكن أكثر ما أثار إعجاب ودهشة الضابط الأول، كان فطنة الحوت الاستثنائية التي أظهرها في استخدامه لرأس الكبش[1] الطبيعية التي وهبها الله له. وفي كلا المرتين، أتى الحوت إلى السفينة من اتجاه «محسوب بدقة ليتسبب في أكبر ضرر ممكن: من الأمام، مستغلاً سرعة كلا الجسمين [الحوت والسفينة] في تحقيق أكبر صدمة». لكن، برغم هجومه على السفينة من الأمام، إلا إنه تفادى مهاجمة مقدمتها مباشرة، حيث صدر السفينة الثقيل المُدعم، وهو ضلع رأسي في حافة مقدمة السفينة الأمامية، قد يصيب الحوت بضرر مميت.

قدر تشايس سرعة الحوت في الضربة الثانية بست عقد، في حين كانت السفينة تتحرك بسرعة ثلاثة عقد. ليتمكن الحوت، الذي بالكاد تبلغ كتلته ثلث كتلة السفينة، من إيقاف السفينة عن الحركة تماماً، كان يحتاج أن تكون سرعته ثلاثة أضعاف سرعة السفينة، على الأقل تسع عقد. تقول حسابات مهندس بحري إنه إذا كانت الإسّكس سفينة جديدة، فسيتحمل خشبها البلوط أشد الصدمات قوة. وكون أن الحوت قد تسبب في ثقب في مقدمتها، فلا بدّ أن خشب الإسّكس في عامه

(1) رأس الكبش (المدق): آلة كانت تستخدم في الحروب القديمة لتحطيم حوائط المدن المحاصرة. [المترجم]

الحادي والعشرين قد أصابه الوهن الشديد، من العفن أو من الحشف[1].

كان تشايس مؤمناً أن الإسكس وطاقمها كانوا ضحايا «لأذى متعمّد ومدروس» من طرف الحوت. بالنسبة لنانتوكتي، كانت تلك فكرة مزلزلة. إن اتخذت بقية حيتان العنبر نهج مهاجمة السفن، ستكون مسألة وقت قبل أن يصير أسطول الجزيرة التحويتي طرح بحر.

بدأ تشايس في التساؤل «أي قدر عابث عابس» مسؤول عما حدث؟ يبدو وكأن شيء ما -أيمكن أن يكون الرب؟- قد استحوذ على ذلك الوحش ليحقق عبره غرضه الغريب الغامض. أياً كان ذلك الشيء أو الكيان المتسبب فيما حدث، فقد آمن تشايس أن ما أغرق الإسكس هو يكون «أي شيء إلا الصدفة».

بعدما سمع حكاية الضابط الأول بشأن ما جرى، حاول بولارد أن يضطلع بدوره القيادي في ذلك الموقف الأليم. أعلن أن الأولوية الآن هي استخلاص ما يمكن استخلاصه من طعام وماء من الحطام. ولفعل ذلك، احتاجوا لقطع الصواري، حتى يستطيع هيكل السفينة الذي لا يزال يطفو جزئياً، من الاعتدال. تسلق الرجال السفينة وبدأوا في قطع الصواري وحبالها بالفؤوس التي كانت في قوارب التحويت. مع حلول الظهر، حرك القبطان قاربه

---

(1) الحشف الحيوي/ الحشف البحري Marine Growth: تراكم ونمو الكائنات الدقيقة والطحالب والحيوانات البحرية على الأسطح المغمورة في البحر. [المترجم]

t.me/qurssan

ليستخدم الأسطرلاب. كانوا على دائرة عرض '40 °0 جنوباً، وخط طول '0 °119 غرباً، تقريباً أبعد ما يمكن أن يكون عن أيّة يابسة على الأرض.

بعد خمس وأربعين دقيقة، لم يبق من الصواري إلا جذوع بطول عشرين قدماً، وطفت الإسكس ببعض الاعتدال مرة أخرى، بمَيل يقدّر بخمس وأربعين درجة. رغم أن أغلب المؤن كانت في المخزن السفلي لا يمكن بلوغها، إلا أن كان هناك برميلان ضخمان من الخبز بين الأسطح في منتصف السفينة. وبما أن ذلك الجزء كان طافياً، فقد تولد لدى الرجال أملٌ أنهما لا يزالان جافّين.

وعبر الفتحات التي استطاعوا صنعها في سطح السفينة، استطاعوا استخلاص ست مئة رطل من الهارد-تاك. في مكان آخر استطاعوا النفاذ من السطح ليجدوا براميل المياه العذبة أكثر مما يمكنهم تخزينها في قوارب التحويت. أنقذوا أيضاً عدداً من الأدوات والمعدات، بما فيها رطلين من مسامير القوارب وبندقية مسكيت ومسدسين وعبوة من البارود. عام من الحطام إلى القوارب عددٌ من السلاحف والخنازير الهزيلة. ثم بدأت الريح بالهبوب.

احتياجاً لملجأ من الريح المتزايدة والموج، لكن خائفاً من انهيار ما تبقى منها وغرق حطامها مثل جلمود الصخر، أمر بولارد الرجال بربط قواربهم في هيكل السفينة، مع ترك مئة ياردة من الحبال على الأقل بينهم وبينها. ومثل مجموعة من أفراخ البط تتبعُ أمها، ناموا في كنف الإسكس تلك الليلة.

t.me/qurssan

ومع كل موجة كانت السفينة ترتعش. تمدّد تشايس في قاربه غير قادر على النوم، محدّقاً في الحطام، يعيش لحظات المأساة مرة تلو الأخرى في مخيلته. نام بعض الرجال بينما «قضى آخرون الليلة في لغط غير مُجدٍ» بحسب تعبير تشايس. ولأول مرة، فقد اعترف الضابط الأول أنه وجد نفسه مستسلماً للدموع.

كان جزء منه يعصف به الشعور بالذنب، بمعرفة أنه لو ألقى الحربة، فلربما كانت نتيجة كل شيء ستختلف تماماً. (عندما سيكتب تشايس سرديته عما حدث، سيهمل ذكر فرصته لرمي الحوت بالحربة، وهو سهو تأكد نيكرسون من تصحيحه في حكايته)، لكن كلما فكر تشايس فيما حدث أكثر، كلما أدرك أن لا أحد كان يتوقع من حوت أن يهاجم سفينة، ليس مرة واحدة، وإنما مرتين. بدلاً من أن يتصرف مثلما هو متوقع من حوت، كائن «لم يشتبه من قبل في شروعه بأي عنف مع سبق الإصرار والترصد، يُضرب به المثل في المسالمة»، تصرَف هذا الذكر العملاق كما لو أنه مهووس بما اعتبره تشايس في النهاية قلقاً إنسانياً على مصير باقي الحيتان. كتب الضابط الأول: «جاء مباشرة من القطيع الذي حاولنا اختراقه قبل قليل، وضربنا فيه ثلاثة من رفاقه؛ وكأنه هاجمنا بغرض الانتقام لمعاناتها».

بينما تمايلوا في كنف الحطام، لم يكن رجال الإسّكس مهتمين بمناقشة دوافع الحوت. سؤالهم الأكثر إلحاحاً كان كيف يستطيع عشرون رجلاً في ثلاثة قوارب الخروج من هذه المحنة على قيد الحياة؟

t.me/qurssan

الفصل السادس
الخطة

من الجنوب الشرقي ظلت الريح تهبّ طوال الليل، والأمواج تضرب هيكل المنكوبة، مُزيحة عوارضها وبراميلها وألواحها المكسورة. لأن قطع الحطام المسننة يمكن أن تثقب جوانب قوارب التحويت المربوطة في السفينة ناحية هبوب الريح، وضع كل ضابط رجلاً عند مقدمة قاربه وظيفته أن يبقى متيقظاً للأجسام الطافية التي تحملها المياه ناحيتهم، ودفعها جانباً قبل أن تسبب أي ضرر. كانت تلك مهمة مخيفة ومرهقة، أن تبقى محدّقاً في الظلام طوال الليل منتظراً الخطر المنبثق منه في أية لحظة.

عندما لمعت الشمس في الأفق الشرقي، نهض الرجال بعيون رامشة من بطون قواربهم، لم ينم أغلبهم إلا قليلاً. كتب تشايس: «فكرنا أن علينا فعل شيء ما، ما هو؟ لم نعرف».

عاد طواقم القوارب الثلاثة إلى حيث الحطام، وقضوا أغلب الصباح متجولين «في خواء وخمول» بين الهيكل الذي غسلته الأمواج. أمرهم الضباط أن يبحثوا عن أية مؤن إضافية ربما طفت من أعماق المخزن في الليل. وباستثناء بعض السلاحف التي كانوا قد حملوا إلى القوارب كثيراً منها بالفعل؛ لم يجدوا ما يفيد.

t.me/qurssan

الخطوة التالية، الواضحة، كانت التجهيز لمغادرة الحطام. لكن ذلك كان أفقاً لم يحبّ أي من الرجال تأمله. مهما كانت ظروفهم الراهنة «بائسة موحشة»، إلا أن «قلوبنا كانت معلقة في السفينة، وتغرق معها» مثلما قال تشايس، «كنا لا نكاد نقدر على تجاوز فكرة البقاء في حمايتها».

في النهاية، شرع بعض الرجال في نزع الأشرعة عن السفينة لصنع أشرعة لقوارب التحويت الثلاثة. ولحسن الحظ، فقد كان في صندوق تشايس الإبر والخيوط اللازمة. وتلقى آخرون الأوامر ببناء صواري للقوارب الثلاثة من صواري السفينة. وما أن صار لكل من أفراد الطاقم مهمة محددة يقوم بها، حتّى تغير حال الروح المعنوية في الحال، لاحظ نيكرسون أنه قد «ظهرت وجوه مبتهجة أكثر ما حسبنا أننا سنرى».

بينما انشغل الرجال في تزويد كل قارب بصاريين قصيرين، وشراعين قطريين، وشراع صغير في المقدمة يعرف بشراع الزمام؛ وُضع مراقب على قمة صاري الإسكس الأمامي، يبحث في المحيط عن شراع مار. في الظهر، أوضح تشايس أن الرياح الغالبة (الجنوبية الشرقية) والتيار الغربي، قد دفعا بالإسكس وطاقمها حوالي خمسين ميلاً شمال غرب من حيث كانوا بالأمس، بعيداً عن ساحل أمريكا الجنوبية. ملاحظة الضابط الأول المقلقة أظهرت بجلاء «ضرورة عدم تضييع الوقت، والسعي للبحث عن أي فرج قد يوجّهنا الربّ إليه».

زادت شدة الرياح مع مرور اليوم، بما جعل العمل في القوارب عسيراً، خاصة عندما بدأت الأمواج تضربهم وتبللهم.

t.me/qurssan

ادرك الضباط أنهم ما زالوا بحاجة لمزيد من التعديلات الضرورية لتحسين قدرة القوارب على الإبحار. وباستخدام ألواح خشب أرزّ مستخلصة من الحطام، بنى الرجال جدراناً لجانبي كل قارب تعلو أكثر من نصف قدم. ذلك التعديل البسيط -الذي لم يخطر على البال إلا متأخراً- اتضح أنه مصيريّ. كتب تشايس: «بدونه كانت القوارب ستمتلئ بمياه كثيرة، إلى حد أن كل الجهود التي سنقوم بها في الأسابيع العشرين التالية، كرجال متضوّرين منهكين، لم تكن لتكفي معها لحمايتنا من الغرق».

وكان من الواضح الآن أيضاً أن عليهم إيجاد طريقة لوقاية مؤنهم والخبز من الرذاذ المالح. تحتوي نهاية كل قارب تحويت على شيء يشبه الخزانة يسمى كادي cuddy. بعد لفّ الخبز بعدة طبقات من القماش، وضعوه في كادي القارب الخلفي، أبعد ما يكون عن الأمواج التي تهجم من المقدمة. أيضاً وجود الخبز في المؤخرة يُيسّر على ضابط مجداف التوجيه مراقبة توزيع الخبز على بقية الطاقم.

عندما بدأ الظلام يهبط، وضعوا جانباً مطارقهم ومساميرهم وإبرهم وخيوطهم وهم لا يكادون يفعلون، وربطوا مرة أخرى قواربهم في بقايا السفينة. لم تزل الريح تهب بقوة، وكان الرجال العشرون خائفين مما سماه تشايس «رعب ليلة عاصفة أخرى». لم يكن ما يقلق مضاجعهم فقط عناء محاولة النوم في قارب ضيق مهتز، بل فكرة قضائهم ليلة طويلة بلا شيء يشتتهم عن مخاوفهم.

نفس الرجال الذين عملوا قبل قليل ببهجة وحماس في

t.me/qurssan

تعديل قوارب التحويت، ضربتهم فجأة أمواج اليأس. يتذكر تشايس: «هبطت عليهم حقيقة تعاسة حالهم فهدّتهم، أصابتهم بنوبات من الوهن الشديد أقرب للإغماء». ورغم أن يومين تقريباً قد مرّا منذ وجبتهم الأخيرة، إلا أنهم لم يجدوا في أنفسهم أية رغبة في الأكل. إذ جفف القلق حلوقهم، ففضلوا على الطعام شربَ الماء المتكرر.

تمدد تشايس في قاع مركبه وأخذ في الصلاة. لكن دعواته لم تواسِه كثيراً، «أحياناً... يشرق أمل واهن، لكني عندما أدرك اتكالنا الكامل... على الصدفة وحدها للغوث والإنقاذ، يطير الأمل عن خيالي». وبدلاً من تأمل احتمال نجاتهم، وجد تشايس نفسه يعيش مرة أخرى اللحظات التي أدت بهم لتلك اللحظة، خاصة «هجوم الوحش الغامض المميت».

بحلول السابعة من صباح اليوم التالي، كان سطح السفينة قد انفصل تقريباً بالكامل عن هيكلها. مثل حوت في هياج الاحتضار، وبدا تحلّل الإسكس التدريجي مشهداً مقبضاً ثقيلاً، خاصة مع تراقص مفاصلها العنيف مع الأمواج. كانت تنزف من براميلها المنفجرة داخل الهيكل، محيطة الرجال ببقعة عفنة الرائحة من زيت الحوت؛ مادة وحلية صفراء غلّفت جوانب القوارب ورفعتها الأمواج إلى داخلها. باتت القوارب زلقة من الخطر التحرك فيها. وما كان قبل أيام هاجسهم الأوحد وثروتهم الأغلى، صار الآن مبعث معاناتهم.

قرر تشايس أن لا بدّ من عمل شيء ما، جدّف إلى حيث قارب بولارد، وقال إن الوقت قد حان للإبحار «إلى أقرب أرض».

t.me/qurssan

ماطل القبطان، وأصر على محاولة استخلاص أخيرة لما قد يكونوا قد غفلوا عنه من المؤن في المحاولات السابقة. وقال إنه سيناقش ما سنفعله لاحقاً فقط بعد أن تُتاح له فرصة رصد موقعهم ساعة الظهر.

بيّن رصد بولارد عند الظهر بالأسطرلاب أنهم قد انجرفوا تسعين ميلاً في اتجاه الشمال خلال الليل، عابرين خط الاستواء. والآن، بأشرعتهم الجاهزة وحسابات بولارد الملاحية المكتملة، حان الوقت لما سماه تشايس «مجلس المشورة». انضم الضابطان لبولارد في قاربه، حيث فتح أمامهم نسختي كتاب بوديتش للملاحة، الذي يحوي قائمة بمواقع «الجزر الأليفة في المحيط الهادئ وغيرها من الجزر»، وشرعوا في مناقشة ما يجب أن يفعلوا.

بما أن قواربهم المزودة بالأشرعة لا تُبحر إلا مع اتجاه الرياح، فقد كانت خياراتهم محدودة. كما أن محاولة تتبع طريق قدومهم عائدين إلى جزر غالاباغوس ومنها إلى أمريكا الجنوبية، وهي رحلة تزيد عن الألفي ميل؛ تعني مصارعة الرياح التجارية الجنوب-شرقية والتيار الغربي القوي، ما عده بولارد من قبيل المستحيل. أما الإبحار غرباً فكان أمراً مختلفاً؛ أقرب الجزر في هذا الاتجاه كانت جزر ماركيساس على بعد 1200 ميل. لكن لسوء الحظ، كان رجال الإسكس قد سمعوا أن سكان تلك الجزر الأصليين يُعرفون بميولهم الكانيبالية [أكل لحوم البشر]. كان كثير ممن زاروا ماركيساس، بما فيهم القبطان ديفيد بورتر قائد فرقاطة الإسكس الأمريكية التي زارتها أثناء حرب 1812، قد

نشروا التقارير عن حروب متكررة بين سكان الجزيرة الأصليين. وأكد أحدهم: «عندما تصيبهم المجاعة، يذبح الرجال زوجاتهم وأطفالهم وآباءهم المسنين». وادعى جورج فون لانجسدورف الذي وقفت سفينته في ماركيساس عام 1804، أن سكانها يستلذّون طعم اللحم البشري «إلى حد أن من أكله منهم مرة، يجد في الامتناع عنه عُسراً كبيراً». أشار لانجسدورف أيضاً، وآخرون مثله، إلى ضخامة وقوة رجال ماركيساس. وكانت هناك أيضاً تقارير تحكي عن ممارسات مثلية جنسية طقسية بين السكان الأصليين، والتي، على عكس إشاعة الميول الكانيبالية، أكدها علماء الأنثروبولوجي المعاصرون. اتفق ضباط الإسكس على ضرورة تجنب جزر ماركيساس.

على بعد بضع مئات الأميال جنوب ماركيساس كانت تقع جزر تواموتو. تلك أيضاً كان لها سمعة سيئة ومُقبضة بين البحارة الأمريكان. غرب تواموتو كانت جزر سوسايتي على بعد ألفي ميل من حيث هم الآن. وعلى الرغم من عدم امتلاكه لأية معلومات جديرة بالثقة، إلا أن بولارد كان لديه انطباع أن جزر سوسايتي كانت خياراً أكثر أماناً من ماركيساس. وبقليل من الحظ، سيتمكنون من الوصول إليها في أقل من ثلاثين يوماً. كانت هناك أيضاً جزر هاواي على بعد 2500 ميلاً في الشمال الغربي، لكن بولارد خاف من العواصف المتكررة في تلك الناحية من الهادئ في أواخر الخريف. وأعلن في النهاية رأيه أن عليهم الإبحار إلى جزر سوسايتي.

لم يوافقه جوي وتشايس. فقد أوضحا أنهما، باستثناء بعض

t.me/qurssan

الإشاعات المبهمة، «جاهلان تماماً» بجزر سوسايتي. كتب الضابط الأول: «افترضنا أنه لو كانت تلك الجزر مأهولة، فسيكون سكانها غالباً متوحشين، ويجدر بنا الخوف منهم قدر خوفنا من الموت ذاته». كانت الطبيعة قد خانتهم بالفعل مرة، ساعة الهجوم الوحشي مما كان يفترض به أنه فريستهم: حوت العنبر الطيب عادةً. في غياب أي دليل يشير إلى العكس، كان تشايس وجوي أميَل لتصديق أن سكان جزر سوسايتي مارسوا، مثل سكان الماركيساس، انحرافاً أكثر رعباً وبشاعة عن الطبيعة العامة؛ الكانيبالية.

اقترح تشايس وجوي ما شعرا أنه بديل أفضل. رغم أن الميل الشرقي للرياح التجارية جعل التوجه لساحل أمريكا الجنوبية شبه مستحيل، إلا إن وسيلة أخرى كانت هناك. إن أبحروا جنوباً حوالي 1500 ميل إلى دائرة عرض 26 جنوباً، فسوف يصيرون في نطاق نسائم متفاوتة بوسعهم ركوبها إلى تشيلي أو بيرو. خمنوا أن قواربهم تستطيع عبور دائرة عرض في اليوم الواحد (حوالي ستين ميلاً بحرياً)، وهذا يعني وصولهم لنطاق الرياح المتفاوتة في 26 يوماً، يحتاجون بعدها لثلاثين يوماً لبلوغ ساحل أمريكا الجنوبية. وبما أن معهم ما يكفيهم من الخبز والماء للبقاء أحياء لستين يوماً، فقد بدا ذلك -على الأقل لتشايس وجوي- معقولاً جداً. علاوة على أنهم قد يقابلون في طريقهم سفينة تحويت أخرى. وصف الضابطان مقترحهما ببساطة وكأنه «مشوار إلى الساحل».

وكما حدث من قبل في تيار الخليج، خضع القبطان لرأي

t.me/qurssan

ضابطيه. مثلما كتب نيكرسون «متجنباً معارضة اثنين وهو واحد، فقد سلّم القبطان على كراهة بحجتهما». عندما سيكتب عن ذلك «الخطأ الفادح» لاحقاً، سيتساءل فتى المقصورة السابق عن «كم من قلب دافئ سيتوقف عن النبض نتيجة له؟».

اليوم، يبدو جهل النانتوكتيين بالمحيط الهادئ، المحيط الذي خاضوه لعقود طويلة، أمراً عصياً على التصديق. من قبل بدء هذا القرن، كانت سفن التجارة مع الصين الخارجة من الموانئ القريبة لنيويورك وبوسطن وسايلم، تتوقف باستمرار ليس فقط في ماركيساس، بل أيضاً في جزر هاواي، في طريقها إلى مدينة غوانزو الصينية. ورغم انتشار شائعات الكانيبالية عن الماركيساس، إلا إن إمكانية كانت هناك للوصول إلى كثير من المعلومات الموثوقة التي تشير إلى العكس.

قبل عدة شهور من خروج الإسّكس من نانتوكت في 1819، وقت كان بولارد وتشايس لا يزالان على الجزيرة، نُشرت مقالة في عدد 28 أبريل من جريدة نيو بيدفورد ميركيوري تحمل آخر أخبار الماركيساس. وبحسب تاونسند قبطان الليون، الذي كان قد عاد لتوه من غوانزو ومعه ثلاثة من سكان جزيرة نوكوهيفا الأصليين، فقد كان كل شيء على ما يرام في تلك الجزر منذ زيارة القبطان ديفيد بورتر خلال حرب 1812. ذُكر في الجريدة «لا يزال الأثر الطيب لاسمه [القبطان بورتر] حاضراً بين السكان، الذين يعيشون منذ ذلك الحين في تناغم وتكافل مجتمعي. فلم تعد القبائل العدوانية تتّخذ الحرب منهاجاً، وكان التايبيون [الذين عرفوا من قبل بالكانيبالية] زواراً دائمين لليون

t.me/qurssan

عندما كانت ضيفة آمنة على الجزيرة». يبدو أن بولارد وضابطيه، لسوء حظهم، لم يقرؤوا ذلك التقرير.

كان جهلهم بجزر سوسايتي أغرب، خاصة جزيرة تاهيتي. فقد كانت على الجزيرة بعثة إنجليزية مزدهرة منذ العام 1797. وكانت كنيسة الإرسالية التبشيرية الملكية في تاهيتي، التي تعلو عن الأرض 712 قدماً وعرضها 54 قدماً؛ أكبر من أي منزل اجتماعات كويكري في نانتوكت. مثلما أشار ملفيل في نسخته من حكاية تشايس:

«كل المعاناة التي عرفها رجال الإسّكس البائسين، كان يمكن تجنبها لو أنهم أبحروا فور ابتعادهم عن الحطام مباشرة إلى تاهيتي، التي لم تكن بعيدة عنهم في حينها، والتي كانت لتحملهم إليها رياح تجارية طيبة. لكنهم خافوا آكلي لحوم البشر. غريب انهم لم يعرفوا كيف كانت تاهيتي مرسى آمناً تماماً لأي مركب. وفضلوا عنها الإبحار عكس الريح وعبور آلاف الأميال (في التفافة كبيرة لا يمكن تجنبها أيضاً) حتى يصلوا لموانئ العالم المتحضر على ساحل أمريكا الجنوبية».

كان رجال الإسّكس ضحايا لحظتهم الخاصة من تاريخ التحويت. لم تكن الأرض البحرية قد اكتُشفت إلا قبل عام واحد. في خلال عدة سنوات، ستبتعد سفن التحويت عن أمريكا الجنوبية مسافات تجبرها على التوقف للتموين من جزر وسط المحيط الهادئ، ما سيجعل انفتاح جزر ماركيساس وجزر سوسايتي على العالم الغربي حقيقة مفروغ منها. لكن في نوفمبر 1820، كانت تلك الجزر خارج نطاق ما كانوا يعتبرونه علماً يعتمد عليه.

t.me/qurssan

كان النانتوكتيون مرتابين بشأن كل ما يتجاوز حدود خبرتهم المباشرة. ولم يكن نجاحهم بعيد المدى في التحويت مبنياً على التقدم التكنولوجي الاستثنائي أو على المقامرات الجريئة، بل على التحفظ المتجذر. فبالبناء التدريجي على إنجازات الأجيال السابقة، توسعت إمبراطوريتهم للتحويت بالعمل الشاق الدؤوب المتأني. وإن لم تصلهم المعلومات الجديدة من فم نانتوكتي آخر، فهي معلومات مشبوهة.

وبرفضهم التوجه لجزر سوسايتي واختيارهم للإبحار إلى أمريكا الجنوبية، اختار ضباط الإسكس المقامرة مع ما يألفونه أكثر من غيره: البحر. كتب أوبيد مايسي: «صناعة التحويت هي بطريقة ما حياة بحريّة. بالنسبة للملاحين العاديين، ليس البحر إلا طريقاً سريعاً يسافرون عبره لأسواق أجنبية. لكن بالنسبة للحوّات، فهو محل عمله». أو مثلما قال ملفيل في فصل «نانتوكت» من موبي دِك: «إلا ابن نانتوكت وحده فإنه هو الذي يقطن البحر ويقيم المآدب والحفلات فوق مياهه، وهو وحده على حد قول التوراة « اَلنَّازِلُونَ إِلَى الْبَحْرِ فِي السُّفُنِ[1]، ويفلحه ذهاباً وإياباً كأنه مزرعته الخاصة، فيه بيته وفيه موطن عمله، وعمله دائب لا يوقفه طوفان كطوفان نوح، ولو كان طوفاناً يكتسح كل الملايين في الصين».

بالنسبة لهؤلاء النانتوكتيين كانت فكرة خوض رحلة بعيدة في قوارب لا تزيد عن الأقدام الخمسة والعشرين طولاً فكرة

---

(1) سفر المزامير، (23 :107).

t.me/qurssan

مرعبة بلا شك، لكنها كانت تحدياً هم مستعدون له. لم تكن قواربهم قوارب نجاة عادية ثقيلة، بل كانت قوارب تحويت؛ قوارب صُممت للمحيط المفتوح ومؤهلة للعمل الشاق. فإن ألواح خشب الأرزّ ذات النصف بوصة سُمكاً التي صُنعت منها، منحت قارب التحويت الخفة الكافية لجعله يركب الأمواج غير مضطر لاختراقها. ادعى تشايس «لم أكن لأستبدل قاربي أبداً، مهما كان عجوزاً مجنوناً، ولو حتى مقابل لانش»، وهو ذلك القارب القويّ الذي أبحر فيه القبطان بلاي قبل ثلاثة عقود لأربعة آلاف ميل بعد عصيان السفينة باونتي.

جعلت مخاطر التحويت لدى النانتوكتيين قابلية عالية لتحمل الخطر والمعاناة. فقد ألقتهم ذيول الحيتان في الهواء، وقضوا الساعات معلقين في حطام قوارب التحويت المنقلبة في بحار باردة متقلبة. كتب تشايس: «كنا معتادين على تكرار مثل هذه المشاهد، لدرجة أننا ألفناها. كنا نشعر طوال الوقت بالثقة ورباطة الجأش، ما جعلنا نتعلم ما يفيد من المهلكات، وقد درّبنا عقولنا وأجسادنا على الإعياء والعوز والخطر، في كثير من المواقف التي تتجاوز قدرة المرء على التصديق». النانتوكتيون فقط، في نوفمبر 1820، كان لديهم المزيج اللازم من الجهل والغرور ورهاب الأجانب، لتجنب جزيرة عامرة (وإن كانت غير معروفة) واختيار البحر المفتوح ورحلة من عدة آلاف ميل بدلاً عنها.

كان بولارد قد جانَب الصواب، لكنه بدلاً من أن يستغل رتبته ويصر على تنفيذ اقتراحه والإبحار إلى جزر سوسايتي، اتخذ

t.me/qurssan

نهجاً أكثر ديموقراطية للقيادة. يجمع المعاصرون من علماء النفس في مسائل النجاة على أن شكل القيادة «الاجتماعي» - كمقابل للشكل «السلطوي»- لا يناسب مراحل الكارثة الأولى، حينما ينبغي أن تُتخذ القرارات بسرعة وحسم. لكن فقط لاحقاً، عندما تستمر المحنة ويصبح من المهم المحافظة على الروح المعنوية، تصبح القيادة الاجتماعية ضرورة.

كان حوّاتو القرن التاسع عشر قد فهموا جيداً طريقتي القيادة. فقد كان يتُوقع من القباطنة أن يكونوا سلطويين، أي ما أطلق عليه النانتوكتيون «رجل سمكيّ». الرجل السمكي يحبّ قتل الحيتان ولا يميل لمراجعة نفسه وتصحيحها، الأمر الذي قد يعيقه عن اتخاذ قرارات سريعة. أن يُطلق على المرء «سمكيّ حتى النخاع» كان المجاملة الأعظم التي يتلقاها النانتوكتي على الإطلاق، ما يعني أنه في طريقه ليصبح، إن لم يكن بالفعل، قبطاناً.

في المقابل، كان يتُوقع من الضباط أن يتحكموا في «سمكيتهم» ويخلطوها ببعض النهج الشخصي المنفتح في القيادة. بعد تكدير خضر الأيادي في مستهل الرحلة -عندما يستحق الضابط لقب «باصق النيران» يعمل على غرس شيء من روح التعاون بين الرجال. يتطلب منه هذا أن يكون حساساً لتقلبات المزاج بين الطاقم، وأن يبقي خطوط الاتصال مفتوحة.

أدرك النانتوكتيون أن منصبي الضابط الأول والقبطان يتطلبان شخصيتين متناقضتين. لا يمتلك كل الضباط الحسم الكافي ليصبحوا قباطنة، وكان هناك الكثير من قباطنة المستقبل

t.me/qurssan

الذين لم يمتلكوا الصبر الكافي ليصبحوا ضباطاً ناجحين. كان هناك قولٌ سائد على الجزيرة مفادهُ: «أن من المؤسف أن تفسد ضابطاً جيداً بجعله قائداً».

يشير سلوك بولارد، بعد الوقعة وبعد هجمة الحوت، إلى افتقاره للتصميم الكافي لنقض آراء ضابطيه الأصغر منه سناً والأقل منه خبرة. لكنه في إذعانه لإرادة الآخرين، كان بولارد يُقدم نفسه لا كقبطان وإنما كضابط أول مخضرم، ما وصفه النانتوكتي ويليام إتش. مايسي: «لم يمتلك الرئة الكافية لنفخ بوقه، وفي بعض الأحيان يشكّ في قدراته الخاصة، رغم أنها كثيراً ما يتضح كونها كافية للتعامل مع أي طوارئ تحدث. عوزه للثقة يؤدي به إلى التردد إذ قد يتصرف أي شخص مندفع أو أقل منه ميلاً للتفكير في الحال. وهو في مساره الوظيفي، قابل كثيراً من الشباب السمكيين الذين مرّوا فوق رأسه».

كان أصحاب السفن يتمنون لو استطاعوا جمع قبطان سمكي حازم مع ضابط رصين لين العريكة. لكن في نانتوكت التي كانت تتضوّر بحثاً عن الأيدي العاملة في 1819، قد انتهى الحال بالإسكس إلى قبطان بغرائز وروح ضابط، وضابط تجول في صدره نار القيادة ويقوده الطموح ليصير قبطاناً. بدلاً من أن يأمر ويصر على أمره، تحلى بولارد بطباع الضباط ومال لسماع ما لدى الآخرين. ما قدم لتشايس -الذي لم يكن يخجل من التعبير عن رأيه في كل فرصة- الفرصة لفرض رؤيته الخاصة. كان رجال الإسكس مبحرين صوب مصير سيحدّده، ليس قبطانهم المتردد، وإنما ضابطهم القوي السمكي.

t.me/qurssan

حان الآن، وقد وضعوا خطة، وقتُ توزيع الطاقم على قوارب التحويت الثلاثة. وبما أن قارب تشايس كان الأسوأ حالاً، فقد ظل أفراده ستة فقط، بينما كان على القاربين الآخرين أن يحمل كل منهما سبعة رجال.

في بداية الرحلة، كان أول ما يعتبره الضباط عند اختيار طواقم القوارب هو نانتوكتية الرجل أو عدمها. وفي أعقاب الكارثة، صارت الروابط الأسرية والصداقة أقوى وأهمّ، وبات من الواضح أن القبليّة، وقد نمت وتضخمت، تظل من أهم العوامل المؤثرة في بناء الطواقم الثلاثة. ومثلها الرتبة. من بين رجال السفينة العشرين، كان هناك تسعة نانتوكتيين، وخمسة بيض البشرة من خارج الجزيرة، وستة أفارقة أمريكيين. وبما أنه القبطان، فقد مُنح بولارد أغلب النانتوكتيين، خمسة رجال من السبعة في قاربه كانوا كذلك. استطاع تشايس الحصول على اثنين، مع اثنين من بيض كيب كود، وأسود واحد. أما الضابط الثاني ماثيو جوي، أقل ضباط الإسّكس رتبة وخبرة، بلا نانتوكتيين، ومعه أربعة من السود الستة.

لشعوره بالمسؤولية المباشرة عن حسن إقامة النانتوكتيين الصغار على الإسكس، تأكد بولارد أن في قاربه ابن خالته ذا الأعوام الثمانية عشر أوين كوفين، وصديقَي أوين الصغيرين تشارلز رامزديل وبارزيلاي راي. أما موقع نيكرسون كمجدِّف تشايس الأخير فقد عنى أنه لن يكون جزءاً من المجموعة، بل سيكون في أوهن القوارب الثلاثة. لكن قارب تشايس، من وجهة نظر نانتوكتية، كان أفضل من قارب جوي.

t.me/qurssan

ورغم كونه نانتوكتي الأصل، إلا ان عائلة جوي كانت قد انتقلت مؤخراً إلى ميناء التحويت الشهير في مدينة (هدسون) بنيويورك. وذكر تشايس أن جوي كان يعاني من مرض غير مُشخص، ربما كان السُل، من قبل الغرق بكثير. ولكونه سقيم البنية وغير كامل النانتوكتية، فقد امتلأ قارب جوي بالكوفيين. فإن تطلب أي موقف من القيادة القوة والنشاط للنجاة، فستكون فرصة رجال جوي الستة هي الأقل. قام النانتوكتيون بكل ما في وسعهم لإنقاذ بني جلدتهم.

كان الرجال العشرون تحت قيادة القبطان بولارد نظرياً، لكن عملياً ظل كل طاقم قارب كياناً مستقلاً بوسعه في أية لحظة الانفصال عن البقية. أخذ كل قارب مئتي رطل من الهارد-تاك، وخمساً وستين جالوناً من الماء، وسلحفاتين. وللتأكد من الحفاظ على النظام تحت أي ظرف، أعطى بولارد كل ضابط مسدساً وبعض البارود، واحتفظ لنفسه ببندقية المسكيت.

في الثانية عشرة والنصف -بعد نصف ساعة فقط من اقناع الضابطين لقبطانهما برأيهما- أبحرت القوارب مع الريح القوية، تشكل قواربهم المجهزة بالأشرعة -التي صارت الآن اقرب للسكونات- طبقاً لنيكرسون، «مشهداً جميلاً يؤشّر بداية طريقنا». كانت معنويات الرجال في أدنى حال لها على الإطلاق. الآن، ومع ابتعاد الإسّكس المتسارع خلفهم، بدأوا في إدراك ما سماه نيكرسون «الخيط الرفيع، الذي به كانت تتعلق حيواتهم».

تأثر الجميع بمغادرة السفينة لآخر مرة. وحتى تشايس الرزين فلم يقدر إلا أن يتعجب كيف «نظرنا إلى سفينتنا

t.me/qurssan

المتحطمة الفارقة بكل هذا التعلق والندم... بدا الأمر وكأننا بهجرنا إياها كنا نهجر كل أمل». تبادل الرجال النظرات الخائفة، وتابعوا السفينة المتلاشية في الأفق، «وكأن بوسعها إراحتنا من المصير الذي يبدو أنه في انتظارنا»، مثلما قال نيكرسون.

بحلول الرابعة عصراً، كانت الإسكس قد اختفت تماماً عن ناظرهم. وبدأت على الفور معنويات الرجال في التحسن النسبي. شعر نيكرسون وكأنهم لم يعودوا مُطاردين بمشهد سفينتهم العاجزة، «وكأن اللعنة التي قيدتنا انفكت عنا». بل وتابع تفاؤله حتى ادعى: «الآن وقد تجهزت انفسنا لأسوأ ما يمكن حدوثه، مرّ نصف المعاناة». ولم يعُد لديهم سوى ملاذ وحيد: الالتزام بخطتهم.

t.me/qurssan

الفصل السابع
في البحر

مع اقتراب ليل أول يوم، ازدادت الرياح تدريجياً دافعة القوارب دفعات غير منتظمة بزوايا مائلة. قوارب تحويت الإسكس كانت هجينة -بُنيت للتجديف لكنها عُدلت لتبحر بالأشرعة- ورجالها كانوا لا يزالون يتعلمون التحكم بها. فبدلاً من الدفة، كان كل قارب مزوداً بمجداف توجيه. هذا المجداف ذو الثمانية عشر قدماً طولاً، كان يُمكّن قارب التحويت من الدوران حول نفسه، لكنه لم يكن كافياً لتوجيه قارب شراعي، وكان يتطلب من موجّه القارب الوقوف على المجداف الثقيل. في بداية رحلة العودة المبكرة تلك، كانت القوارب تنوء بحمل أثقل من طاقتها لدرجة خطيرة؛ فبدلاً من خمس مئة رطل منً معدات التحويت، احتوى كل قارب على ما يقرب من ألف رطل من الخبز وماء الشرب والسلاحف، بالإضافة إلى ما تُلقيه الأمواج فوق شفير القارب من مياه. وكانت القوارب بلا أرينة تساعد على المضي بثبات في المياه، ممّا يرغم الموجّهين على سحب ودفع مجاديفهم بقوة بينما تتمايل قواربهم الثقيلة في المياه المضطربة.

انقسم طاقم كل قارب لمناوبتين. يحاول نصف الرجال نيل بعض الراحة -بالتكور في جوف القارب مع السلاحف أو

t.me/qurssan

مستندين إلى مقاعدهم غير المريحة- وينزح الآخرون الماء من القارب ويوجهونه ويعتنون بأشرعته، ويحاولون أيضاً إبقاء عين مفتوحة على القاربين الآخرين، اللذين قد يختفيان من المشهد بالكامل بعد الخوض في قاع موجة.

قرروا منذ البدء بذل قصارى جهدهم لإبقاء القوارب الثلاثة سوية. معاً سيكون بوسعهم المساعدة إن تعرض أي منهم لأية صعوبة، معاً بوسعهم المحافظة على المعنويات صامدة. لاحظ تشايس أنه «دون مساعدة وتشجيع بعضنا بعضاً، أثق أننا كان معنا العديد من ذوي القلوب الضعيفة، الذين كانوا سيغرقون في فخ استرجاع أحداث الكارثة المظلم، والذين لم يملكوا الثبات الكافي للتفكر في مصيرنا القادم إن لم يحثّهم أولئك الذين ارتسمت على محياهم بعض العزيمة التي يفتقر لها الآخرون».

وكان هناك أيضاً سبب أكثر عملية للبقاء سوية؛ إذ لم تكن هناك معدات ملاحية كافية للجميع. فقد امتلك كلٌّ من بولارد وتشايس بوصلة وأصطرلاباً ونسخة من ملاح بوديتش، بينما لم يملك جوي شيئاً. وهو إن انفصل بقاربه عن الآخرين، لن يكون بوسعه إيجاد طريقه عبر المحيط.

حل الليل. رغم أن ضوء القمر والنجوم سمح ببعض الرؤية الشبحية الشاحبة للقوارب والأشرعة، إلا أن نطاق رؤية الرجال تضاءل في الظلام إلى حد كبير، حتى مع رهافة آذانهم التي ارتفعت. بُنيت قوارب التحويت بطريقة الألواح المتداخلة (Clinker)-التي تشبه الألواح المستخدمة في المنازل- بما جعلتها أكثر ضجيجاً من القوارب ناعمة القاع. وسيرافقهم صوت المياه

t.me/qurssan

التي ترتطم بألواح قواربهم المتراكبة الصاخب، طوال مدة رحلتهم.

استطاع الرجال الإبقاء على المحادثة حية بين القوارب الثلاثة حتى في الليل. الموضوع الذي كان يسيطر على عقول الجميع كان بالطبع «طرق النجاة واحتمالاتها». اتفق الجميع على أن فرصتهم الأفضل في النجاة هي مصادفة حوّاتة. غرقت الإسّكس على مسافة ثلاث مئة ميل شمال الأرض البحرية، لا تزال أمامهم خمسة أيام على بلوغهم تلك المنطقة، حيث قد يصادفون حوّاتة، أو هكذا كانوا يأملون.

ما كان في صالحهم من الظروف، هو أن سفن التحويت تمتاز عن السفن التجارية بوجود مراقب يستطلع الأنحاء على رأس صاريها طوال الوقت، لذا تقدم لهم أماكن التحويت فرصاً أفضل في أن يلمحهم أحدها. لكن ما كان ضدهم منها هو أن الأرض البحرية كانت شاسعة الاتساع، فهي تغطي مساحة هائلة من المحيط، ضعفي مساحة ولاية تكساس، مستطيل يبعد جنوبه عن شماله ثلاثة آلاف ميل، وشرقه عن غربه ألفي ميل. كانت هناك على الأقل سبع حوّاتات في الأرض البحرية في ذلك الوقت. لكن حتى لو كان هناك ضعفا هذا الرقم، فلا يزال احتمال أن تلمحهم سفينة مارة في غير صالح القوارب الثلاثة التي تعبر النطاق في خط مستقيم (ما قد يستغرق من أربعة لخمسة أيام على الأكثر).

كانت هناك إمكانية لإطالة وقتهم في الأرض البحرية وقضائه في البحث عن حوّاتة. لكن تلك كانت مقامرة؛ فإن لم

t.me/qurssan

يعُد بحثهم بنتيجة، فهم قد غامروا بفرصهم في الوصول لأمريكا الجنوبية قبل أن ينتهي مخزونهم من الطعام. كما أنهم كانوا سيدخلونها من أقصى الغرب، وهذا يعني مواجهة صعوبة شديدة في الاتجاه شرقاً عكس التجارية الجنوب شرقية.

كان ثمة عامل آخر مؤثر في قرارهم بمتابعة خطتهم الأصلية. فبعد سقوطهم ضحية لما بدا أنه هجوم عشوائي يتعذر تفسيره، شعر الرجال بحاجة ملحة إلى استعادة ولو بعض التحكم في مصيرهم. أن تلمحهم سفينة تحويت هو أمر، طبقاً لتشايس، «لا يعتمد على مجهوداتنا، لكن على الصدفة وحدها». في المقابل، بلوغ أمريكا الجنوبية يعتمد «على عملنا». شكل ذلك فارقاً كبيراً من وجهة نظر تشايس، تطلب منهم أن لا «نحيد ببصرنا ولو للحظة عن كل تلك الاحتمالات القوية التي، مع العناية الإلهية، ترجح وصولنا إلى الأرض عبر الطريق الذي وضعناه لأنفسنا».

لكن ثمة شرط واحد لا يمكن أن تنجح الخطة دون تحققه: عليهم أن يتأكدوا من دوام مؤنهم لشهرين. فكل يوم، كان للواحد منهم ست أوقيات هارد-تاك ونصف لتر ماء. كان الهارد-تاك خبزاً مجففاً بسيطاً مصنوعاً من الدقيق والماء، ويُخبز إلى صلابة الصخور كي لا يتلف، فكان يحتاج لتكسيره إلى قطع صغيرة أو إلى نقعه في الماء قبل أكله، كيلا يكسر أسنان آكليه.

كانت حصة البحّار اليومية توازي ست شرائح خبز، وتوفر لآكلها حوالي خمس مئة سعرة حرارية. اعتبرها تشايس أقل من ثلث ما يحتاجه «الرجل العادي» من تغذية. يقول علم التغذية

t.me/qurssan

المعاصر إن بالنسبة لشخص طوله 170 سنتيمتراً ويزن حوالي 65 كيلوغرماً، تمثل هذه الحصة ربع حاجته اليومية للطاقة. صحيح أن رجال الإسّكس كان لديهم ما هو أكثر من الخبز؛ فقد كانت معهم سلاحف. وكل سلحفاة كانت بمثابة مخزن من اللحم الطازج والدهن والدماء، يمنح ما يقرب من 4500 سعرة حرارية لكل رجل، ما يعادل تسعة أيام من الهارد-تاك. على الرغم من ذلك، تبقى حصة الطعام اليومية، حتى مع تعزيزها بما توفر من سلاحف، حمية مجاعة. وهم إن نجحوا في بلوغ أمريكا الجنوبية في ستين يوماً، فلن يكون الرجال أكثر من هياكل عظمية تتنفس.

لكن، مثلما سيكتشفون قريباً، فإن أهم ما سيقلقهم لن يكون الطعام، بل الماء. جسد الإنسان، الذي تُشكل المياه 70٪ منه، يحتاج على الأقل إلى نصف لتر ماء يومياً ليخرج فضلاته. سيكون على رجال الإسّكس أن يكتفوا بنصف هذه الكمية يومياً. وإن حلّ عليهم أي طقس حار، فإن عجزهم المائي سيزيد.

في أولى ليالي رحلتهم، وزع تشايس وبولارد وجوي حصص الخبز والماء على طواقم القوارب. مر يومان على غرق الإسّكس الآن، ورغبة الرجال في الأكل قد عادت أخيراً. فأكلوا طعامهم بسرعة. لكن كان هناك شيء آخر تاقت إليه الشهية: التبغ. طول الوقت تقريباً، كان في فم الحوّات مضغة من تبغ، مستهلكاً ما يقرب من سبعين رطلاً منه في الرحلة الواحدة. الآن، جاء الانسحاب من إدمان النيكوتين وما يصاحبه من شدة أعصاب ليتوّج محنتهم.

بعد وجبتهم الهزيلة، حاول من ليس عليهم الدور في العمل

t.me/qurssan

من الرجال النوم. يحكي تشايس «تعبت الطبيعة في النهاية من الأرق والتوتر اللذين سيطرا على الرجال في الليلتين السابقتين، وهبط النوم غير مكترث على الجميع». لكن مع وقوع الرجال في ما سماه غيبوبة بلا أحلام، فقد وجد تشايس نفسه في منتصف كابوس واقعي.

فهو غير قادر على النوم لليلة الثالثة على التوالي، قد تابع التفكير القهري في الظروف التي أدت لغرق السفينة. لم يقدر على إخراج ذلك الكائن من تفكيره، «لقد سيطر مشهد انتقام الحوت المروّع على خيالي». وفي محاولة يائسة لإيجاد تفسير لمعضلة كيف تحول كائن مسالم عادة لوحش مفترس، أصاب تشايس ما يسميه علماء النفس الذاكرة المُعذِّبة؛ وهي استجابة نفسية شائعة للكوارث. باضطراره لعيش الصدمة مرة تلو الأخرى، يبدأ الناجي في رؤية قوى كبرى خفية تعمل بين طيات الحادثة. أصاب الفيلسوف ويليام جيمس هذا الوسواس بعد عدة سنوات، بعد زلزال سان فرانسيسكو عام 1906، كتب: «أدركت الآن كيف كانت رؤية البشر الأوائل الميثولوجية [للكوارث] حتمية، وكيف يبدو مبلوكنا الحديث الذي يعلمه لنا العلم مصطنعاً ومخالفاً لأسس إدراكنا التلقائي».

يجد أغلب ضحايا الكوارث قيمة علاجية في اجترار ذكريات الكارثة، إذ تُنتزع المُعاني بالتدريج عن التوتر والقلق اللذين قد يؤثران سلباً على قدرتهم على النجاة. لكن في المقابل، هناك مَن لا يقدرون على تحرير أنفسهم من الذاكرة المُعذِّبة. فاستناداً إلى سردية تشايس، سيبني ملفيل شخصية كابتن

t.me/qurssan

اخاب، وهو رجل لم يخرج قط من أعماقه النفسية مثلما تلوى تشايس في مضجعه في الليالي الثلاث الأولى. وبالضبط مثلما اقتنع تشايس أن الحوت الذي هاجم الإسكس فعل ذلك عن «أذى متعمد ومدروس»، فقد كان يطارد آخاب هاجس حوته الأبيض الذي كان ذا «قوة غاضبة فاضحة مبعثها حقدٌ مبهم».

مُقيداً في زنزانة مخاوفه الخاصة، قرر آخاب أن لا سبيل لتحرّره سوى تتبع وقتل موبي دِك، «كيف يمكن للسجين أن ينفذ إلى الخارج إلا إذا اخترق الجدار؟ بالنسبة لي فإن هذا الحوت الأبيض هو ذلك الجدار الذي يصدّني». تشايس، على قارب صغير على بعد آلاف الأميال من اليابسة، لم تكن لديه القدرة على الانتقام. كان آخاب يحارب رمزاً، أما تشايس ورفاقه فقد كانوا يحاربون من أجل حياتهم.

***

في الصباح التالي، اطمأن الرجال عندما استيقظوا ليجدوا القوارب الثلاثة لا تزال على مقربة من بعضها برغم شدة رياح الليلة المنقضية. ازدادت الرياح تدريجياً خلال اليوم، ممّا تطلب منهم إنزال الأشرعة. إن من الممكن تعديل أشرعة القارب السكونة بسهولة لتتكيف مع الظروف المتغيرة، إذ بعد طيّ الأشرعة «لم يجد الرجال أي خطر محدق في الرياح العنيفة»، وفقاً لتشايس. لكن من الناحية الأخرى، ظلت الأمواج العالية تعذبهم؛ وصاروا في حالة من البلل الدائم من الرذاذ المالح، فبدأت تظهر على بشرتهم قروح مؤلمة، تفاقمت مع ارتجاج القوارب المستمر.

t.me/qurssan

في صندوقه البحري، وجد تشايس مجموعة من الأشياء المفيدة: مُدية وحجر شحذ وثلاثة خطاطيف صيد أسماك صغيرة وقطعة صابون وبعض الملابس وقلم رصاص وعشر أوراق للكتابة. كضابط أول، كان من مهامه أن يحتفظ بسجل للسفينة، والآن مع وجود القلم والأوراق شرع في تدوين «نوع من اليوميات البحرية»، على الرغم من الظروف السيئة. تذكر تشايس «إن محاولة الحفاظ على أي نوع من السجلات... كان أمراً في غاية العسر، لتأرجح القارب المستمر وتناثر رذاذ البحر الكثيف علينا».

كتابة تشايس لليوميات غذّت فيه ما هو أكثر من واجبه الوظيفي، غذت احتياجاً شخصياً. فعلُ التعبير عن الذات -عبر كتابة اليوميات أو الخطابات- غالباً ما يمكّن الناجين من إبعاد أنفسهم عن مخاوفهم. فبعد شروعه في تدوين سجله غير الرسمي، لن يمر تشايس بليلة تؤرقه فيها ذكرى الحوت مرة أخرى.

كانت هناك بعض الطقوس اليومية الأخرى. ففي كل صباح، كانوا يحلقون لحاهم بالسكين ذاتها التي يشحذ بها تشايس قلمه الرصاص. وكان بينجامين لورنس يقضي بعضاً من كل يوم في ربط قطع الحبال الممزقة في جديلة لا تنفك تطول كل مرة. تعهد موجّه القارب أنه لو خرج من هذا القارب على قيد الحياة، فإنه سيحتفظ للأبد بذلك الحبل تذكاراً لمحنتهم.

عند الظهر توقفوا لرصد موقعهم. حساب زاوية الشمس بالأسطرلاب لم يكن عملاً هيناً على قارب صغير تتلاعب به الأمواج. أفضل تخمين استطاعوا الوصول إليه كان '58 °0. جنوباً،

t.me/qurssan

ما كان ذا دلالة مشجعة. فهم لم يعبروا فقط خط الاستواء، بل هم أيضاً قد أبحروا 71 ميلاً بحرياً تقريباً مذ غادروا حطام السفينة في اليوم السابق، ما يجعلهم متجاوزين هدفهم اليومي المقدّر بستين ميلاً. بعد الظهر اعتدلت الرياح، ما سمح لهم ببسط الأشرعة وتجفيف ملابسهم المبتلة في الشمس.

في ذلك اليوم، قرر بولارد التخلي بالكامل عن «فكرة محاولة رصد الموقع بالنسبة لدوائر العرض بالكامل». للحفاظ على دقة حساب موقع أي سفينة، من الضروري حساب كلٍّ من موقعها بين الجنوب والشمال، أي دوائر العرض، وموقعها بين الشرق والغرب، أي خطوط الطول. الرصد عند الظهر بالأسطرلاب لا يسجل إلا دوائر العرض. إن امتلك الملاح في عام 1820 كرونومتر -وهو أداة لقياس الوقت دقيقة إلى درجة استثنائية مجهزة للتركيب في السفن- سيكون بوسعه مقارنة الوقت الذي يرصده ساعة الظهيرة بالوقت في جرينتش إنجلترا، ويحسب من خلاله خط الطول. لكن الكرونومتر كان غالياً في هذا الوقت ولم يكن شائعاً بين سفن التحويت النانتوكتية.

البديل كان إجراء ما يسمى بالرصد القمري، أو ببساطة «لونار lunar». وتلك كانت عملية في غاية التعقيد، تستغرق حوالي ثلاث ساعات من الحسابات المعقدة لحساب خط طول سفينة، ويستحيل تنفيذها على قارب تحويت. بالإضافة إلى أن بولارد، طبقاً لنيكرسون، لم يتعلم بعد كيفية أداء اللونار.

لم يبق لهم إلا الرصد السلبي Dead Reckoning. في هذه الطريقة يحتفظ ضباط السفينة بسجل دقيق لاتجاههم مثلما

t.me/qurssan

تشير إليه البوصلة، وسرعتهم التي تُحسب بإلقاء حبل ذي عُقد في نهايته قطعة من الخشب في الماء خلال حركة السفينة، وحساب كم جرى من الحبل (أو كم «عُقدة» منه) في وقت معين. أما لقياس الوقت فقد كانت تستخدم ساعة رملية عُرفت بالزجاجة البطيئة. ثم تُنقل السجلات إلى جدول، يستنتج منه القبطان موقع السفينة.

استطاع الناجون من كوارث بحرية أخرى -أشهرهم كابتن بلاي، قبطان باونتي- استخدام الرصد السلبي لتحديد مواقعهم والعبور بنجاح. فبعد أن هجرته سفينته بقليل، وفي منتصف المحيط الهادئ، صنع كابتن بلاي حبله ذا العقد ودرّب رجاله على عد الثواني بينما تجري قطعة الخشب بجوارهم. استنتاج بلاي لخطوط الطول ودوائر العرض كانت في غاية الدقة، وهذا ما مكنه من إيجاد موقع جزيرة تيمور، في واحدة من أعظم مغامرات الملاحة في التاريخ.

قال تشايس إنه «بدون زجاجة بطيئة أو حبل ذي عُقد» قرروا أن من العبث الاستمرار في حساب دوائر العرض. إن كانت لعدم قدرة بولارد على إجراء اللونار أية دلالة، فهي أنه لم يكن ملاحاً مخضرماً، ولم يكن أيضاً ملاحاً غير ماهر لدرجة استثنائية. كثير من القباطنة كانوا يعتمدون على الرصد السلبي لتوجيه سفنهم، ومثل بولارد، لم يتوقعوا أن يجدوا أنفسهم في مثل هذا الموقف. وبتخليهم عن كل وسائل تخمين خطوط الطول، فقد أبحرَ القبطان ورجاله في ظلام، بلا طريقة لمعرفة موقعهم من أمريكا الجنوبية.

t.me/qurssan

في العصر، أحاط بالقوارب الثلاثة قطيع من الخنازير البحرية، ومضت معهم إلى ما بعد الغروب. في هذه الليلة تصاعدت الريح إلى ما يكاد يكون عاصفة. راقب تشايس وطاقمه في رعب ألواح قواربهم القديمة تتلوى مع حركة الأمواج. قال نيكرسون إن القارب كان في حالة سيئة لدرجة أنه لم يكن ليأمن على نفسه بالإبحار فيه لعشرة أميال، ناهيك عن الآلاف التي كانت أمامهم.

في صباح الجمعة، الرابع والعشرين من نوفمبر، ثالث أيامهم في القوارب، كانت الأمواج طبقاً لتشايس «عالية إلى درجة سببت زيادة توتر الموقف، إن كان هذا ممكناً». أشار تشايس إلى أنهم لو كانوا على متن الإسكس، كانت الرياح ستبدو لهم عادية، لكنها الآن «في حالتنا العاجزة، بدت حاصباً، وجعلتنا باردين مبللين طوال الوقت». ذلك اليوم، ضربت قارب تشايس موجة هائلة كادت تملؤه بالمياه. بدا القارب المنقوع على وشك الوقوع على جانبه، بينما طفت البراميل والسلاحف وصندوق تشايس البحري وأخذت ترتطم بالرجال. أخذوا ينزحون المياه خارجاً مثل المحمومين، مدركين أن الموجة التالية ستغرقهم.

ما أن ابتعدوا بقواربهم عن الخطر، حتى اكتشفوا ان بعض الهارد-تاك -الذي كانوا قد لفوه في أقمشة الأشرعة- ابتل بمياه البحر. فعلوا ما بوسعهم لاستخلاص ما أمكنهم من الخبز المتضرر. على مدار الأيام الثلاثة القادمة، سيستغلون كل فرصة ممكنة لتجفيف الكتل الذائبة في الشمس. رغم أن هذا أنقذ المؤن مما وصفه نيكرسون بـ «الدمار التام»، ما بقى من الخبز

t.me/qurssan

صار مالحاً، آخر ما تحتاجه أجسادهم المحرومة بالفعل من المياه. يتذكر نيكرسون: «ولأن الخبز كان كل ما لدينا، فقد خيم هذا على أفقنا الغائم بمزيد من العتمة». وزاد الأفق إظلاماً عندما عرفوا أن جزءاً من مخزون قارب بولارد قد تضرر أيضاً. قبل بضعة أيام كان الضباط مؤمنين بتحفظ في «الوسائل البشرية [للنجاة] التي نتحكم فيها»، والآن أدركوا «اعتمادنا الكامل على العناية الإلهية التي نحتاجها أكثر من أي وقت».

في الثامنة من صباح اليوم التالي، انزعج الرجل الموكل بنزح المياه على قارب تشايس، فهو مهما حاول، لم يستطع كبح جماح مدّ الماء المتصاعد. حذر البقية من أن قاربهم يغرق. وبسرعة صارت أيادي الرجال الستة المرتعشة تجس قاع المركب المتمايل وجدرانه بحثاً عن مصدر تدفق الماء. ولم يجدوه إلا بعدما نزعوا الأرضية ليكتشفوا المشكلة: فقد انفصل أحد ألواح المقدمة عن الهيكل، تاركاً فتحة تتسرب منها المياه. كان ذلك تحت خط المياه بحوالي ست بوصات، وإن كانوا ينوون تصليحها، فعليهم إيجاد طريقة لفعل ذلك من الخارج.

اللوح المنفصل كان معلقاً بميمنة القارب. وبسرعة انحرف تشايس بالقارب مستخدماً مجداف التوجيه، بحيث تصبح الرياح قادمة من الجانب الآخر. جعل هذا التسريب في مواجهة الريح (أو الجانب «العالي»). تمنى تشايس لو تراجع القارب للوراء بشكل يرفع المقدمة قليلاً عن الماء فيصبح مصدر التسريب أعلاها.

عندما لاحظ أن تشايس انحرف فجأة، أدار بولارد قاربه

t.me/qurssan

واتجه إلى ضابطه الأول. بعد طيّ أشرعته صار بجواره وسأله عن خطبه.

الآن وقد صار قارب القبطان بجوارهم، أمر تشايس رجاله بالتمركز على مؤخرة ميسرة القارب بقدر الإمكان، ليبرز مكان التسريب في الهواء. وشرع الضابط الأول والقبطان من قارب بولارد في محاولة تثبيت المقدمة وإعادة اللوح إلى موضعه بالمطرقة. لم يكن هناك مجال للخطأ. مؤخرة القارب كانت بالفعل مغربلة بثقوب المسامير القديمة، وكان من الضروري وضع المسامير الجديدة بدقة. ورغم تمايل القوارب وتقافزها مع الأمواج، تمكن تشايس وبولارد من «وضع بضعة مسامير وثبتا [اللوح]، بشكل يفوق التوقعات». بعدها بقليل كانت القوارب الثلاثة مبحرة مرة أخرى متولية الجنوب.

يستذكر نيكرسون: «على صغرها، أثارت تلك الواقعة البسيطة بيننا انفعالاً شديداً». مع ذلك العرض التوضيحي الذي ذكّرهم بقابلية قوارب التحويت للانهيار في أية لحظة، شعر الرجال «بأسى شديد وشكّ في احتماليات نجاتهم». وأدركوا أنه كلما طالت المحنة، كلما عانت القوارب أكثر من «ضربات العباب الثقيلة وتحطيمه المتكرر لها». كل ما يتطلبه الأمر هو انهيار مسمار واحد، وسيختفي بعدها قارب من الثلاثة إلى الأبد.

بالنسبة لطاقم قارب تشايس، كان اليوم متعباً بشكل خاص. في ذلك المساء، قاد ريتشارد بيترسون، الإفريقي الأمريكي الوحيد على قاربهم، بقية الرجال في الصلاة وترنيم بعض التراتيل. تذكر نيكرسون كيف أن كلمات وأغاني «الرجل الملون

t.me/qurssan

العجوز التقي... انتزعتنا من بؤسنا الحالي، وجعلتنا نطلب النجاة من قوة أعلى». لم تدم تلك الراحة طويلاً، مع صباح السادس والعشرين من نوفمبر، سيزول التفاؤل المؤقت الذي بدأ به الرجال رحلتهم، وسيؤول إلى قنوط.

طوال الأيام الأربعة السابقة، كان من المستحيل رصد الموقع بسبب الطقس الغائم العاصف. لكنهم بالاستناد إلى مسار البوصلة الذي كانوا مضطرين للتوجه إليه بأشرعة مربوطة بإحكام عكس الريح التجارية الجنوب-شرقية، عرفوا أنهم كانوا يبحرون بموازاة ساحل أمريكا الجنوبية بدلاً من الاتجاه إليه. وعرفوا أيضاً أن قواربهم، المفتقرة إلى الأرينة كانت تميل إلى الانحراف مع الريح. مع كل هذا التذبذب، لا بدّ أنهم الآن أكثر غرباً من حيث كان يجب ان يكونوا؛ رغم انهم أحرزوا تقدماً كبيراً في اتجاههم إلى الجنوب، إلا أنهم لم يصيروا أقرب إلى وجهتهم النهائية. وتوقف الحديث المتفائل عن احتمالية انقاذهم بحوّاتة عابرة من هناك. كتب تشايس: «نظرنا إلى الأمام، بعيون لا تخلو من الخوف والقلق، إلى الأفق الكئيب المحبط المتجهين إليه».

هدأت الريح في عصر ذلك اليوم إلى نسيم مريح، ما مكنهم من إخراج خبزهم المتضرر ليجف. ثم تغير اتجاه الريح تدريجياً للشمال. لأول مرة منذ مغادرتهم للإسكس، كانوا قادرين فعلاً على الإبحار ناحية أمريكا الجنوبية. أخذ الرجال يتحدثون عن كيف أنهم قد يسبقون خطتهم إلى حد كبير فقط لو استمرت الريح على هذا المنوال.

t.me/qurssan

لكن هذا لن يستمر. في اليوم التالي، عادت الريح لاتجاه الشرق «وحطمت كل أمل في الرحلة الطيبة أشرق في قلوبنا». وكأنها تسخر منهم، انحرفت الريح في اليوم التالي للشرق الشرق-الجنوبي أكثر، ثم أخذت تهب بقوة.

في الليل، انثنت الأشرعة «وانتشرت المخاوف من أننا قد ننفصل عن بعضنا» في الظلام. لتلافي حدوث مثل هذا، قام طاقم يونيون، سفينة التحويت النانتوكتية التي ارتطمت بحوت بالصدفة عام 1807، بربط قواربهم ببعضها في الليل. لكن القيود حدّت من قدرة البحّارة على الإبحار. ضباط الإسكس - العازمون على الوصول لساحل أمريكا الجنوبية بأي ثمن- كانوا مترددين في ربط القوارب خوفاً من التأثير على سرعتها. فبدلاً من الربط، اتبعوا تشكيلة في الإبحار يتصدرها تشايس في المقدمة، وبولارد في المنتصف، وجوي في المؤخرة. وهُم إن استطاعوا المحافظة على مسافة مئة قدم من بعضهم البعض، لتمكّن كل منهم من رؤية أشرعة الآخرين البيض في الظلام.

***

في حوالي الحادية عشرة، تمدد تشايس في جوف قاربه لينام. كان في أول الوسن عندما استيقظ مفزوعاً على صياح أحد رجاله. قال الرجل إن القبطان بولارد كان ينادي في الظلمة. جلس تشايس وأنصت. بين عزيف الريح واعتلاج الموج، استطاع تمييز صوت بولارد ينادي على جوي، المفترض أن قاربه كان الأقرب إليه. دار تشايس عكس الريح وأبحر إلى القاربين الآخرين اللذين لا تظهر منهما إلا صور شبحية في الليل عديم

t.me/qurssan

القمر. سأل: «ما خطبكم؟». بالأخذ في الاعتبار ما حدث للإسكس قبل أسبوع، فإن الرد سيبدو مثل مزحة ثقيلة.

أخبره بولارد أن قاربه هاجمه حوت.

لكنه لم يكن حوت عنبر، بل حوتاً أصغر أكثر عدائية، حوتاً قاتلاً.

هذه الحيتان، التي تزن من ثمانية إلى اثني عشر طناً، تتغذى على الكائنات ذوات الدم الدافئ، مثل الفقمات والدلافين. وتصطاد في مجموعات، وعُرف عنها أنها أحياناً ما تهاجم وتقتل حيتان العنبر. توجد حالات موثقة هاجم فيها الحوت القاتل، والذي يعرف أيضاً باسم أوركا، يخوتاً خشبية، ونطحها حتى أغرقها.

شرح بولارد أن ذلك الكائن، بلا مبرر واضح، ضرب برأسه جدار قاربهم وعضّه عضة كبيرة. ثم أخذ يلعب حول القارب ضارباً إياه برأسه وذيله، مثلما يلعب القط بالفأر، ثم أخيراً هاجمهم مرة أخرى هجمة شرخت مؤخرة القارب. وبينما كان الحوت يُزبد الماء حولهم، حمل الرجال الأعمدة التي رفعت أطراف الأشرعة (المعروفة بأعواد الشراع)، وأخذوا يضربونه بها على جسده مرات متتالية. عندما وصل تشايس كان رجال بولارد قد نجحوا أخيراً في إبعاد الحوت.

بدأت المياه ترتفع في قارب بولارد، فأمر رجاله بنقل المؤن إلى القاربين الآخرين. وقضت القوارب الثلاثة الليلة ملتصقة ببعض. لعدم قدرتهم على الرؤية أبعد من أطراف أصابعهم في ظلمة كالحبر، ملأت مخيلة الرجال الفراغ بمخاوفهم. في

t.me/qurssan

الأسبوع الماضي، تعرضوا لرياح عنيفة وتضررت بعض مؤنتهم وثُقب واحد من قواربهم. هجوم حوت آخر جاء بمثابة الضربة المتوِّجة لمآسيهم، «بدا لنا من هذه الكوارث المعقدة المتتابعة، وكأن القدر عازم على ملاحقتنا بلا هوادة». ظلوا يبحثون بعيونهم في سطح الماء الأسود حولهم، مقتنعين أن الحوت سيظهر مرة أخرى. «لم نكن بلا مخاوف من معاودة هذه السمكة للهجوم في وقت ما من الليل على أحد القوارب، وتدمرنا على غفلة منا». دون سفينتهم الحامية، صار الصيادون فريسة.

في الصباح التالي، أجروا لقارب بولارد إصلاحاً سريعاً، عبر تثبيت شرائح خشب رفيعة بالمسامير على الجانب الداخلي من الجزء المكسور. ومرة أخرى تابعوا طريقهم، مع نسيم جنوب-شرقي قوي هذه المرة. في هذا اليوم، بدأ الرجال في قارب تشايس في الشعور بعطش طاغ، برغبة في المياه جعلت التفكير في أي شيء غيرها ضرباً من المُستحيل. رغم جفاف حلوقهم، تحدثوا كثيراً عما يشتاقون إليه. وبالتدريج فهموا سبب كربهم.

في اليوم السابق، كانوا قد بدأوا في أكل الخبز المتضرر بالماء المالح. الخبز الذي جففوه في الشمس بعناية صار يحتوي على كل ملح المياه، لكن دون المياه نفسها بالطبع. ولأنهم كانوا في حالة من الجفاف الحاد في الأصل، كان الرجال كمن يسكب البنزين على نار العطش، ما أرغم كليتي كل منهم على إفراز مزيد من السوائل لتخرج الملح في فضلاتهم. وبدأوا في المعاناة من حالة تُعرف باسم فرط الصوديوم في الدم Hypernatremia، وهي حالة قد تسبب بعض التشنجات.

سجّل تشايس: «يحتل الحرمان من المياه أعلى المراتب في قائمة مآسي حياتنا، لا يوجد ما يوازي شدة الظمأ بين تعاسات البشر». ادعى تشايس أن في ذلك اليوم، الثامن والعشرين من نوفمبر -السادس منذ مغادرتهم للحطام- «بدأت معاناتنا القصوى».

حتى بعد أن أدركوا أن الخبز هو سرّ عذابهم، قرر رجال قارب الضابط الأول الاستمرار في أكل المؤن المتضررة. سيفسد الخبز بالكامل إن لم يؤكل قريباً، وخطتهم معتمدة على مؤن تكفي ستة أسابيع. كتب تشايس: «عزمنا على المضي في المعاناة بقدر ما يسمح الصبر والتحمل البشري، واضعين نصب أعيننا اليوم الذي سينفد فيه ما تضرر من المؤن، فيه ستكون راحتنا».

في اليوم التالي، بات من الواضح أن ضغط الإبحار في المحيط الواسع ليلاً ونهاراً قد أخذ ضريبته من القوارب. الوصلات كانت تنفصل بالتدريج، وصارت القوارب الثلاثة بحاجة لنزح مستمر للمياه. الوضع على قارب تشايس كان الأسوأ، لكن الضابط الأول رفض الاستسلام. بمطرقته في يده، كان يقوم حتى بأتفه الإصلاحات. يتذكر نيكرسون: «مع شخص نشيط وذكي مثله، لم يكن يدع فرصة تمضي دون أن يدق مسماراً يقوي «أضلاع القارب والواحه. العمل المستمر شغل رجال تشايس عن واقع وضعهم. كانوا في أسوأ القوارب الثلاثة، لكن مع قائد سخر نفسه لتأجيل التفكك الكامل للقارب إلى الوقت الذي يصير فيه متجاوزاً قدرته على منعه.

في هذا الصباح برز من المياه قطيع من الدلافين المشعة

t.me/qurssan

بألوان الطيف وأحاطت بالقوارب، وتبعتهم أغلب اليوم. وضعوا قطعاً من الأقمشة البيض على أطراف خطاطيف تشايس للصيد، وحاولوا، بحسب كلمات نيكرسون، «استخدام كل قدراتهم على الإقناع... لإغوائها للصعود على القوارب». لكن الدلافين أثبتت أنها «حريصة على حياتها مثلنا بالضبط» ورفضت الطُعم.

في اليوم التالي، صار جوع الرجال فوق الاحتمال مثل ظمئهم. وكان الطقس في أفضل حالاته منذ ذهابهم عن الإسكس قبل ثمانية أيام، واقترح تشايس أن يحاولوا تهدئة «آلام التضوّر التي تنخر معداتنا» بأكل واحدة من سلاحفهم. وافق الرجال كلهم على الفور. وفي الواحدة بعد الظهر، بدأ تشايس في التشريح. في البداية قلب السلحفاة على ظهرها، وبينما قبض الرجال على مخالبها ومنقارها نحرها تشايس، قاطعاً الشرايين والأوردة على جانبي الفقرات في عنقها. كتب تشايس «بدا الجميع متلهفين لفرصة شرب الدماء المنبثقة من جرح الحيوان الأضحية»، متحمسين لشربه قبل أن يتخثر.

جمعوا الدماء في الكوب المعدني ذاته الذي شربوا فيه حصتهم اليومية من المياه. برغم ظمئهم العاتي، لم يستطع بعض الرجال إرغام أنفسهم على شرب الدماء. من ناحية تشايس، فقد «شربته مثل الدواء الذي سيداوي جفاف حلقي اللامتناهي».

لكنهم جميعاً كانوا مستعدين للأكل. اخترق تشايس بشرة الحيوان الجلدية بجوار الرقبة بسكينه، ومضى بها حول حافة الصدفة كما المنشار، حتى صار بوسعه الوصول إلى اللحم

t.me/qurssan

والأمعاء. بمساعدة مشعل النيران المخزن في صندوق طوارئ قارب التحويت الصغير، أشعلوا النار في الصدفة وطبخوا عليها السلحفاة، «بلحمها وأحشائها».

بعد عشرة أيام لم يأكلوا فيها إلا الخبز، هجم الرجال على السلحفاة كالمجانين، مزقت أسنانهم لحمها الغض وسالت عصارتها الدافئة على الملح الذي يغطي وجوههم كالقشرة. احتياج أجسادهم الغريزي للغذاء قادهم لقلب السلحفاة وكبدها الغنيين بالفيتامينات. اعتبر تشايس ما حدث «مأدبة لا يمكن وصف جمالها».

كان جوعهم مستفحلاً لدرجة أنهم ما أن بدأوا في الأكل، حتى وجدوا التوقف عنه صعباً. السلحفاة متوسطة الحجم توفر لكل رجل ما يقرب من ثلاثة أرطال من اللحم، ورطل من الدهون، وعلى الأقل نصف كوب من الدماء؛ مجموع هذا كله يساوي 4500 سعرة حرارية، ما يوازي عشاء عيد فصح ضخم. معدة منكمشة لشخص لم يأكل على مدار الأيام العشرة السابقة كلها أكثر من أربعة أرطال من الخبز، من العسير أن تتقبل هذا الكم الهائل من الطعام. والجفاف الذي عانى منه الرجال صعّب أيضاً على معداتهم توليد العصارة الهضمية المطلوبة للتعامل مع الكميات الكبيرة. لكن لم يرد في أنباء تشايس ولا نيكرسون أي ذكر لتخزين شيء من السلحفاة المطبوخة ليوم لاحق. بالنسبة لهؤلاء الرجال المتضوّرين، كانت تلك متعة لم يكن أيّ منهم مستعداً لتأجيلها. كتب تشايس: «أجسادنا بُعثت من سباتها بدرجة ملحوظة، وشعرتُ أن روحي صارت أعلى مما كانت عليه في أي

t.me/qurssan

وقت من قبل». أدركوا الآن أنه بدلاً من الاكتفاء بسلحفاتين لكل قارب، كان عليهم ذبح وطبخ لحم كل حيوان كان موجود في الحطام.

لأول مرة بعد أيام عديدة، كانت السماء رائقة كفاية لإجراء رصد ساعة الظهيرة. قراءة بولارد أشارت إلى أنهم كانوا يقتربون من دائرة عرض °8 جنوباً. منذ ذهابهم عن الحطام في الثاني والعشرين من نوفمبر، أبحروا ما يقرب من خمس مئة ميل، ما جعلهم متقدمين عن خطتهم قليلاً، على الأقل فيما يخص المسافة التي يقطعونها في البحر. في هذا المساء، بين عظام السلحفاة ودرعها المتفحم المتناثرة في جوف القارب، قاد ريتشارد بيترسون الرجال مرة أخرى في الصلاة.

طوال الأيام الثلاثة التالية، ظل الطقس معتدلاً ورائقاً. انحرفت الريح إلى الشمال، ما ساعدهم على تهيئة طريقهم إلى بيرو. بمعدات ممتلئة، جرؤا على التصديق بأن «وضعنا الحالي... لم يكن بالسوء الذي حسبناه في البداية». لاحظ نيكرسون «درجة من الاطمئنان واللامبالاة، يندر وجودها بين أشخاص في مثل حالنا التعيس اليائس».

شيء واحد قبع بينهم وبين الوصول إلى «النسيان المؤقت لواقعنا الحالي»: ظمأ حاد لا يحتمل. روى تشايس أنه حتى بعد تناول السلحفاة ودمائها، فقد ظلوا مشتاقين لشربة طويلة باردة من المياه، «لولا آلام العطش، لكنا عرفنا خلال تلك الهنيهة من الطقس الطيب أنواع اللذة».

في الأحد الثالث من ديسمبر، تناولوا آخر الخبز المتضرر.

بالنسبة لرجال قارب تشايس، كانت تلك نقطة تحول. ففي البداية لم يلحظوا الفارق، لكن مع أكل الهارد-تاك السليم لأيام متعاقبة، «تجمع البلل في أفواهنا، وشيئاً فشيئاً خفت حرقة العطش في حلوقنا». كانوا لا يزالون في حالة من الجفاف الشديد، ولا يزيدون إلا جفافاً، لكنهم توقفوا عن تعريض أجسادهم لكميات مفرطة من الملح.

في ذلك المساء، بعدما ختم الرجال في قارب تشايس ما سماه نيكرسون «اجتماع الصلاة المعتاد»، تحركت الغيوم لتحجب عنهم ضوء النجوم. في العاشرة تقريباً، فقد تشايس وبولارد أثر قارب جوي. اختفاؤه كان مفاجئاً إلى حد أن نيكرسون خاف «أن شيئاً ما قد دمرهم». على الفور أوقف تشايس قاربه ورفع مشكاة على رأس الصاري بينما قام بقية طاقمه بالبحث في الظلام عن إشارة ما قد تدل على محل قارب الضابط الثاني. على بعد ربع ميل في اتجاه الريح، لمحوا ضوءاً صغيراً متراقصاً في الظلمة. اتضح أنه جوي، وكان يرد على إشارتهم. مرة أخرى اجتمعت القوارب الثلاثة.

بعد ليلتين، كان دور تشايس في الانفصال عن البقية. وبدلاً من إشعال المشكاة، أطلق الضابط الأول النار من مسدسه. بعد قليل، ظهر جوي وبولارد من العتمة. اتفق الضباط في هذه الليلة على عدم إتيان أي فعل لجمع الشمل إن انفصل أحدهم مرة أخرى. يضيع كثير من الوقت في محاولة إبقاء القوارب الثلاثة معاً، علاوة على ذلك، إن انقلب أحد القوارب أو تضرر بشكل لا يمكن إصلاحه، لن يكون بوسع بقية الطواقم فعل شيء إزاء ذلك.

t.me/qurssan

يحمل كل من القوارب الثلاثة ما يزيد عن طاقته بالفعل، أي زيادة للراكبين لن تعني إلا موت الجميع الحتمي. فكرة ضرب الرجال الغارقين بالمجاديف لدفعهم عن القوارب كانت مريعة، حتى وإن كانوا جميعاً قد أدركوا الآن أن على كل قارب أن يمضي وحيداً.

لكن كان ما سماه تشايس «الاهتمام الاستثنائي الذي وجدناه في صحبة أحدنا الآخر» كان قوياً لدرجة أن أحداً لم يُعرب عن أي رغبة طواعية في الانفصال. تلك «الغريزة اليائسة» استمرت معهم طوال الوقت، حتى في الظروف التي سيصير فيها البقاء على سطح المياه وظيفة بدوام كامل، «استمروا في التعلق بأحدهم الآخر نتيجة لدافع قوي لا إرادي».

في الثامن من ديسمبر، يومهم السابع عشر، تصاعدت الرياح حتى صارت عاصفة مكتملة. هبات قوية بسرعات بين 40 و50 عقدة جاءت بمطر جلَد الرجال كما السياط. كانت أقوى رياح قابلوها حتى الآن، وبعد طيّ الأشرعة التدريجي طوال الليل، وجد طواقم القوارب أن خفض الصواري أمسى ضرورياً. الأمواج كانت عاتية، قمم عالية تفككها الريح الحاصب إلى رغوة ورذاذ. برغم الظروف المرعبة، إلا أن الرجال حاولوا جمع ماء المطر في طيات الأشرعة، فقط ليكتشفوا بسرعة أن نسيج الشراع كان ممتلئاً بالملح أكثر مما كانت مؤنتهم المتضررة من قبل، وصارت المياه مالحة ملوحة البحر.

لم يعد بالإمكان التحكم بالقوارب بين العباب. تذكر تشايس «بلغ البحر إلى ارتفاعات مريعة، وبدت كل موجة وكأنها آخر ما

t.me/qurssan

سنراه قبل هلاكنا». لم يكن هناك ما يفعله الرجال سوى التمدد في قيعان قواربهم الهشة وانتظار مآلهم المرتقب بثبات وخضوع».

تسبب العواصف القوية في المحيط المفتوح أمواجاً تعلو حتى أربعين قدماً. لكن الارتفاع الجبلي للأمواج اتضح أنه في صالح الرجال. قفزت قوارب التحويت إلى القمم، ثم تمرغت في السفوح، وهذا ما حماهم مؤقتاً من الرياح. شكلت حوائط المياه العالية مشهداً مرعباً، لكن لم يحدث ولو لمرة أن هبطت عليهم واحدة وغمرت قارباً.

كانت عتمة الليلة، طبقاً لنيكرسون، «تتجاوز تخيل الذين لم يشهدوا مثلها». ما زاد الظلمة رعباً كان التماع البرق الذي بدا وكأنه يغلف القوارب في صفائح من النار المتغيظة.

مع ظهر اليوم التالي، اعتدلت الريح بما يكفي ليجرؤ الرجال على رفع رؤوسهم من قيعان القوارب. والمذهل أنه كان وجود القوارب الثلاثة على مرمى بصر بعضهم. كتب تشايس «فضل إنقاذنا تلك الليلة لا يمكن أن ينسب إلا للعناية الإلهية وحدها، لا يمكن تفسير نجاة شذرة من الوجود، مثلما كنا حينها، من كل مهالك تلك العاصفة وتعبر منها بسلام بطريقة أخرى».

لم ينم أي من الرجال طوال الليل، حسبوا جميعاً أنهم سيموتون. عندما أمر تشايس طاقمه برفع الصواري والإبحار، قاوموا. تذكر الضابط الأول: «رفاقي... ثبطت همتهم وانكسرت عزيمتهم إلى حد بدا معه أنهم كانوا بحاجة إلى حافز يفوق الخوف من الموت لينهضوا بواجباتهم».

t.me/qurssan

لكن عزم تشايس كان لا يلين. فقد حثهم على إعادة تنصيب الصواري ونصب الشراع الرئيسي وشراع الزمام «بجهد كبير»، رغم أن الشمس لم تبزغ بعد. كانت القوارب الثلاثة مُبحرة مرة أخرى عندما «أشرقت الشمس والتمعت فوق وجوه رفاقنا البائسين مرة أخرى».

بينما كانوا في طريقهم للجنوب، ضربت الأمواج العالية المتبقية من العاصفة القوارب، مؤثرة على وصلات العوارض أكثر. صار نزح المياه المستمر «عملاً مضجراً ومجهداً بشكل لا يُحتمل» بالنسبة لرجال يتضوّرون جوعاً ويعانون من الجفاف. رصدُهم ساعة الظهيرة في السبت التاسع من ديسمبر وضعهم على دائرة 40' °17 جنوباً. مع يومهم السابع عشر في البحر، كانوا لا يزالون متقدمين -بالكاد- عن هدفهم اليومي من دوائر العرض، وقد أبحروا ما يقرب من 1100 ميل بحري. لكن، نظراً لاتجاه الرياح الشرقي، فقد كانوا على المبعدة ذاتها من أمريكا الجنوبية مثلما كانوا يوم انطلقوا.

ما زال أمامهم ما يقرب من ثلاثة آلاف ميل إن أرادوا بلوغ وجهتهم. كانوا جائعين وعطشى. قواربهم بالكاد تحملهم. لكن كان هناك طريق للخروج.

في التاسع من ديسمبر، في ثالث أسبوع لهم في قوارب مكشوفة، مروا على مقربة من جزر سوسايتي. لو أنهم أبحروا غرباً متتبعين دائرة °17 جنوباً، كانوا ليبلغوا تاهيتي في أسبوع. وكانت هناك جزر في أرخبيل تواموتو يمكن الوصول إليها في اقل من نصف هذه المدة. وكانوا أيضاً ليبحروا مع اتجاه الريح

t.me/qurssan

والأمواج، ما قد يخف من عناء الضغط على قواربهم.

لكن رغم النكسات المتعددة التي تعرضوا لها، رغم تطرف معاناتهم، تابع بولارد وتشايس وجوي خطتهم الأصلية. لم يقدر نيكرسون على فهم السبب. «لا أستطيع إلا أن أقول إنه كان هناك جهل جسيم أو بصيرة منعدمة في الأمر كله، دفع تكلفتها... ملاحون طيبون عدة بحياتهم». لم تؤدِّ معاناة الرجال إلاّ إلى تركيزهم أكثر على هدفهم، إما «مشوار إلى الساحل»، أو لا شيء على الإطلاق.

t.me/qurssan

الفصل الثامن
تمركز في الداخل

في 1816، قبل أربعة أعوام من مأساة الإسّكس، تحطمت السفينة الفرنسية ميدوسا على مسافة غير قريبة من ساحل غرب إفريقيا. كانت تنقل المستوطنين إلى مستعمرة السنغال، وكان من الجلي أنها لم تكن فيها قوارب كافية للجميع. فصنع الطاقم طوفاً مرتجلاً من عوارض السفينة. في البداية، قام القبطان وبقية الضباط، الذين اتخذوا لأنفسهم القوارب، بسحب الطوف. لكن لم يمض وقت طويل قبل أن يقرروا قطع حبل السحب وترك من عليه لمصيرهم. بلا شيء سوى بضعة براميل من النبيذ يتشاركها 150 فرداً على الطوف، تحول سطحه إلى جحيم فوضوي. اندلعت صراعات وحشية بين الجنود الذي أغشاهم الكحول والمستوطنين المنتبهين لكنهم ليسوا أقل يأساً. بعد أسبوعين، عندما لمحتهم سفينة أرجوس، لم يكن على الطوف من الأحياء سوى خمسة عشر.

أثارت حكاية ميدوسا ضجة عالمية. وضع اثنان من الناجين حكايتهما في كتاب، ما ألهم الرسام تيودور جيريكو برسم لوحته الخالدة. في 1818 تُرجم الكتاب إلى الإنجليزية وصار من أكثر الكتب مبيعاً. سواء كان رجال الإسّكس قد سمعوا بما حدث

t.me/qurssan

ليدوسا أو لم يفعلوا، فقد كانوا واعين كفاية بما قد يقع إن لم يسُد الانضباط الكافي بينهم.

في الحادية عشر مساءً من ليلة التاسع من ديسمبر، ليلتهم السابعة عشر منذ مغادرة الحطام، اختفى قارب بولارد في الظلام. نادى الرجال في القاربين الآخرين بأقصى ما في حناجرهم على زملائهم المفقودين، دون رد. تناقش تشايس وجوي في ما عليهما فعله الآن، كلاهما كان واعياً بما يجب عليهما فعله. اتفاقهم السابق يقول إن عليهم متابعة الإبحار دون محاولة البحث عن المفقودين. يتذكر تشايس «ولكننا قررنا أن نبذل محاولة محدودة، إن لم ترجع بنتائج مجدية، سنتوقف فوراً عن أي فعل لاستعادة القارب المفقود ونعود للإبحار».

وهكذا، طوى تشايس وجوي الأشرعة وانتظرا. تمددت الدقائق واستطالت، لقّم تشايس مسدسه وأطلق النار. لا ردّ فعل. بعد ساعة كاملة من التمايل في الظلام، أبحر طاقما القاربين على مضض، مفترضين أنهم لن يروا قبطانهم ورجاله مرة أخرى.

في مستهل الصباح التالي، رأى أحدهم شراعاً على بعد ميلين في اتجاه الريح. وبسرعة غير تشايس وجوي اتجاههما إليه، وخلال دقائق كانت الطواقم الثلاثة مجتمعة مرة أخرى. مرة أخرى كانت مصائرهم، بحسب كلمات تشايس، «مرتبطة ببعضها بشكل لا إرادي».

وكانَ في ذلك اليوم، الثامن عشر منذ مغادرتهم للحطام، أن بلغ جوع الرجال وعطشهم مستوى جديداً من الألم المبرح. حتى

t.me/qurssan

تشايس الرزين شعر بإغراء «كسر الاتفاق وإشباع، ولو لمرة، التوق الجارف للأكل من مخزوننا». لكن الإغارة على مؤنهم كانت بمثابة حكم إعدام، «ببعض التأمل أدركنا مدى الطيش وقلة الرجولة في مثل هذا الفعل، وبُذل جهدٌ حزين لنبذه والقناعة بما بين يدينا».

وللتأكد من أن أحداً لن ينقاد لإغواء سرقة الخبز، نقل تشايس المؤن إلى صندوقه البحري. وكلما نام، كان يجعل ذراعاً أو ساقاً عليه. كان يجعل أيضاً بجواره مسدساً محشواً. بالنسبة إلى كويكري من نانتوكت، كان ذلك استعراضاً غير معتاد للقوة. انطباع نيكرسون عما حدث كان: «لا شيء سوى العنف الموجّه لشخصه» كان ليقنع الضابط الأول بالتخلي عن المؤن. عزم تشايس على تقسيم الهارد-تاك فوراً إلى أنصبة متساوية وتوزيعها على الرجال إن كان هناك من يعترض على طريقته في التقنين. أما إن وصل الحال به للتخلي عن نصيبه الشخصي، فقد كان «عازماً على جعل العواقب مميتة».

في عصر ذلك اليوم، أحاط بقوارب التحويت الثلاثة سرب من الأسماك الطائرة. وقعت أربع سمكات منها في قارب تشايس. واحدة وقعت تحت قدميه فالتهمها بالكامل على نحو غريزي، حتى قشورها لم تنجُ منه. بينما تجمهر البقية حول السمكات الثلاث الأخرى. وجد الضابط الأول نفسه يضحك لأول مرة منذ غرق الإسكس على «المجهود الهزلي شبه اليائس لرفاقي الخمسة بينما يحاول كل منهم القبض على سمكة». ربما اصر الضابط الأول على الانضباط الصارم فيما يخص مشاركة

t.me/qurssan

الماء والخبز، لكن فيما يتعلق بهدايا الحظ مثل الأسماك الطائرة، كانت تسود مقاييس مختلفة؛ كل رجل يعتني بنفسه.

في اليوم التالي، هدأت الرياح حتى ماتت تقريباً، اقترح تشايس أن يأكلوا سلحفاتهم الثانية. ومثلما حدث قبل أحد عشر يوماً «نفخت المأدبة الفاخرة الحياة مرة أخرى في أجسادنا ونشطت من أرواحنا الخاملة». ظلت الرياح هادئة على مدار الأيام الثلاثة التالية. تصاعدت درجات الحرارة وذبل الرجال تحت سماء بلا سُحب. كتب نيكرسون: «دون أية طريقة لوقاية أنفسنا من أشعة الشمس الثاقبة، صارت معاناتنا لا تحتمل، خاصة مع حصتنا الواهنة من الماء، التي تكفي بالكاد لبقائنا أحياء».

في الأربعاء الثالث عشر من ديسمبر. انبثقت الريح من جهة غير متوقعة: الشمال، جالبة معها «فرجاً مفاجئاً تلقيناه بالترحاب». صار من الممكن الآن تولي أمريكا الجنوبية مباشرة. رصُدهم ساعة الظهر أظهر أنهم بلغوا بالكاد دائرة عرض 21° جنوباً، ما يجعلهم على بعد 5 درجات (أو حوالي ثلاث مئة ميل بحري) من نطاق الرياح الخفيفة المتفاوتة، التي كانوا يأملون أن تدفعهم إلى الشرق. لكن الضباط قرروا الإيمان بأن «الرياح التجارية قد انتهت، وهم الآن في نطاق الرياح المتفاوتة، والاحتمالات تقول إنهم بالغين الأرض أبكر مما حسبوا أنهم فاعلين».

عندما تلاشى النسيم الشمالي في اليوم التالي، اعتراهم الإحباط. «لكن، لحسرتنا، توقعاتنا لم تكن إلا حلماً استيقظنا

t.me/qurssan

منه على واقع أليم». خواطر الرجال المعتمة زادت ظلمة مع استمرار السكون لثلاثة أيام قضوها مخبوزين تحت شمس تعمي الأبصار قاسية لا ترحم، «الطقس العاتي الطاغي، الانهيار المفاجئ لأمالنا، والغم الناتج عن ذلك كله الذي قبض على قلوبنا، جعلنا نفكر مرة أخرى، وملأ أرواحنا بالخوف والكآبة ونُذر الشؤم».

في الرابع عشر من ديسمبر، يومهم الثالث والعشرين من مغادرة الإسكس، كانوا يقتربون حثيثاً من الموعد النهائي للرياح المتفاوتة. لكنهم علقوا في السكون، ولا تزال أمامهم مئات الأميال في الجنوب. إن كان لديهم أي أمل في الوصول إلى الساحل أحياء، سيكون على مؤنهم أن تدوم لما يزيد عن ستين يوماً. أعلن تشايس لرجاله أنه سيقلل من حصص الهارد-تاك إلى النصف: ثلاث أونصات ونصف فقط يومياً. تأمل طاقمه بحذر، باحثاً عن أية دلالة على المقاومة. كتب تشايس: «لم يعترض أيّ منهم على هذا النسق، سلم الجميع بجلَد وصبر مثيرين للإعجاب، أو بدا أنهم فاعلون».

ورغم أن مخزونهم من الماء كان معرضاً للنفاد أسرع من الطعام، لم يكن لتشايس من خيار آخر سوى الحفاظ على حصة الربع لتر اليومية. كتب «عطشنا الآن صار غير محتمل أكثر بكثير من الجوع، والكمية المتاحة في ذلك الوقت كانت كافية بالكاد للحفاظ على الفم في حالة من الرطوبة لحوالي ثلث الوقت».

في 1906، نشر دابليو. جي. ماكجي مدير متحف سانت

لويس، واحداً من أكثر الأوصاف التي عرفتها السجلات تفصيلاً ووضوحاً لويلات الجفاف المفرط. تقرير ماكجي كان يستند إلى تجربة البحّار والمستكشف بابلو فالنسيا ذي الأربعين عاماً، الذي نجى بعد ما يقرب من سبعة أيام في صحراء أريزونا دون ماء. السائل الوحيد الذي شربه فالنسيا أثناء محنته كان بضعة نقاط من البلل استطاع استخلاصها من عقرب، وبوله الذي كان يخزنه طوال اليوم في مزادته.

دُفع رجال الإسّكس إلى إجراءات متطرفة مشابهة. يتذكر تشايس: « كانت كل محاولة لإراحة حلوقنا المهتاجة من الحمى بلا جدوى». فقد أدرك الرجال جيداً أن المياه المالحة لن تؤدي إلا إلى زيادة الحال سوءاً، لكن هذا لم يمنع بعضهم من محاولة وضع كميات صغيرة منها في أفواههم، آملين أن يمتصوا بعض رطوبتها. ولم يؤدِّ هذا إلا إلى زيادة الظمأ. ومثل فالنسيا، فقد قاموا بشرب بولهم. كتب تشايس: «عذابنا في تلك الأيام الساكنة، فاق ما قد يصدقه بشر».

دخل الناجون من الإسّكس في مرحلة من العطش يصفها ماكجي بلقب «الفم القطني». صار اللعاب سميكاً كريه المذاق، واللسان يلتصق بشكل مزعج بالأسنان وسقف الحنك. ورغم أنه يواجه صعوبات في الكلام، إلا أن المتضرر عادة ما يتذمر بلا انقطاع من عطشه حتى ينشرخ صوته ويُبح ولا يعود بوسعه الكلام. يشعر وكأن كتلة ما تكوّنت في حلقه، ما يجعله يحاول الابتلاع بشكل مستمر في محاولة لزحزحتها. ثم يشعر بألم حاد في رأسه ورقبته. يشعر أن وجهه قد تورم نتيجة لانكماش جلده.

t.me/qurssan

ويتأثر سمعه، ويبدأ كثيرٌ من الناس في الهلوسة.

لا يزال أمام رجال الإسكس عذاب الفم الذي توقف عن إفراز اللعاب؛ يجف اللسان إلى أن يصبح ما يصفه ماكجي بأنه «ثقل عديم الإحساس، يتأرجح من جذره الذي لا يزال طرياً، ويضرب الأسنان كجسم غريب». يصبح الحديث ضرباً من المستحيل، لكن المُعاني لا يتوقف عن الأنين والخوار. بعدها تبدأ مرحلة «التعرق الدموي»، التي تتضمن «تحنيطاً تدريجياً للجسد الحي». يتورم اللسان ضاغطاً على عظام الفك حتى يبرز منه. تتشقق الجفون، وتفرز العين دموعاً من الدم. يتورم الحلق لدرجة تُصعِب من التنفس، ممّا يسبب إحساساً زائفاً مريعاً بالغرق. في النهاية، تستخلص حرارة الشمس التي لا ترحم آخر نقاط الرطوبة من الجسد، وتلك هي حالة «الموت حياً» التي دخلها بابلو فالنسيا عندما وجده ماكجي في الصحراء، يزحف على يديه وركبه:

«اختفت شفتاه وكأنهما بُترتا، لم يبق مكانهما سوى حواف من نسيج أسود متشقق. برزت أسنانه ولثته مثل حيوان مسلوخ، لكن بجلد أسود جاف مثل شرائح اللحم المقدد. ذبل أنفه وانكمش لنصف طوله الأصلي، وبطانة المنخرين بدتا سوداوين وبرزت عيناه في تحديقة لا ترمش، تحيط بها ملتحمةٌ مسودة كما اللثة، مُتعرية بالكامل لانكماش البشرة المحيطة بها... لون بشرته صار بين البنفسجي والرمادي، وانتشرت عليها البقع والخطوط الشاحبة الأقرب للزرقة. ملأت أطرافه الأربعة الجروح والخدوش من الأشواك والصخور الحادة، لكن حتى

t.me/qurssan

أحدث الجراح وأعمقها كانت جافة كما الجلد المدبوغ، دون أدنى أثر للدماء».

بفضل حصة الريع لتر اليومية، لم يصل رجال الإسكس بعد لهذه المرحلة، لكنهم كانوا يتدهورون بسرعة. مع انتصاف الشمس في كبد السماء الرائقة، صار القيظ لا يطاق، حتى أن ثلاثة من رجال تشايس قرروا التدلي من فوق شفير القارب لتبريد أجسادهم في البحر. ما أن فعل أولهم حتى خرجت منه صيحة متحمسة. فأسفل قاربهم كان مغطى بما وصفه بالصدفيات الصغيرة. بسرعة انتزع واحدة وأكلها، معلناً أنها «أشهى الطعام وألذّه».

الحقيقة أنها لم تكن صدفيات، بل برنقيلات الإوز. وعلى عكس البرنقيلات البيض المخروطية التي تتراكم في العادة على أرصفة الموانئ والسفن، فإن برنقيلات الإوز لها ساق وتُحيط بعنقها اللحمي المائل للّون الوردي صدفة بنية غامقة. تدعي الأسطورة القروسطية أنها فور نموها لحجم مناسب، تحول البرنقيلات نفسها لإوز وتطير في السماء. الآن، استناداً إلى حجم البرنقيلات الملتصقة بقاع مركب مهجور يخمّن خفر السواحل المدة التي قضاها في البحر. بوسع هذا الكائنات النمو حتى تبلغ نصف القدم طولاً، لكن البرنقيلات التي كانت على قارب تشايس، لم تطُل في الغالب عن بضع بوصات.

فوراً أخذ الرجال الستة كلهم ينتزعون القشريات من أسفل القارب ويلقونها في أفواههم بشراهة. لطالما اُعتُبرت برنقيلات الإوز من أطيب الأطعمة في المغرب والبرتغال وإسبانيا، وتُستزرع

t.me/qurssan

تجارياً في ولاية واشنطن حالياً. يقارنها الذواقة، الذين يأكلون العنق بعد تقشيره من الجلد الخارجي، بطعم السلطعون والكركند والروبيان. لكن رجال الإسكس لم يكونوا بهذا الانتقاء، فالتهموا كل شيء إلا الصدفات.

كتب تشايس: «بعد إرضاء نداء المعدة التواقة، جمعنا كمية كبيرة منها وجعلناها في قاع القارب». لكن اتضح أن إرجاع الرجال إلى القارب كان عسيراً. كانوا أضعف من رفع أنفسهم فوق الشفير. لحسن الحظ كان ثلاثة من الرجال غير قادرين على العوم وظلوا على متن القارب، واستطاعوا سحب الآخرين. قرروا الاحتفاظ بما تبقى من البرنقيلات ليوم لاحق، لكن بعد أقل من نصف ساعة من التحديق في اللقيمات الشهية، استسلموا للإغواء وأكلوها كلها.

باستثناء الأسماك الطائرة، سيتضح أن برنقيلات الإوز هي الكائنات البحرية الوحيدة التي استطاع طاقم الإسّكس استخلاصها من المحيط المفتوح. إنّ فشل الحوّاتين العشرين في اصطياد الأسماك من البحر، وهو الأمر الذي اعتمد عليه كثير من الضالين في البحر للنجاة؛ كان استثنائياً. يعود هذا جزئياً إلى أن بحثهم عن نطاق الرياح المتفاوتة قد أخذهم إلى مساحة عقيمة من المحيط الهادئ.

لكي يسمح المحيط بظهور الحياة، يجب أن يحتوي على العناصر الغذائية الضرورية لظهور العوالق النباتية، الكائنات الدقيقة الواقعة في نهاية سلسلة المحيط الغذائية. تأتي العناصر الغذائية من مصدرين: من الأرض، عبر الأنهار والجداول، ومن

t.me/qurssan

المواد العضوية على أرض قاع المحيط. النطاق الذي خاضه طاقم الإسّكس كان أبعد ما يكون عن أمريكا الجنوبية، ومصدر الغذاء الوحيد فيه كان قاع البحر.

المياه الباردة أكثر كثافة من الدافئة، عندما تبرد مياه سطح المحيط في شهور الشتاء، تُستبدل بالمياه الدافئة من الأسفل، ما يشكل مزيجاً من مياه الأعماق الغنية بالعناصر الغذائية ومياه السطح. لكن في المناطق شبه الاستوائية، فإن درجة الحرارة ثابتة تقريباً أغلب أيام السنة. نتيجة لهذا تظل مياه المحيط منقسمة طوال الوقت إلى طبقة علوية دافئة وطبقة سفلية باردة، فتبقى العناصر الغذائية حبيسة القاع.

خلال العقود القليلة القادمة، سيدرك الملاحون أن هذا النطاق من المحيط الهادئ مُجرد من الأسماك والطيور. في منتصف القرن التاسع عشر وضع ماثيو فونتين موري جدولاً يحتوي على حزمة هامة من الرياح والتيارات البحرية، استند جانب كبير منها إلى المعلومات التي وفّرها له الحوّاتون. في جدوله للمحيط الهادئ توجد منطقة شاسعة بيضوية الشكل تمتد من الجانب السفلي للأرض البحرية إلى الحافة الجنوبية من تشيلي، تُدعى النطاق المهجور. أشار موري إلى أن فيها «يخبرنا البحارة عن ندرة علامات الحياة في البحر والهواء». قوارب تحويت الإسّكس الثلاثة كانت الآن في قلب النطاق المهجور. ومثل بابلو فالنسيا، فقد خاض الرجال في وادي الموت الخاص بهم.

استمر السكون حتى الخامس عشر من ديسمبر، يوم

t.me/qurssan

محنتهم الرابع والعشرين. على الرغم من انعدام الرياح، امتلأ قارب تشايس بمياه أكثر من المعتاد. بحثهم عن مصدر التسريب قادهم مرة أخرى لانتزاع ألواح الأرضية في المقدمة. اكتشفوا هذه المرة أن مصدر التسريب كان لوحاً سائباً بجوار عارضة القعر في أعمق جزء من القارب. إن كانوا على سطح الإسّكس، كانوا ببساطة سيقلبون القارب على رأسه ويسمّرون اللوح مرة أخرى. لكن الآن، في منتصف المحيط، لم تكن لديهم وسيلة لفعل ذلك. حتى تشايس، الذي وصفه نيكرسون أنه «طبيب» قاربهم، لم يستطع إيجاد حل لإصلاحه.

بعد وهلة من التباحث، قدّم موجّه القارب، بينجامين لورنس ذو الأعوام الواحد والعشرين، اقتراحاً. سيربط حبلاً حول وسطه ويغطس أسفل القارب حاملاً البلطة في يده. وعندما يدق تشايس مسماراً من داخل القارب، سيثبت بينجامين البلطة أسفل اللوح من الخارج، بحيث يلتوي المسمار مثل خطاف صيد السمك عندما يرتطم طرفه بالبلطة المعدنية، ويعود طرفه ليدخل في القارب. هكذا ستثبت باقي ضربات مطرقة تشايس رأس المسمار وفي الوقت ذاته ستشد الألواح لبعضها أكثر. تعرف هذه الطريقة ببرشمة المسمار وتؤدى عادة على دعامة من الحديد. لكن على البلطة أن تقوم بهذا الغرض الآن.

على الإسكس، كانت مهارات لورنس كموجّه دفة محل شك، وقد دُفع للتخلي عن الحربون للضابط الأول. لكن الآن، كان لورنس هو الشخص الذي توجّه إليه تشايس وباقي الطاقم بحثاً عن الإرشاد. وافق تشايس على الخطة بسهولة، وسرعان ما كان

t.me/qurssan

لورنس في الماء، ضاغطاً البلطة على قاع القارب. ومثلما توقع بالضبط عاد اللوح السائب ليستقر في موقعه. حتى تشايس اعترف أن هذا «لبّى الهدف المرغوب، فوق التوقعات».

ظلت الظروف الحالكة نفسها مستمرة في اليوم التالي، و«أخذت ضريبتها من أرواحنا وصحتنا بأشدّ وطأة وقسوة». بعض الرجال عرفوا الهلاوس من فرط الظمأ، «ممّا أدى لإثارة أسوأ حالات الهياج، التي أضافت للبؤس الموازي للسكون السائد. وباتت الحاجة ملحة لما يخفف عنا، لما يُريحنا من معاناتنا التي طالت»، بحسب تعليق تشايس. تضاعفت هذه الحاجة عند الرصد في الظهر، الذي أظهر أنهم انجرفوا للخلف عشرة أميال في الساعات الأربع وعشرين السابقة.

امتد المحيط الأملس حولهم في الأفق المتقوس مثل قعر وعاء أزرق لامع. حلوقهم الظمئة جعلت من الكلام، ناهيك عن غناء الترانيم، غاية في العسر. مثل التقدم في مسيرتهم، وتوقفت اجتماعات الصلاة. جلسوا في ذلك الأحد صامتين في قواربهم، يائسين من خلاصهم، عالمين أن في نانتوكت الآن، لا بدّ أن الآلاف يجلسون على المصاطب الخشبية في منازل الاجتماعات الشمالية والجنوبية، منتظرين تحقق مشيئة الرب.

يسعى الكويكري أثناء العبادة إلى «التمركز في الداخل»، مغلقاً ذاته أمام كل الهموم الخارجية إبّان محاولته لإيجاد الروح السماوية. وعندما يشعر الشخص برغبة في الحديث، يترنم بطريقة غريبة، بين البكاء والغناء، يمكن تفسيرها على أنها كلام طبيعي. رغم أن قليلاً من رجال الإسكس كانوا كويكريين نشطين،

t.me/qurssan

إلا أن كل النانتوكتيين حضروا في مرحلة أو أخرى من حياتهم اجتماعاً. فبروتوكول اجتماع الأصدقاء وإيقاعه كانا جزءاً لا يتجزأ من ثقافتهم المشتركة وإرثهم الجماعي.

حتى هذه اللحظة، كان الأفارقة الأمريكيون، خاصة ريتشارد بيترسون ذو الستين عاماً، هم من قادوا الرجال في الصلاة. لم يكن هذا أمراً غريباً في البحر. فكثيراً ما نظر الملاحون البيض للسود وطريقتهم الإنجيلية في العبادة على أنهم مصدر للتقوى الدينية، خاصة في أوقات المحن. في عام 1818، طلب قبطان سفينة على وشك الغرق في قلب في شمال المحيط الأطلنطي من الطباخ الأسود، الذي كان عضواً في كنيسة نيو بيدفورد المعمدانية، أن يطلب من الرب النجاة نيابة عن الطاقم. ركع الطباخ على ركبتيه فوق السطح المتمايل و«صلى بحرقة للرب لينجيهم وينقذهم من العاصفة المخيفة الغاضبة». ونجت السفينة.

لكن بعد ظهيرة ذلك اليوم، كان بولارد هو من حركته الرغبة في الحديث تحت الشمس القاسية. اقترح بصوت أتلفه الجفاف أن يجربوا التجديف حتى يخرجوا من النطاق الساكن. وتقرر أن يحصل كل منهم على ضعفي حصته الغذائية اليومية كل يوم، وبدءاً من تلك الليلة سيجدّفون «حتى نبلغ نسيماً من أي اتجاه».

استجابوا جميعاً للاقتراح. في النهاية، بعدما علقوا أياماً عدة وكأنما ثُبتوا في قاع المحيط بمشبك، دون ما يشغل بالهم عن الجوع والظمأ، صار هناك شيء يتجهزون لعمله. أكلوا خبزهم وتلمظوا كل نقطة مياه مرت في أفواههم المتشققة الذابلة. واستعدوا لليلة القادمة.

t.me/qurssan

في الظروف العادية، كان التجديف عملاً يساعد على إبراز قيمة كل فرد في قارب التحويت. وجد كل طاقم في قدرة رجاله على التجديف لساعات دون توقف، مدعاة للفخر، ولم يوجد شيء يسعد الرجال أكثر من تجاوز قاربهم لقارب آخر. لكن في هذه الليلة، ماتت على الفور كل شرارة واهنة لمشاعر التنافسية السابقة. ورغم أنهم كانوا في عقودهم الثانية والثالثة من العمر، إلا أنهم جدّفوا كالشيوخ، متأوهين مع كل ضربة مجداف. كانت أجسادهم على مدار الأسابيع الثلاثة السابقة تستهلك نفسها. دون الوسادات الطبيعية التي تبطن عظامهم، كان في مجرد فعل الجلوس ساكنين عذاباً قاسياً. انكمشت أذرعهم حتى صارت عصيّاً نحيلة بعضلات ذاوية، ما جعل الإمساك بالمجداف، ناهيك عن سحبه، في غاية الصعوبة. بعدما انهار الرجال واحداً تلو الآخر وتكوموا في قعر القوارب، بدا من الواضح أن الاستمرار مستحيل.

يتذكر تشايس: «أحرزنا تقدماً مؤسفاً، الخمول الطويل مع الجوع والعطش أصابتنا بالوهن، في خلال ثلاث ساعات استسلم كل الرجال، وتخلينا عن كل أمل في متابعة الخطة». زمهر الهواء داخلاً وخارجاً من حلوقهم الجافة بينما هم مُتكوّمون لاهثون في القوارب. وبرغم سخونة أجسادهم، عجزت جلودهم الأرقّ من الورق عن التعرق. وبالتدريج انحسر ضجيج تنفسهم، وعاد السكون العاتي ليغلف المحيط الخامل عديم الرياح.

في الصباح التالي أحسّوا ببعض التغيير، حفيف في المياه وحركة على وجوههم، ولأول مرة منذ خمسة أيام عبر نسيم

t.me/qurssan

واهن فوق سطح البحر. ورغم أنه كان قادماً من الاتجاه المعاكس بالضبط (الجنوب الشرقي)، فقد تلقّاه الرجال «بفيض من المشاعر الممتنة والمبتهجة».

ومع الظهر كان قد تحول لعاصفة كاملة. انحرفت الرياح لتأتي من الشرق-الجنوب الشرقي، ومرة أخرى كان عليهم طيّ أشرعتهم جميعها وخفض صواريهم. في اليوم التالي اعتدلت الرياح، وحملتهم أشرعتهم معها.

رغم تحسن الطقس، اتضح ان تلك الليلة، مثلما تذكر تشايس، «واحدة من أسوأ الليالي في كامل لائحة معاناتنا».

ادركوا الآن أنه حتى لو انحرفت الريح بمعجزة ما نحو من الغرب، لم يعد لديهم ما يكفيهم من المياه لتدوم طوال مدة الثلاثين يوماً أو أكثر، التي ستستغرقها الرحلة إلى ساحل تشيلي. تصاعد عذابهم الجسدي في كريشندو[1] مريع. كانوا وكأنهم قد تسمموا بمزيج الجوع والعطش؛ اللعاب اللزج المرّ المتجمع في افواههم كان «لا يمكن تحمله بشكل يفوق قدرة المرء على التعبير». تساقطت شعورهم في كتل. احترقت جلودهم وغطّتها القروح التي تلتهب كلما لمسها رذاذ البحر وكأنه حامض حارق يأكل اللحم. والأغرب من كل شيء، أنهم بعد أن غارت عيونهم في جماجمهم وبرزت عظام وجناتهم، صاروا متشابهين. طمس التضوّر والظمأ هوياتهم.

(1) الكريشندو Crescendo: مصطلح موسيقي يعني تصاعُد مستوى الصوت تدريجياً ليصل الذروة.

t.me/qurssan

على مـدار ذلك الأسـبـوع المقـبض، حـاول الرجـال مـواسـاة أنفسـهم بما يشـبـه الأقـوال المـأثورة. كتب تشـايس «كانت كلمـات الصبـر وتحمل الأذى بمثابة اللغة على شفاهنا، وعزمنا، بقـدر ما استطاعت أرواحنا الواهنة أن تفعل، على التشبث بالوجود طالما فينا القدرة على التنفس». لكن مع ليلة التاسع عشر من ديسمبر، بعد شهـر تقريباً من غـرق الإسكس، استسلم عدد من الرجال. اسـتطاع تشـايس أن يرى في «أرواحـهم المنطفـئـة وأجسـادهم المنهكة... لا مـبالاة تامـة بمصيـرهم». في غضـون يومٍ أو يومين، وسيبدأ الناس في الموت.

بدأ الصباح التالي مثل غيره. تذكر نيكرسون كيف كانوا في حوالي السابعة صباحاً «جالسين في قاع قاربنا الصغير، صامتين مكتئبين». نهض ويليام رايت، ابن كيب كود ذو التسعة عشـر عاماً، ليمدّد ساقيه، نظر باتجاه الريح، ثم نظر مرة أخرى.

ثم صاح «يابسة!».

t.me/qurssan

الفصل التاسع
الجزيرة

حدق رجال قارب تشايس أمامهم بلهفة، بأجساد أنهكها الجوع والعطش، وبعيون لا تكاد ترى من وهج الشمس وانعكاسه في الماء. كانوا قد رأوا أكثر من سراب من قبل، وخافوا أن يتضح أن ما رأوه لم يكن إلا سراباً آخر. لكن كان بوسعهم جميعاً رؤية الشاطئ الرملي الأبيض في الأفق. كتب نيكرسون: «لم يكن ذلك خداعاً بصرياً، بل حقيقة. كانت يابسة».

حتى أكثر رجال تشايس تدهوراً دبّت فيه الحياة. يستذكر الضابط الأول: «في لحظة كنا جميعاً واقفين، وكأن مسّتنا كهرباء... حافز جديد استثنائي هيمن علينا. نفضنا الخمول عن أطرافنا، وبدت الحياة لنا جديدة نضرة». في النظرة الأولى، بدت الجزيرة شبيهة إلى حد غريب بجزيرتهم الأصلية نانتوكت، رمل ذو ارتفاع منخفض وخضرة. قال عنها تشايس: «جنة تتمدد في الشمس أمام أعيننا المشتاقة». أما نيكرسون فاعتبرها فوراً علامة على «نهاية مأساتنا ومعاناتنا»، وأضاف: «لم ترَ عيناي من قبل شيئاً بمثل هذا الجمال المبهج».

ولم يمض وقت طويل قبل أن يرى الرجال على القاربين الآخرين الجزيرة. وانطلقت تلقائيًا هتافات الفرح من بين الشفاه

t.me/qurssan

المتشققة المتورمة. كتب تشايس: «ليس في إمكان حسابات البشر التكهن بما شعرنا به في تلك المناسبة. تعاقبت على قلوبنا مشاعر متباينة؛ خوف وامتنان ومفاجئة وبهجة، ودب النشاط في عروقنا».

بحلول الحادية عشرة كانوا على بعد ربع ميل من الجزيرة. صار بوسعهم الآن رؤية أن أغلب شاطئها من الصخور لا الرمال، تحدّه منحدرات تعلو قرابة الثلاثين قدماً. وراء المنحدرات، أرض الجزيرة كانت مسطحة إلى درجة مدهشة، لكنها «نضرة تغطيها خضرة النباتات». شدّ هذا من عزيمتهم، وطمأنوا أنفسهم بحتمية وجود وفرة من المياه.

فحص تشايس وبولارد نسختيهما من كتاب بوديتش للملاحة. بأخذ آخر رصد قاموا به في الحسبان، قرروا أن هذه حتماً جزيرة (دوسي)، عند خط طول '20 °24 جنوباً ودائرة عرض '40 °124 غرباً. بعد شهر في البحر، مسافرين ما يقرب من 1500 ميل بحري كانوا ابعد عن ساحل امريكا الجنوبية عمّا كانوا عليه عندما بدأوا.

أول ما أقلق الرجال كان احتمال كون الجزيرة مأهولة. كتب نيكرسون: «في حالتنا الحالية، لم نكن مستعدين لأدنى قدر من المقاومة في حالة هاجمنا السكان الأصليون». شرعوا في الإبحار حول الجزيرة، محافظين على مسافة حوالي مئة ياردة من الشاطئ. تذكر نيكرسون: «أطلقنا رصاص المسدس عدة مرات بينما نعبر أمام وديان الجزيرة وزواياها لإثارة السكان إن كان هناك أيٌ منهم في نطاق صوت الرصاص. لكن لم يكشف عدو عن نفسه ولا صديق».

t.me/qurssan

كانت الجزيرة على شكل مستطيل غير منتظم، طولها حوالي ستة أميال وعرضها ثلاثة، تحفها نتوءات صخرية ومرجانية متعرجة. تدريجياً، أخذت القوارب الثلاثة في الاقتراب من النهاية الشمالية للجزيرة، ما جعلهم في اتجاه التجارية الجنوب-شرقية. وجدوا هناك أكبر شواطئ الجزيرة. كتب نيكرسون: «بدا أكثر موقع مناسب لمحاولة الرسو». لكن تشايس سيقود طليعة استكشافية مبدئية بينما ستبقى القوارب الثلاثة في الماء قبالة الشاطئ، متهيئين «لأي كمين محتمل قد يقوم به سكان متوحشين».

ترجل تشايس، حاملاً بندقيته المسكيت، ورجلان آخران على صخرة كبيرة. بمجرد خوضهم الماء ووصولهم للشاطئ بلغ تعبهم مبلغه. تذكر الضابط الأول: «ما أن بلغنا الشاطئ حتى بات من الضروري أن نلتقط انفاسنا، وألقينا اجسادنا الواهنة على الأرض بحثاً عن دقائق من الراحة». جلسوا على الرمال المرجانية الخشنة، ملتهمين مناظر وأصوات عالم الجزيرة الجميل المبهر. المنحدرات خلفهم كانت مكدسة بالزهور والشجيرات والعشب والكروم. فوقهم طارت الطيور غير آبهة بالرجال الموجودين. بعد شهر من الحرمان والمعاناة، كانوا على وشك الاستمتاع بما وصفه تشايس «وليمة غنية من الطعام والشراب». لكن كان عليهم أولاً أن يجدوا مصدراً للمياه.

انقسموا، وأخذ كل منهم يعرج في اتجاه مختلف. استطاع تشايس أن يصطاد من خليج صغير سمكة طولها ثمانية عشر بوصة بمدك بندقيته. جر السمكة إلى الشاطئ وفوراً جلس

t.me/qurssan

ليأكل، وانضم إليه مرافقاه، وفي أقل من عشر دقائق كانت السمكة مأكولة «جلداً وعظاماً وأشواكاً؛ كل ما فيها».

حسبوا الآن أنهم أقوياء كفاية لمحاولة تسلق المنحدرات، التي ظنوها المصدر الأرجح لماء الشرب. لكن بدلاً من الصخور المتلألئة بالبلل، وجدها تشايس حائطاً من المرجان الميت الجاف. لم تكن الشجيرات والكروم قوية كفاية لتحمل جسده، ما اضطره للقبض على الحواف المرجانية الحادة. بعد الجروح والرضوض، أدرك تشايس أنه ليس قوياً بما يكفي لبلوغ القمة.

محل نشوة الساعات القليلة الماضية، حل الإدراك بأن هذا النتوء العقيم من الكائنات البحرية المتحجرة ربما يكون خالياً من المياه القابلة للشرب. إن كانت تلك هي الحقيقة، فكل ثانية يقضونها على الجزيرة تقلل من فرصتهم الضئيلة في الأساس للنجاة. مهما كان إغواء قضاء ليلة واحدة على الأقل فوق أرض صلبة، فنزوع تشايس الأولي كان الإبحار صوب أمريكا الجنوبية فوراً، «لم أحِد ببصري ولو للحظة واحدة عن فرصنا الأساسية، التي كنت مقتنعاً أنها لا تزال موجودة، إما بلوغ الساحل، أو مقابلة سفينة في البحر».

عندما عاد للشاطئ، وجد أحد رجاله وقد عاد بأخبار واعدة. وجد صدعاً في صخرة ينضح برشح هزيل من المياه العذبة، مياه تكفي لترطيب الشفاه لا أكثر. ربما كان من المستحسن قضاء ليلة على الجزيرة، وتكريس اليوم التالي للبحث عن مياه. عاد تشايس ورفيقاه للقوارب، وأخبر تشايس بولارد بما فكر فيه. واتفقا على الرسو.

t.me/qurssan

سحبوا القوارب إلى أرض معشوشبة تحت الأشجار. كتب نيكرسون: «ثم قلبنا [القوارب] على أوجهها، لنحميها من ندى الليل». انتشر الرجال على الشاطئ، وبعدما جمعوا عدداً من السرطانات والأسماك، استقروا تحت القوارب وأكلوا صيدهم، ثم مددوا أطرافهم العظمية لأول مرة منذ شهر. وبسرعة جاء النوم. كتب تشايس: «دون قلق نوبات المراقبة وعناء الإبحار، منحنا أنفسنا رفاهية النسيان غير المتحفظ وراحة البال».

بسرعة بزغ الصباح، ومعه عاد عذاب التضوّر والظمأ. كانوا الآن قد بلغوا درجة من الجفاف فقدوا معها القدرة على الحديث. كتب تشايس: «إن لم نجد غوثاً قريباً، ستأخذ الطبيعة مجراها». هاموا حول الشاطئ كهياكل عظمية في أسمال، يتوقفون للاتكاء على الأشجار والصخور لالتقاط أنفاسهم. حاولوا مضغ أوراق الشجيرات الخضراء الشمعية النامية من المنحدرات، لكنها كانت مرة المذاق. وجدوا طيوراً لم تحاول الهرب عندما انتزعوها من أعشاشها. وفي شقوق الصخور عثروا على أعشاب تعطي إحساساً مؤقتاً بالرطوبة في الأفواه عندما تُمضغ. لكن لا أثر للمياه العذبة.

ما أن ابتعدوا عن الشاطئ، حتى اكتشفوا أن الجزيرة لم تكن إلا كومة بقايا مرجانية ذات سطح ناتئ حاد مثل زجاج مكسور. لم يرتدِ أغلب الرجال أحذية، ما جعل تجولهم واستكشافهم بعيداً عن مخيمهم مستحيلاً. خافوا أيضاً إن خاضوا بعيداً في الجزيرة، ربما لا يجدون في أنفسهم طاقة للعودة قبل هبوط الليل، ما يجعلهم عرضة لهجوم الوحوش

t.me/qurssan

البرية التي ربما تعيش في الجزيرة». في هذا المساء، بحسب ما كتب نيكرسون، «عدنا مغمومين مكتئبين، لقواربنا الصغيرة في الوادي».

لكن بولارد فاجأهم. قضى القبطان ومضيفه ويليام بوند اليوم في جمع السرطانات والطيور، ومع عودة الرجال من جولات البحث، كان بولارد وبوند في منتصف شوي ما اعتبره نيكرسون «مأدبة مذهلة». قبل الغرق، كان الطعام محل خلاف بين بولارد ورجاله. الآن الطعام هو ما يجمعهم، وهذه المرة كان القائد هو من يخدم طاقمه. تذكر نيكرسون: «جلس الجميع على العشب الأخضر الجميل. ربما لم يستمتع أحدهم بوجبة في حياته بهذا القدر من الاحتفاء والرضا».

فعل بولارد كل ما بوسعه ذلك اليوم ليرفع من معنويات وصحة رجاله. أما تشايس فبقي مركزاً على «فرصتهم الأساسية»: بلوغ أمريكا الجنوبية آمنين. مضطرباً ونافد الصبر كعادته، صار مقتنعاً أنهم يضيعون وقتهم بقضائه على الجزيرة دون ماء. كتب: «في حالتنا الراهنة، لم يكن في صالحنا أن نبقى في هذا المكان لفترة أطول. يوم، أو حتى ساعة تضيع بلا فائدة هنا، قد تتسبب في خسارة حياتنا». في هذا المساء، عبر تشايس عن مخاوفه لبولارد، «أسررت للقبطان بخلاصة تأملاتي، واتفق مع رأيي بخصوص ضرورة اتخاذ بعض الخطوات الحاسمة لمواجهة محنتنا القائمة».

رغم اتفاقه مع ضابطه الأول في المبدأ، إلا أن بولارد حاول تخفيف رعونة تشايس. أوضح القبطان أنه دون مصدر جديد

t.me/qurssan

للمياه، فإن فرصتهم للنجاة تقترب من اللاشيء. المضي قدماً دون بحث كل احتمالية لإيجاد نبع سيكون خطأ كارثياً. كتب تشايس: «بعد مداولة مطولة بهذا الخصوص، تقرر في النهاية قضاء اليوم التالي في بحث أكثر توسعاً عن الماء، وإن لم نجد أيّاً منه، سنرحل عن الجزيرة في الصباح الذي يعقبه».

لم يدرك رجال الإسكس أنهم كانوا على بعد مئات أميال قليلة من إنقاذ أنفسهم. أخطأ بولارد وتشايس في حساب موقعهم، هذه لم تكن جزيرة دوسي، بل جزيرة هندرسون، على نفس دائرة العرض تقريباً لكن على بعد سبعين ميلاً غرباً. تقع الجزيرتان ضمن مجموعة جزر معروفة باسم جزيرتها الأشهر بيتكيرن، وهي جزيرة يقترن تاريخها بنانتوكت بشكل معقد. في 1808، تعثر قبطان تحويت نانتوكتي يُدعى مايهيو فولجر بجزيرة بيتكيرن (التي كان موقعها في كل سجلات الملاحة المتوفرة حينها خاطئاً) واكتشف هناك الإجابة على لغز عمره تسعة عشر عاماً: ماذا حدث لفليتشر كريستيان وسفينة باونتي؟

بعد أن تركوا القبطان بلاي في قارب السفينة عام 1789، تجول متمرّدو الباونتي في المحيط الهادئ. ثم التقطوا بعض السكان الأصليين من رجال ونساء تاهيتي، وتابعوا طريقهم حتى بلغوا في النهاية جزيرة غير مأهولة في أقصى الجنوب الشرقي من جزر بولنيزيا. في 1820، كان على بيتكيرن مجتمع مزدهر من سلالة جماعة الباونتي. فقط على بعد أربع مئة ميل من الجنوب الغربي لهندرسون، مسافة أيام معدودات. كانوا ليوفروا لطاقم الإسكس كل الطعام والماء الذي يحتاجون. لكن بيتكيرن لم تكن

t.me/qurssan

مدرجة في دليل ملاحة بوديتش. وحتى إن كانت، فاحتمالية إيجادهم لها كان مشكوكاً فيها. فقد كانوا على بعد مئة ميل من الموقع الذي حسبوا أنفسهم فيه.

بدأت جزيرة هندرسون كحلقة مرجانية قبل 370 ألف عام. بعد 20 ألف عام، وبسبب نشاط بركاني مرتبط بجزيرة بيتكيرن، ارتفعت الأرض من تحت الشِعب الحلقي. اليوم، ترتفع جزيرة هيندرسون بين 30 و35 ياردة، وتحيط ببحيرة أحفورية جافة. هذه البقعة المرجانية غير المأهولة في قلب المحيط المفتوح، لا تبدو مصدراً محتملاً للخلاص لمن يبحث عنه.

يهطل على هندرسون كل عام مقدار خمسة وستين قدماً من المطر. لا تؤول هذه المياه إلى البحر ولا تتبخر في الهواء. بل تتسرب بين طبقات التربة المرجانية الهزيلة إلى عمق قدم أو اثنين فوق سطح البحر. تجري هناك كطبقة أفقية من المياه العذبة، وتروي الصخور والرمال. تطفو المياه العذبة، التي هي أخف من المالحة، على سطح البحر، على شكل قبة أو عدسة. لكن، إن لم يستطع رجال الإسكس إيجاد نبع، فكل هذه المياه الجوفية لن تنفعهم في شيء.

لم يكونوا أول من تغويهم هندرسون ثم تخدعهم. رغم أنهم لم يدركوا ذلك، كان هناك في المنحدرات خلفهم كهف، فيه ثمانية هياكل عظمية بشرية متمددة.

فحص العظام طبيبٌ عام 1966 وبيّن أنها من أصول قوقازية، مَا يقترح أن مجهولي الهوية هؤلاء، مثل طاقم الإسكس، كانوا نُجاة من تحطم سفينة. أظهر الفحص أيضاً أن أحد

t.me/qurssan

الهياكل كان لطفل بين الثالثة والخامسة من عمره. كان الثمانية قد ماتوا من الجفاف.

في الصباح التالي -الثاني والعشرين من ديسمبر، 31 يوماً على مغادرة الحطام- تابع الرجال بحثهم عن الماء. بعضهم، مثل نيكرسون، تسلق المنحدرات، فحص آخرون الصخور على الشاطئ. عاد تشايس إلى حيث وجدوا دليلاً على وجود الماء العذب قبل يومين. الصخرة كانت تبعد ربع ميل تقريباً عن مخيمهم. بمساعدة البلطة وإزميل صدئ قديم، استطاع ورفيقاه شقّ طريق في الرمال.

كتب تشايس: «اتضح أن الصخرة كانت لينة جداً، في وقت قصير استطعت صنع حفرة معقولة، لكن، وأسفاه، دون الوصول إلى النتيجة المبتغاة». ومع متابعة الشمس طريقها الصاعد في السماء، مضى تشايس في محاولته لتوسيع وتعميق حفرة الصخرة، متمنياً أن يؤدي ذلك لفتح مجرى مياه. «لكن كل أمنياتي كانت بلا طائل، وفي النهاية يئست من متابعة العمل، وجلست على الأرض إلى جانبها في غاية اليأس».

ثم لاحظ شيئاً غريباً. كان على الشاطئ، في اتجاه القوارب، ثمة رجلان يجران إناء من نوع ما. واندهش عندما رآهما وقد شرعا في الركض. «فجأة واتاني خاطر أنهما وجدوا مياه، وكانا آخذين برميلاً لملئه». فوق المنحدرات، لاحظ نيكرسون نفس المشهد «من النشاط والحماس الاستثنائيين»، وبسرعة صار جزءاً من الصخب الحاصل على الشاطئ.

وجد الرجال في الواقع نبعاً منبثقاً من حفرة في صخرة

t.me/qurssan

ضخمة مسطحة. يحكي تشايس: «الإحساس الذي خبرتُه كان غريباً جداً، إحساس لن أنساه أبداً. ذات لحظة شعرت وكأنني على وشك الاختناق من فرط السعادة، وفي اللحظة التالية وددتُ لو أطلقت سراح شلال من الدموع».

عندما بلغ تشايس النبع، كان الرجال قد أخذوا بالفعل يملؤون أفواههم بلهفة من رحيق الحياة الإعجازي. مدركاً أن في حالتهم من الجفاف كان شرب الكثير من الماء دفعة واحدة أمراً خطيراً، حضهم تشايس على أخذ رشفات قليلة أولاً، والانتظار بضعة دقائق بين كل شربة. لكن ظمأهم كان غالباً، وبعضهم احتاج لمن يحمله رغماً عنه ليتوقف عن الشرب. رغم مجهودات الضباط، فإن بعض أفراد الطاقم «شربوا بلا تفكير كميات ضخمة [من الماء] حتى لم يعد بوسعهم شرب المزيد». لكن التشنجات المؤلمة التي حذروهم منها لم تأت، «لم يؤد هذا إلا إلى زيادة غبائهم وخمولهم لما تبقى من اليوم».

بعدما حظى الجميع بفرصتهم للشرب، أخذوا في تأمل حظهم السعيد. كان النبع عميقاً تحت خط المد، لدرجة أنه كان ينكشف لنصف ساعة فقط مع الجزر الكامل، أما في المد الكامل فيكون على عمق ستة اقدام من سطح الماء. لم يتسن لهم سوى ملء برميلين صغيرين قبل أن تختفي الصخرة مرة أخرى تحت الأمواج.

بعد جمعهم لمزيد من الطيور والأسماك، جلسوا لتناول وجبة المساء. مع وجود مصدر ماء يعتمد عليه، وما يبدو أنه مصادر عدة للطعام، فكروا أنهم صار من الممكن البقاء في الجزيرة لمدة

t.me/qurssan

غير محدودة. يمكنهم على الأقل البقاء هنا حتى يستعيدوا قوتهم ويصلحوا قوارب تحويتهم المنهكة لتستعد لمحاولة أخرى لبلوغ أمريكا الجنوبية. قرروا هذه الليلة البقاء في الجزيرة لأربع أو خمس أيام على الأقل قبل حسم «إن كان يُنصح بالشروع في أية ترتيبات لإقامة دائمة». بظمأ مرتو ومعِدات ممتلئة، انزلقوا سريعاً إلى ما وصفه تشايس بـ«نوم هانئ ولذيذ».

في الحادية عشر من صباح اليوم التالي، عادوا للنبع. عندما بلغوه كان الجزر قد نزل بالكاد عن الصخرة. في البدء كانت المياه شبه مالحة، ما أيقظ المخاوف أن النبع لم يكن مصدراً يعتمد عليه للمياه العذبة مثلما حسبوا في البداية. لكن مع استمرار انحسار المياه المالحة، تحسنت جودة مياه الشرب بثبات. بعد ملء براميلهم بحوالي عشرين غالوناً، خرجوا للبحث عن طعام.

كل لحظة فائضة في كل يوم، كانت بحسب وصف تشايس «مُسخّرة للتجوال بحثاً عن طعام». اتضح أن ساعات المساء كانت أكثر جدوى، فقد كانت موعد عودة الطيور الممتلئة البيض التي تقارب حجم الدجاج، المعروفة بالطيور الاستوائية، إلى الشاطئ لتطعم أفراخها. كان الرجال يقتربون متسللين «ثم يقفزون [على الطيور] بعصا، ويقبضون عليها بلا صعوبة».

لم يكونوا الوحيدين المتربصين بالطيور الاستوائية كل مساء. كان هناك من سماها نيكرسون الصقور المحاربة. لكن بدلاً من أن تقتل الطيور الاستوائية، كان تربطها بها ما يسميه العلماء علاقة طفيلية kleptoparasitic. فكانت تنقر ظهورها وتضربها

بأجنحتها، حتى يتقيأ الطائر الاستوائي السمك الذي كان ينوي تغذية صغاره به. بالطعام المُجتر بين مناقيرها، تطير الصقور مبتعدة «تاركة صغار الطيور الاستوائية دون عشاء» مثلما لاحظ نيكرسون.

في اليوم التالي، الرابع والعشرين من ديسمبر، لاحظوا تغييراً مقلقاً. لاحظ نيكرسون أن الطيور «المتعرضة لمضايقات مستمرة، أخذت تهجر الجزيرة». في ذلك المساء عاد بعض من أفراد الطاقم متبرمين من عدم قدرتهم على إيجاد ما يكفي للأكل. في خمسة أيام فقط، أنهك هؤلاء الشرهين العشرين موارد ناحيتهم من الجزيرة. كتب تشايس: «كل رقعة من الجبال متاخمة لنا، أو في نطاق وصول بعثتنا الهزيلة، نهبناها بالفعل من كل ما فيها من بيض طيور وعشب، ولم نترك بها حجر إلا وأخذنا ما تحته».

***

لموقعها في قلب النطاق المهجور، لم تكن جزيرة هندرسون أبداً غنية بمواردها الطبيعية. يعتقد العلماء أن النباتات والحيوانات في جزر المحيط الهادئ مصدرها حواف جنوب شرق آسيا الغنية، وهندرسون تبعد تسعة آلاف ميل عن ذلك المصدر. وما يزيد من صعوبة وصول الحياة إلى ذلك النتوء المرجاني المنعزل، اتجاهات الرياح والتيارات السائدة. مثل رجال الإسكس، كان على الطيور وأنواع النباتات أن تمضي عكس الريح والتيار لتبلغ هندرسون. علاوة على ذلك، تقع الجزيرة جنوب مدار الجدي، وهو نطاق بارد نسبياً من المياه، يقوم بدور الحاجز أمام

t.me/qurssan

انتشار الكائنات الاستوائية. لذا ظلت هندرسون على الدوام مكاناً غير مرحَّب بمعيشة الإنسان.

يبدو أن استعمار البشر لجزر المحيط الهادئ اتّبع نمطاً شبيهاً لانتشار الطيور والنباتات. متنقلين من جزيرة لأخرى مثل من يقفز على أحجار في بركة، شقّ البشر طريقهم حتى أقصى الشرق والجنوب. الأدلة الأثرية أظهرت أن أول وصول للإنسان إلى هندرسون كان بين 800 و1050 بعد الميلاد. أنشأ هؤلاء السكان الأوائل أول مستعمرة على نفس الشاطئ حيث رسا طاقم الإسكس بقواربهم. في بعض الأماكن القليلة، أينما سمحت لهم التربة، زرعوا البطاطا الحلوة. اصطادوا بالخطاطيف المصنوعة من أصداف اللؤلؤ التي أحضروها معهم. ودفنوا موتاهم في سراديب عرضية. لكنهم رحلوا قبل عام 1450، إذ لم يعودوا قادرين على استخلاص قوتهم مما تُعتبر اليوم «آخر الجزر الكلسية العذراء في العالم».

لم ينل رجال الإسّكس وليمة كريسماس هذا العام. في ذاك المساء «وجدنا أن بحثنا غير المثمر عن الغذاء لم يكافئنا عن عملنا الشاق طوال اليوم». لم يبق إلا العشب «الذي لا يُستَلَذّ بأكله دون طعام آخر» وفقاً لتشايس. وبدأوا في «التعبير عن المخاوف من إطالة المكوث هنا».

في أقل من أسبوع، قام رجال الإسّكس بما استغرق أسلافهم البولينيزيون القيام به أربعة قرون على الأقل. بحلول السادس والعشرين من ديسمبر، يومهم السابع على هندرسون، والخامس والثلاثون منذ مغادرة الحطام، قرروا هجر الجزيرة

المستهلكة. بحسب كلمات تشايس، موقفهم كان «أسوأ مما كان على قواربنا في المحيط، لأن في الحالة الأخرى كنا على الأقل سنتقدم قليلاً تجاه اليابسة طالما لا تزال مؤنتنا صامدة». أثناء تجهيزهم للرحيل، بدأوا في العمل على قوارب التحويت. كتب نيكرسون: «سمّرنا قواربنا بأفضل شكل قدرنا عليه بحفنة المسامير القليلة التي معنا، من أجل تجهيزها لمواجهة الظروف العاصفة مرة أخرى».

ساحل تشيلي كان يبعد تقريباً ثلاثة آلاف ميل، حوالي ضعفي المسافة التي ابحروها بالفعل حتى الآن. عندما درسوا نسخهم من كتاب بوديتش، ادركوا أن جزيرة إيستر Easter Island، عند دائرة عرض 9' 27° جنوباً وخط طول 35' 109° غرباً، كانت تبعد أقل من ثلث تلك المسافة. رغم أنهم، مرة أخرى، لم يعرفوا شيئاً عن الجزيرة، إلا انهم قرروا توليها، بعدما أدركوا أخيراً أن المخاطر المحتملة لجزيرة مجهولة خير من المخاطر المعروفة لقارب مفتوح في المحيط الواسع.

مبكراً في ذلك اليوم، كتب نيكرسون: «نودي على الرجال جميعاً للتجمّع من أجل خطاب أخير قبل المغادرة». أوضح بولارد أنهم سيغادرون في اليوم التالي، وأن طواقم القوارب ستبقى مثلما كانت قبل وصولهم إلى هندرسون. وكان في ذلك الوقت أن تقدم ثلاثة رجال، توماس تشابل موجّه قارب جوي، واثنين من فتية كيب كود المراهقين: ويليام رايت وسيث ويكس من قاربي تشايس وبولارد على الترتيب. كان البيض الثلاثة قد جادلوا على مدار الأيام السابقة في «احتمالية نجاتهم». وكلما تحدثوا أكثر

t.me/qurssan

كلما بدا عليهم مزيد من الخوف من فكرة ركوبهم القوارب مرة ثانية.

تشابل، الذي كان من قبل الإنجليزي اللعوب المؤذي، الذي أشعل النار في جزيرة تشارلز، استطاع رؤية أن الضابط الثاني ماثيو جوي لن يستطيع البقاء حياً طويلاً. فبينما استعاد الرجال بعضاً من وزنهم وقوتهم خلال أسبوع الإقامة على هندرسون، فإن جوي، الذي كانت له «بنية رجل مريض» حتى قبل الغرق، بقي هزيلاً إلى درجة صادمة. أدرك تشابل أن في حالة وفاة جوي سيصير قائد القارب، وهي مسؤولية لا يوجد رجل عاقل سيرحب بها، نظراً لما يزال أمامهم.

خلال تجهيزهم للخروج في رحلة قد تؤدّي لوفاة بعضهم، إن لم يكن جميعهم، كان الرجال المجتمعون على الشاطئ يلعبون مسرحية لُعبت من قبل عدداً لا يحصى من المرات على جزر الهادئ. استعمار الجزر البولينزية اعتمد على مثل تلك المسرحيات، لكن بدلاً من الانطلاق في رحلة أخيرة يائسة شرقاً لبلوغ العالم المعروف، اعتاد سكان جزر البحر الجنوبي القدامى على الخروج في رحلات استكشافية، مبحرين جنوباً وشرقاً في المحيط الخاوي الأزرق الواسع. خلال تلك الرحلات الطويلة المبهمة، يأخذ التضوّر جوعاً ضريبته من المسافرين. عالم الأنثروبولوجيا البيولوجية ستيفن ماكجارفي تكهّن أن الناجين من تلك الرحلات، هم على الأرجح من كانت عندهم نسبة دهون أعلى في أجسادهم قبل بدء الرحلة، و/أو نظام أيض metabolism أكفأ؛ ما يسمح لهم بالعيش لفترة أطول على طعام

أقل من رفاقهم النحيفين. (يُنظّر ماكجارفي أن ذاك هو سبب كون البولينيزيين المعاصرين يعانون من انتشار السمنة).

العوامل ذاتها التي رجحت كفة البولينزيين الممتلئين ذوي الأيض الكفء، كانت فعالة بين رجال الإسكس. فلربما تلقوا جميعاً حصص الطعام ذاتها خلال الشهر على القوارب، لكن الحال لم يكن ذاته قبل الغرق. المعتاد في سفن التحويت، أن حال الطعام المُقدم لسكان القلعة الأمامية (حيث عاش السود) كان أكثر تعاسة بكثير مما قُدم لموجّهي القوارب وصغار النانتوكتيين في الستيردج. وترجّح الاحتمالات كلها أن السود كانوا أيضاً أقل صحة من البيض، حتى من قبل إبحارهم على الإسّكس. (في عام 1900 - أبكر تاريخ وُضعت فيه سجلات- اقصى عمر كان يُتوقع لطفل أسود بلوغه كان لا يزيد عن الثالثة والثلاثين، اقل بأربعة عشر عاماً على الأقل من المتوقع لطفل أبيض). الآن، بعد ثمانية وثلاثين يوماً من هجوم الحوت، بات من الواضح أن كل الأفارقة الأمريكيين كانوا في حال أسوأ من بقية الطاقم، عدا جوي بالطبع.

على الناحية المقابلة كان النانتوكتيون. فبالإضافة لكونهم الأفضل تغذية، كان لديهم مصدر آخر للقوة: كانوا من نفس المجتمع المتماسك. النانتوكتيون الصغار كانوا أصدقاء منذ الطفولة، بينما أبدى الضباط، خاصة القبطان بولارد، قلقاً أبوياً على حال المراهقين. سواء خلال عذاب الظمأ والتضوّر على القوارب، أو إبان البحث عما يؤكل على هندرسون، وقد وفر النانتوكتيون لبعضهم دعماً وتشجيعاً لم يعرضوا أياً منه على الآخرين.

t.me/qurssan

شاهد الرجال كلهم صقور الحرب تنهب طعام الطيور الاستوائية. مع تدهور الأحوال على القوارب، لا يسع المرء إلا التساؤل: مَن مِن هؤلاء النانتوكتيين التسعة والسود الستة والأجانب عن الجزيرة الخمسة سيصير صقراً ومن سيكون طائراً استوائياً؟ قرر تشابل ورايت وويكس أنهم لن ينتظروا ليعرفوا الإجابة.

كتب تشايس: «لم يقدر أي من الرجال على الاعتراض على خطة الثلاثة، خاصة وأنهم سيخففون من الحمل على القوارب، وسيمنحوننا نصيبهم من المؤن». حتى الضابط الأول اعترف أن «احتمال بقائهم أحياء على الجزيرة كان أكبر من احتمال بلوغنا البرّ الرئيسي». وعد بولارد الرجال الثلاثة، أنه في حال عودته لأمريكا الجنوبية، فسيفعل كل ما بوسعه لاستعادتهم.

بعيون مفتمة وشفاه مرتجفة، انسحب الرجال الثلاثة من بين بقية الطاقم. كانوا قد اختاروا بالفعل بقعة منعزلة عن بقية المعسكر، ليجعلوا لهم فيها ملجأ مرتجلاً من جذوع الأشجار. لكن رفاقهم السبعة عشر كرهوا رؤيتهم يذهبون، وعرضوا «كل ما يمكنهم التخلي عنه من حمولتهم على القوارب». بعد قبول الهدايا، دار تشابل ورفيقاه على أعقابهم ومضوا.

***

ذلك المساء، كتب بولارد ما اعتبره آخر خطاباته للبيت. خاطب زوجته ماري، ابنة صانع الحبال ذات الأعوام العشرين، التي لم يقض معها سوى خمس وسبعين يوماً من الحياة الزوجية. وكتب أيضاً خطاباً آخر، خطاباً عاماً:

«عن ضـيـاع سـفـينـة الإسّكس من نانتـوكت في أمـريكا الشـمـاليـة، جـزيرة دوسي، 20 ديسـمبـر 1820، بقـيـادة القـبطان بولارد الابن. غـرقت السـفـينـة في اليـوم العـشـرين من نوفـمبـر 1820، على خط الاسـتـواء وخط طول °120غ، تسـبب في الغـرق حوت ضـخم هاجم مـقـدمـة السـفـينة، وامـتـلأت بالميـاه في 10 دقائق. حملنا من المؤن والمياه بقدر ما يمكن للقوارب أن تحمله، وغـادرناها في 22 نوفـمـبـر، ووصلنا هنا اليـوم مكتـملي العـدد، باستثناء رجل أسود كان قد غادر السفينة في أتاكاميس. ننوي الرحـيل غداً، الذي سـيكون 26 ديسـمبـر [في الحـقيـقـة كان 27 ديسـمبـر] 1820، مـتـجـهين إلى القـارة. سـأترك مـع هذا الخطاب خطاباً آخـر مـوجّـها لزوجتي، من يجـد الخطابين، ويجـد فـي قلبـه الطيبة لإرسـالهما، سيكون قـد صنع جميلاً في رجل تعيس، وإليه أتوجه بخالص أمنياتي الطيبة.

جورج بولارد الابن»

في غرب المعسكر، وجدوا شجرة كبيرة تحمل اسم سفينة – اليـزابيث– مـحفـور على جذعـها. حولوا الشـجـرة إلى مكتب بريد يشـبـه ذلك الموجـود على غـالاباغـوس، ووضـعـوا الخطـابات في صندوق خشبي صغير ثبّتوه في الجذع بالمسامير.

في 27 ديسـمبر، في العاشـرة صبـاحاً، الوقت الذي عـلا فيه المدّ بما يكفي للسماح للقوارب الثلاثة بالطفو متجاوزة الصخور المحيطة بالجـزيرة، بدأوا في التـحـمـيل. في قـارب بولارد كـان موجّـه دفته أوبيد هيندريكس، ورفاقـه النانتوكتيون بارزيلاي راي وتشـارلز رامـزديل وأوين كـوفين، والإفـريقي الأمـريكي صـمـويل

t.me/qurssan

ريد. قارب تشايس انخفض تعداده إلى خمسة: النانتوكتيان بنجامين لورنس وتوماس نيكرسون، ومعهم ريتشارد بيترسون الأسود المسن من نيويورك، وإيزاك كول الأبيض الأجنبي عن الجزيرة. في قارب جوي كان الأبيض من خارج الجزيرة جوزيف ويست، وأربعة سود: لاوسون توماس وتشارلز شورتر وإزاياه شيبارد والمضيف ويليام بوند. لم يكن هؤلاء فقط تحت قيادة ضابط ثان اشتد به المرض، بل جاء قرار تشابل بالبقاء على الجزيرة ليسلبهم من موجّه قاربهم الذي كان يساعد جوي في إدارة الطاقم. ولم يكن بولارد أو تشايس مستعدّين للتخلي عن موجّه قارب نانتوكتي المولد.

بسرعة حان وقت الرحيل عن الجزيرة. ولم يكن أيٌّ من تشابل ورايت وويكس موجوداً. كتب تشايس: «لم يأتوا، سواء لمساعدتنا على الإقلاع أو لوداعنا بأي شكل». ذهب الضابط الأول إلى مسكنهم على الشاطئ وأخبرهم أنهم على وشك الإقلاع. كان الرجال، بحسب ملاحظة تشايس، «في غاية التأثر»، وشرع أحدهم في البكاء. «تمنوا لو نكتب لأقاربهم، إن شاءت العناية الإلهية أن نصل لبيوتنا، ولم يقولوا أكثر من هذا». وبعدما رآهم تشايس «غير قادرين على تبادل الوداع»، تمنى لهم على عجالة الحظ السعيد وودعهم والتحق بالقوارب. كتب: «تابعوني بأعينهم حتى اختفيتُ من ناظرهم، ولم أرَ أياً منهم بعدها قط».

قبل مغادرتهم للجزيرة، قرر الرجال تتبع خطى دورتهم الأولية حول الجزيرة، والإبحار إلى شاطئ رأوه حينها «وحسبوا

t.me/qurssan

أنه قد يكون مصدراً غنياً ببعض الحظ السعيد»، قد يقدم لهم بعض المؤن الطازجة لبداية رحلتهم. بعد ترجل نصف دزينة رجال على الشاطئ ليبحثوا عن الطعام، قضى البقية يومهم في صيد السمك. لمحوا بضعة أسماك قرش، لكنهم لم ينالوا إلا بضع سمكات من الماكريل. عادت بعثة الشاطئ في السادسة مساءً تقريباً ببعض الطيور، وشرعوا في التجهيز للرحيل النهائي.

ربما لم تكُن سوى وعد زائف بالخلاص، لكن جزيرة هندرسون منحتهم على الأقل فرصة للقتال. في العشرين من ديسمبر، رأى تشايس «الموت نفسه يحدّق في وجوهنا». أما الآن فقد تمتعوا بأسبوع من الطعام والمياه، وملؤوا براميلهم بالمياه الطازجة، ولم تعد قواربهم تسرّب. بالإضافة إلى الهارد-تاك، صارت لدى الرجال الآن أسماك وطيور، وستطعم مؤونتهم عدداً أقل بثلاثة مما كانت تفعل. كتب نيكرسون «أبحرنا مرة أخرى، [مغادرين] أخيراً تلك الأرض التي ألقتها العناية السماوية في طريقنا».

t.me/qurssan

الفصل العاشر
همس الضرورة

قبل رحيلهم عن جزيرة هندرسون، حمّل تشايس كل قارب بصخرة مسطحة وحفنة من الأخشاب الجافة. في ليلتهم الأولى على المياه مجدداً، بعدما اختفت الشمس والجزيرة وراء الأفق الغربي خلفهم، رفعوا الصخور ليستخدموها كمنصة لنار الطبخ. كتب تشايس: «أشعلنا النيران وطبخنا السمك والطيور، ووجدنا في ذلك أقصى راحة يمكن إيجادها في حال مثل حالنا».

لشهر كامل حملتهم الريح جنوباً وغرباً، والآن يأملون أن يبحروا شرقاً مباشرة لجزيرة إيستر. لتتحقق امنيتهم، فهم بحاجة إلى أسبوعين من النسيم الغربي. لكن عند دائرة عرض 24 جنوباً، كانوا لا يزالون في نطاق الرياح التجارية، حيث تهبّ الرياح لأكثر من 70٪ في السنة من الجنوب الشرقي. لكن هذه الليلة، فيما بدا وكأنه استجابة لصلواتهم، جاء نسيم قوي من الشمال الغربي، فأبحروا صوب جزيرة إيستر.

إن كانوا قد قرروا متابعة تقدمهم للشرق، فهم بحاجة إلى طريقة لحساب خط طولهم، وهو ما لم يفعلوه طوال المرحلة الأولى من رحلتهم. شهرٌ من الإبحار دون معرفة موقعهم بين الشرق والغرب أثبت لهم أهميته وضرورة محاولة تخمينه على

t.me/qurssan

الأقل. قبل مغادرتهم لهندرسون، قرروا الحفاظ على ما سماه تشايس «رصد دوري». رصدهم بالإسطرلاب في الظهيرة نبأهم بدائرة العرض، وبفعل ما فعله القبطان بلاي قبلهم -استخدام حبل مرتجل ذي عقد، لقياس السرعة والبوصلة لتسجيل الاتجاه- استطاعوا حساب خط الطول. أخيراً لم تعد قوارب الإسكس تبحر في الظلام.

صمد النسيم الشمالي الغربي لثلاثة أيام. ثم في الثلاثين من ديسمبر، انحرفت الرياح إلى الشرق-الجنوب الشرقي، واضطروا للإبحار في مسار متّجه إلى جنوب جزيرة إيستر. لكن مع أول أيام السنة الجديدة، 1821، انحرفت الرياح إلى الشمال، وعادوا مرة أخرى لمسارهم الأصلي.

في الثالث من يناير أبحروا فيما وصفه نيكرسون بـ «طقس صعب». هجمت العواصف من الجنوب الغربي. «صار البحر عاتياً إلى حد أننا حسبنا كل هبّة منه ستقلب قواربنا... تأتي العواصف مصحوبة بالتماعات البرق المذهلة وهدير الرعد المرعب، فترسم على وجه البحر محيّا الغضب، وترجف أعماق الصدور».

في اليوم التالي، انحرفت الريح المتقلبة إلى الشرق-الشمال الشرقي. بأشرعة مشدودة بإحكام والرياح تهب على ميسرة القوارب، حاولوا الإبحار مع الريح بقدر الإمكان، لكن لم يكن بوسعهم الوصول إلى جزيرة إيستر. وصل بولارد وتشايس للاستنتاج المحبط نفسه: لقد توغلوا في الجنوب حتى لم يعد هناك أي أمل لبلوغ الجزيرة. بحثوا في نسخ دليل بوديتش عن

t.me/qurssan

أقرب جزيرة «قد تسمح لهم الريح بالذهاب إليها». جزر (خوان فرنانديز وماسافويرا) كانتا على بعد ثمان مئة ميل من ساحل تشيلي، لكنهما لسوء الحظ كانتا تبعدان عنهم 2500 ميل، أبعد مما أبحروا منذ غرقت الإسكس قبل أربعة وأربعين يوماً.

وكان في اليوم نفسه الذي هجرهم فيه كل أمل في بلوغ جزيرة إيستر، أن أكلوا آخر أسماكهم وطيورهم. وعادوا لحصة كوب واحد من الماء وثلاثة أونصات من الهارد-تاك في اليوم لكل فرد.

على مدار اليومين التاليين، تخلّت عنهم الريح، وضربتهم الشمس بالقوة الغاشمة نفسها التي عرفوها منها قبل بلوغهم جزيرة هندرسون. أكثر من تضرر من تلك الظروف كان ماثيو جوي، الذي توقفت أمعائه عن العمل. ظلت حالته تتدهور باستمرار منذ مغادرتهم الجزيرة، واتخذت عيناه الزجاجيتان المشتتان نظرة لا لبس في تفسير معناها؛ نظرة الموت.

في السابع من يناير، جاء من الشمال نسيم. أظهر رصدُهم في الظهر أنهم انزلقوا ست دوائر عرض، أو 360 ميلاً بحرياً، جنوباً. لكن توغلهم في الشرق هو ما أقلقهم، استنتجوا أنهم لم يقتربوا من البرّ الرئيسي سوى ست مئة ميل فقط منذ مغادرتهم هندرسون قبل أحد عشر يوماً.

في اليوم التالي، طلب ماثيو جوي طلباً؛ أراد الضابط الثاني ابن السبعة والعشرين عاماً أن يُنقل لقارب القبطان، «تحت انطباع أنه سيكون هناك أكثر راحة، وستلقى آلامه انتباهاً أكثر وسيُمنح التمريض والعناية والتطييب» بحسب تشايس، وكان له ما

أراد. لكن الجميع عرفوا السبب الحقيقي وراء انتقال الضابط الثاني. الآن وقد أذنت نهايته، أراد جوي الذي كان بين خمسة كوفيين، أن يموت بين بني وطنه.

كان جوي ابناً لعائلة كويكرية. بالقرب من دار بلدية نانتوكت، كان لجده منزلٌ كبير لا يزال يطلق عليه مسكن روبين جوي. في عام 1800، عندما كان ماثيو في السابعة، انتقل والداه إلى هدسون في نيويورك، حيث أقام النانتوكتيون ميناء تحويت بعد الثورة. ظل ماثيو صديقاً مخلصاً حتى عاد لوطنه الأم في 1817 وتزوج من نانسي سليد، أبرشانية في التاسعة عشرة من عمرها. وكما كان معتاداً في تلك الحالات، تبرأ منه الكويكريون في الاجتماع الشهري «لتزوجه من الخارج».

لم يعد جوي كويكرياً، لكن في العاشر من يناير، اليوم القائظ عديم الرياح في المحيط الهادئ، أظهر جوي ورعاً كويكري النزعة. فبعد يومين قضاهما طاقم قاربه بلا قائد، طلب أن يعود إليهم. في النهاية، كان ولائه لرجاله أكبر من حاجته للطمأنينة من بني قومه. نقلوه بالفعل، ثم في الرابعة عصراً، مات جوي.

مقبرة نانتوكت الكويكرية كانت بلا شواهد من أي نوع، شبه الكثيرون أرضها الملساء اللامتباينة بسطح البحر. مثل تلك المقبرة الواقعة على بعد آلاف الأميال، كان سطح البحر في ذلك الصباح هادئاً رائقاً، دون أقل نسمة هواء تداعب سطحه. اقتربت القوارب الثلاثة من بعضها، وبعد تخييط جوي داخل ملابسه، ربطوا حجارة في قدمه، و«أودعناه المحيط».

t.me/qurssan

حتى مع علمهم أن جوي كان مريضاً له وقت طويل، خسارتهم إياه كانت ثقيلة الوطء. كتب تشايس «كانت حادثة زرعت في قلوبنا الحزن أيام عديدة». آخر أسبوعين بالذات كانا عسيرين على رجال قارب الضابط الثاني، بدلاً من استمداد القوة والإلهام من قائدهم، كان يُتوقع منهم بذل طاقتهم القليلة الثمينة لتمريضه. غياب توماس تشابل موجّه القارب لم يساهم إلا في زيادة صعوبة موقفهم. لسدّ ذلك الفراغ، أمر بولارد موجّه قاربه، أوبيد هيندريكس ذا الأعوام الإحدى والعشرين، أن يتولى قيادة طاقم قارب الضابط الثاني ذوي الأرواح المثبطة.

بعد توليه مجداف التوجيه بفترة وجيزة، اكتشف هيندريكس أمراً مقلقاً. يبدو أن مرض جوي منعه من مراقبة مؤونة قاربه بحرص كافٍ. فبحسب تقدير هيندريكس، كان الهارد-تاك في خزانة القارب يكفي بين يومين قادمين لثلاثة على أقصى تقدير.

خلال ذلك الصباح -الثاني والخمسين منذ رحيلهم عن الإسكس- وطوال فترة ما بعد الظهر، تصاعدت الرياح القادمة من الشمال الغربي حتى أمست مع هبوط الليل عاصفة مكتملة. طوى الرجال الأشرعة كلها ووجهوا قواربهم مع اتجاه الريح. حتى بلا قطعة قماش مفرودة، رقصت القوارب بجموح على قمم الأمواج. كتب تشايس: «لمعان البرق كان سريعاً وحاداً، وهطل المطر مثل شلال». بدلاً من الخوف، ابتهج الرجال لمعرفة أن كل هبة ريح تقربهم أكثر من وجهتهم. يتذكر نيكرسون: «رغم شدة الخطر، لم يبدُ أن أحدنا خاف العاصفة قدر خوفه من الموت

t.me/qurssan

جوعاً. بل أظن أن أياً منا لم يكن ليفضل على العاصفة ريحاً معتدلة أو سكوناً».

كانت الرؤية شبه منعدمة في الليل مع هطول المطر المستمر. اتفقوا أنهم في حالة انفصالهم عن بعض، فعلى الجميع أن يتوجهوا ناحية الشرق الجنوب-الشرقي، عسى أن يصبحوا على مرمى بصر بعضهم البعض مع بزوغ الفجر. كالعادة كان تشايس في المقدمة. بين كل دقيقة وأخرى كان يدير رأسه ليتأكد أنه لا يزال قادراً على رؤية القاربين الآخرين. لكن في حدود الساعة الحادية عشر، نظر ولم يرَ شيئاً. كتب: «هبت الريح وهطل المطر وكأن السماوات تنفصل، وعرفت دون صعوبة ما عليّ فعله في هذه اللحظة». فقرر أن يتجه لقلب العاصفة. بعد الانجراف مع الريح لحوالي ساعة، «متوقعين في كل لحظة أننا سنقابلهم»، تابع تشايس ورجاله المسار المتفق عليه، آملين أن تقع عيونهم على رفاقهم بحلول الصباح مثلما حدث من قبل.

كتب نيكرسون: «مع انبلاج الصباح، نهض كل رجل في قاربنا ماسحاً بعيونه المياه». وقفوا على مقاعدهم، محتضنين الصواري وبعضهم للدعم، اشرأبت أعناقهم بحثاً عن الرفاق المختفين في الأفق المزين بالأمواج، لكن لم يجدوا لهم أثراً. علق تشايس: «التبرم من الظروف كان حماقة، فلا التذمر سيحل الأزمة، ولا الأسف سيعيد الغائبين. لكن كان من المستحيل كبح أنفسنا دون مشاعر الألم والمرارة التي استحضرها الفراق عن الرجال، الذين شاركونا المعاناة طويلاً، ولطالما ارتبطت مصالحنا ومصائرنا معاً».

كانوا عند دائرة عرض '16 °32 جنوباً وخط طول "112

t.me/qurssan

20غرباً، على بعد حوالي ست مئة ميل من جزيرة إيستر. بعد تسعة عشر يوماً من جزيرة هندرسون، ولا يزال أمامهم أكثر من ألف ميل، صار تشايس ورجاله وحدهم. «لأيام طويلة بعد الحادثة، خيم على تقدمنا الكآبة والتبلد. لقد ضاعت بهجة رؤية وجوه رفاقنا، التي كانت مهمة، بقدر ما يبدو ذلك غريباً، لتخفيف كلّ من عنائنا النفسي والجسدي».

استمرت العواصف والسيول طوال اليوم التالي. قرر تشايس جرد ما تبقى من مؤونتهم. بفضل سياسته التموينية الصارمة، لا يزال لديهم كم لا بأس به من الخبز. لكن بعدما قضوا أربعة وخمسين يوماً في البحر، ويبقى بينهم وبين جزيرة خوان فرنانديز 1200 ميل؛ كتب تشايس: «بدأت الضرورة تهمس في آذاننا، أننا بحاجة لتقليل حصصنا مرة أخرى، وإلا فعلينا أن نهجر كل أمل في بلوغ اليابسة، ونعتمد فقط على صدفة أن تلمحنا سفينة».

كانوا بالفعل معتمدين على نصف حصة، يأكل الواحد منهم ثلاث أونصات خبز فقط يومياً. «كيف نقلص حصة الخبز اليومية؟ بالنسبة للحياة ذاتها، كان ذلك السؤال ذا عواقب وخيمة». ثلاث أونصات من الهارد-تاك كانت توفّر لكل منهم مئتين وخمسين سعرة حرارية في اليوم، أقل من 15٪ من احتياجهم اليومي. قال لهم تشايس أن لا خيار أمامهم سوى تخفيض هذه الحصة إلى النصف مرة أخرى، لتصبح أونصة ونصف من الخبز كل يوم. عرف أن هذا «لا بدّ أنه سيختزلنا إلى مجرد هياكل عظمية مرة أخرى».

t.me/qurssan

تلك كانت معضلة مرعبة، لم يصل تشايس لقراره بسهولة. «لتصل الأمور إلى هذا الخيار المريع، تطلب الأمر عناءً عظيماً. إما أن نطعم أجسادنا وآمالنا لوقت أطول قليلاً، أو نسمح لأنفسنا في خضم آلام تضوّرنا بالتهام كل ما في خزانتنا، ثم نجلس في انتظار الموت القادم». في مكان ما على شمالهم، كان رفاقهم على وشك اكتشاف عواقب أخذ الخيار الآخر.

بالقدر ذاته تأثر الرجال على قاربي بولارد وهيندريكس بالانفصال. لكنهم مضوا قدماً بما يشبه اليقين أنهم ملاقين قارب تشايس مرة أخرى. في ذلك اليوم، الرابع عشر من يناير، نفذت مؤونة قارب اوبيد هيندريكس. السؤال بالنسبة لهيندريكس ورجال طاقمه الخمس -جوزيف ويست ولاوسون توماس وتشارلز شورتر وإزاياه شيبارد ووليام بوند- هل بولارد على استعداد لمشاركتهم مؤونة قاربه أم لا؟

بتعيينه هيندريكس ضابطاً ثانياً قبل ثلاثة أيام فقط، لم يستطع بولارد ببساطة رفض إعطاء موجّه قاربه السابق بعضاً من طعامه المُخزن. وطالما كان مستعداً لإطعام هيندريكس، فعليه أن يطعم الخمسة الآخرين. هكذا تشارك معهم بولارد ورجاله بما تبقى لديهم من خبز، عالمين جيداً أنه بعد أيام قليلة لن يتبقى شيء.

انفصال تشايس عن بولارد وهيندريكس أنقذ الضابط الأول من مواجهة عاقبة ذلك المأزق. فمنذ البدء، تشدّد تشايس، ببعض الهوس أحياناً، في توزيع حصص المؤن على قاربه. أن يُلقي بصندوق مؤنه لهيندريكس ورجاله، الذين كانوا كلهم أجانب عن

t.me/qurssan

الجزيرة خاضوا معهم المحنة من بدايتها واخذوا نفس حصة الخبز التي أخذها الجميع، كان سيعني من وجهة نظر تشايس نوعاً من الانتحار الجماعي. في بدايات الأزمة كان الرجال قد ناقشوا احتمالية مشاركة مؤنهم مع الطاقمين الآخرين في حالة ضياع مخزونهم. كتب تشايس: «مثل هذا الفعل كان ليهمش من فرص وصول البعض، بل ربما يؤدي بأرواحنا جميعاً إلى الموت جوعاً». بالنسبة لتشايس، الذي كان هدفه الأوحد هو انقاذ نفسه ورجاله، كان توقيت الانفصال عن بولارد وهيندريكس مثالياً.

في اليوم ذاته الذي اختزل فيه تشايس حصص رجاله إلى النصف، خمدت الريح تماماً. تضاءلت السحب حتى عادت أشعة الشمس إلى كونها غير محتملة. مزق تشايس ورجاله الأشرعة من الصواري يائسين، واختبؤوا تحت النسيج المغطى بطبقات الملح. ثم تمددوا في قاع القارب متدثرين بالأشرعة «وتركوه تحت رحمة الأمواج» بحسب ما كتب الضابط الأول.

برغم حدة الشمس، لم يشتك الرجال من العطش. بعد أسبوع من الشرب حتى الامتلاء على جزيرة هندرسون، ترطّبت أجسادهم إلى الحد الذي صار معه الطعام على قمة هرم احتياجاتهم بدلاً من الماء. بل إن بعض الرجال صاروا يعانون الآن من الإسهال، وهو من أعراض التضوّر جوعاً الشائعة، ما عزاه تشايس إلى فرط شرب المياه. كتب: «كنا نتدهور حثاثاً».

بينما يتعافى الجسد بسرعة من الجفاف، يحتاج لوقت طويل جداً للتعافي من آثار التضوّر جوعاً. إبان الحرب العالمية

t.me/qurssan

الثانية، أجرى مختبر الصحة الفيزيولوجية بجامعة مينيسوتا ما يعتبره العلماء وعمال الإغاثة اليوم الدراسة المعيارية للتضوّر جوعاً. بتمويل جزئي من مجموعات دينية، منهم مجتمع الأصدقاء، هدفت الدراسة لمساعدة الحلفاء على التعامل مع النزلاء المحررين من معسكرات الاعتقال وسجناء الحرب واللاجئين. المشاركون كانوا جميعاً من معارضي الخدمة العسكرية، الذين تطوعوا لخسارة %25من وزنهم خلال ستة أشهر.

أشرف على التجربة د.أنسل كيز، الذي على اسمه سُميت الحصة-كي[1]. عاش المتطوعون حياة خاوية لكن مريحة في ملعب جامعة مينيسوتا. رغم هزالها، تضمنت وجباتهم المحسوبة بدقة من البطاطس واللفت واللفت الأصفر (اللفت السويدي) والخبز الأسمر والمعكرونة (ما يشبه أنواع الطعام التي قد يستطيع اللاجئون الحصول عليها في فترات الحرب)، تنوع كبير من الفيتامينات والمعادن. لكن حتى في الظروف الطبية الآمنة للتجربة، عانى المتطوعون من آلام جسدية ونفسية حادة.

مع خسارتهم للوزن، أصبح الرجال أميل للخمول الجسدي

(1) الحصة-كي K-Ration: كُلف د.أنسل عام 1941 بتصميم وجبة لا تفسد بسهولة يمكن تعبئتها في صناديق صغيرة يضعها الجنود في جيوبهم أثناء القتال. صمم د.أنسل الوجبة المكونة من ثلاثة صناديق صغيرة (إفطار، غداء، عشاء) من البسكويت الجاف والسجق الجاف والحلوى. [المترجم]

t.me/qurssan

والنفسي، وصاروا سريعي الانفعال، غير قادرين على التركيز بسهولة. فقد ارتاعوا عندما فقدوا بعض التحكم في قوتهم الجسدية واتزانهم، وعانى كثير منهم من الإغماء عندما حاول الوقوف بسرعة. تورمت أطرافهم، وذهبت رغباتهم الجنسية، وبدلاً منها انخرطوا في نوع من «الاستمناء الغذائي»، إذ استغرقوا في وصف أطعمتهم المفضلة لبعضهم بشهية، وانكبوا على كتب الطبخ لساعات طوال. واشتكوا من فقدان روح المبادرة والإبداع. كتب أحد مؤرخي التجربة: «اتضح أن كثيراً مما نطلق عليها صفات أمريكية ، مثل الطاقة المفرطة والكرم والتفاؤل، لا يمكن توقعها إلا من الشبعانين فقط».

أصعب جزء من التجربة بالنسبة لكثير من الرجال، كان فترة التعافي. لعدة أسابيع بعد زيادة حصتهم من الطعام، شعروا بجوع شديد. حتى أن بعضهم خسر بالفعل بعض الوزن خلال الأسبوع الذي تلا انتهاء حمية التجويع. بتطبيق نتائج دراسة مينيسوتا، قضاء طاقم الإسكس أسبوعاً على هندرسون لم ينفع كثيراً أجسادهم المتداعية في استعادة ما خسرت من عضلات ودهون. الآن، بعد ثلاثة أسابيع، صار البحارة أقرب للموت جوعاً عمّا كانوا عليه في أي وقت من قبل.

الأعراض التي عانى منها الرجال إبان رقدتهم في قواربهم الساكنة في الرابع عشر من يناير 1821، كانت أشبه بتلك التي عانى منها معارضو الخدمة العسكرية في 1945. سجل تشايس أنهم كانت لديهم القدرة بالكاد «على التحرك في القارب، مؤدّين ببطء الأعمال الضرورية المطلوبة [منهم]». في ذلك المساء،

t.me/qurssan

عندما جلسوا في قاع القارب، خبروا نفس الاغماءات التي أصابت الرجال في جامعة مينيسوتا. كتب تشايس: «عند محاولتنا للنهوض مرة أخرى، كانت الدماء تندفع لرؤوسنا، فيهبط علينا عمى مفاجئ، ونقع مرة أخرى».

معاناة تشايس كانت كبيرة لدرجة أنه نسى إحكام غلق صندوقه البحري قبل أن يستسلم للنوم في قاع القارب. في هذه الليلة، أيقظ أحد الرجال ضابطهم الأول وأخبره أن ريتشارد بيترسون، الأسود العجوز من نيويورك الذي قادهم في اجتماعات الصلاة، سرق بعض الخبز.

قفز تشايس مهتاجاً. كتب: «شعرت لحظتها بأقصى درجات الغضب والسخط من قيام أحد رجالي بمثل هذا الفعل، وفوراً أخذت مسدسي في يدي، وأمرته بتسليم أي خبز أخذه، وإلا سأطلق النار عليه بلا تردد». وبسرعة أعاد بيترسون ما أخذه من مؤن «متأسفاً، قائلاً إن شدة الحاجة هي ما دعته لفعل ذلك». كان بيترسون، الذي يبلغ عمره ثلاثة أضعاف باقي ركاب القارب تقريباً، قد بلغ آخر قدرته على التحمل، وأدرك أنه إن لم يحصل على مزيد من الخبز، سيموت قريباً.

على الرغم من ذلك، شعر الضابط الأول أنه بحاجة لضرب مثال. كتب: «تلك كانت أول مخالفة، ولأجل تأمين حيواتنا وآمالنا وخلاصنا من معاناتنا، كان ثمة ضرورة لاستحضار عقاب مناسب». لكن، مثلما لاحظ نيكرسون، فقد كان بيترسون «رجلاً مسناً طيباً، ولا شيء سوى الجوع كان ليدفعه لارتكاب مثل هذه المحاولة المتسرعة المذنبة». أخيراً قرر تشايس منحه الرحمة.

t.me/qurssan

كتب: «لم أجد في روحي ميلاً لإخضاعه لأي من ضروب القسوة، مهما كان موقفنا الدقيق يتطلب ذلك». حذره أن أية محاولة أخرى للسرقة، ستكلفه حياته.

هبت طوال اليوم التالي وليلته نسائم خفيفة. بدأ التوتر القائم بين رجال تشايس في الهدوء، لكن المعاناة الفردية لكل منهم لم تكلّ، حطم الجوع أجسادهم إلى حدّ لم تنفع معه كثيراً حصة الخبز اليومية من الأونصة ونصف الأونصة. برغم ذلك، ظلت لحظة توزيع المؤن هي الأهم طوال اليوم. حاول بعض الرجال الاحتفاظ بنصيبهم أطول وقت ممكن، متمهلين في مضغه ومستطعمين كل قضمة صغيرة منه، بلعاب قليل هو أقصى ما تستطيع أفواههم انتاجه. أما الآخرون فكانوا يأكلون حصتهم بالكامل، آملين أن تمنح معِداتهم ولو شعوراً لحظياً بالشبع. بعد ذلك، يلعق كل منهم البقايا على أصابعه بشراهة.

في هذه الليلة، ثارت المياه الرائقة حول قارب تشايس فجأة إلى رغوة شاحبة، فيما ارتطم شيء ما ضخم بمؤخرة القارب. نهض الرجال متشبثين بشفير القارب من قاعه، ورأوا سمكة قرش بمثل حجم الحوت القاتل الذي هاجم قارب بولارد من قبل، كانت «تسبح حولنا في ضراوة، محاولة بين حين وحين مهاجمة جزء مختلف من القارب، وكأنها ستلتهم الخشب نفسه». قضم الوحش مجداف التوجيه، وحاول وضع قائم المؤخرة بين فكيه العملاقين، وكأن ذات التضوّر الذي يسكنهم جميعاً يمورُ في داخله أيضاً.

في قاع القارب كانت حرية مثل تلك التي حاول تشايس من

t.me/qurssan

قبلُ إلقاءها على الحوت الذي أغرق الإسّكس. إن استطاعوا قتل ذلك القرش الضخم، سيحصدون طعاماً يكفيهم لعدة أسابيع. لكن عندما حاول تشايس طعن القرش، اكتشف أنه لم يعد يملك القوة الكافية لاختراق جلده السميك الشبيه بورق الصنفرة. كتب: «كان أضخم من أي قرش عادي، وأظهر قدراً من الشر والجرأة أثارا فينا الخوف، وتحول قصارى جهدنا، الذي كان موجّهاً في البداية لقتله والتغذي عليه، إلى الدفاع عن النفس». لم يكن هناك الكثير لدى الرجال ليفعلوه، فيما دفع القرش قاربهم وصفع جوانبه الهزيلة بذيله. في النهاية، ضجر منهم وذهب. كتب تشايس: «بعد كل محاولاته الجائعة في الانقضاض علينا، تركنا ورحل متحيراً».

في اليوم التالي، حلت مجموعة من خنازير البحر محل القرش. فعل رجال تشايس لمدة ساعة تقريباً كل ما بوسعهم للقبض على أي من تلك الكائنات اللعوب. كلما اقترب أحدها من القارب، حاولوا طعنه بالحربة. لكن مثلما كان مع القرش، لم يستطيعوا، بحسب كلمات نيكرسون، «استحضار القوة الكافية لغرزها في بشرتها الغليظة». بينما القرش ليس إلا ماكينة قتل بدائية، يُعدّ خنزير البحر من أذكى الثدييات على وجه الأرض. تفوّق خنازير البحر في بيئتها كان ملحوظاً بشكل قاس للقارب المحمل بأبناء اليابسة الجائعين. كتب نيكرسون: «رحلت عنا بعد قليل، تبدو عليها الغبطة الشديدة، متقافزة في الماء تعبيراً عن أقصى درجات المرح. يا للشياطين البائسة، كم هي متفوقة علينا الآن، وإن كانت غير مدركة لهذا».

t.me/qurssan

على مدار اليومين التاليين، السابع عشر والثامن عشر من يناير، عاد السكون. كتب تشايس: «مرة أخرى هيمنت علينا كآبة وضعنا الحالي وعذاب الشمس المحرقة». مع اقترابهم من اليوم الستين بعد مغادرة الإسكس، بات حتى تشايس مقتنعاً أن مصيرهم هو الموت. كتب الضابط الأول: «بدأنا نفكر أن العناية الإلهية قد تخلت عنا أخيراً، وأن محاولاتنا المضنية لإطالة وجودنا التعيس صارت بلا طائل». لم يستطيعوا إلا التساؤل عن الكيفية التي سيموتون بها: «مريعة هي تلك المشاعر التي تملكت أفكارنا! التأمل في الموت من فرط الألم والمعاناة، مصحوباً بأسوأ الخيالات وأحزنها، هيمن على أجسادنا وأرواحنا بالكامل».

أطلق تشايس على ليلة الثامن عشر من يناير «حقبة اليأس والعذاب». بلغ شهرا الخوف والحرمان ذروتيهما فيما تخيّل الرجال الرعب المُنتظَر. كتب تشايس: «ذهبت مخيلتنا إلى أقصى درجات الذعر والفزع على مصائرنا، وكل ما ينتظرنا من ظلمة ووحشة وارتباك».

في حوالي الثامنة، تجلت الوحشة على هيئة صوت مألوف: تنفس حيتان العنبر. كانت ليلة مظلمة، والصوت الذي كان ذات يوم مثيراً للحماس ومحفزاً لغريزة الصيد، صار الآن مروعاً. يتذكر تشايس: «استطعنا بسهولة تمييز صوت شق الذيول الهائلة للمياه، ورسمت عقولنا الواهنة باقي تفاصيل الصورة المخيفة».

بينما كانت الحيتان تغطس وتطفو حولهم، ريتشارد بيترسون «هلع من فوره» وتوسل لرفاقه أن يجدّفوا مبتعدين عن الخطر. لكن أحداً لم يكن لديه قوة تكفي لرفع المجداف. بعد مرور ثلاث

t.me/qurssan

حيتان بجوار مؤخرة القارب في تتابع سريع، وهي «تنفخ وتنفث في سرعة مريعة»، اختفى القطيع.

بعدما انحسر هلع بيترسون، تحدث مع تشايس عن اعتقاداته الدينية. رغم ادراكه أن حتفه صار وشيكاً، إلا أن إيمان بيترسون بالرب لم يتزحزح. كتب تشايس: «جادل بمنطق متزن وبعقل راجح». كانت لبيترسون زوجة في نيويورك، طلب من تشايس أن يتواصل معها إن بلغ الوطن حياً.

في اليوم التالي، التاسع عشر من يناير، هبت الرياح قوية لدرجة أنهم اضطروا لطيّ الأشرعة. التمع البرق وانهمر المطر فيما انحرفت الرياح إلى كل جهة من «جهات البوصلة الأربع». وبينما تلاعبت الأمواج بقاربهم على البحر الهائج، تمدد بيترسون بين مقاعد القارب، «محطماً مكتئباً». في المساء، أخيراً استقرت الرياح إلى الشرق-الشمال الشرقي.

في العشرين من يناير، بالضبط بعد شهرين من غرق الإسكس، أعلن ريتشارد بيترسون أن موعد منيته قد حان. وعندما عرض عليه تشايس حصته اليومية من الخبز، رفضها قائلاً: «ربما تكون ذات فائدة لأي شخص، لكن لن تكون كذلك لي». بعدها بقليل، فقد قدرته على الحديث.

لطالما فضّل أنصار القتل الرحيم في عالمنا المعاصر، التأثير المزدوج للتضوّر جوعاً والجفاف كوسيلة كريمة غير مؤلمة لموت المرضى الميؤوس من شفائهم. في مراحل المريض الأخيرة، تنحسر عنه آلام الجوع وشعور العطش. وفيما ينزلق وعيه تفشل أعضاؤه الداخلية، ما يؤدي إلى موت هادئ. يبدو أن هذا ما

t.me/qurssan

حدث لريتشارد بيترسون. كتب تشايس: «بدا أن الأنفاس تغادر جسده دون أدنى ألم، وفي الساعة الرابعة كان قد رحل».

اليوم التالي، عند دائرة عرض ' 7 °35 جنوباً، وخط طول '46 °105 غرباً، على بعد ألف ميل من خوان فرنانديز، انضم جسد بيترسون لجوي في مقبرة البحر الشاسعة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الحادي عشر
لعبة الحظ

في العشرين من يناير 1821، بعد ثمانية أيام من ضياع قارب تشايس عن نطاق رؤيتهم، قاربت المؤن على قاربي بولارد وهيندريكس على النفاد. في ذلك اليوم، مات لاوسون توماس، أحد السود على قارب هيندريكس. ومع رطل وحيد من الهارد-تاك، هو آخر ما تبقى للرجال العشرة، جرؤ هيندريكس ورجاله على الخوض في الموضوع الذي كان في أذهانهم جميعاً: هل عليهم أكله بدلاً من دفنه؟

منذ وطئ الإنسان محيطات العالم، كان البحارة الجائعون يحافظون على حيواتهم بالتغذي على جثث رفاقهم الميتين. مع بدايات القرن التاسع عشر، كان أكل لحوم البشر أو الكانيبالية للنجاة أمراً واسع الانتشار إلى حد أن الناجين كانوا يشعرون أنهم مضطرين لإخبار منقذيهم أنهم لم يلجؤوا لهذا الحل، خاصة وأن، طبقاً لأحد المؤرخين، «كان الاشتباه في ارتكاب الناجين المتضوّرين جوعاً لذلك الفعل؛ ردّ فعل روتيني». إن من أكثر حالات الكانيبالية الموثقة بعناية، تلك التي حدثت في شتاء 1710، حينما تحطمت نوتنغهام جالي، السفينة التجارية البريطانية بقيادة القبطان جون دين، على جزيرة بون، وهي بروز

t.me/qurssan

صخري ضئيل بالقرب من ساحل ولاية ماين. وعلى الرغم من كونهم قادرين على رؤية اليابسة، إلا أن الرجال وجدوا أنفسهم معزولين دون غذاء ولا وسيلة لطلب المساعدة. وعندما مات نجار السفينة في الأسبوع الثالث، اقترح أحد أفراد الطاقم استخدام جثة رفيقهم كغذاء. وجد القبطان دين اقتراحهم في البداية «صادماً وفي غاية البشاعة». ثم تبع ذلك نقاش بينما هم واقفون حول جثة النجار المتوفي. كتب القبطان «بعد كثير من التفكير الناضج والمشاورة حول شرعية الفعل أو إثمه من ناحية، والضرورة المطلقة على الناحية الأخرى. اضطر الضمير للخضوع إلى حجّة بطوننا الخاوية الغالبة».

بعد مئة واحد عشر عاماً، وفي منتصف المحيط الهادئ، وصل رجال الإسّكس العشرة إلى نتيجة مشابهة. وبعد شهرين من قرارهم بتجنب جزر سوسايتي خوفاً من، بحسب كلمات بولارد، «أن يفترسنا الكانيباليون»، باتوا هم الذين على وشك أكل أحد رفاقهم.

في البداية كان عليهم تقطيع جسده. في نانتوكت كان هناك مجزر عند قدم الرصيف الشمالي، حيث يستطيع كل صبي مشاهدة بقرة أو خروفاً يتحول إلى قطع من اللحم قابلة للبيع. على سفن التحويت، كان السود من أفراد الطواقم هم المسؤولون عن تجهيز وطبخ الطعام. في حالة الإسّكس، ذبح الطباخ الإفريقي الأمريكي أكثر من ثلاثين خنزيراً وعشرات السلاحف قبل هجوم الحوت. وبالطبع شارك أفراد الطاقم العشرون كلهم في تقطيع عشرات حيتان العنبر. لكن هذا لم يكن حوتاً أو

t.me/qurssan

خنزيراً أو سلحفاة، بل كان لاوسون توماس، رفيقهم البحار الذي خاضوا معه شهرين جحيميين على قارب مفتوح. وأياً من كان الذي قد اضطلع بدور تقطيع جسد توماس، فقد كان عليه التعامل ليس فقط مع ضيق القارب المزدحم، بل أيضاً مع دوامة مشاعره الشخصية.

طاقم نوتنفهام جالي، السفينة التي تحطمت قبالة ماين، وجدوا مهمة تقطيع النجّار الميت في غاية العسر والبشاعة، إلى حد أنهم توسلوا للقبطان دين المتردّد، أن يتولاها بدلاً منهم. «في النهاية امتثلت لمناشداتهم واستعطافهم، وفي الليل قمت بالعمل». استهل دين عمله، مثل أغلب البحارة الذين اضطروا للكانيبالية، بإزالة أكثر العلامات التي تدل على إنسانية الجثة -الرأس واليدين والقدمين والبشرة- وأودعها البحر.

إن كان رجال هيندريكس قد اتبعوا نموذج دين، فهم كانوا ليستخرجوا قلب توماس وكبده وكليتيه من سلة أضلاعه الدموية، ثم كانوا ليشرعوا في قطع اللحم من عموده الفقري وأضلعه وحوضه. على أي حال، سجل بولارد أن بعد اشعال النار على الصخرة المسطحة في قاع القارب، قاموا بشوي الأعضاء واللحم وشرعوا في الأكل.

بدلاً من تخفيف أوجاع الجوع، تذوق اللحم لأول مرة زاد من حدة الرغبة في الأكل. جرى اللعاب في أفواههم فيما قرقرت العصارة الهضمية في معداتهم بعد استيقاظها من نومها الطويل. وكلما أكلوا أكثر، كلما جاعوا أكثر.

أظهرت دراسة علماء الأنثروبولوجي وعلماء الآثار لظاهرة

t.me/qurssan

أكل لحوم البشر أن الإنسان البالغ ينتج عنه في المتوسط ستة وستين رطلاً من اللحم القابل للأكل. لكن جسد لاوسون توماس لم يكن متوسطاً. تشريح ضحايا التضوّر أظهر ضموراً مذهلاً في أنسجة العضلات وغياب تام للدهون، التي يحل محلها في بعض الحالات مادة شفافة هلامية. انكمشت أيضاً أعضاء توماس الداخلية نتيجة للجوع والظمأ، بما فيها الكبد والقلب. وربما لن يوفر جسدُه سوى ثلاثين رطلاً من اللحم الهزيل المتليّف. في اليوم التالي، عندما نفذ مخزون القبطان من الخبز، كان بولارد ورجاله «سعداء بمشاركة الطاقم الآخر وجبتهم البائسة».

بعد يومين، في الثالث والعشرين من يناير، اليوم الثالث والستّون من مغادرتهم الحطام، مات فرد آخر من رجال هيندريكس، فأكلوه. ومثل لاوسون توماس قبله، كان تشارلز شورتر أسود.

من المرجح أن الإفريقيين الأمريكيين كانوا قد عانوا من حمية غذائية متدنية قبل الفرق. لكن ربما كان هناك عامل آخر ذو تأثير هنا. تجربة علمية معاصرة تقارن بين نسبة الدهون بين الأعراق المختلفة، تدعي أن نسبتها لدى الأفارقة الأمريكيين أقل مما عند نظرائهم القوقازيين. فما أن يستهلك الجسد المتضوّر جوعاً كامل مخزونه من الدهون، حتى يبدأ في استهلاك أنسجة العضلات، وهي عملية تؤدي بعد وقت غير طويل لتدهور الأعضاء الداخلية، ثم في النهاية إلى الموت. انخفاض نسبة الدهون الأولية لدى السود جعلت أجسادهم تستهلك أنسجة العضلات قبل البيض.

t.me/qurssan

أهمية دور دهون الجسد في النجاة لفترات طويلة تحت ظروف التضوّر، ظهرت بجلاء بين أعضاء جماعة دونر Donner Party، مجموعة من المستوطنين الذين حاصرتهم الثلوج عند سفح جبال سييرا نيفادا في شتاء عام 1847. وبرغم السمعة العامة التي تعتبرهن الجنس الأضعف، إلا أن النساء عشن أطول من الرجال، والفضل يرجع لنسبة الدهون الأعلى في أجسادهن (تقريباً أكثر 10٪ من الذكور). الآن وقد بدأ الرجال في الموت بين طاقم الإسكس، لم يكن من الصدفة أن يكون أول من ماتوا (باستثناء ماثيو جوي المريض الذي بحسب كلمات تشايس «لم يمت من شدة الجوع») هم الأفارقة الأمريكان.

من بين البيض، كان لقبطان الإسكس ذي السنوات التسع والعشرين الأفضلية. كان قصيراً، أميل للامتلاء قبل المحنة، ولكونه الأكبر سناً فكان معدل أيضه الأقل. من بين البحارة العشرين، كان نجاة بولارد من مأساة التضوّر هي الأرجح. لكن بالرغم من ذلك، ونظراً للنطاق المعقد من العوامل النفسية والبيولوجية المؤثرة على صحة كل فرد، كان من المستحيل التنبؤ بدقة من الذي سيعيش ومن سيموت.

على بُعد أكثر من مئة ميل جنوباً، وبينما كان رفاقهم يستهلكون الجثة الثانية في أربعة أيام، انجرف أوين تشايس ورجاله في بحر بلا رياح. بعد أسبوع اقتصر فيه طعامهم على أونصة ونصف الأونصة من الخبز يومياً، صاروا «بالكاد قادرين على الزحف في أرجاء القارب، بلا قوة فينا إلا تلك التي تنقل اللقيمات الشحيحة إلى أفواهنا». وبدأت الدمامل في الظهور

t.me/qurssan

على جلودهم. في صباح يوم الرابع والعشرين من يناير، يوم آخر من السكون والشمس الحارقة، كان تشايس متيقناً أن بعضهم لن يرى الليل. كتب: «ما الذي أبقاني حياً برغم كل مهالك الدهر وفواجعه التي حلت بنا؟ الرب وحده يعلم».

في تلك الليلة، رأى الضابط الأول حلماً في غاية الوضوح. كان قد جلس لتوه على «مأدبة فاخرة، غنية بما لذّ وطاب، تجد فيها الذائقة النيّقة كل ما تشتهي». لكن ما أن مدّ يده ليتذوق الطعام، حتى «استيقظ للواقع القاسي والحال البائس». مهتاجاً من جنون حلمه، بدأ تشايس في العض على الكساء الجلدي لأحد المجاديف، فقط ليدرك أن فكه يفتقد للقوة الكافية لاختراق الجلد المتيبس المالح.

بموت بيترسون، اقتصر طاقم تشايس على ثلاثة، النانتوكتيين بينجامين لورنس وتوماس نيكرسون، معهم إيزاك كول من روتشستر ماساتشوستس. ومع تفاقم معاناتهم، زاد اعتماد الرجال على الضابط الأول. كتب تشايس أنهم: «حاصروني بأسئلتهم المستمرة عن احتمالية وصولنا لليابسة مرة أخرى. كنت أستجمع شتات روحي محاولاً منحهم بعض الطمأنينة».

تبدل تشايس عما كان عليه عند بدء المحنة. فبدلاً من الانضباطي الذي تولى توزيع المؤن ممسكاً بالبندقية، صار الآن محدّثهم بما وصفه نيكرسون بصوت يكاد يكون مبتهجاً. مع بلوغ عذابهم ذروة جديدة، أدرك تشايس أن الانضباط لم يكن ما يحتاجه الرجال بل التشجيع. ومثلما رأوا جميعاً بعد بيترسون، فلم يعد يفصل بينهم وبين الموت سوى الأمل.

t.me/qurssan

كانت قدرة تشايس على تكييف أسلوبه القيادي بحسب حاجة رجاله، ويمكن مقارنته بواحد من أعظم وأكثر القادة المبجّلين في التاريخ، سير إرنست شاكلتون. مأثرة شاكلتون كانت الوصول برجال بعثته في أنتاركتيكا السبعة والعشرين إلى الأمان، قيل عنها «ملحمة القيادة الأسمى في ظروف تامة الاستحالة». في 1916، بعد سبعة عشر شهراً قضوها في محاربة أقسى الظروف الممكنة -التي تضمنت رحلة مضنية عبر مساحات جليدية شاسعة، ورحلتين في قاربين صغيرين بحجم قوارب التحويت في المحيط الجنوبي العاصف، ورحلة مريعة عبر القمم المسننة في جزيرة جورجيا الجنوبية- وصل شاكلتون أخيراً إلى محطة تحويت آمنة، ثم عاد لينقذ من تركهم خلفه على جزيرة إيليفنت.

كانت حساسية شاكلتون لاحتياجات رجاله أسطورية. وقد كتب رفيقه فرانك ورسلي: «كان اهتمامه برجاله عظيماً لدرجة أنه كان يبدو أحياناً للرجال الخشنين ذا لمسة أنثوية»، لكن شاكلتون كان قادراً على التمسك بانضباط يشبه انضباط القبطان ويليام بلاي. ففي بعثة سابقة، وعندما شعر أحد الرجال بحرّيته وقد ضاقت عليه، قمع شاكلتون التمرد بطرحه الرجل أرضاً. هذا المزيج من الحسم والسلوك السلطوي والقدرة على التعاطف مع الآخرين نادراً ما يجتمع في قائد واحد. لكن تشايس، في الثالثة والعشرين من عمره (تقريباً في نصف عمر شاكلتون) تعلم أن يتقلب بين قسوة الرجل السمكي وشدته، وبين فعل كل ما في وسعه لإنقاذ روح رجاله من أعماق اليأس.

t.me/qurssan

وصف نيكرسون الضابطَ الأول بالرجل الاستثنائي، واعترف بعبقرية تشايس في إيجاد الأمل في مواقف تبدو يائسة. فبعد أن خاضوا الكثير، جادل تشايس أنهم يدينون لبعضهم البعض بالتشبث بالحياة بأقصى عناد ممكن. «ناقشتهم، وأخبرتهم أننا لن نموت قريباً إن تمسكنا بالأمل». لكن المسألة كانت أكبر من ولائهم لبعضهم، بالنسبة لتشايس، كان الربّ أيضاً جزءاً من معادلة الكفاح من أجل البقاء. وقد طمأنهم تشايس بقوله: «كل خسارة وتضحية مؤسفة مررنا بها، كانت لحمايتنا من الموت، وكلها مجتمعة لا تساوي شيئاً أمام الثمن الذي نضعه على حيواتنا». بالإضافة إلى ذلك: «ليس التذمر من الرجولة ولا يخفّف عن المرء مصابه. وكان واجباً علينا الاعتراف بين مصائبنا بسلطة الإله، الذي يمكن لرحمته أن تنتشلنا فجأة من فم المحنة، وعليه وحده نتوكل، هو الذي يلين من الريح على الحمل الذي جُزّ صوفه[1]». برغم قلة ما رأوه من دلائل على رحمة الرب في الشهرين السابقين، أصر تشايس على أن «يتحملوا برغم كل الشرور... وألاّ يضعفوا فيفقدوا الثقة في عناية الربّ الحامي، بالاستسلام لليأس».

على مدار الأيام الثلاثة التالية، تابعت الرياح هبوبها من الشرق، مرغمة إياهم على الجنوح جنوباً أكثر فأكثر. يعترف تشايس: «كان من المستحيل اسكات طبيعتنا المتأففة، فقد كانت

---

(1) الاقتباس لـ (لورنس ستيرن) وهو روائي آيرلندي ورجل دين أنجليكاني. [المترجم]

t.me/qurssan

خيبة أمل كل توقعاتنا المشرقة شيئاً فيه كثير من القسوة؛ لم تتحقق أمنية واحدة تهدئ أرواحنا العطشى».

في السادس والعشرين من يناير، اليوم السادس والستين منذ مغادرتهم الحطام، أظهر رصدُهم ساعة الظهيرة أنهم انجرفوا حتى دائرة عرض °36 جنوباً، أكثر من 600 ميل بحري جنوب جزيرة هندرسون، و1800 ميل غرب مدينة فالباريسو في تشيلي. في هذا اليوم، تخلّت الشمس عن اضطرامها مانحة الفرصة لبعض المطر شديد البرودة. كان الجوع قد خفض من حرارة أجسادهم عدة درجات، وبالملابس القليلة المتوفرة معهم، أمسوا عرضة للموت من هبوط درجة حرارة الجسم Hypothermia. لم يكن لديهم بدٌّ من التوجه شمالاً عائدين لخط الاستواء.

ومع النسيم القادم من الشرق، كان عليهم الدوران بمجداف التوجيه حتى تصبح ميمنة القارب في مواجهة الريح. قبل وصولهم لهندرسون، كانوا يقومون بتلك المناورة بيُسر. لكن الآن، وحتى مع رياح خفيفة نسبياً، لم تعُد لديهم قوة تكفي للتعامل مع مجداف التوجيه أو لطيّ الأشرعة. يستذكر تشايس: «بعد كثير من العناء، استطعنا تحريك القارب، وكم كان الإنهاك الناتج عن هذا المجهود البسيط عظيماً، حتى أننا يئِسنا للحظة وتركناه ليمضي في مساره بنفسه».

دون من يوجهه أو يعدل أشرعته، انجرف القارب بلا هدف. تمدد الرجال مرتعشين مغلوبين على أمرهم في جوف المركب، بينما شعروا، مثلما كتب تشايس، «بثقل وطأة وضعهم اليائس

t.me/qurssan

الذي يؤلم قلوبهم ويعتصرها». بعد ساعتين، استطاعوا أخيراً استجماع قوى كافية لضبط الأشرعة بما يكفي للسماح للقارب بالمضي قدماً. لكنهم الآن صاروا مبحرين شمالاً، بموازاة ساحل أمريكا الجنوبية لا تجاهه. ومثل أيوب من قبل، لم يستطع تشايس إلا أن يسأل «أية آمال هزيلة لا تزال تربطنا بالحياة؟».

فيما رقد رجال تشايس في قاع قاربهم عاجزين من شدّة الجوع، مات شخص آخر من طاقم هيندريكس. إزاياه شيبارد هذه المرة، الذي أصبح ثالث الأفارقة الأمريكان الميتين المأكولين في سبعة أيام فقط.

في اليوم التالي، الثامن والعشرين من يناير، اليوم الثامن والستين منذ مغادرة الحطام، مات صمويل ريد، الأسود الوحيد بين طاقم بولارد، وأُكِل. تاركاً ويليام بوند على قارب هيندريكس ليلعب دور الأسود الناجي المتبقي الوحيد من الإسكس. لم يعد ثمة شك في من صاروا الطيور الاستوائية ومن أصبحوا الصقور.

اعتقد البحارة عموماً أن تناول اللحم الآدمي يحطّ من شخصية المرء الأخلاقية إلى مستوى «الهمج المتوحشين» الذين ينخرطون في الكانيبالية طوعاً. لاحظ القبطان دين على جزيرة بون في 1710 تحولاً مفزعاً بين أفراد الطاقم ما أن بدأوا في تناول جسد النجار. كتب دين: «وجدتُ (في بضعة أيام) في نزوعهم البشري تبدلاً، وأن طبعهم الهادئ المسالم السائد حتى الآن، ذهب بلا رجعة. بدأت الوحشية تظهر في عيونهم، وارتسم على سيماهم الهياج والبربرية».

t.me/qurssan

لكن فعل الكانيبالية لم يكن المتسبب في تدني مستوى التحضّر عند الناجين، بل كان الجوع القاسي. فخلال القسم الأول من رحلتهم، لاحظ تشايس أن معاناتهم جعلت من الصعب عليهم الحفاظ على كونهم «شخصيات في غاية الشهامة والرقي والمراعاة لمشاعر الآخرين».

وحتى في الظروف المحكومة معملياً خلال تجربة مينيسوتا للتضوّر عام 1945، كان المشاركون واعين للتغير المقلق في سلوكياتهم. كان أغلب المشاركين أعضاء في كنيسة الإخوة Brethren Church، وقد حسِب كثير منهم أن فترة الحرمان ستشحذ خبراتهم الروحية، لكنهم وجدوا الواقع معاكساً لرغباتهم. «شعر أغلبهم أن التجوع النسبي خشّن طباعهم بدلاً من ترقيقها، وانبهروا من الهشاشة التي تبدت عليها أخلاقهم وطباعهم الاجتماعية».

في حالة أخرى سيئة السمعة للنجاة بالكانيبيبالية، كان البحارة على متن السفينة بيجي المتضررة بشدة قد بلغوا أرذل مراحل الجوع في منتصف المحيط الأطلنطي العاصف عام 1765. ورغم أنهم لم يزل بحوزتهم نصف شحنتهم من النبيذ والبراندي، إلا أن آخر ما لديهم من طعام كان قد نفد قبل 18 يوماً.

بجرأة ضاعفها الكحول، أخبر الضابط الأول القبطان انه وبقية الطاقم، سوف يقتلون عبداً أسود ليأكلوه. أضعف من أن يستطيع المعارضة، رفض القبطان المشاركة، ومن قمرته بلغته أصوات الإعدام الوحشية وما تلاها من وليمة. بعد بضعة أيام

t.me/qurssan

ظهر الرجال على باب القمرة، باحثين عن رجل آخر ليقتلوه. كتب القبطان هاريسون: «قلت لهم إن موت الزنجي البائس لم ينفعهم في شيء، بعدما أصبحوا أكثر جشعاً وهزالاً من أي وقت... إجابتهم كانت أنهم الآن جوعى ويجب أن يأكلوا أي شيء».

ومثل طاقم البيجي، فلم يعُد الناجون من الإسكس يتبعون قواعد السلوك التي حكمت حيواتهم قبل المحنة؛ بل صاروا أعضاء فيما يسميه علماء النفس الدارسون لتأثيرات معسكرات الاعتقال النازية «مجتمع وحشي معاصر»، مجموعة من الناس انحدروا إلى «حالة حيوانية تقترب حثيثاً من الدوافع البدائية». بالضبط مثلما تعرض المعتقلون في المعسكرات النازية إلى «التضوّر... في حالة من الضغط الشديد» بحسب كلمات أحد علماء النفس، حدث المثل لرجال الإسكس، الذين يعيشون أيامهم غير عالمين من سيحين عليه دور الموت تالياً.

في مثل هذه الظروف، عادة ما يصيب الناجين نوع من الانطفاء النفسي الذي يصفه أحد الناجين من أوشفيتز بأنه نزوع إلى «قتل مشاعري». امرأة أخرى وصفتها بأنها لا أخلاقية، بل ربما فاسدة، للحياة: «بجوار رغبتي في الحياة لم يكن أي شيء آخر مهم. كنت لأسرق من زوجي أو ابني أو والدي أو أصدقائي لأحقق ذلك. لذا، كنت أدرّب نفسي كل يوم على نوع من الخداع الوحشي المنحط، معتصرة كل نقطة جهد في عروقي، مكرسة نفسي بالكامل، لجعل هذا الهدف ممكناً».

في المجتمع الوحشي، ليس من غير المعتاد أن يتولد لدى المجموعات الفرعية نموذج دفاعي أمام مسيرة الرعب التي لا

t.me/qurssan

ترحم، هنا كان للنانتوكتيين -بصِلات القرابة العائلية والدينية التي تربطهم معاً- أفضلية مطلقة. بما أنه لا يوجد ناجون سود ليقدموا شهادة قد تناقض سردية البيض، توجد احتمالية أنه ربما كان للنانتوكتيين دور أكثر فاعلية في تأمين نجاتهم عما تقترحه شهاداتهم. ولا شك أن الإحصائيات تثير الريبة، فأول أربعة ماتوا وأُكلوا كانوا جميعاً سوداً. وبعيداً عن قتلهم السود من أفراد الطاقم، فربما رفض النانتوكتيون مشاركة اللحم معهم.

على أية حال، باستثناء حقيقة أن أغلب السود قد وضعوا في قارب يقوده ضابط مريض، لا يوجد أي دليل على المحاباة في القوارب. ففي الواقع يبدو أن ما كان يميز رجال الإسكس هو الانضباط الشديد والضمير البشري الذي لم يغب طوال المحنة. وهم إن اضطرتهم الحاجة للتصرف كما الحيوانات، فإن ذلك كان برفقة ندم عميق. ثمة سبب جعل من ويليام بوند، آخر إفريقي أمريكي على قارب هيندريكس على قيد الحياة؛ بفضل وظيفته كمضيف في ربع الضباط من السفينة، تمتع بوند بحمية غذائية أكثر توازناً من رفاقه البحارة في القلعة الأمامية. ولكونه الآن الأسود الوحيد بين ستة من البيض، فلا شك أنه قضى وقتاً في تأمل ما قد يحمله له المستقبل.

بالأخذ في الاعتبار قواعد الحساب القاسية لكانيبالية النجاة، لم يوفر كل موت جديد الغذاء للأحياء الباقين فقط، بل قلل من عدد المشاركين فيه بمقدار شخص واحد. فمع وفاة صمويل ريد في الثامن والعشرين من يناير، حصل كل من الناجين السبعة على لحم بقيمة ثلاثة آلاف سعرة حرارية تقريباً

t.me/qurssan

(أكثر بما يقرب من الثلث مما حصلوا عليه عند وفاة لاوسون توماس). ورغم أن هذا النصيب يكاد يكون مساوياً لما حصل عليه كل منهم من السلاحف، لكنه لسوء الحظ افتقر للدهون التي يحتاجها الإنسان لهضم اللحوم. ومهما كان مقدار اللحم المتوفر لهم، تبقى القيمة الغذائية المستقاة منه محدودة من دون مصدر للدهون.

الليلة التالية، التاسعة والعشرون من يناير، كانت أظلم من المعتاد. إذ وجد أفراد الطاقمين صعوبة في متابعة بعضهم، وافتقروا أيضاً إلى القدرة على التحكم في مجاديف التوجيه والأشرعة. في هذه الليلة، نظر بولارد ورجاله باحثين عن قارب التحويت الذي يحمل أوبيد هيندريكس ووليام بوند وجوزيف ويست، فلم يجدوه. كان رجال بولارد أكثر ضعفاً من الشروع في محاولة البحث عن القارب المفقود، سواء بإشعال مصباح أو بإطلاق رصاصة مسدس. ترك هذا جورج بولارد واوين كوفين وتشارلز رامزديل وبارزيلاي راي -وكلهم نانتوكتيون- وحدهم، للمرة الأولى منذ غرق الإسّكس. كانوا عند دائرة عرض 35 جنوباً وخط طول 100 غرباً، على بعد 1500 ميل من ساحل أمريكا الجنوبية، لا يملكون إلا جثة نصف مأكولة لصموئيل ريد تبقيهم على قيد الحياة.

لكن مهما كان بؤس وضعهم، فكان بلا شك أفضل من وضع طاقم قارب هيندريكس. بلا بوصلة أو اسطرلاب ضاع هيندريكس ورجاله في بحر شاسع خاوٍ بلا حدود.

في السادس من فبراير، بعد استهلاكهم «آخر فتات» جثة

t.me/qurssan

صـمـويل ريد، بدأ الرجـال الأربعـة على قـارب بولارد في «تبـادل النظرات التي تختبئ خلفها أفكار مريعـة» بحسب تعبيـر أحد الناجين، «لكننا أبقينا على شفاهنا مطبقـة». ثم تجرأ أصغرهم، تشارلز رامزديل ذو الستة عشر عاماً، على التفوه بالمحظور. قال إن عليهم الاقتراع لتحديد من يجب قتله ليستطيع البقية الحياة.

لطالما كان الاقتـراع في مواقف النجاة تقليداً مقبـولاً في البحـر. وإن أقدم الوقائع المسجلة تعود للنصف الأول من القرن السابع عشر، عندما كان سبعة بحارة إنجليز مبحرين من جزيرة (سانت كيتس) الكاريبية، وألقتهم عاصفة إلى منتصف البحر. بعد سبعة عشر يوماً، اقترح أحدهم الاقتراع. فوقعت القرعة على الرجل الذي اقترحها، وبعد الاقتراع لمرة أخرى لاختيار من سيعدمه، قُتل الرجل وأُكل.

وفي 1765، بعد عدة أيام من أكل طاقم بيجي المتعطلة لما تبقى من جثة العبد الأسود، جرت القرعة لتقرر من سيلعب دور الطعام تالياً. وقعت القرعة على ديفيد فلات، واحد من أكثر البحارة شعبية. كتب القبطان هاريسون: «وقعُ القرار كان قاسياً، والتجهيز للإعدام كان مروعاً». طلب فلات إعطاءه بعض الوقت لتجهيز نفسه للموت، وافق الطاقم على تأجيل الإعدام حتى الحادية عشر في صباح الغد. واتضح أن الخوف من الموت كان أكثر مما بوسع فلات أن يتحمل. مع منتصف الليل، فقد القدرة على السمع، مع الصباح التالي بدأ في الهذيان. وبمعجزة ما شوهدت سفينة إنقاذ في الثامنة. لكن بالنسبة لديفيد فلات كان الأوان قد فات. حتى مع نجاة طاقم البيجي وبلوغهم إنجلترا،

t.me/qurssan

كتب هاريسون «ظل فلات البائس فاقداً لصوابه».

لم يكن الاقتراح فعلاً يرضى به حوّات كويكريٌّ ذو ضمير متيقظ. فلم يكن بين الأصدقاء عهدٌ يحرّم القتل فقط، بل يحرم أيضاً ألعاب الحظ. فتشارلز رامزديل، ابن صانع الخزائن كان أبرشانياً. لكن أوين كوفين وبارزيلاي راي كانا أعضاء في مجتمع الأصدقاء النانتوكتي. ورغم أن بولارد لم يكن كويكرياً، لكن جدّيه كانا كذلك، كما أن جدته الكبرى (مِهيتبل بولارد) كانت قسيسة.

في مواجهة ظروف شبيهة، اتخذ بحّارة آخرون قرارات مختلفة. ففي عام 1811، بعدما حطمت عاصفةٌ صواريَ السفينة الشراعية بولي، ذات الـ 139 طناً، التي كانت في طريقها من بوسطن إلى البحر الكاريبي، بقى طاقمها على هيكلها المغمور بالماء لمدة 191 يوماً. ورغم أن بعض الرجال ماتوا من الجوع، إلا أنهم لم يؤكلوا قط، وبدلاً من ذلك استخدمهم رفاقهم كطُعم. وذلك بوضع أجزاء من جثث رفاقهم في حبال الصيد، وتمكن الناجون من صيد عدد كافٍ من القروش للبقاء أحياء حتى إنقاذهم. لو أن رجال الإسكس اتبعوا هذه الاستراتيجية بعد وفاة ماثيو جوي، ربما ما كانوا ليضطروا لمواجهة ما هم بصدده الآن.

عندما وجد بولارد نفسه أمام اقتراح رامزديل الشاب، قال القبطان بولارد للآخرين، بحسب حكاية سردها نيكرسون، «لا، لكن إن مت فبوسعكم التغذي على جسدي». ثم انضم أوين كوفين، ابن خالة بولارد ذو الثمانية عشر عام، لرامزديل في طلب الاقتراعَ.

تأمل بولارد رفاقه الصغار الثلاثة، وقد أحاطت بعيونهم

t.me/qurssan

الفائرة حلقات مظلمة. لم يكن هناك شك في كونهم يقتربون حثيثاً من الموت. كان من الواضح كونهم جميعاً، بما فيهم بارزيلاي، الابن اليتيم لصانع البراميل النانتوكتي، مؤيدين لاقتراح رامزديل. ومثلما حدث في المرات السابقة -بعد الوقوع في تيار الخليج وغرق الإسكس- رضخ بولارد للأغلبية ووافق على الاقتراع. إن كانت المحنة قد حولت تشايس إلى قائد رحيم لكن قوي، فقد اختزلت من ثقة بولارد بنفسه حتى انمحت تماماً، بعدما أخذته الوقائع معها إلى أعمق قاع لليأس يمكن أن يعرفه إنسان.

قطعوا قصاصات ورق ووضعوها في قبعة. وقعت القرعة على أوين كوفين. صاح بولارد: «يابني، يابني! إن كنت لا توافق على الاقتراع، سأطلق الرصاص على أول من يضع يده عليك». ثم عرض القبطان أن يقوم بالدور بدلاً منه. كتب نيكرسون: «من كان ليشك أن بولارد كان ليفضل الموت ألف مرة؟ كل من عرفه لن يشك أبداً».

لكن كوفين كان قد تقبل مصيره بالفعل. فقال بهدوء: «موافق مثلما كنت لأفعل مع أي شخص آخر».

اقترعوا مرة أخرى لتحديد من سيقتل الفتى، ووقعت القرعة على صديق كوفين: تشارلز رامزديل.

وبرغم أن الاقتراع كان فكرته، فقد رفض رامزديل الآن نتيجته. كتب نيكرسون: «لمدة طويلة أصر رامزديل على انه غير قادر على فعلها، لكنه وافق في النهاية». قبل موته، قال كوفين كلمات وداع لأمه، وعد بولارد بتبليغها إن عاد لنانتوكت. ثم طلب

t.me/qurssan

كوفين بضع لحظات من الصمت. وبعدما طمأن الآخرين أن «القرعة كانت عادلة»، أراح رأسه على شفير القارب. وبحسب ما قاله بولارد لاحقاً: «بعدها بقليل قُتل، ولم يتبقَ منه شيئاً».

t.me/qurssan

الفصل الثاني عشر
في ظل النسر

تمدد تشايس ورجاله في قاع القارب تحت الرذاذ البارد. كل ما كان لديهم لحمايتهم من المطر، كان خرقة ممزقة منقوعة بالماء. كتب نيكرسون: «حتى لو كانت جافة، لم تكن لتغطي شيئاً».

في الثامن والعشرين من يناير 1821، هبّ النسيم أخيراً نحو الغرب، لكنهم لم يجدوا في هذا كثيراً من الراحة. كتب تشايس: «أصبحنا غير مبالين، لم يعُد يهّم من اين تأتي الريح». أمامهم الآن الكثير ليقطعوه والقليل ليأكلوه، ما يكفي لقمع أي أمل في بلوغ اليابسة في مهده. فرصتهم الوحيدة صارت أن تراهم سفينة مارة. يتذكر تشايس: «ذلك الأمل الهزيل وحده كان كل ما منعني من الرقود والاستسلام للموت».

بقى لهم من الهارد-تاك ما يكفي لأربعة عشر يوماً، لكن ذلك بفرض أنهم قادرين على العيش أسبوعين آخرين على أونصة ونصف منه في اليوم. كتب نيكرسون: «بلغ منا الوهن مبلغه إلى حد أننا كنا نزحف على أطرافنا في القارب». أدرك تشايس أنه إن لم يرفع من حصتهم اليومية من الخبز، فسيموتون جميعاً في غضون خمسة أيام. حان وقت التخلي عن

t.me/qurssan

نظام التقنين الصارم الذي أبقاهم أحياء كل تلك المسافة، وترك الرجال يأكلون «بقدر حاجتهم».

يتطلب النجاح في البقاء حياً في مواقف النجاة لفترة طويلة، اتخاذ نهج «إيجابي-سلبي» تجاه الأحداث المؤلمة المتتابعة. يكتب عالم النفس المتخصص في سيكولوجيا النجاة جون ليتش: «إن العامل الأساسي... هو إدراك أن السلبية في حدّ ذاتها فعل إيجابي متعمد. فهناك قوة في السلبية». بعد أكثر من شهرين في نظام صارم يحكم كل مناحي حياة الرجال، فهم تشايس غريزياً أن الوقت قد آن لتسليم «أنفسنا بالكامل إلى الخالق، ليرشدنا أو ليفعل بنا ما يشاء». سيأكلون من الخبز بقدر ما يحتاجون لتجنب الموت، وسيرون إلى أين ستأخذهم الريح الغربية.

كانوا لا يزالون أحياء مع حلول السادس من فبراير، لكن بالكاد. كتب الضابط الأول: «يقترب عذابنا من نهايته، وفي الأفق لاحت ميتة شنيعة». الزيادة الطفيفة في الطعام أعادت للرجال آلام التضوّر، التي صارت الآن «عنيفة إلى أقصى حد». أصبح التفكير بوضوح أو حتى الكلام أمراً صعباً، وباتت أحلام الطعام والشراب تعذبهم. يتذكر نيكرسون: «كثيراً ما ارتحلت عقولنا المحمومة إلى حيث الموائد العامرة». ودائماً ما كانت أحلامه تنتهي بالطريقة ذاتها: البكاء على الآمال الخائبة.

في الليل، أجبرتهم ريح ممطرة على طيّ الأشرعة. حينها كان إيزاك كول -الأجنبي عن الجزيرة- في نوبة المراقبة، وبدلاً من إيقاظ رفاقه، شرع في خفض شراع الزمام بنفسه. لكن اتضح أن هذا كان كثيراً عليه. استيقظ تشايس ونيكرسون في

t.me/qurssan

الصباح التالي ليجدوا كول قانطاً في جوف القارب. «بات عقله مظلماً تماماً، بلا أدنى مسحة أمل يعول عليها». مثل ريتشارد بيترسون قبله، استسلم كول مؤكداً أن «مقاومة ما يبدو بجلاء أنه مصير حتمي مكتوب، لهو من قبيل الحماقة والجنون».

وبرغم أن قوته كانت بالكاد تسمح له بالتلفظ بالكلمات، إلا أن تشايس بذل ما في وسعه لتغيير رأي كول. «جادلتُه بقدر ما سمح لي وهن جسدي وعقلي». فجأة، نهض كول وزحف حتى مقدمة القارب، وفرد شراع الزمام الذي أنزله في الليلة السابقة بثمن باهظ. وصاح انه لن يستسلم أبداً، وأنه سيبقى حياً بقدر ما سيفعل أي منهم. كتب تشايس: «اتضح أن مجهوده هذا لم يكن إلا نابعاً من حمية اللحظة». وسرعان ما عاد كول لجوف القارب حيث تمدد يائساً لبقية اليوم والليلة التي تبعته. لكن كول لن ينال شرف الموت بسلام.

t.me/qurssan

مسار رحلات قوارب تحويت الإسكس
من 22 نوفمبر 1820 إلى 23 فبراير 1821

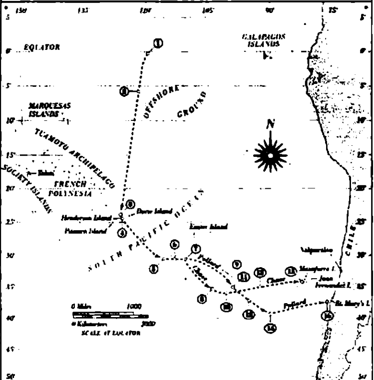

1/ Essex rammed by a whale, November 20, 1820
2/ Pollard's boat attacked by killer whale, November 22
3/ Sight Henderson Island, December 20
4/ Leave Henderson Island, December 27
5/ January 7
6/ Joy dies, January 10
7/ Chase separates from Pollard and Hendricks, January 12
8/ Peterson dies, January 20
9/ Deaths of Thomas, Shorter, Sheppard, and Reed, January 20-28
10/ Chase tacks and heads north, January 26
11/ Pollard and Hendricks separate, January 29
12/ Execution of Coffin, February 6
13/ Death of Cole, February 8
14/ Death of Ray, February 11
15/ Chase rescued, February 18
16/ Pollard rescued, February 23

t.me/qurssan

في صباح الثامن من فبراير، اليوم التاسع والسبعين منذ مغادرة الإسّكس، بدأ كول في الحديث الخرف، مقدماً لزملائه المرعوبين «مشهداً مؤسفاً عن الجنون الخالص». انتفض جالساً، مرتعشاً، وطلب منديلاً ومياه، ثم وقع في قاع القارب وكأنه ميت، فقط لينهض مجدداً وكأنه عفريت علبة ممسوس. بحلول الساعة العاشرة كان قد فقد القدرة على الحديث. وضعه تشايس والبقية على لوح كانوا قد فردوه على المقاعد، وغطوه ببعض قطع القماش.

على مدار الساعات الست التالية، أنّ كول وتأوه متألماً، إثر اصابته «بأسوأ وأبشع تشنجات» رآها تشايس على الإطلاق. بالإضافة إلى الجفاف وفرط الصوديوم في الدم (زيادة الملح الشديدة)، ربما عانى كول من قلة المغنيسيوم، نوع من نقص المعادن يمكنه، إن بلغ أقصى مدى، أن يسبب غريب السلوك وعنيفه. بحلول الرابعة عصراً مات إيزاك كول.

كان قد مرّ ثلاثة وأربعون يوماً على مغادرتهم لجزيرة هندرسون، وثمانية وسبعون يوماً منذ رأوا الإسّكس آخر مرة، لكن أحداً لم يقترح، على الأقل حتى ذلك المساء، أن يستخدموا كول كطعام. ومضت الليلة وجثة كول متمددة بجوارهم، وكل منهم يحتفظ بأفكاره لنفسه.

عندما أطلق طاقم البيجي الرصاص على العبد الأسود وقتلوه في 1765، رفض أحدهم الانتظار حتى يُطهى اللحم. «بجوع شديد ومعدة نافدة الصبر»، أقحم البحار يده في أحشاء الجثة وانتزع قطعة من الكبد، وأكلها نيئة. كتب القبطان

t.me/qurssan

هاريسون: «دفع الرجل التعيس ثمناً باهظاً على نفاد صبره، فبعدها بثلاثة أيام، مات وهو يهذي كالمجانين». وبدلاً من أكل جثة ذلك البحّار، ألقاه الطاقم في البحر «خوفاً من ملاقاة نفس المصير». ولم يجرؤ أيّ منهم على التهام لحم رجل مات مجنوناً.

في الصباح التالي، التاسع من فبراير، شرع نيكرسون ولورنس في عمل التجهيزات اللازمة لدفن بقايا كول. أوقفهم تشايس؛ كان قد قضى ليلته يصارع أسئلة ما يجب عليهم أن يفعلوا. بمخزون ثلاثة أيام فقط من الهارد-تاك، أدرك أنهم من الممكن أن ينحدروا لدرجة الاقتراع عما قريب. أن يأكلوا جثة رفيق ميت -حتى ولو كان رفيقاً ملوثاً- افضل من أن يقتلوا واحداً حياً.

كتب تشايس: «أخبرتهم بذلك الأمر المؤسف: الاحتفاظ بالجثة من أجل الطعام». لم يعترض نيكرسون أو لورنس. وخوفاً من أن اللحم ربما بدأ بالفعل في التعفن، «شرعنا في العمل بأسرع ما استطعنا».

بعد فصل الأطراف عن الجسد، وإزالة القلب، خاطوا ما بقى من جسد كول «بأقصى احترام» ممكن قبل إيداعه في البحر. ثم شرعوا في الأكل. حتى قبل إشعال النار، الرجال «التهموا بشراهة» القلب، ثم أكلوا «قطعاً صغيرة من اللحم». قطّعوا بقية اللحم إلى شرائح رفيعة، شووا بعضها على النار، وتركوا البقية لتجف في الشمس.

أكد تشايس على أنه «لم أجد لغة تكفي لوصف ما عصف بأرواحنا من ألم إثر تلك المعضلة المؤسفة». ما زاد الأمر سوءاً،

t.me/qurssan

كان فكرة أن أياً من الرجال المتبقين ربما يكون التالي في الدور. كتب الضابط الأول: «لم نعرف حينها من سيختاره القدر بعدها، إما بالموت من الجوع أو بالرصاص، ثم يؤكل مثل البائس التعيس الذي قضى لتوه».

في الصباح التالي اكتشفوا أن شرائح اللحم تحولت إلى لون أخضر متعفن. من فورهم قاموا بشوي الشرائح، التي كانت لتوفر لهم لحماً يدوم لستة أو سبعة أيام، ما كان ليسمح لهم بحفظ القليل المتبقي من الخبز لما وصفه تشايس «لحظات المحنة الأخيرة».

في الحادي عشر من فبراير، بعد خمسة أيام فقط من إعدام أوين كوفين في قارب القبطان بولارد، مات بارزيلاي راي. راي، الذي يعني اسمه الإنجيلي «صُنع من الحديد الصُلب النقي» كان في التاسعة عشر من عمره. تلك كانت سابع وفاة شهدها جورج بورلاد وتشارلز رامزديل مضطرين في فترة الشهر ونصف بعد مغادرة جزيرة هندرسون.

عند دراستهم لظاهرة إجهاد المعركة Battle fatigue إبان الحرب العالمية الثانية، اكتشف علماء النفس أن الجنود لا يعود بوسعهم متابعة عملهم في الوحدة -مهما كانت قوة بنيتهم الشعورية- إن خبروا خسائر تصل لـ75٪ أو أكثر. ما عانى منه بولارد ورامزديل كان حملاً مزدوجاً؛ لم يكن عليهما فقط رؤية سبعة من رفاقهم التسعة يموتون (بل إن واحداً منهم قتلوه بأنفسهم)، بل هم أيضاً اضطروا لأكل أجسادهم. مثل بيب، البحار الأسود في موبي-دِك الذي فقد عقله بعد عدة ساعات

من الخوض في مياه بحر مترامي الأطراف، بولارد ورامزديل «انساقوا أحياء إلى الأعماق العجيبة حيث أشكال غريبة من العالم الأولي العاري تنساب يمينا وشمالاً». باتا الآن وحيدين، ليس معهما إلا جثة بارزيلاي راي وعظام كوفين وريد ليقتاتا عليهما.

بعد ثلاثة أيام، في الرابع عشر من فبراير، اليوم الخامس والثمانين على مغادرتهم الحطام، أكل أوين تشايس وبينجامين لورنس وتوماس نيكرسون آخر بقايا إيزاك كول. إن أسبوعاً من التغذي على لحم الإنسان، بالإضافة إلى قرارهم السابق بزيادة حصتهم اليومية من الهارد-تاك، قد أعاد لهم بعضاً من القوة التي أعانتهم على التحكم في مجداف التوجيه مرة أخرى. لكن حتى مع تلك القوة القليلة، لم يزالوا يعانون من آلام فظيعة. وكأن الدمامل التي غطت جلودهم لم تكن كافية، فقد بدأت أطرافهم في التورم أيضاً. يحدث ذلك التشوه نتيجة لتراكم السوائل كعرض شائع للتضوّر جوعاً، ويُعرف بالاستسقاء Edema.

حملتهم الرياح الغربية التي استمرت عدة أيام إلى مقربة ثلاث مئة ميل من جزر مسافويرا Masafuera وخوان فرنانديز. وهم إن أبحروا ستين ميلاً في اليوم تقريباً، فلربما يبلغون النجاة في غضون خمسة أيام. لكن لسوء الحظ، لم يكن معهم من الهارد-تاك إلا ما يكفي لثلاثة أيام.

كتب تشايس: «بلغت الأمور الآن أقصاها، انعقدت الآمال كلها على النسيم، وجلسنا مرتجفين خائفين منتظرين استمراره، وانكشاف ما يخبئه لنا القدر». اقتنع الرجال، بعدما استسلموا

t.me/qurssan

لكل الاحتمالات، أنهم بعد شهرين ونصف من المعاناة، كانوا مقبلين على الموت على مرمى بصر من النجاة.

في هذه الليلة تمدد أوين تشايس لينام، «لا أكاد أبالي إن كنت سأرى النور مرة أخرى». حلم أنه رأى سفينة على بعد أميال قليلة، حتى أنه قرر «بذل كل نقطة دم حتى يصل إليها»، لكنها أبحرت مبتعدة في الأفق، بلا أمل في العودة. استيقظ تشايس وهو لا يزال تحت سيطرة نوبة الهياج التي انتابته في منامه، «ومذهولاً من قسوة المخيلة المريضة اليائسة».

في المساء التالي، رأى تشايس غيمة سميكة في الشمال الشرقي؛ علامة أكيدة على قرب الأرض. لا بدّ أنها جزيرة مسافويرا، أو على الأقل هذا ما قاله تشايس لنيكرسون ولورنس. فقد أكّد لهما أنهم في غضون يومين ستدب أقدامهم على يابسة. في البداية تردد رفيقاه في تصديقه، ثم بالتدريج، بعد «تأكيدات متعاقبة عن الصورة العامة الطيبة» من ناحية تشايس، « اكتسبت روحاهما درجة مذهلة من المرونة». ظلت الريح طيبة في الليل، وبأشرعة منصوبة بإحكام ومع أحدهم يعتني بمجداف التوجيه، انطلق قاربهم الصغير بأفضل شكل له منذ بدأت رحلتهم.

في الصباح التالي، لاحت الغيمة في الأفق القريب. بدا أن نهاية محنتهم على بعد أيام معدودة فحسب. لكن ضغط الترقب على ابن الخامسة عشرة توماس نيكرسون صار أكثر من قدرته على التحمل. فبعدما نزح الماء من القارب، وضع على نفسه قطعة قماش كالكفن، وقال لرفيقيه إنه «تمنى لو مات من فوره».

t.me/qurssan

كتب تشايس: «رأيته مستسلماً، فحاولت التحدث ببعض كلمات الاطمئنان والتشجيع»، لكن كل الحجج التي ساعدت الضابط الأول فشلت في اختراق ظلمة نيكرسون الداخلية. «ثبتت على محياه نظرة قنوط مترسخة. تمدد لبعض الوقت صامتاً حزيناً متجهماً ... شعرت حينها أن برودة الموت تزحف حثيثاً على جسده».

بات من الواضح لتشايس أن الفتى أصابته لوثة عقلية من نوع ما. ولكونه شهد إيزاك كول ينحدر إلى جنون شبيه من قبل، لم يملك تشايس إلا أن يتساءل إن كان اليأس محطة أساسية سيبلغها كل منهم. كتب: «كانت في أسلوبه جدّية مفاجئة غير مفهومة، فروّعني هذا، جعلني أخاف أني نفسي قد أُؤخذ على غفلة بوهن مشابه أو دوار، ما يمكن أن يفقدني عقلي وحياتي في آن واحد». وسواء كان ذلك قد انتقل إليه عبر لحم كول المريضٌ أو لا، فإن تشايس أيضاً شعر برعشة تمني الموت، جلية مظلمة، مثل الغيمة الماثلة أمامهم.

في السابعة من الصباح التالي، الثامن عشر من فبراير، فيما كان تشايس نائماً في قاع القارب، كان بينجامين لورنس واقفاً على مجداف التوجيه. على مدار محنتهم، أبدى موجّه القارب ذو الأعوام الإحدى والعشرين تجلداً جديراً بالإعجاب. كان هو الذي تبرع بالعوم تحت القارب قبل شهرين لإصلاح التسريب. وبينما شاهد بيترسون وكول، والآن نيكرسون، تتراخى قبضاتهمَ المتعلقة بالحياة، تشبث لورنس بأقصى ما لديه في الأمل.

t.me/qurssan

كان ذلك طبعاً مترسخاً في أسرته التي عرفت الشقاء. فجدّه جورج لورنس كان قد تزوج من جوديث كوفين، ابنة تاجر ميسور. ولسنوات عديدة كان آل لورنس جزءاً من مجتمع النخبة الكويكري على الجزيرة، لكن بحلول موعد وصول بينجامين إلى العالم، كان جدّه قد عانى من عدة انتكاسات مالية. فقرر العجوز الأبيّ مغادرة الجزيرة إلى الإسكندرية بولاية فيرجينيا حيث، وفقاً لما قال لأحد معارفه، سيكون بوسعه «الهبوط إلى طبقة أكثر تواضعاً بين الأغراب... بدلاً من البقاء في مكان يحمل فيه كل شيء ذكرى رخاء مفقود». عندما كان بينجامين في العاشرة، مات والده إبان رحلة إلى الإسكندرية، تاركاً لزوجته سبعة أبناء لتعيلهم.

قابعة بأمان في جيب لورنس، كانت قطعة الحبل التي كان يجدلها منذ مغادرتهم للحطام. وصارت الآن بطول اثنتي عشر بوصة تقريباً. ارتكن إلى مجداف التوجيه، وتأمل الأفق.

صاح: «ثمة شراع!».

هبّ تشايس من فوره على قدميه. على مدى الأفق الممتد أمامه، كانت ثمة بقعة ضئيلة باهتة اعتبرها لورنس شراعاً، حدق تشايس فيها لعدة لحظات مشحونة بالترقب، ليدرك بالتدريج أنها بالفعل شراع؛ شراع أعلى الصاري لسفينة تبعد سبعة أميال.

كتب تشايس: «لا أفهم كيف تكوّن لدي ذلك الشعور الجارف النقي بالسعادة والامتنان الذي سيطر على جوارحي في تلك المناسبة».

t.me/qurssan

وسرعان ما كان نيكرسون على قدميه محدّقاً أمامه بحماس.

السؤال الآن صار هل إنهم قادرون على اللحاق بسفينة أكبر منهم بكثير؟ السفينة كانت على بعد بضعة أميال في اتجاه الريح، وهذا ما كان في صالح القارب الأصفر، وتبحر في مسار شمال موقعهم الحالي بقليل، ما يعني أن بوسعهم اعتراض طريقها. هل يقدر قارب التحويت على بلوغ نقطة التقاطع التقريبية في الوقت ذاته الذي تفعل فيه السفينة؟ صلى تشايس أن لا يكون كابوس ضياع سفينة الإنقاذ نذير حقيقة. كتب: «شعرت حينها برغبة شديدة غير مفسّرة في الطيران مباشرة تجاهها».

على مدار الساعات الثلاث التالية، انطلقوا في سباق يائس محموم. انزلق قارب تحويتهم المتهالك القديم بخفة فوق الأمواج بسرعة تتراوح بين أربع وست عُقد، بصحبة نسيم شمال-غربي. أخذ شكل شراع السفينة أمامهم في الاتضاح التدريجي ببطء مؤلم فيما تقترب من الأفق البعيد، ظهر أولاً شراع أعلى الصاري، ثم الشراع العالي أسفله، ثم الشراع الرئيسي والشراع الأمامي. طمأنوا أنفسهم، لقد كانوا بالفعل يقتربون من السفينة.

لم يكن هناك من مراقب على رأس صاري السفينة، لكن في النهاية لمحهم أحدهم على السطح وهم يقتربون. بافتتان المسحورين، شاهد تشايس ورجاله هيئات كالنمل تهرول حول السفينة وتطوي الأشرعة. وبالتدريج قطع قارب التحويت المسافة الفاصلة، وأخذت ملامح هيكل السفينة التجارية تتشكل وسط

t.me/qurssan

البحر، وراحت تكبر وتكبر، حتى استطاع تشايس أن يقرأ على الواحها الاسم؛ كانت الهندي اللندنية.

سمع تشايس صيحة، وبعينيه اللامعتين الحمراوين رأى احدهم في الربع الخلفي يزعق في بوق، وهو أداة للنداء تقوم بدور مكبر الصوت. كان ضابط الهندي، يسألهم عن هويتهم. استجمع تشايس كل قوته ليخرج صوتاً مسموعاً، لكن لسانه الجاف تعثر بالكلمات: «إسّكس... حوّاتة... نانتوكت».

حكايات الناجين من حطام السفن مليئة بأنباء قباطنة رفضوا استقبالهم على سفنهم. في بعض الحالات، تردد الضباط في مشاركة مواردهم الشحيحة أصلاً، في بعض آخر، منعهم الخوف من احتمال إصابة الناجين بأمراض معدية. لكن ما أن أوضح تشايس أنهم كانوا ناجين من حطام، حتى أصر قبطان الهندي فوراً على اصطحابهم معه.

عندما حاول تشايس ولورنس ونيكرسون التسلق للصعود، اكتشفوا أن قوتهم لا تسمح لهم بذلك. تطلّع الرجال الثلاثة من الأسفل إلى طاقم الهندي. عيونهم كانت بارزة من التجاويف المظلمة في جماجمهم، جلودهم المتقرحة كانت متدلية من هياكلهم العظمية مثل خرق ممزقة. وما أن رآهم من سطح الربع الخلفي، حتى غلبت القبطان ويليام كروزيير الدموع، مما قال عنه تشايس: «أكثر صور المعاناة بؤساً وأسى وإثارة للشفقة».

رفع البحارة الإنجليز الرجال من قاربهم وحملوهم إلى قمرة القبطان. أمر كروزيير الطباخ أن يقدم للرجال أول مذاق لهم من طعام المتحضرين؛ بودنغ التابيوكا. كانت التابيوكا، المصنوعة من

t.me/qurssan

جذور نبات الكاسافا، طعاماً غنياً بالسعرات الحرارية وسهل الهضم وغنياً بالبروتين والكربوهيدرات، كلها عناصر تصرخ أجسادهم طلباً لها.

النجدة جاءت عند دائرة عرض '54 °33 جنوباً وخط طول '03 °81 غرباً، في اليوم التاسع والثمانين من مغادرة تشايس ورجاله لحطام الإسكس. وفي ظهيرة اليوم نفسه التقطت أعينهم جزيرة مسافويرا. لقد نجح تشايس في الإبحار بهم 2500 ميل في المحيط المفتوح بدقة مذهلة. برغم أنهم مرّت عليهم أوقات كانوا فيها اوهن من أن يوجّهوا قاربهم، إلا أنهم بشكل ما استطاعوا الإبحار تقريباً إلى نطاق رؤية وجهتهم المقصودة. في غضون بضعة أيام ستكون الهندي في ميناء فالبارايسو بتشيلي.

قطرت السفينة خلفها قارب التحويت الذي كان خير عون للنانتوكتيين. تمنى القبطان كروزير أن يبيعه في فالبارايسو محصلاً بعض الأموال لهم. لكن في الليلة التالية، هبت عاصفة شديدة، وعندما أمسى القارب بلا ركاب لأول مرة منذ ثلاثة أشهر، ضاع.

على بعد ثلاث مئة ميل في الجنوب، أبحر بولارد ورامزديل. وتابعوا المضي شرقاً طوال الأيام الخمسة التالية حتى الثالث والعشرين من فبراير، اليوم الرابع والتسعين على مغادرتهم الحطام، وكانوا يقتربون فيه من جزيرة سانتا ماريا قبالة ساحل تشيلي، تلك التي كانت قبل سنة، أول أرض توقفت فيها الإسكس بعد الدوران حول كيب هورن. كان بولارد ورامزديل على حافة استكمال دائرة غير منتظمة قطرها يزيد عن ثلاثة آلاف ميل.

t.me/qurssan

مر على وفاة بارزيلاي راي حينها اثنا عشر يوماً، وكانا قد أكلا آخر فتات لحمه منذ وقت طويل. كسر الرجلان المتضوّران عظام رفاقهما -بضربها على صخرة في قاع القارب وتحطيمها ببلطة القارب- وأكلا النخاع الذي احتوى على الدهون التي يحتاجها جسداهما بشدة.

سيتذكر بولارد لاحقاً تلك كـ «أيام الرعب والقنوط». كان كلاهما على درجة من الوهن لا تسمح له إلا بتحريك يديه بالكاد. وكانا يهيمان بين الوعي واللاوعي. لم يكن من غير المعتاد بين الضائعين في البحر، الذين عانوا لأيام طويلة جسدياً ومعنوياً، أن يقعوا في ما يُطلق عليه «نوع من الهذيان الجماعي»، حيث فيه يتواجد الناجون في عالم خيالي مشترك. قد تتضمن الأوهام مشاهد مطمئنة من البيت، ربما في حالة بولارد ورامزديل كان المشهد يوماً مشمساً من يونيو في ساحات نانتوكت العامة، إبان مهرجان جزّ صوف الأغنام. ربما ينخرط الناجون في محادثات مع متوفين من رفاق سفينتهم أو من أفراد أسرهم، بعد أن كانوا قد فقدوا كل إحساس بالوقت.

صارت العظامُ -الهدية التي تركها خلفهم الرجال الذين رافقوهم وأحبوهم- هاجسَ بولارد ورامزديل؛ قاما بتحشية جيوبهما بعظام الأصابع، وقاما بامتصاص النخاع من الأضلع والأفخاذ المكسورة. وتابعا الإبحار، بإبرة بوصلة تومئ صوب الشرق.

فجأة، سمعا صوت رجال يصيحون، ثم ساد الصمت عندما وقعت عليهم الظلال، بعدها سمعا حفيف الريح المارة بين

t.me/qurssan

الأشرعة، وصرير الصواري والحبال. نظرا لأعلى، وكانت هناك وجوه.

من بين طاقم الدوفين الواحد والعشرين، كان هناك ثلاثة وامبانواجيين على الأقل -ديمون بيترز وأسنونكيتس وجوزيف سكويب- من كيب كود وجزيرة مارثاز فينيارد. وقد تعلموا في طفولتهم، أسطورة عن نشأة نانتوكت؛ إذ قبل مجيء الأوروبيين بزمن بعيد، ظهر نسر عملاق فوق قرية في كيب كود. كان النسر يهبط من السماء منقضّاً، فيحمل طفلاً صغيراً بين مخالبه، ويطير مختفياً فوق المياه جنوباً. في النهاية، طلب القرويون من عملاق طيب يُدعى ماوشوب أن يبحث عن المكان الذي يحمل النسرُ إليه أطفالهم. مضى ماوشوب جنوباً خائضاً في المياه، حتى بلغ جزيرة لم يرَها من قبل. بعد البحث في أرجاء الجزيرة، وجد عظام الأطفال في كومة عالية تحت شجرة عملاقة.

في صباح الثالث والعشرين من فبراير، عثر رجال الدوفين على اكتشاف شبيه. من غابة الصواري والأشرعة نظروا للأسفل، فوجدوا رجلين في قارب تحويت مليء بالعظام.

لم يكن الرجلان يختلفان كثيراً عن الهياكل العظمية، والقصة التي ستتناقلها السفن في الشهور المقبلة ستقول إنهم «عُثر عليهما وهما يمتصّان عظام رفاقهما الميتين المتناثرة في القارب، التي كرها أن يتخليا عنها». أمر زيمبري كوفين قبطان الدوفين رجاله بإنزال قارب وجلب الرجلين. مثل تشايس ولورنس ونيكرسونَ قبلهما، كان بولارد ورامزديل أضعف من أن يقفا، فصار على المُنقذين أن يحملوهما إلى سطح سفينة التحويت.

t.me/qurssan

كـان الرجـلان، بحـسب كلمـات أحـد الشـهـود، «في أسوأ حـال» عندمـا اعتليا السـفينة لأول مـرة. لكن بعد أن قُدم لهمـا الطعام، تعافى بولارد بشكل مذهل.

في الخـامـسـة من مـسـاء ذلك اليوم، مـرت الدوفين بسـفينة التـحـويت ديانا من نيـويورك. انضم قـبطان ديانـا أرون باداك، العـائد من رحلة تحـويت مـوفقـة، للقبطان كوفين على العشـاء. وكان معهما أيضاً جورج بولارد الابن، قبطان الإسّكس سابقاً.

ومثل كثير من الناجين، كان يحرك بولارد دافعٌ قسري يائس لأن يحكي قصـتـه. بالضبط مثلمـا كان بحّار قصيدة كولريدج العجوز الهزيل جاحظ العينين يصبّ كل تفصيلة مروعة صباً على ضيوف العرس، كذا فعل بولارد، وأخبرهم بكل شيء: كيف هوجمت السفينة «بشكل متعمد» من قبل حوت عنبر ضخم، وكيف توجهوا جنوباً في قوارب التحويت، وكيف هوجم قاربه مرة أخرى، هذه المرة من قبل «سمكة غير معروفة»، وكيف عثروا على جزيرة «لم يكن فيها قوت إلا القليل من السمك والطيور»، وأخبرهم أن لا يزال هناك ثلاثة رجال على تلك الجزيرة. أخبرهم كيف أنهم تولّوا عن جزيرة إيستر، وأن ماثيو جوي كان أول من مات، وأخبرهم كيف انفصل قارب تشايس عنهم في الليل، وكيف أصبح أربعة رجال سود، في تتابع سريع، «طعاماً للبقية». ثم أخبرهم كيف أنه ورجاله، بعد الانفصال عن قارب الضابط الثاني، «أرغمتنا الحاجة إلى الانحدار لدرجة الاقتراع». وأخبرهم كيف وقعت القرعة على أوين كوفين، «الذي بمنتهى الثبات والتماسك، استسلم لمصيره». أخبرهم في النهاية بموت

t.me/qurssan

بارزيلاي راي، وكيف أبقته ورامزديل جثة راي على قيد الحياة.

لاحقاً في تلك الليلة، ما أن عاد إلى ديانا، كتب القبطان باداك كل شيء، واصفاً حكاية بولارد بأنها «أكثر القصص التي عرفتها في حياتي إيلاماً». السؤال الآن صار: ما الذي سيؤول إليه حال الناجين تحت ظلال قصتهم المعتمة؟

t.me/qurssan

الفصل الثالث عشر
العودة إلى الوطن

في الخامس والعشرين من فبراير عام 1821، بلغ تشايس ولورنس ونيكرسون فالبارايسو، ميناء تشيلي الأضخم، الذي يقع على تلّ منحدر يواجه خليجاً واسعاً. في أي وقت آخر كانت حكاية الإسكس ستستحوذ على اهتمام المدينة. لكن في فبراير ومارس من ذلك العام، كان مواطنو فالبارايسو في انتظار محموم للأخبار القادمة من الشمال. فبعد أن حصدت القوات الثورية الاستقلال من الإسبان، كانت تحاصر الملكيين في ليما. كانت بيرو هي من تستأثر بانتباه مواطني فالبارايسو، لا الناجون الأمريكيون، ممّا سمح لرجال الإسكس بالتعافي في خصوصية نسبية.

منذ البداية تكلم تشايس والاثنان من رجاله بصراحة عن اضطرارهم للكانيبالية. ويوم وصول النانتوكتيين، سجّل مسؤول سجلات دخول السفن وخروجها الرسمية في الميناء، أن قبطان الهندي قد انتشل ثلاثة رجال «نجوا بقليل من الماء والبسكويت... وبجثة زميل لهم توفى ثم أكلوه في غضون ثمانية أيام».

كانت الفرقاطة الأمريكية كونستيليشن راسية في فالبارايسو، وتولى هنري هيل القائم بأعمال القنصل الأمريكي نقل تشايس ولورنس ونيكرسون إليها. ورغم مضي أسبوع على

t.me/qurssan

إنقاذهم، فإن هيئاتهم لا تزال تمثل مشهداً مؤثراً. كتب العميد البحري تشارلز جودوين ريدجيلي قائد الكونستيليشن: «كانت أشكالهم مفجعة بحقّ؛ فقد برزت عظامهم من جلودهم، وكانت سيقانهم وأقدامهم في غاية الصغر، وغطت القروح أجسادهم بالكامل». وضع ريدجيلي الرجال الثلاثة تحت عناية جراحه الخاص د. ليونارد أوزبورن، الذي أشرف على تعافيهم في مشفى الفرقاطة القابع في أعماق الربع الأمامي من الطابق الثالث للسطح. ربما كان ذاك المكان حاراً مكتوم الهواء، لكن بالنسبة للرجال الثلاثة الذين قضوا تسعة وثمانين يوماً متعاقبة تحت السماء المفتوحة، كان غاية في الراحة.

تأثر طاقم الكونستيليشن بمعاناة تشايس ورجاله بعمق، لدرجة أن كل بحّار منهم تبرع بدولار لمساعدتهم. عندما حسب تشايس الأموال التي جُمعت من الأمريكان والإنجليز المقيمين في فالبارايسو، كان المجموع أكثر من 500 دولار، للمساعدة في نفقات نقاهتهم.

لكن معاناة الرجال لم تنته بعد. ومثلما كشفت تجربة التضوّر جوعاً في مينيسوتا عام 1945، فإن فترة التعافي كانت مرحلة من العذاب. إذ وبعد ثلاثة أشهر، ظل عدد من متطوعي مينيسوتا دون استرداد أوزانهم الطبيعية، رغم استهلاكهم لما يزيد عن خمسة آلاف سعرة حرارية يومياً. كانوا يأكلون حتى لا يعود في معِداتهم مكان، ولكن الجوع لا يذهب. استمر الكثير منهم فيَ الأكل بين الوجبات. لم يستعيدوا أوزانهم السابقة إلا بعد ستة أشهر من «الأكل الخارق للطبيعي».

t.me/qurssan

الناجون من الإسكس كانوا في حال أسوأ بكثير من متطوعي تجربة مينيسوتا. فبعد ثلاثة أشهر من الضرر، لم تعُد أجهزتهم الهضمية قادرة على التعامل مع زيادة كميات الطعام، وهي مشكلة عرفها أيضاً قبطان البيجي ديفيد هاريسون عام 1769. فعقب إنقاذه، قُدم لهاريسون حساء الدجاج. كانت قد مرّت سبعة وثلاثون يوماً منذ تحركت أمعاؤه لآخر مرة، فبعدما شرب بعضاً من الحساء، انتابه ألم قاسٍ في معدته. كتب هاريسون: «في النهاية، ارتحت بعدما أخرجتُ كتلة متصلبة بحجم بيضة الدجاجة، واستمتعت بسكينة الجسد الذي لا يتحمل كل أمراضي، التي لم أعرف مثلها قبل بضعة أسابيع».

في اليوم الذي تلى وصولهم إلى فالبارايسو، تلقى تشايس ورجاله زيارة من الحاكم الذي سمع إشاعات مفادها أنهم لم يكونوا ناجين من حطام سفينة، بل أن الضابط الأول قتل قبطان الإسكس في عصيان دموي. كتب نيكرسون: «إذ كان ثمة همس في الأنحاء أننا كنا من الأشقياء». طمأنت قصة تشايس الحاكم بما يكفي ليسمح للنانتوكتيين بالتجوال بحُريّة في أرجاء المدينة، ما أن يصيروا قادرين على ذلك.

بعد أسبوع ونصف، في التاسع من مارس، وصلت إلى فالبارايسو سفينة التحويت النانتوكتية هيرو. بينما كان طاقمها يُقطّع حوتاً قبالة جزيرة سانتا ماريا، هوجمت السفينة من قبل قراصنة أسبان. احتجز القراصنة الربان وصبيّ المقصورة على الشاطئ، وحبسوا بقية الطاقم تحت سطح السفينة، وشرعوا في نهب السفينة. عندما ظهرت سفينة أخرى في المرفأ، تراجع

t.me/qurssan

القراصنة إلى الشاطئ مؤقتاً، ممّا سمح للضابط الأول أوبيد ستاريك بكسر باب القمرة واستعادة السيطرة على السفينة. أمر ستاريك رجاله بفرد الأشرعة، ورغم أن القراصنة اقتربوا حتى صاروا على مقربة ياردات من الاستيلاء على سفينتهم، فقد استطاع النانتوكتيون بلوغ برّ الأمان.

ورغم درامية حكايتها الخاصة، إلا أن هيرو كانت محملة بأنباء أكثر حساسية. مع ضابط أول يلعب دور الريان، فقد قابلت هيرو ثلاث سفن تحويت تبحر متجاورة مثل مجموعة أصدقاء؛ الدوفين، وديانا، والأخوين. أخبر زيميري كوفين قبطان الدوفين ستاريك أن على متن سفينته قبطان الإسّكس وأحد رجالها. وسرعان ما نُقل بولارد ورامزديل إلى الأخوين، التي كانت متوجهة إلى فالبارايسو، ووصلت في السابع عشر من مارس.

آخر مرة رأى فيها الناجون الخمسة بعضهم كانت في ليل الثاني عشر من يناير، على بعد أكثر من ألفي ميل عن اليابسة، عندما تقطعت بهم السبل بسبب عاصفة هوجاء. منذ ذلك الوقت، مات اثنان من رجال تشايس وأربعة من رجال بولارد وثلاثة من رجال جوي (تحت قيادة هيندريكس)، قبل أن يختفي قارب الضابط الثاني والرجال الثلاثة المتبقين فيه. النانتوكتيون فقط هم من خرجوا من قاربي تشايس وبولارد أحياء.

لقد عرفوا جميعاً أشدّ العذاب، لكن بولارد ورامزديل - اللذين عُثر عليهما متشبثين بعظام رفاقهما الموتى- هما أكثر من اقترب من حافة التفكّك النفسي الكامل. ومن بين الاثنين، ربما

t.me/qurssan

كان بولارد هو الأكثر معاناة. فقبل عام ونصف العام، كانت خالته قد وضعت تحت عنايته وحمايته ابنها الأكبر، أوين. لكن بولارد لم يشرف فقط على إعدام ابن خالته، بل أكل لحمه أيضاً، أي شارك فيما سماه أحد مؤرخي الكانيبالية في البحر «شهوة أكل المحارم».

أظهر بولارد قوة تحمّل مذهلة بعد إنقاذه، لكن حاجته الملحّة لسرد حكايته كادت أن تقتله. بعد تلك الليلة بوقت قليل، عانى من انتكاسة. وعندما عرض ويليام كوفين النانتوكتي، قبطان سفينة (النسر)، على نُجاة الإسّكس أن يحملهم معه للوطن، اعتُبر بولارد أضعف من أن يتحمل رحلة حول كيب هورن. في الثالث والعشرين من مارس، ودع تشايس ونيكرسون ولورنس ورامزديل قبطانهم، وانطلقوا إلى نانتوكت. في مايو، بعد شهرين من التعافي والتأمل المنعزل، تبعهم بولارد على متن سفينة الأخوين.

في الآن ذاته، شرع العميد ريدجيلي قائد الكونستيليشن في التجهيز لإنقاذ تشابل وويكس ورايت من –مثلما قيل له– جزيرة دوسي. كانت فالبارايسو قد استقبلت مؤخراً سفينة سوري، وهي سفينة تجارية من أستراليا محملة بخمسين ألف بوشل[1] من القمح. وافق قبطانها، توماس راين، على التوقف في رحلة العودة عند جزيرة دوسي، ليلتقط رجال الإسّكس الثلاثة، بافتراض أنهم لا يزالون على قيد الحياة بالطبع.

(1) البوشل: مكيال إنجليزي للحبوب، 1 بوشل = 25.4 كغم. [المترجم]

t.me/qurssan

انطلقت سوري من أمريكا الجنوبية في العاشر من مارس، ووصلت جزيرة دوسي بعد أقل من شهر، فقط ليجدوا جزيرة مرجانية مقفرة. كان الشاطئ يعج بأعشاش الطيور لدرجة أنه كان من المستحيل المشي عليه دون دهس البيض. قرر راين أن أحداً لم يطأ هذا الحلقة المرجانية منذ أمد بعيد.

درس دليل الملاحة، ثم تساءل إن كان ضباط الإسّكس ربما حسبوا جزيرة أخرى تقع على بعد مئتي ميل غرباً على أنها دوسي. بعد عدة أيام، في التاسع من أبريل، صارت جزيرة هندرسون في مدى البصر. اقتربوا منها من الشرق، وتتبعوا شريطها الساحلي إلى الشمال. وما أن داروا حول رأسها الصخري، حتى وجدوا «خليجاً واسعاً» في الغرب. أمر راين رجاله بإطلاق النار.

في هذه اللحظة، كان تشابل وويكس ورايت قد جلسوا لتوهم لالتهام طائر استوائي. وباستثناء بعض التوت والمحار، كان البيض والطيور هي كل الطعام المتبقي على هندرسون. اختفت سرطانات البحر تماماً. كان الرجال قبل عدة شهور قد استطاعوا القبض على خمس سلاحف خضر، لكن في الوقت الذي استغرقوه لأكل أولاها، فسد لحم الأربع الأخرى. وعلى مدار الشهور الأربعة المنقضية، صار العثور على الطيور الاستوائية في غاية العسر، لذا، كان الطائر الذي جلسوا ليأكلوه الآن، بالنسبة لهم وليمة عامرة. لكن الطعام لم يكن همهم الرئيسيَ، فلا يزال أكثر ما يحتاجونه هو الماء.

منذ اليوم الذي غادر فيه رفاقهم السبعة عشر، لم يبرز نبع

t.me/qurssan

المياه العذبة مرة أخرى فوق خط المد. كان بوسعهم ساعة الجزر رؤية المياه العذبة تبقبق خارجة من الصخرة تحت سطح البحر، لكنها ظلت طوال مدة مكوثهم على الجزيرة مغطاة بالمياه المالحة.

وبدافع من اليأس، حفر ثلاثتهم عدة آبار، لكنهم لم يصلوا قطّ للمياه الجوفية. عندما هطل المطر، كانوا يجمعون المياه المتجمعة في تجاويف الصخور القريبة بشراهة. أدى الجفاف إلى تورم ألسنتهم وتشقق شفاههم. وبعد خمسة أيام متواصلة بلا ماء، امتصوا كارهين دماء طائر استوائي، لكنهم وجدوا أنه تسبب لهم في «سقم كثير». إبان بحثهم المحموم في الكهوف والشقوق عن الماء، اكتشفوا بقايا جثث ثمان بلا هوية، وخافوا من أن يشاركوهم قريباً ذات المصير. تمددت الهياكل العظمية متجاورة، وكأن أصحابها قرروا الاستلقاء بهدوء والموت معاً. بالنسبة لتشابل، الذي كان دوماً الأكثر جموحاً بين رجال الإسّكس، ساعد ذلك المشهد في تغيير حياته. فمنذ ذلك اليوم وصاعداً سيتجه إلى الربّ. كتب لاحقاً: «وجدت أن الدين ليس فقط مفيداً، بل ذا ضرورة قصوى في تمكيني من تحمل هذه الاختبارات القاسية».

عندما جلس تشابل وويكس ورايت حول وليمة الطائر الاستوائي، سمعوا انفجاراً بعيداً، خمّنوا أنه رعد، لكن أحدهم قرر الذهاب إلى الشاطئ لتفحص الأمر. لاحقاً، سيخبر بما حدث عندما رأى السفينة. «الرجل المسكين» بحسب حكاية أحد أفراد طاقم سوري «غلبته المشاعر التي يولدها مشهد كهذا في الصدر، لم يستطع حتى أن يذهب فيشارك الأخبار الطيبة مع

t.me/qurssan

رفاقه». لكن في النهاية، جاء رفيقاه بعد أن غلبهما الفضول، وانضما إليه على الشاطئ.

كانت الأمواج العالية تتكسر على الحافة المرجانية المحيطة بالجزيرة. حاول طاقم سوري عدة مرات الرسو بقارب، لكن اتضح لهم ما في ذلك من خطورة. وقف الرجال الثلاثة على الشاطئ، فيما خوفهم من أن يقرر منقذوهم هجرهم كان في تصاعد. في النهاية قام تشابل، أقوى الثلاثة والوحيد الذي يعرف العوم، بالغطس في المياه. كانت ذراعاه هزيلتين، لكن الأدرينالين الذي عصف في عروقه أوصله للقارب، وحملوه إلى سطحه.

تناقش طاقم سوري فيما عليهم فعله الآن. ربما عليهم العودة في اليوم التالي. لكن تشابل رفض هجر رفيقيه ولو حتى مؤقتاً. وبحبل معقود حول وسطه، غطس في المياه وعام عائداً إلى الشاطئ المرجاني. واحداً تلو الآخر، سُحِب الرجال الثلاثة إلى القارب. كانت قد أصابتهم العديد من الجروح والكدمات من الشعاب المرجانية، لكنهم جميعاً بلغوا سوري أحياء.

خمن القبطان راين أن ثلاثتهم كانوا سيموتون إن قضوا شهراً آخر على الجزيرة. كانت ملابسهم خرقاً ممزقة، وكان من بين ثلاثتهم سروال واحد فقط. وبشكل ما، استطاع أحدهم الاحتفاظ بشهادة البحار خاصته، وعليها احتفظ بسجل لأيامهم على هندرسون. أخبروا راين أن القبطان بولارد ترك عدة رسائل مثبتة في شجرة، وفي اليوم التالي استطاع راين أن يرسو ببعض رجاله ليستعيدوا الخطابات.

***

t.me/qurssan

يتبقى من رجال الإسّكس ثلاثة أفراد من طاقم قارب الضابط الثاني، لم يتضح مصيرهم بعد: أوبيد هيندريكس وجوزيف ويست ووليام بوند، الذين افترقوا عن قارب بولارد في ليلة التاسع عشر من يناير. بعد شهور طويلة من بحث القبطان راين في جزيرة دوسي، الحلقة المرجانية شرق هندرسون، وطئتها سفينة أخرى. اكتشف طاقمها قارب تحويت ألقته الأمواج على شاطئها الجاف، في جوفه أربعة هياكل عظمية. في عام 1825، ربط قبطان البحرية الإنجليزية فريدريك ويليام بيتشي، الذي زار كلاً من هندرسون ودوسي؛ بين القارب الشبحي ذي العظام وقارب الإسّكس الضائع. إن كان ذلك قارب الضابط الثاني، فهياكله العظمية هي هياكل هيندريكس وويست وبوند وربما زاياه شيبارد، آخر من مات من الطاقم قبل الانفصال عن بولارد، فالقارب إذن قد انجرف أكثر من ألف ميل، ليستقر في النهاية على مسافة يوم من حيث بدأوا في السابع والعشرين من ديسمبر 1820.

بين 1820 و1821، فيما كان يعاني طاقم الإسّكس شرقاً تحت الشمس الحارقة، كان أقاربهم في نانتوكت يمرون بواحد من أبرد فصول الشتاء في تاريخ الجزيرة. ففي اليوم الذي غادرت فيه قوارب التحويت الثلاثة جزيرة هندرسون، سجّل المؤرخ النانتوكتي أوبيد مايسي في يومياته أن المرفأ كان يغطيه «ثلج كالثريد». بحلول السابع من يناير كان المرفأ متجمداً بالكامل. امتد الثلج شمالاً نحو البرّ الرئيسي أيضاً وغطّاه على امتداد البصر. كان المخزون من الطعام وحطب المدافئ قليلاً إلى

درجة مُنذرة. أراضي الجـزيرة النائيـة اختفقت تحت ستـة أقدام من الثلج، ما جعل إيجاد العشب لرعي الغنم شبه مستحيل. خمن مايسي أن نصف قطيع الجـزيرة على الأقل، البـالغ تـعداده تسعة آلاف خروف، سيكون قد مات بحلول الربيع.

يوم الثـالث عـشـر من ينـاير، انطلق سـتـة رجـال من مـارثا فينيـارد، بعـدمـا كـانوا عـالقين في نانتوكت ويائسين من عـودتهم لأُسـرهم، في قـارب تحويت مـن الشـاطئ الجنوبي، حيث سـمـعت حـركـة الأمواج بممـر مـائي مـفتوح. ظلت الرياح مـعتدلة في ذلك اليوم، وساد بين النـاس اعـتقـاد متفائل أن أولئك الفينيـارديين ربما يكونون قـد وصلوا بيـوتهم آمنين. لكن لا يوجد أي سـجل يؤكد أو ينفي هذا الاعـتـقـاد. في الخـامس والعـشـرين من ينـاير انخفضت درجة الحـرارة اثنتي عـشـرة درجـة تحت الصـفـر، أقل درجـة في تاريخ الجـزيرة. كـتب مـايسي: «لم يسـتطع أغلب النـاس، خـاصة الكبـار منهم، إلا البقاء في الأسرّة».

انضم أربعة رجـال إضافيين إلى الحراسـة الليلية في المدينة ومع اكـتظاظ كـامل سكان المدينة تـقـريبـاً فـي البنايات الخـشبية القديمة، ذات المدافئ المشـتعلة ليلاً ونهـاراً، كان هناك خطر كبير بوقوع مـا أطلق عليه مـايسي «حـريق كـارثيّ». مـا يضيـف للخطر هو الكمـيـات الهـائلة من زيت العنبـر الكامنة في مـخـازن الجـزيرة ذلك الشتاء. أشار مايسي إلى أن التجار أخذوا في اعتبارهم «كل حرص ممكن لحفظ [الزيت] بعيداً عن النار».

أخـيـراً، ومع بداية فـبـراير، ارتفـعـت الحـرارة فـوق درجـة التجـمد، وبدأ المطر في الهطول. كتب مـايسي: «سـرعـان مـا ذاب

t.me/qurssan

..ام والجليد، وأعاد الحياة للأعمال شتى. بدأ الرجال والمراكب ..ين كانوا محبوسين هنا لأسابيع في التحرك، مثل أسرى نالوا ..بنهم من السجن. والذين كانوا في غاية الترقب للخروج بدأوا .ي استخراج مراكب البريد [من الثلج]». في صباح الرابع من ..راير، حمل مركب البريد الذي خرج من نانتوكت «أكبر حمولة ..ها، خرجت من نانتوكت دفعة واحدة على الإطلاق». في السابع ..شر من فبراير، قبل إنقاذ تشايس بيوم، وصلت المدينة عدة ..راكب محملة بالذرة والتوت البري والتبن ولحم الخنزير الطازج ..اللحم البقري والديوك الرومية والتفاح وعصير التفاح والسمك ..المجفف. لقد انتهت الأزمة.

لم يكن لدى أُسر طاقم الإسّكس أيّ سبب للقلق على أبنائهم ..لال الشتاء والربيع. الخطابات المرسلة من مكتب بريد ..الاباغوس على جزيرة تشارلز في نهاية أكتوبر، لم تكن لتبلغ ..انتوكت قبل فبراير أو مارس على الأقل. كانت تتحدث عن رحلة ..حويت عادية بلغت منتصفها، مع تمنيات بموسم مثمر في الأرض البحرية، ما قد يسمح لهم بالعودة إلى البيت مع صيف 1822.

ما لم يعرفه أهل نانتوكت حينها، كان أنه منذ نهاية فبراير، ..دات موجة من الرعب تتفاقم تدريجياً في صناعة صيد الحيتان، ومع انتقال قصة الإسّكس من سفينة إلى أخرى، عابرة طريقها حول كيب هورن وصاعدة الأطلنطي إلى أعلى ناحية ..انتوكت. على قمة تلك الموجة كانت سفينة النسر، وعلى متنها ..تشايس ولورنس ونيكرسون ورامزديل. لكن قبل وصول النسر إلى ..انتوكت، وصلها خطاب يحكي عن الكارثة.

t.me/qurssan

مكتب بريد الجزيرة كان في الشارع الرئيسي، وما أن وصل الخطاب حتى قُرئ هناك أمام حشد كبير. ابن الجزيرة فريدريك سانفورد كان معاصراً لمراهقي الجزيرة الذين كانوا على متن الإسكس، ولن ينسى أبداً ما رآه وسمعه ذلك اليوم. ووفقاً لسانفورد، فقد حكى الخطاب عن «معاناتهم في القوارب، واكلهم لبعضهم. بعض منهم كانوا رفاقي في المدرسة». وبرغم السمعة النانتوكتية للرزانة الكويكرية، إلا أن الناس المتجمعين أمام المكتب لم يقدروا على إخفاء عواطفهم. كتب سانفورد: «هيمنت تلاوة [الخطاب] على الجميع، و[بكوا] في الشوارع».

اتضح لاحقاً أن ما حواه الخطاب كان قصة غير مكتملة للمأساة. فقد وجد بولارد ورامزديل النجدة بعد أسبوع من طاقم قارب تشايس، لكن حكايتهما، التي انتقلت من حوّاتة إلى أخرى، هي أول ما بلغ الوطن. ذكر الخطاب ثلاثة رجال ظلوا على جزيرة، ولم يعط أي أمل بخصوص أيّ ناج آخر. هكذا ساد الاعتقاد أن بولارد ورامزديل هما الوحيدان الباقيان على قيد الحياة من النانتوكتيين.

في الحادي عشر من يونيو، وصلت النسر الحاجز النانتوكتي. كتب تشايس: «تلقّت أسرتي أشدّ الأنباء قسوة عن غرق السفينة، وفقدوا كل أمل في حياتي». لكن بجوار رامزديل لم يكن جورج بولارد، وإنما ثلاثة أشباح: أوين تشايس وبينجامين لورنس وتوماس نيكرسون. وبدلاً من دموع الأسى نزلت دموع الفرحة والتعجب. كتب تشايس: «مثولنا غير المتوقع كان محلّ ترحيب مصحوب بكثير من الشكر والامتنان للخالق الرحيم،

t.me/qurssan

الذي أرشدني في الظلام والظلمة والمأساة والموت، وأعادني إلى حضن بلدي وأصدقائي».

اكتشف تشايس أنه صار أباً لابنة اسمها فيبي آن بلغ عمرها أربعة عشر شهراً. بالنسبة لبيجي، زوجة تشايس، كان المشهد مثيراً للمشاعر، زوجها الذي حسبته ميتاً يحمل ابنتهما ذات الوجنتين الممتلئتين بين ذراعيه العظميّتين المتقرّحتين.

المجتمع النانتوكتي كان متأثراً أيضاً. اوبيد مايسي، كاتب التاريخ النانتوكتي الموسوس بالتفاصيل، اختار أن لا يذكر الكارثة في يومياته. ورغم أن مقالات عن الإسكس سرعان ما وجدت طريقها لصحيفة نيو بيدفورد ميركيوري، إلا أن صحيفة نانتوكت الوليدة الإنكوايرير لم تكتب عن المأساة ذلك الصيف. وكأن النانتوكتيين رفضوا التمسك برأي عن الأمر حتى يتسنى لهم السماع من قبطان الإسكس، جورج بولارد الابن.

كان عليهم الانتظار حوالي شهرين، حتى الخامس من اغسطس، عندما عاد بولارد إلى الجزيرة على متن الأخوين. أول من رأى الحوّاتة كان المراقب أعلى برج الكنيسة الأبرشانية. وما أن انتشر الخبر في الأزقة ومتاجر الكحوليات والمخازن ومستودعات الحبال والأرصفة، حتى احتشد جمع غفير وبدأ يشق طريقه إلى التل المقابل للشاطئ الشمالي. إذ يمكنهم من هناك رؤية السفينة السوداء المنهكة، الثقيلة بما تحمله من زيت، أشرعتها مضمومة، وراسية عند الحاجز النانتوكتي. كانت سفينة الأخوين، التي تزن 222 طناً، أصغر مما كانت عليه الإسكس، وما أن تخفّفت من بعض حمولة الزيت، حتى عبرت الحاجز مع

t.me/qurssan

ارتفاع المد، وأبحرت تجاه مدخل مرفأ المدينة. اندفع الحشد إلى الواجهة البحرية، وسرعان ما صار على الأرصفة أكثر من 1500 شخص مترقبين الوصول.

وصول حوّاتة -أية حوّاتة- كان ما عدّه أحد النانتوكتيين «من أهم أحداث حياتنا». من خلالها كان الناس يعرفون أخبار أحبائهم: أبنائهم وأزواجهم وآبائهم وأعمامهم وأخوالهم وأصدقائهم، الذين يعملون في الجانب الآخر من العالم. وبما أن أحداً لا يعرف أية أخبار قد تحمل الحوّاتة، فقد مال سكان الجزيرة الذين يرحبون بالسفن عادة إلى إخفاء تلهفهم وقلقهم خلف قناع من الرصانة. قال نفس النانتوكتي معترفاً: «نشعر في هذه اللحظات بمزيج فريد من الحزن والفرح، لا نعرف بالضبط إن كان علينا الضحك أم البكاء. مشاعرنا مكبوتة في جميع المناسبات. لا نجرؤ على المجاهرة لئلا يقع صوتنا في آذان بعض الذين ربما كانت لهم السفينة نذير شؤم. نفضل الهدوء. لكن برغم ذلك، في هذه المناسبة، كانت عندنا رغبة لا يمكن مقاومتها في التعبير عن مشاعرنا».

وهكذا، ما أن وضع بولارد أولى خطواته على الرصيف، محاطاً بأكثر من ألف وجه أليف، كان هناك صمت مطلق مطبق. سيصف الجمعَ لاحقاً فريدريك سانفورد، زميل نيكرسون ورامزديل في المدرسة سابقاً بقوله: «حشد مشدوه أخرس». وما أن بدأ بولارد في المشي تجاه بيته، حتى انزاح الناس إلى الجانبين لإفساح الطريق له. لم ينبس أحد منهم ببنت شفة.

كان من المعترف به في العموم، أن قبطان التحويت يحمل

t.me/qurssan

على عاتقه مسؤولية أكبر بكثير من قبطان الخدمات التجارية. فبالإضافة إلى قيادة مركبه حول كيب هورن والعودة من هناك، كان يفترض به تدريب طاقم من الرجال عديمي الخبرة على فنون قتل الحيتان ومعالجتها. وما أن ينتهي، عليه أن يمتثل أمام أصحاب السفينة، الذين لا يتوقعون منه شيئاً أقل من مخزن ممتلئ بالزيت. لذا لم يكن من المدهش حينها، أن قبطان التحويت كان يتلقى في المتوسط ثلاثة أضعاف ما يتلقاه قائد المركب التجاري.

كضابط أول على الإسكس، لم يعرف جورج بولارد إلا النجاح. كقبطان، لم يرَ إلا المصائب. وبما أن ما يُدفع للحوّات يكون نصيباً من عوائد رحلته، فإن بولارد، مثل بقية الناجين، لم يكن لديه ما يقدمه بعد سنتين من البؤس والمصاعب.

عرف القبطان أماسا ديلانو ما يعنيه أن تعود إلى الوطن خاوي الوفاض بعد رحلة طويلة. كتب ديلانو في 1817 خلال سرده لرحلاته المتعددة في المحيط الهادئ: «لا بدّ من الاعتراف اني لم أرَ بلادي بكل هذا الحزن من قبل قطّ مثلما فعلتُ إبان عودتي إليها بعد النهاية الكارثية لمغامراتي وآمالي. الشاطئ، الذي كنت أقفز عليه بكل سعادة، كان مغطى بالحزن والكآبة أمام عيني المنتكستين وعقلي المغموم... حواسي كانت منتبهة لكل أمارة استخفاف أو شفقة مصطنعة قد تظهر في سلوكيات أو تحيات معارفي على الأرض».

لا بدّ أن بولارد قد خضع لتحقيقات مطولة مع مالكَي الإسّكس، جيدوين فولجر وبول مايسي، وهي عملية مروعة لا

t.me/qurssan

يسع القبطان لأول مرة خلالها أن لا يبدو دفاعياً. كتب ديلانو: «من الحقيقة التي لا مراء فيها، أن الرجل المسكين خائب الأمل كثيراً ما يكون ذا حمية في هذا الخصوص، فيضع تفسيراً خاطئاً ومجحفاً على سلوك لا هو بقاس ولا جشع»، لكن بولارد لم يكن عليه مواجهة مالكي الإسكس فقط، بل كان هناك أحد أعضاء أسرته نفسها: أم أوين كوفين.

كانت نانسي بانكر كوفين، خالة بولارد ذات الثلاثة والأربعين عاماً، شقيقة أمّه تامار التي كانت في السابعة والخمسين. تزوجت نانسي من واحد من أعرق عائلات نانتوكت وأكثرها فخراً، عائلة تتحدر جذورها من تريسترام كوفين، مؤسس أول مستعمرة إنجليزية على الجزيرة في القرن السابع عشر. والد زوجها حزقيا كوفين الأب كان قبطان احد السفن المنخرطة في حفلة الشاي ببوسطن عام 1773.[1] ميّز حزقيا نفسه، حسب ما تقول أسطورة العائلة، بأنه «أول من ألقى الشاي في ميناء بوسطن». امتلكت الأسرة بورتريهاً مصغراً لحزقيا؛ كانت له عينان واسعتان وأنف حاد وابتسامة رقيقة شبه مُحرجة.

---

(1) حفلة شاي بوسطن Boston Tea Party: حركة احتجاج سياسي قام بها مجموعة من ملاك الأراضي الأمريكيين يطلقون على انفسهم ابناء الحرية Sons of Liberty، ضد سياسات ضرائب الحكومة البريطانية، وشركة الهند الشرقية التي كانت تتولى استيراد الشاي وتوريده إلى المستعمرات. قام فيها المحتجون بتخريب بعض السفن التابعة للشركة، وإلقاء الشاي في البحر. [المترجم]

t.me/qurssan

ورغم أن ابنه، حزقيا الابن، كان صديقاً كويكرياً بالوراثة، إلا انه نُبذ عندما تزوج نانسي بانكر غير الكويكرية في 1799. لكن في 1812، عندما كان أوين كوفين في العاشرة، «اعتذر» حزقيا كوفين رسمياً، وأصبح هو وزوجته أعضاء في الاجتماع الشمالي بشارع برود.

في ذلك اليوم من أغسطس 1821، عندما وقف جورج بولارد على عتبة بابها، تعرض إيمان نانسي بالعقيدة الجديدة لأشد اختبار ممكن. «نقل بولارد الأخبار السيئة للأم مثلما تمنى ابنها»، بحسب ما كتب نيكرسون. لم تتلقَّ نانسي الأخبار بقبول حسن؛ فكرة أن الرجل الذي ائتمنت ابنها في رعايته كان حياً نتيجة لموت ابنها كانت أكثر من قدرتها على التحمل. كتب نيكرسون: «اهتاجت فوراً من مجرد الفكرة، سمعت أنها لم تتصالح بعدها أبداً مع وجود القبطان».

أما حكم المجتمع فقد كان أقل قسوة. فالاقتراع كان عرفاً مباحاً غير مكتوب في مواقف النجاة في البحر. كتب نيكرسون: «لم يفكر أحد أن القبطان بولارد ظلم اي شخص في هذا المسألة». هزّ أركان مجتمع مدينة مونتيفيديو في أوروغواي موقف كانيبالية للنجاة شبيه في عام 1972، وإن كان لم يتضمن أي اقتراع. بدأت المحنة عندما تحطمت طائرة تنقل فريق كرة رغبي محلي إلى مدينة سانتياجو في تشيلي على قمم جبال الإنديز التي تغطيها الثلوج. إلى أن بلغتهم النجدة، اعتمد الناجون الستة عشر في بقائهم أحياء على الجثث المتجمدة للركاب الذين ماتوا في الحادثة. وبالضبط مثلما حدث في

t.me/qurssan

نانتوكت مع رجال الإسّكس قبل 150 عاماً، لم يرَ سكان مونتيفيديو أي خطأ في سلوك الشباب. بعد عودتهم بقليل، أعلن رئيس أساقفة كنيسة مونتيفيديو الكاثوليكية أنهم، طالما كان فعلهم لغرض النجاة، لا يُساءلون، وأضاف: «من الضروري دوماً أكل ما في متناول اليد، برغم أي نفور قد يسببه هذا».

لا يتوفر أي دليل على أن الزعماء الدينيين في نانتوكت وجدوا أنهم بحاجة للدفاع عن نُجاة الإسّكس. لكن تبقى حقيقة أن مهما كان الفعل مبرراً، كانت الكانيبالية وتبقى «عاراً ثقافياً» بحسب ما أطلقه عليها أحد الدارسين: سلوك مكروه إلى درجة تجعل قدرة الجموع على تقبله أصعب بلا شك من قدرة الناجين على اللجوء إليه.

من ناحيته، لم يسمح بولارد للرعب الذي مر به على القوارب أن يغلبه، وأظهر من الصدق والوضوح فيما يخص المأساة ما سيبقى معه طوال ما تبقى من حياته. جورج وورث ربان الأخوين الذي استضاف بولارد طوال شهرين ونصف هي مدة رحلة عودة السفينة إلى الجزيرة من فالبارايسو، كان معجباً بنزاهة قبطان الإسّكس السابق لدرجة أنه أوصى به خليفة له. عقب عودته بقليل، عُرض على بولارد رسمياً قيادة الأخوين.

في الوقت الذي عاد فيه بولارد إلى نانتوكت، كان أوين تشايس قد بدأ بالفعل في العمل على كتاب عن الكارثة. كان تشايس قد احتفظ بسجل يومي إبان المحنة في القوارب. ويبدو أنه أيضاً وضع يده على نسخة من الخطاب الذي كتبه أرون باداك قبطان ديانا في الليلة التي سمع فيها قصة بولارد، ما وفر

t.me/qurssan

له نسخة كاملة من أنباء ما حدث على القاربين الآخرين بعد انفصاله عنهما في 12 يناير. لكن أوين تشايس كان حوّاتاً لا كاتباً. سيكتب هرمان ملفيل على نسخته من كتاب تشايس: «لا يبدو أن هناك سبباً يدعو للاعتقاد أن تشايس هو من كتب سرديته، ففيها علامات جلية على أن هناك من كتبها لأجله؛ لكن في الآن ذاته، فلا يوجد أدنى شك أنها كُتبت بناءاً على توجيهات واعية وحذرة منه».

نشأ تشايس بصحبة صبي فضّل الذهاب إلى جامعة هارفارد عن الخوض في المحيط الهادئ. كان ويليام كوفين الابن ذو الثلاثة والعشرين عاماً ابناً لتاجر زيت ناجح كان أول من اضطلع بمنصب مدير البريد. بعد التخرج من هارفارد، درس ويليام الابن الطب لفترة موجزة، ثم، بحسب كلمات أحد أصدقائه، اتبع «مساعي أكثر ملائمة لحبه الشديد للأدب». بعد سنوات، سيكتب شبحياً[1] لأوبيد مايسي تاريخ نانتوكت الذي سيتلقى كثيراً من المديح. ثمة دليل آخر أنه ساعد في كتابة أنباء عصيان سفينة جلوب سيء السمعة. لكن يبدو أن أول ما نُشر له كان حكاية مأساة الإسكس.

كان كوفين هو الشخص المثالي للعمل مع تشايس. فبالإضافة لتلقيه تعليماً ممتازاً ككاتب بارع، كان كوفين عليماً

(1) الكاتب الشبح Ghost Writer: هو من يكتب محتوى من أي نوع نيابة عن طرف آخر، ليُنشر المحتوى منسوباً إلى الطرف الآخر دون ذكر لكاتبه الأصلي. [المترجم]

t.me/qurssan

بنانتوكت وصناعة التحويت. ولكونه في نفس عمر تشايس، فقد كان بوسعه التعاطف مع الضابط الأول الشاب بشكل يجعل كتابته تُقرأ «وكأن أوين كتبها بنفسه» بحسب إشارة ملفيل. عمل الرجلان بسرعة وكفاءة، ومع بداية الخريف كانت المسودة منتهية. وفي الثاني والعشرين من نوفمبر، بعد سنة تقريباً من الغرق، صار الكتاب المنشور على رفوف متاجر نانتوكت.

في ملحوظة موجّهة للقارئ، ادعى تشايس أنه بعدما خسر كل شيء في الحطام، فقد بات مستميتاً على إيجاد بعض النقود لإعالة أسرته الصغيرة. «الأمل في الحصول على بعض التعويض من خلال تقديم تاريخ مختصر لمعاناتي إلى العالم، هو الذي يجب أن يشكل دعائم عرضي لحكايتي أمام الرأي العام». لكن هذا لم يكن دافعه الوحيد. كتابة الحكاية منحته الفرصة لرسم نفسه -الضابط صغير السن الذي يبحث عن سفينة أخرى- بأفضل صورة ممكنة.

ركزت حكاية تشايس بالضرورة على ما حدث في قاربه. لكن غالبية الوفيات -تسعة من أصل أحد عشر- حدثت على القاربين الآخرين، ووصف تشايس لتلك الوفيات اقتصر على إيجاز سريع في نهاية حكايته. ما يجعل من الصعب على اي قارئ لم يقرأ إلا كتاب تشايس أن يُقدر حجم المأساة الحقيقي. حقيقة أن خمسة من أول ست رجال ماتوا كانوا سوداً، بالذات لم تنل أي تعليق من تشايس. بحفاظه على أغلب تفاصيل الكارثة المزعجة والجدلية في الكواليس، حوّل تشايس حكاية الإسكس إلى رواية شخصية عن المحن والانتصار.

t.me/qurssan

يظهر من سرده للقرارات التي أُخذت قبل المأساة في القوارب أن تركيز الضابط الأول كان على خدمة نفسه. فهو قد فضل ألا يذكر أنه، بمساعدة ماثيو جوي، من دفع القبطان بولارد للاستمرار بعد الوقعة في تيار الخليج، برغم ضياع عدة قوارب تحويت. وجعل أيضاً قرار الإبحار إلى أمريكا الجنوبية وكأنه قرار مشترك من البداية، لكن بولارد اقترح أولاً الإبحار لجزر سوسايتي طبقاً لنيكرسون. والأهم من ذلك، فقد كان تشايس حذراً في إخفاء أنه حظي بفرصة لقتل الحوت بالحربة بعد الهجمة الأولى. حقيقة لن تظهر إلا بعد نشر نسخة نيكرسون من الأحداث بعد 163 سنة.

لا شك أن بقية الناجين النانتوكتيين، بالأخص القبطان بولارد، شعروا أن جانبهم من الحكاية لم يأخذ حقه في سردية الضابط الأول. (سيسجل هرمان ملفيل لاحقاً أن بولارد وجد في نفسه رغبة في كتابة نسخته من الأحداث، ولكنها سردية لم ترَ النور قط) لكن رفاق تشايس لم يكونوا وحدهم من شعر بالإهانة من نشر قصة تشايس. مثلما سيلاحظ رالف والدو إمرسون إبان زيارته للجزيرة عام 1847، كان النانتوكتيون «حساسين للغاية تجاه كل ما يمكن أن يُخزي جزيرتهم، لأن هذا يحط من قيمة الأسهم وتصبح الشركة أفقر». إن آخر ما يرغبون فيه أن تظهر أمام أمريكا والعالم قصة مفصّلة لوقائع كيف انحدر الحال ببعض رجالهم وأولادهم إلى الكانيبالية. لم يبخل تشايس بأية تفاصيل بهذا الخصوص، مستخدماً علامتي تعجب عند ذكر اقتراح أكل إيزاك كول. يعتقد الكثيرون أن تشايس، برغم عوزه

وضيق حاله، لم يحاول إثراء نفسه عبر التهوين من معاناة رجاله. والمثير للاهتمام أن رحلة تشايس التالية لم تكن على حوّاتة نانتوكتية. في ديسمبر التالي سافر إلى نيو بيدفورد، حيث أبحر كضابط أول على متن فلوريدا، سفينة تحويت لا يحوي طاقمها نانتوكتي واحد. رغم أن أسرته ظلت على الجزيرة، إلا ان تشايس لن يبحر على سفينة من ميناء وطنه طوال إحدى عشرة سنة قادمة.

أما جورج بولارد، فقد مُنح ثقة كاملة. ففي السادس والعشرين من نوفمبر 1821، أي بعد ثلاثة أشهر ونيف من عودته إلى نانتوكت، وبعد أيام قليلة من ظهوره في سردية تشايس؛ أبحر بولارد متولياً المحيط الهادئ على متن الأخوين. لكن ربما أكثر تشجيع استثنائي ناله بولارد كان ذلك الذي جاءه من رجلين في طاقمه، فهو لم يكن الوحيد من الإسكس على متن الأخوين؛ فقد اختار اثنين آخرين أن يخدما تحت إمرته مرة أخرى. أحدهم كان توماس نيكرسون، والآخر هو تشارلز رامزديل، الفتى الذي قضى أربعة وتسعين ليلة على قارب التحويت برفقته. إن كان هناك شخص يعرف القبطان بولارد جيداً، فهو تشارلز رامزديل.

t.me/qurssan

الفصل الرابع عشر
العواقب

كـان التـفـاؤل الـذي عمّ بولارد في قـيـادته الثـانيـة جـديراً بالإعـجـاب، نظراً لما كـان في الأولى. في شـتـاء 1822، وصل بسفينة الأخوين إلى كيب هورن بنجاح، ومنها إلى غرب أمريكا الجنوبية، وموّنها في ميناء بايتا في بيرو. في منتصف أغسطس قابلت الأخوين سكونة البحرية الأمريكية ساحرة المياه التي كان على متنها ضابط صف بحري في الرابعة والعشرين من عمره يدعى تشارلز ويلكس. صادف ذلك أن ويلكس كان قد أنهى قراءة سردية تشايس عن مـأسـاة الإسكس في اليـوم السـابق. سـأل ويلكس قبطان الأخوين إن كـانت لـه أيّة عـلاقـة بجـورج بولارد الفانتوكتي الشهير، أجاب بولارد أنه الرجل نفسه. سيقول ويلكس بعد سنوات عديدة: «كان لهذا أثر كبير في نفسي».

ورغم أن ويلكس كان قـد قرأ الحكاية بالفعل، إلا أن بولارد أصر على أن يحكي للضابط الشاب نسخته منها. كتب ويلكس: «كان من المتوقع أن يبدو بعض أثر رحلته السابقة على سلوكه أو في حديثه، لكن هذا لم يحدث؛ كان مرحاً وشديد التواضع». وصف الضـابط البـحـري بولارد بـأنه «بطل لم يدرك حـتـى أنه تجاوز من العقبات ما كان يكفي لتحطيم 99 من كل مئة».

t.me/qurssan

لكن كان ثمة مؤشر واحد على الأقل أن بولارد لم يخرج من المحنة سالماً تماماً؛ لاحظ ويلكس صفة غير معتادة في قمرة القبطان، في سقفها كانت هناك شبكة كبيرة معلقة، مليئة بالمؤن المختلفة، أكثرها من البطاطس والخضروات الطازجة. الرجل الذي تضوّر جوعاً حتى حافة الموت قبل سنة فقط، بوسعه الآن مدّ يده فوق سريره أي وقت فيجد ما يأكله. سأل ويلكس بولارد كيف استطاع، بعد كل ما مرّ به، أن يعود للبحر مرة أخرى. «علق ببساطة مردداً قولاً مأثوراً، الصواعق لا تضرب المكان نفسه مرتين». لكن في حالة الريان بولارد، هذا ما حدث.

في فبراير 1823، كانت الأخوين تبحر مع حوّاتة نانتوكتية أخرى اسمها مارثا تجاه منطقة تحويت جديدة. في السنوات القليلة التي مرت منذ بدأت رحلة بولارد السابقة، تغير الكثير في صناعة التحويت في المحيط الهادئ. بعد فترة وجيزة من افتتاح الأرض البحرية في 1819، وقفت حوّاتة نانتوكتية في جزيرة أواهو الهاوائية [التابعة لمجموعة جزر هاواي] للمرة الأولى. في العام نفسه، فريدريك كوفين قبطان سفينة سيرين أعلن اكتشافه لأرض تحويت غنية قرب اليابان. بات المحيط الهادئ كله الآن، وليس فقط الحواف الشرقية والغربية منه، مساحة لعب لحوّاتي نانتوكت.

كانت الأخوين ومارثا على بعد أميال قليلة من غرب الجزر الهاوائية، متجهين إلى الأرض اليابانية، عندما بدأت عاصفة في الهبوب. أمر بولارد رجاله بطي الأشرعة. كانت تمطر بغزارة، واتضح أن الأخوين كانت صعبة التوجيه في المياه المتقلبة. كانت

t.me/qurssan

مارثا أسرع، ومع هبوط الليل، أمسى المراقب على راس صاريتها غير قادر على رؤية الأخوين إلا بصعوبة شديدة.

كانت السفينتان تبحران على خط العرض ذاته الذي تقع فيه فرينش فريجيت شولز -متاهة مميتة من الصخور والشعاب المرجانية في الشمال الغربي من جزر هاواي- لكن القبطانين قررا أنهما غرب الخطر بمسافة كبيرة. بعد رحلته السابقة، تعلم بولارد كيف يحسب خطّ طوله الحالي بالرصد القمري. لكن السماء الملبدة بالغيوم منذ أكثر من عشرة أيام منعته من فعل ذلك، فاضطر للاعتماد فقط على الرصد السلبي لتحديد موقع سفينته.

صارت الرياح شديدة لدرجة أن قوارب التحويت رُفعت عن حمالاتها ورُبطت على السطح. علّق احد الضباط تلك الليلة أن «المياه في الجوار بدت أبيض من المعتاد». كان توماس نيكرسون على وشك استعادة سترة من تحت السطح عندما لاحظ وقوف بولارد مستنداً إلى حافة السفينة، محدقاً بقلق في المياه.

عندما كان نيكرسون تحت السطح، ارتطمت السفينة بشيء ما «صدمة مرعبة» ألقته على الأرض. افترض نيكرسون أنهم اصطدموا بسفينة أخرى. كتب: «تخيل ذهولي عندما وجدنا أنفسنا محاطين بأمواج ترتفع كالجبال، وسفينتنا تتمايل على جانبيها وتتخبط بقوة كبيرة، فلا يكاد الواحد يستطيع الوقوف على قدميه». كانت السفينة تتحطم على الشعاب المرجانية. و«وقف القبطان بولارد مشدوهاً أمام المشهد الماثل قبالته».

قفز الضابط الأول إيبين جاردنر في منتصف الحدث، أمر

t.me/qurssan

الرجال بالشروع في قطع صواري السفينة، آملاً في إنقاذها. مدركاً أن الصواري قد تقع عرضياً فتهشم قوارب التحويت على السطح، عاد بولارد أخيراً للواقع. أمر الطاقم أن يضعوا جانباً فؤوسهم ويجهزوا القوارب. كتب نيكرسون «إن قُطعت الصواري في ذلك اليوم، ربما ما كنت لأحظى بفرصة سرد هذه الواقعة».

لكن ما أن بدأ الرجال بالاحتشاد في القاربين، حتى عاد بولارد لحالة اليائس المبهوت مرة أخرى. «قدرته على التفكير بمنطقية ذهبت عنه»، وبدا القبطان غير مستعد لهجر السفينة. هددّت الأمواج بإلقاء القوارب على هيكل المركب بينما توسل الرجال إلى قائدهم أن ينقذ نفسه. كتب نيكرسون: «متردداً ركب القبطان أحد القاربين في اللحظة التي كاد القارب فيها يهجر السفينة».

نيكرسون، الذي ترقى إلى موقع موجّه قارب في السابعة عشرة من عمره، كان واقفاً على مجداف التوجيه عندما وقعت موجة هائلة على القارب وألقته في البحر. مدّ له أحد الضباط حافة المجداف الأخير فتشبث به، وسحبوه إلى القارب مرة أخرى.

سرعان ما افترق قاربا التحويت في الظلام. كتب نيكرسون: «كان قاربنا محاطاً بالأمواج العالية، وكنا مضطرين للتجديف بينها طوال الليل، إذ لم يكن بوسعنا رؤية أي مخرج». في الصباح التالي رأوا سفينة راسية في اتجاه الريح من صخرة بارتفاع خمسين قدماً. كانت مارثا، وقد نجت بالكاد من التحطم على الصخرة في الليلة السابقة. لم يمض وقت طويل قبل إنقاذ طاقم القاربين، وأبحرت مارثا بهم إلى أواهو.

t.me/qurssan

بعد شهرين، في مرفأ جزيرة راياتيا، إحدى جزر سوسايتي، ركب تبشيريّ يدعى جورج بينيت البارجة الأمريكية بيرل المتولية بوسطن وجهة لها. كان بين ركابها جورج بولارد الذي صار في الواحدة والثلاثين من عمره. تبدل بولارد كثيراً عن ذلك الذي تحدث مع تشارلز ويلكس قبل أقل من عام. مرحه السابق اختفى تماماً. لكنه، وهو في السفينة الراسية على جزيرة تجنبها ورجاله سابقاً خوفاً من أكلة لحوم البشر، أصر على إخبار بينيت بحكاية الإسكس بأدق التفاصيل المؤلمة. هذه المرة، عندما بلغ جزء إعدام اوين كوفين، إنهار. بكى أثناء حديثه وقال: «لا أستطيع الحديث أكثر من ذلك، تضطرم رأسي بالنار عندما اتذكر، لم أعد أعرف ما أقول».

أنهى بولارد المحادثة بذكر خسارته الحديثة لحوّاتة ثانية على الصخور المرجانية في جزر هاواي. ثم، «بنبرة حملت من القنوط ما لن ينساه أبداً من سمعها» حسب وصف بينيت، اعترف بولارد «والآن انتهى أمري تماماً، لن يأتمنني مالك على حوّاتته مرة أخرى، فلن يصفني أحد بعد ذلك إلا بالرجل المنحوس».

وكان تخمين بولارد صحيحاً، فعمله في التحويت قد انتهى. الجزيرة التي اصطفت سريعاً خلفه بعد غرق الإسكس، أدارت له ظهرها الآن. صار جوناه؛ قبطان فشل مرتين لا يوجد من يجرؤ على منحه فرصة ثالثة. بعد عودته إلى ماري زوجته، قام بولارد برحلة واحدة على مركب تجاري من نيويورك. لكن، بحسب كتابة نيكرسون، «لم يحبّ المجال، وعاد إلى بيته في نانتوكت»، حيث

t.me/qurssan

صار مراقباً ليلياً، وهو منصب يقبع على الدرجة الأدنى في سلم الجزيرة الاجتماعي.

في شوارع المدينة، تناقلت الألسنة همساً شائعة مزعجة، شائعة لم تنسَها الذاكرة النانتوكتية حتى بعد مرور ما يقرب من مئة عام. قالت الشائعة أن أوين كوفين لم يكن من سحب أقصر قطعة ورق في الاقتراع ذلك اليوم، بل هو جورج بولارد. عندها تقدم ابن خالته الصغير، الذي كان على شفا الموت، وأقنعه بأنه لن يتجاوز الليلة حياً على اي حال، وعرض، بل أصرّ، أن يأخذ مكان القبطان. إن كانت الشائعة مصيبة، فبولارد لم يكن فقط منحوساً، بل كان جباناً، فضح القدر جبنه.

إن لكلمة «بولارد Pollard» معنيين. البولارد هو حيوان مثل الثور أو الماعز أو الخراف فقد قرونه، وتعني الكلمة أيضاً تقليم الشجرة بشدة حتى تنمو بكثافة من البراعم الجديدة. سوء الحظ قلّم أطراف بولارد وشذب كل امكانياته. لكنه بشكل ما، وكأنه مرّ بعملية جراحية جعلته اقوى، استطاع بناء حياة سعيدة هانئة لنفسه في وطنه.

لن ينجب جورج وماري بولارد أي أبناء من صلبهم، لكن من الممكن أن يقال إنهما كانا على رأس أكبر أسرة في نانتوكت. فلكونِه مراقب المدينة الليلي، كان بولارد مسؤولاً عن تطبيق حظر تجوال في التاسعة مساءً، وهو نشاط جعله على تواصل مع كل شباب الجزيرة. وبدلاً من أن يتحول إلى رجل ساخط صارم مثلما يتوقع منه المرء، فقد عُرف بسلوكه الطيب، بل وحتى المبتهج. كان جوزيف وارين فيني جزءاً من عائلة بولارد الممتدة.

t.me/qurssan

عندما مات والدا فيني، جاء إلى نانتوكت ليعيش مع جديّه. زوجة والده الأولى كانت أخت ماري بولارد. لاحقاً في حياته، سيترك فيني خلفه وصفاً لجورج بولارد.

«كان رجلاً قصيراً ممتلئاً، ظريفاً، محباً لمباهج الحياة». تذكّر فيني بودّ كيف كانت ماري بولارد تُمدد زوجها على مائدة المطبخ وتقيسه لتجهز له بنطالاً جديداً. بدلاً من الحربون، تجول الحوّات السابق في الشوارع «بعصا خشبية طويلة ذات مقبض حديدي في نهايتها تحت إبطه». لم تمكنه العصا فقط من إطفاء مصابيح شوارع المدينة التي تعمل بزيت الحوت، بل كانت مفيدة أيضاً في اقناع الأطفال بالعودة إلى بيوتهم ساعة الحظر. اضطلع بولارد بمسؤوليته بجدية حتى صار يُعرف في المدينة، طبقاً لفيني، بالمُخبر gumshoe، مُحقق الشوارع الذي ألف التفاصيل الحميمية للجزيرة، التي نما تعداد سكانها من سبعة إلى عشرة آلاف خلال العقدين التاليين.

كان فيني، مثل كل النانتوكتيين، يعرف بحكاية الإسّكس، وسمع حتى بإشاعة أن «الرجل الذي وقعت عليه القرعة استبدل نفسه بالفتى الصغير». بالنسبة لفيني وكل من عرفوا بولارد، كان من المستحيل أن يكون جورج بولارد هو «ذلك الرجل». (طبقاً للنسخة التي سمعها فيني من الإشاعة، الرجل الذي استُبدل بأوين كوفين «كان له زوجة وأبناء»، والجميع يعرف جيداً أن بولارد لم يكن له أبناء).

ثمة شائعة أخرى عن القبطان بولارد، تدعي أن القادمين من خارج الجزيرة كانوا يسألونه في براءة إن كان يعرف رجلاً

t.me/qurssan

يُدعى أوين كوفين، قيل أنه كان يجيب: «أعرفه؟ لقد أكلته!».

لكن أصدقاء بولارد لم يصدقوا تلك الحكاية أيضاً. كانوا يعرفون أنه لم يكن قادراً على الاستهزاء بذكرى من ماتوا في قوارب تحويت الإسكس. وبرغم أنه تمكن من وضع المأساة خلفه، إلا أنه لم يتوقف قطّ عن تكريم ذكرى من سقطوا. كتب فيني: «مرة كل عام، إبان ذكرى غرق الإسّكس، كان يحبس نفسه في غرفته ويصوم».

كحوّات، تمتع أوين تشايس بالنجاح الوظيفي الذي أفلت من قبضة جورج بولارد. أما في الحياة الشخصية، فلم يحظ بالحظ نفسه.

إن رحلة تشايس الأولى بعد غرق الإسكس كضابط أول على متن سفينة فلوريدا استمرت أقل من عامين، وخصدت أكثر من ألفي برميل زيت. عندما عاد إلى نانتوكت في 1823، وجد ليديا، طفلة ثانية في انتظاره، تتهادى في أعقاب شقيقتها الكبرى فيبي آن التي تقترب من الرابعة. اختار تشايس البقاء على الجزيرة ليشهد ولادة طفله التالي، الذي أطلق عليه ويليام هنري. بيجي زوجة أوين لم تتعافَ من الوضع، وماتت بعد أقل من أسبوعين. بات أوين أرملاً في السابعة والعشرين وأباً لثلاثة أطفال بلا أم.

في خريف وشتاء 1824-25، قابل امرأة كان يشاركها بالفعل رابطة خاصة: نانسي سلايد جوي، أرملة ماثيو جوي، ضابط الإسكس الثاني. كانت وماثيو قد تزوجا لمدة عامين قبل إبحاره لآخر مرَة. في يونيو 1825، بعد شهور تسعة من وفاة بيجي تشايس، تزوج الأرمل من الأرملة، وصارت زوجة أب لأبناء

t.me/qurssan

تشايس الثلاثة. بعد أسبوعين، اشترى تشايس بيتاً من والده في اطراف شارع أورانج (شارع القباطنة). في بداية أغسطس، أبحر تشايس إلى نيو بيدفورد حيث تولى قيادة مركب لأول مرة، سفينة وينسلو. كان في الثامنة والعشرين من عمره، نفس عمر بولارد عندما أصبح قبطاناً للإسكس.

كانت وينسلو حوّاتة صغيرة لا تحمل إلا خمسة عشر رجلاً. في العشرين من يوليو 1827، بعد رحلة استمرت عامين تقريباً، عاد إلى نيو بيدفورد بحمولة 1440 برميل زيت. عاد تشايس إلى نانتوكت ودفع 500 دولار رهن منزله، ثم رجع إلى نيو بيدفورد في الأسبوع الثاني من أغسطس. ليس بوسعنا إلا تخيل مشاعر نانسي تشايس في صيف 1825، عندما علمت أن زوجها الذي عاد لتوه سيغادر بعد وصوله مباشرة تقريباً في رحلة أخرى على وينسلو.

بعد رحيلها بقليل، تضررت وينسلو في عاصفة شديدة، وعادت تعرج إلى نيو بيدفورد في أكتوبر للإصلاحات. قرر المُلاك استغلال الفرصة لتوسيع السفينة حتى تصير بحمولة 263 طناً، ممّا سمح لتشايس أن يقضي تسعة شهور بصحبة زوجته وأبنائه الثلاثة في نانتوكت. بعدما خرج مرة أخرى في يوليو 1828، ملأ سفينته المُعدلة في سنتين وعاد إلى نانتوكت في صيف 1830.

من المغري اعتبار مشوار تشايس الوظيفي في مرحلة ما بعد الإسكس رحلة آخابية[1] للانتقام. هناك في الحقيقة دليل واهن

(1) نسبة لشخصية القبطان آخاب في رواية موبي-دِك. [المترجم]

t.me/qurssan

يشير إلى أنه حتى لو لم يكن تشايس مدفوعاً برغبة في إيجاد وقتل الحوت الذي أغرق الإسكس، فبعض الحوّاتين الآخرين قالوا إنه كان كذلك.

في 1834، قبل سبعة عشر عاماً من نشر موبي-دِك، كان الشاعر وكاتب المقالات رالف والدو إمرسون في مركب مع بحار أخبره عن حوت (وهو حوت أبيض بالمناسبة) معروف بمهاجمة قوارب التحويت بفكه. ادعى البحار أن ثمة حوّاتة من نيو بيدفورد تُدعى وينسلو أو إسكس، لم يكن متأكداً أيهما، خرجت لتقتل ذلك الحوت، وقُتل ذاك الكائن أخيراً قبالة سواحل أمريكا الجنوبية. لا يسع المرء إلا التساؤل إن كان إمرسون قد سجل حكاية مشوهة عن كيف استطاع أوين تشايس، قبطان الوينسلو الجديد وضابط الإسكس الأول السابق، الانتقام لنفسه من الحوت الذي سبب له عظيم المعاناة والألم.

وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فقد انتهى نفي تشايس العملي عن نانتوكت بعد عودته من رحلته الثانية كقبطان لوينسلو بمخزن زيت متخم. عندما كان في الثالثة والثلاثين عُرضت عليه قيادة ما ستصبح واحدة من أضخم السفن في تاريخ صناعة التحويت النانتوكتية. حتى ذلك الحين، كانت أغلب السفن تُبنى في البرّ الرئيسي في أماكن مثل روتشيستر نيويورك وهانوفر ماساتشوستس. لكن التحويت عاد على الجزيرة بثروات هائلة، وصارت هوامش الربح عالية بما يكفي ليصبح من الممكن اقتصادياً بناء حوّاتة في برانت بوينت، حوض بناء وإصلاح السفن في الجزيرة، على الرغم من أنه يجب نقل مواد البناء عبر

t.me/qurssan

نانتوكت ساوند. على مدار العامين التاليين، وتحت عين تشايس الخبيرة، بدأت ملامح الحوّاتة تشارلز كارول -376 طناً وهيكل مكسو بالنحاس- في الاتضاح، ومقابل استثمار قدره 625 دولار، صار مالكاً لنسبة 32/1 من السفينة.

نجحت رحلة تشايس الأولى كقبطان لتشارلز كارول اقتصادياً؛ فبعد ثلاثة أعوام ونصف، عاد في مارس 1836 بحمولة 2610 برميل زيت، ما يقرب من ضعفي عائد رحلته الأولى كقبطان على وينسلو. لكن مقابل نجاح رحلته دفع ثمناً شخصياً عظيماً. إذ بعد تسعة أشهر من رحيل زوجها عن الجزيرة، وضعت نانسي تشايس طفلة جديدة: أديلين. بعدها بأسابيع ماتت نانسي. على رصيف الميناء في ربيع 1836 كان في انتظار الأب العائد فيبي آن في السادسة عشر تقريباً، وليديا في الثالثة عشر، وويليام هنري في الحادية عشر، وأديلين بعمر عامين ونص؛ طفلة بلا ذاكرة عن أمها ولم تعرف أبداً أباها.

لم يمض شهر على عودة تشايس إلا وكان قد تزوج من جديد. يونيس تشادويك كانت في السابعة والعشرين فقط من عمرها عندما صار لها فجأة أربعة أبناء زوج ترعى أمرهم. مع نهاية أغسطس، بعد أقل من خمسة أشهر من زواجهما، كانت تلوح مودعة لزوجها الجديد. ستكون تلك رحلة تشايس الأخيرة كقبطان تحويت. كان في الأربعين من عمره، وإن سارت الأمور على ما يرام، سيكون بوسعه بعدها التقاعد في منزله بشارع أورانج.

وكان في المحيط الهادئ أيضاً في تلك الآونة شاب صغير

t.me/qurssan

في بداية مشواره التحويتي. كان هرمان ملفيل قد استلم لتوه عام 1840 موقعاً على سفينة التحويت أكوشنت من نيو بيدفورد. إبان رحلته، قابل نانتوكتياً يُدعى ويليام هنري تشايس؛ ابن أوين تشايس المراهق. كان ملفيل قد سمع بالفعل حكايات عن الإسكس من بحارة أكوشنت، واستجوب الفتى عن قرب بخصوص تجربة أبيه. في الصباح التالي، أخذ ويليام من صندوقه البحري نسخة من قصة تشايس عن الإسّكس وأعارها لملفيل. سيقول ملفيل: «إن قراءة هذه القصة العجيبة في البحر الواسع، على مقربة شديدة من موقع الحادثة، كان له بالغ الأثر على نفسي».

لاحقاً في الرحلة نفسها، وخلال مقابلة مع سفينة تحويت أخرى، وقعت عينا ملفيل على قبطان تحويت نانتوكتي قيل له أنه لم يكن إلا أوين تشايس. سيكتب ملفيل لاحقاً على الصفحات الخلفية من نسخته الخاصة من كتاب تشايس: «كان رجلاً ضخماً قوياً حسن البنية، طويلاً إلى حد ما، يبدو فوق الخامسة والأربعين أو ما إلى ذلك، ذا محيا وسيم مقارنة باليانكي العادي، يعطي انطباعاً بالاستقامة والهدوء والشجاعة غير المتبجحة. ترك مظهره عليّ انطباعاً مستساغاً؛ كان أطيب صيادي الحيتان الذين رأيتهم مظهراً». وبالرغم من أن ملفيل في الغالب أساء تعرف قبطان آخر على أنه تشايس، إلا أن وصفه يشبه إلى حدّ كبير اللوحة التي وصلتنا لأوين تشايس؛ تلك أظهرت وجهاً واثقاً شبه مغرور، رجلاً لا يجد أية مشكلة في مسؤوليات القيادة. لكن ثقة تشايس العملية لم تؤهله للأخبار التي سمعها في منتصف رحلته الأخيرة.

t.me/qurssan

بعد ستة عشر شهراً من إبحار زوجها على متن تشارلز كارول، وضعت يونيس تشايس ابناً: تشارلز فريدريك. سمع هرمان ملفيل عن كيفية وقع النبأ على تشايس، ولم يقدِر من سيؤلف موبي-دِك في المستقبل إلا أن يقارن بين مأساة ضابط الإسّكس الأول السابق ومأساة جورج بولارد. كتب ملفيل «طائر الشؤم الأسود التعيس الذي طارد بولارد القبطان في رحلته الكارثية الثانية، طار بالمثل خلف أوين المسكين، وإن كان قد تمهل في الوقوع عليه للمرة الثانية». قيل لملفيل أن تشايس تلقى خطابات «تُنبأه بخيانة زوجته الأكيدة... سمعنا أيضاً أن هذه الأنباء كانت الأثقل وطأة على نفس تشايس، وأنه كان ضحية لعميق الحزن».

بعد أيام من عودته إلى نانتوكت في شتاء 1840، تقدم تشايس بدعوة طلاق. ومُنح الطلاق في السابع من يوليو، ومعه الوصاية القانونية على تشارلز فريدريك. بعد شهرين، تزوج تشايس للمرة الرابعة من سوزان كوفين جوين. من الأعوام الواحد والعشرين السابقة، قضى منها خمسة فقط في البيت. لكنه الآن سيُقضي ما تبقى له من عمر في نانتوكت.

عاد باقي الناجين من الإسكس أيضاً إلى البحر. وما أن وصلوا إلى أواهو بعد غرق الأخوين، فسرعان ما وجد توماس نيكرسون وتشارلز رامزديل لأنفسهم أسِرَّة على سفن تحويت أخرى. في أربعينيات القرن الثامن عشر، خدم رامزديل كقبطان على متن جينرال جاكسون، سفينة من مدينة بريستول في ولاية رود آيلاند. سيتزوج رامزديل مرتين وينجب ستة أبناء. وسيتعب

نيكرسون من حياة التحويت ويعمل قبطاناً على مراكب تجارية، منتقلاً إلى بروكلين في نيويورك، حيث سيعيش برفقة زوجته مارجريت لعدة سنوات دون أن يُرزقا بأبناء.

خدم بينجامين لورنس كقبطان على متن الحوّاتات درومو وهورون، الأخيرة كانت من هدسون في نيويورك، مسقط رأس ضابط الإسكس الثاني، ماثيو جوي. حظي لورنس بسبعة أبناء، أحدهم سيموت في البحر. في مستهل الأربعينيات، سيتقاعد لورنس من حياة التحويت مثل تشايس، وسيبتاع مزرعة في سياسكونسيت في النهاية الشرقية من الجزيرة النانتوكتية.

لا تتوفر كثير من التفاصيل عن الناجين الثلاثة من جزيرة هندرسون الأجانب عن نانتوكت. الكيب-كوديّان: سيث ويكس وويليام رايت، تابعا العمل كأفراد طاقم على متن سوري، مبحرين عبر الهادئ حتى بلغا إنجلترا ومنها عادا إلى الولايات المتحدة. ضاع رايت في البحر خلال إعصار ضرب غرب جبال الإنديز. أما ويكس فقد تقاعد في كيب-كود، حيث سيظل حياً حتى بعد رحيل أغلب الناجين من الإسّكس.

الإنجليزي توماس تشابل عاد إلى لندن في يونيو 1823، حيث سلك سبيل الدين الذي اعتصر منه كل درس روحي يمكن استخلاصه من مأساة الإسّكس. سيسمع نيكرسون لاحقاً بوفاة الإنجليزي متأثراً بوباء حمى عصف بجزيرة تيمور.

رغم أن سيرة الإسّكس لم تنقطع بين همسات أهل المدينة حتى بعد حلول القرن العشرين، لكنها لم تكن موضوعاً ناقشه النانتوكتيون علانية. عندما سُئِلت ابنة بينجامين لورنس عن

t.me/qurssan

الحادثة أجابت: «نحن لا نتحدث عن هذا في نانتوكت».
لم تكن المشكلة فقط في حقيقة أن الرجال اضطروا المكانيبالية، بل كان من العسير على النانتوكتيين أيضاً تفسير لماذا كان أول من أكلوا هم أربعة أفارقة أمريكان. ما جعل من تلك مسألة حساسة كان سمعة نانتوكت كمعقل لحركة الدعوة لإلغاء الرقّ، ما حدا بالشاعر جون غرينليف ويتير لتسميتها بـ «ملجأ الأحرار». وبدلاً من الإسكس، فقد فضّل النانتوكتيون الكويكريون الحديث عن كيفية مساهمة مجتمع السود المتنامي جنوب المدينة، المعروف بغينيا الجديدة، في الاقتصاد التحويتي المزدهر.
في 1830، عاد القبطان أوبيد ستاربك وطاقمه المكون من السود فقط تقريباً من رحلة دامت أربعة عشر شهر ونصف بحمولة 2280 برميل زيت. قال عنها مانشيت في جريدة نانتوكت إنكوايرر: «إنها أعظم رحلة على الإطلاق». ارتفعت الروح المعنوية إلى درجة أن سار موكب للبحارة السود في الشارع الرئيسي، حملوا فيه حرابهم وحرابينهم على أكتافهم في فخر. بعد أقل من عشر سنوات، دُعي عبدٌ هارب يعيش في نيو بيدفورد للتحدث في اجتماع لحركة الدعوة ضد الرقّ في مكتبة أثينيوم على الجزيرة. اسم الإفريقي الأمريكي كان فريدريك دوجلاس، وظهوره في نانتوكت كان مرّته الأولى على الإطلاق في التحدث أمام جمهور أبيض. ذلك ما كانت التراتبية الكويكرية النانتوكتية ترغب في تصديره للعالم كإرث لها، لا الأحداث المؤسفة المصاحبة لمأساة الإسكس.
لبعض الوقت -على الأقل- بدا أن العالم الخارجي نسي

t.me/qurssan

المأساة. في 1824 قاد صمويل كومستوك طاقم الحوّاتة النانتوكتية جلوب في عصيان دموي جذب انتباه الرأي العام عن الإسّكس. لكن بعد عشرة أعوام، بعد نشر مقال عن الحطام في نورث أميريكان ريفيو، عاد الاهتمام. وعلى مدار العقدين التاليين سترى النور حكايات كثيرة عن مأساة الإسّكس. واحدة من أكثر نسخ الحكاية شهرة كانت تلك المتضمنة في كتاب مدرسي شائع للأطفال يسمى ويليام هولمز مكفوفي - القارئ الانتقائي الرابع. سيصير من الصعب أن يكبر طفل في أمريكا دون أن يتعلم ما صار للإسّكس.

في 1834 كتب رالف والدو إمرسون في يومياته عن محادثته مع بحار عن حوت الإسّكس الأبيض. عندما زار إمرسون نانتوكت في 1847 قابل القبطان بولارد، ووصف في خطاب إلى ابنته في مدينتهم كونكورد بولاية ماساتشوستس حادث غرق الإسّكس: «شوهد حوت عنبر هائل يبحر بسرعته الكاملة إلى المركب، وبعد لحظة صدمها بقوة مرعبة، مهشماً بعض ألواحها ومُسبباً تسريباً، ثم ابتعد قليلاً، وعاد مرة أخرى على عجالة، باتت المياه كلها بيضاء إثر حركته العنيفة، وضرب السفينة مرة أخرى ضربة مرعبة».

عام 1837 استخدم إدغار آلان بو الجوانب المتوحشة من سردية تشايس في روايته حكاية آرثر غوردان بيم، حيث اقترع الرجال وأُكل الخاسرون، ومات أحد البحارة في نوبة تشنجات مريعة. قبل عقود من وقوع جماعة دونر في الفخ الثلجي عند سفل سيرا، قدمت الإسّكس للرأي العام الأمريكي فضيحة كانيبالية مخزية.

t.me/qurssan

لكن المجال بقى مفتوحاً أمام هرمان ملفيل، ليستخدم قصة الإسّكس في بناء أكثر قصص التحويت تماسكاً وبقاء على مر العصور. تحوي موبي-دِك إحالات مفصلة عدة لهجوم الحوت على الإسّكس، لكن ذروة الرواية هي أكثر ما يستند على سردية تشايس. «في هيئته كان القصاص، الانتقام المتعجل، وحقد خالد»، كتب ملفيل عن هجوم الحوت الأبيض على البيكود. بعد الاصطدام، بحسب وصف تشايس، يغطس الحوت تحت السفينة ويعوم «مرتجفاً بجوار الأرينة» لكن بدلاً من مهاجمة السفينة الغارقة للمرة الثانية، يحول موبي-دِك تركيزه إلى قارب تحويت القبطان آخاب.

فشلت موبي-دِك على كلا الصعيدين: النقدي والتجاري. في عام 1852، بعد نشرها بعام، زار ملفيل نانتوكت أخيراً. سافر إلى الجزيرة في يوليو بصحبة حميه القاضي لمويل شو، نفس القاضي الذي منح أوين تشايس الطلاق قبل اثني عشر عام. ومثل إمرسون قبله، لم يبحث ملفيل عن تشايس، الذي يقضي الآن حياته متقاعداً عن التحويت معتمداً على عوائد استثماراته، بل عن جورج بولارد، المراقب الليلي المتواضع.

أقام ملفيل في أوشن هاوس، الواقع في تقاطع الشارع المركزي مع شارع برود، الذي يقابل قطرياً المنزل الذي عاش فيه جورج وماري بولارد لعقود. سيكتب ملفيل لاحقاً عن قبطان الإسّكس: «بالنسبة لأهل الجزيرة كان نكرة، بالنسبة إليّ، كان الأعظم، وإن كان أكثر من قابلت في حياتي تواضعاً وربما مذلّة».

في الأعوام التالية، ستؤول حياة ملفيل الاحترافية ككاتب

t.me/qurssan

روائي إلى ما آلت إليه حياة بولارد كقبطان تحويت. فبلا قرّاء لكتاباته اضطر كاتب موبي-دِك للعمل كمفتش جمارك على أرصفة موانئ نيويورك. ورغم توقفه عن كتابة الروايات، إلا أنه تابع كتابة الشعر، على الأخص كتابة قصيدة طويلة مظلمة تدعى كلاريل Clarel، التي تحوي شخصية مبنية على بولارد. بعد رحلتين كارثيتين، يتحول القبطان السابق إلى «خفير الليل على الرصيف/ يتابع حركة الصناديق حتى شروق الشمس/ في السراء والضراء». شعر ملفيل بصلة قرابة قوية مع قبطان الإسكس، ووصفه للبحار القديم مثلما اعتمد على رؤيته لنفسه، اعتمد بالقدر ذاته على الرجل الذي قابله في شوارع نانتوكت:

لم يبتسم قط؛
نادِه وسياتي،
لا غلظة في روحه
حليم وراض وصبور
وفي شيء غامض ما، كُثيراً ما كان يسرح

في 1835، عندما نشر أوبيد مايسي -بمساعدة ويليام كوفين الابن- تاريخ نانتوكت، كانت نيو بيدفورد قد كسفت الجزيرة بعدما صارت ميناء التحويت الأبرز. الحاجز النانتوكتي -مصدر الإزعاج الدائم في أيام التحويت الأولى- قد بات عقبة رئيسية في وجه الازدهار؛ سفن التحويت أصبحت أضخم من أن تعبر الحاجز، دون أن تضطر لتفريغ كامل حمولتها تقريباً في زوارق صغيرة، وهي عملية مرهقة ومكلفة. في 1842، صمم بيتر فولجر أوير وبنى «الجَمَلين» بمساحة 135 قدماً؛ جناحين

t.me/qurssan

ـشبيين عملاقين، فاما بدور حوضين جافين عائمين قادرين على حمل حوّاتة ذات حمولة كاملة عبر الحاجز. لكن تبقى حقيقة أن مياه ميناء نيو بيدفورد العميقة المسالمة أعطت له ميزة لا يمكن منافستها، وقربها الشديدة من خط السكة الحديدية الجديد، الذي عبره صار كثير من التجار يشحنون زيوتهم إلى الأسواق، كان ميزة أخرى لا تقل أهمية.

لكن لا يمكن استثناء النانتوكتيين أنفسهم من اللوم على الانحدار الكبير لأعمال التحويت على الجزيرة في أربعينيات القرن التاسع عشر. وفيما افتتح حوّاتو نيو بيدفورد ونيو لندن وساغ هاربور أراضي تحويت جديدة في شمال المحيط الهادئ، ظل النانتوكتيون مخلصين بعناد لأراضيهم المستنزفة، التي لطالما وجدوا فيها ضالتهم في العقود المنقضية.

لم تكن الجزيرة نفسها بلا مشكلات، فالكويكرية، التي كانت ذات يوم القوة الدافعة الثقافية والروحية للمجتمع، انشطرت إلى عدة فرق متنازعة. خلال الثلاثينيات والأربعينيات كان على الجزيرة منازل اجتماعات أكثر من أي وقت آخر، مع ذلك كان عدد الكويكريين في نانتوكت يقلّ كل عام عن الذي قبله. ومع استرخاء القيود الكويكرية، صار بوسع النانتوكتيين إبداء مظاهر الثراء التي شعروا ذات يوم أن عليهم إخفاءها. وامتلأ الشارع الرئيسي بالعقارات الحجرية الراقية والقصور على طراز الإحياء الإغريقي، مثل أنصاب تذكارية لثروات السكان التي «اصطيدت بالحرابين من أعماق البحر وجُرت إلى هنا» بحسب تعبير هرمان ملفيل. ورغم أن عوائد بيع الزيت السنوية كانت في تضاؤل

t.me/qurssan

مستمر منذ سنوات، إلا أن أسباب القلق في شوارع نانتوك
خلال بداية صيف 1846، لم تكن واضحة بعد. ثم، في الحادية عشرة مساء ذات ليلة قائظة من يوليو، صرخ أحدهم في رعب: «حريق!».

كان ذلك الصيف أكثر فصول الصيف المسجلة جفافاً فالمباني الخشبية كانت جافة كعشب الصوفان. في غضون دقائق قليلة كان اللهب قد انتقل من مصنع القبعات في الشارع الرئيسي إلى البنايات المجاورة. في تلك الآونة لم يكن في نانتوكت قسم مطافئ تابع للبلدية، اعتمدت المدينة فقط على شركات خدمات إطفاء خاصة. وعندما أخذ الحريق ينتشر في الشارع الرئيسي بسرعة مُقلقة، صار أصحاب البيوت يرسلون في طلب تلك الخدمات لمنع الحريق من بلوغ منازلهم. وبدلاً من التعاون فيما بينهم كوحدة واحدة، عملت كل شركة في جهة مختلفة، ممّا سمح للنار بالتفاقم إلى حريق غير قابل للسيطرة عليه.

إدى تصاعد الحرارة المتسارع لنشوء تيارات هوائية تجري في الشوارع الضيقة، ناشرة اللهب في كل الاتجاهات. طارت الشظايا المشتعلة مع الريح وهبطت على أسطح البيوت التي حسبوا أنها في أمان. وفي محاولة لاحتواء السعير، فجّر إطفائيو المدينة بعض البيوت بالديناميت، أضافت الانفجارات على رعب وقلق السكان في تلك الليلة رعباً وقلقاً. بيت أوين تشايسَ في شارع أورانج كان في أقصى الجنوب بما يكفي لتفادي النيران، لكن بيت بولارد في الشارع المركزي كان في

t.me/qurssan

.. مسارها المباشر. وبمعجزة ما، حملت تيارات الحمل الحراري الشبيهة بالإعصار، النارَ شرقاً تجاه المرفأ، قبل أن تبلغ بيت المراقب الليلي. نجا بيت بولارد برغم دمار كل البيوت في الجانب الشرقي من شارعه.

سرعان ما وصلت النار إلى الواجهة البحرية. تصاعد من مستودعات الزيت في البداية دخان أسود، ثم اضطرمت باللهب. ومع انفجار البراميل، اندفع نهر من اللهب السائل بين الأرصفة إلى المرفأ. إحدى شركات الإطفاء شغلت محركاتها في المراسي الضحلة لتضخ مياه البحر على الأرصفة. أدرك الرجال متأخرين أن خيطاً زاحفاً من الزيت المشتعل قد أحاط بهم. خيارهم الوحيد كان الغوص تحت المياه والعوم حتى النجاة. دُمّرت محركاتهم الخشبية، لكنهم نجوا.

بحلول الصباح التالي، كان أكثر من ثلث المدينة -ما يشمل تقريباً كامل المنطقة التجارية- قد أصبح قفراً متفحماً. لكن الواجهة البحرية كانت أكثر ما تضرر؛ فقد احترق زيت العنبر ولم يبق منه حتى الرماد. قيل إن اللوياثان قد حقق انتقامه أخيراً.

وسُرعان ما بُنيت المدينة من جديد، من الطوب غالباً هذه المرة. حاول أهل الجزيرة طمأنة أنفسهم أن انتكاسة أعمال التحويل مؤقتة. ثم بعد عامين، في 1848، ظهر الذهب في كاليفورنيا. استسلم مئات النانتوكتيين لغواية الثراء السهل في الغرب. هجروا أعمالهم كحوّاتين، وتزاحموا، كركاب عاديين هذه المرة، على السفن المتوجهة إلى سان فرانسيسكو، السفن ذاتها

t.me/qurssan

التي طاردوا فيها من قبل حيتان العنبر الهائلة. صار مضيق البوابة الذهبية[1] مقبرة لعدد لا يحصى من سفن التحويت النانتوكتية بعد أن هجرتها طواقمها، وتُركت للتعفن في السهول الطينية.

قبل استخراج إدوين دريك للبترول من أرض مدينة تيتوسفيل في ولاية بنسيلفانيا عام 1859 بكثير، كان مصير الاقتصاد النانتوكتي قد حُسم. وعلى مدار السنوات العشرين التالية، سيتقلص عدد السكان من عشرة آلاف إلى ثلاثة. كتب أحد الزوار: «أصبحت لنانتوكت الآن هيئة الموت، مثل تلك التي تجدها في بعض مدن نيو إنغلند. تنتصب بيوتها المتناثرة في دعة زائلة، على وجوه أهلها نظرة حالمة، كما لو أنهم يعيشون في ذكريات مضت». ورغم أن صناعة التحويت ستستمر من ميناء نيو بيدفورد حتى عشرينيات القرن العشرين، إلا إن الجزيرة التي كان اسمها مرادفاً للتحويت ذات يوم ستتوقف عن كونها ميناء تحويت بعد أربعين عام فقط من مغادرة الإسّكس. في السادس عشر من نوفمبر 1869، أبحرت من مرفأ نانتوكت سفينة البلوطة، آخر حوّاتة، ولم تعُد قطّ.

في مواجهة ما قال عنه ملفيل «دمار لا يعرف الرحمة»،

---

(1) مضيق البوابة الذهبية Golden Gate: هو المضيق البحري الذي يربط بين خليج سان فرانسيسكو في قارة أمريكا الشمالية والمحيط الهادئ. بُني فوقه جسر البوابة الذهبية الشهير، الذي يشتهر كعلامة مميزة لولاية سان فرانسيسكو الأمريكية. [المترجم]

t.me/qurssan

اتضح أن تعداد حيتان العنبر في العالم كان مرناً إلى حد جدير بالإعجاب. تقول التقديرات إن النانتوكتيين وباقي قتلة الحيتان الأمريكيين، حصدوا أكثر من 225 ألف حوت بين 1804 و1876. عام 1837 كان أفضل أعوام التحويت في ذلك القرن، قُتل خلاله 6,767 حوت عنبر على أيدي الحوّاتين الأمريكيين. (على سبيل المقارنة المزعجة، عام 1964 كان ذروة أعوام التحويت المعاصر، قُتل خلاله 29,255 حوت). يؤمن بعض الباحثين أنه بحلول ستينيات القرن التاسع عشر، ربما قلص التحويت عدد حيتان العنبر في العالم بنسبة 75٪، فيما يقول آخرون إنه انكمش فقط من 8٪ إلى 18٪ على الأكثر. أياً كان الرقم الأقرب إلى الحقيقة، فحيتان العنبر أفضل حالاً من باقي الحيوتيّات التي سعى لصيدها الإنسان. في العالم الآن حوالي المليون والنصف أو مليوني حوت عنبر، ما يجعلها أكثر حيتان العالم الضخمة وفرة.

بحلول 1845 كان الحوّاتون واثقين من أن احتياطي حيتان العنبر لم يكن في طريقه إلى النفاد. لكنهم لاحظوا وعلقوا على تغير سلوك الحيتان. كتب أحدهم: «صارت بلا شك أكثر وحشية، أو مثلما يقول بعض صيادي الحيتان أكثر تخويفاً ، ما يجعل صيده أكثر صعوبة». مثل الحوت الذي هاجم الإسّكس، صار عدد حيتان العنبر المقاتلة في تصاعد.

في 1835، اضطر طاقم الحوّاتة الإنجليزية بيوزي هول إلى التراجع الكامل بسبب ما أطلقوا عليه «حوتاً مقاتلاً». فبعد أن دحر أربعة قوارب تحويت، طاردهم الحوت حتى سفينتهم. ألقى الرجال حراباً عدة على الحوت حتى اقتنع بالتراجع. في 1836،

ضرب حوتٌ الحوّاتة النانتوكتية ليديا وأغرقها، وحدث المثل مع سفينة الجينرالين بعد بضعة سنوات. في 1850، نطح حوت سفينة بوكاهانتس من مارثاز فينيارد، لكنها استطاعت اللجوء إلى ميناء للإصلاح. ثم في 1851، السنة التي نُشرت فيها موبي-دِك، هاجم حوت حوّاتة في المياه ذاتها التي غرقت فيها الإسكس قبل واحد وثلاثين عاماً.

كانت آن أليكسندر، سفينة التحويت النيو بيدفوردية، تحت قيادة واحد من أكثر القباطنة سمكيّة في المحيط الهادئ، جون ديبلويس. في خطاب لأحد مالكي السفينة، تبجح ديبلويس بأنه نجح في قتل كل حوت ربطه بالحربون. لكن في أغسطس 1851، في الجنوب الملاصق لخط الاستواء، وعلى بعد خمس مئة ميل شرق غالاباغوس، قابل القبطان ديبلويس ندّه.

كان حوتاً ذكراً ضخماً وحيداً، ما أطلق عليه ديبلويس «زميلاً نبيـلاً». نزل قاربان، وبدأت المعركة؛ ولم يمضِ وقت قبل أن يهجم الحوت على قارب الضابط، كتب ديبلويس: «وفي لحظة صار [القارب] ممزقاً مثل ورقة بين فكيه الهائلين». بعد انقاذ طاقم الضابط الأول، جاء الضابط الثاني في قارب تحويت آخر وانضم للقبطان، ثم قسم طاقم القارب المتحطم على قاربيهما، وتابعا المطاردة. لكن على الفور هاجم الحوت قارب الضابط الثاني ودمره تماماً. اضطر ديبلويس لوقف المطاردة وانتشال الطاقم المشتت، والعودة إلى آن أليكسندر.

عند هذه النقطة، بحسب حكاية ديبلويس، «غلى الدم في عروقي، وعزمت عزماً لا رجعة فيه على قتل ذلك الحوت مهما

t.me/qurssan

كان الثمن». وقف القبطان عند مقدمة سفينته حاملاً الحربة في يده، ووجه مدير الدفة إلى الاتجاه المطلوب. ظل الحوت، الذي كان بحسب ديبلويس «وحشاً داهيةً»، في مكانه، سامحاً لهم بالاقتراب، فقط ليسرع قبل أن يقذف القبطان سلاحه.

فجأة، غطس الحوت، ثم دار ليبرز على السطح على بعد ياردات من مقدمة السفينة. ألقى ديبلويس حربته، لكن بعد فوات الأوان. نطح الحوت برأسه الهائلة مقدمة السفينة، أوقعت قوة الضربة ديبلويس أرضاً. هرع القبطان من فوره لتفقد الضرر في القاع، مقتنعاً أن آن اليكسندر تهشمت، لكن كل شيء بدا سليماً في مكانه.

أمر ديبلويس رجاله بإنزال قارب آخر، لكن الضابط اعترض، قائلاً إن ذلك بمثابة الانتحار. وبما أن الغسق كان قد أزف، فقد قرر ديبلويس الانتظار حتى الصباح وهو لا يكاد يفعل. كتب القبطان: «ما أن أعطيت أوامري، حتى لمحت ما بدا لي كظل». كان الحوت يندفع بسرعة في المياه تجاه آن أليكسندر، ثم صدم السفينة « صدمة مرعبة، هزت كل ما فيها، من العارضة الأمامية إلى الكوثل».

وحتى قبل وصوله لقاعها لفحص الضرر، كان بوسعه سماع المياه تملأ المخزن. هرع القبطان إلى قمرته ليحضر عدته الملاحية التي سيحتاجونها في قوارب التحويت. وبينما جهز الضابطان قاربي التحويت المتبقيين، ذهب القبطان إلى القاع مرة أخرى، لكن القمرة صارت مليئة بالمياه لدرجة اضطرته للعوم حتى يخرج منها. ومع بلوغه السطح كان القاربان قد جدّفا

t.me/qurssan

مبتعدين عن السفينة. قفز من الحاجز وأخذ يعوم حتى قارب الضابط.

وعلى الفور شرع الرجال، بكلمات ديبلويس، «في إلقاء اللوم عليّ بقولهم أيها القبطان، كم خاطرت بحياتنا! . أجبتهم قائلاً أيها الرجال، لا تحملوني الخطأ! كنتم متلهفين على امساكه مثلي تماماً، ولم تكن لدي أدنى فكرة أن شيئاً مثل هذا قد يحدث».

في الصباح التالي عادوا إلى الحطام. هرع ديبلويس إلى جانب السفينة حيث رأى «آثار أسنان الحوت على النحاس... وحفرة قطرها بالضبط مثل حجم رأسه». فيما كان ديبلويس يقطع صواري سفينته، ظل جرس السفينة يرن في إيقاع كتنفس البحر. «أحزن الأصوات وقعاً على أذني، بدا وكأنه يقرع لموتنا».

كانت السفينة مغمورة إلا قليلاً، وفوق راس القبطان كانت الأمواج تتلاطم. أخيراً انضم له الضابط، وأخذا معاً يحاولان صنع فتحة في السطح للبحث عن بعض المؤن والمياه. بحلول الظهر، وجد نصف الرجال الأربعة والعشرين الشجاعة الكافية للتسلق إلى سطح السفينة بحثاً عن طعام. قال بعضهم متذمرين أن عليهم الإبحار من فورهم إلى ماركيساس الواقعة على بعد ألفي ميل غرباً. طلب ديبلويس من الطاقم الاجتماع عند حاجز السفينة، حيث سألهم إن كانوا يريدون نصيحته، أومأ أغلبهم إيجاباً؟ ورغم علمه أن هذا لم يكن ما يريدون سماعه، قال لهم أنه لا يوجد ما يكفي من المؤن لأخذهم إلى ماركيساس. بدلاً من ذلك، عليهم الإبحار بقواربهم شمالاً تجاه خط الاستواء، حيث قد تلمحهم سفينة متوجهة إلى كاليفورنيا. وافق الرجال على

t.me/qurssan

مضض. قبل رحيلهم، ثبت ديبلويس بمسمار في درابزين الكوثل رسالة كتبت على عجالة تقول «أنقذونا، نحن أرواح مسكينة، أبحرنا بقاربينا شمالاً مع الريح».

كان في قارب الضابط اثنا عشر رجلاً، وفي قارب القبطان ثلاثة عشر. أراد الرجال البقاء معاً، لكن كان لديبلويس مرة أخرى رأي مختلف. «قلت لهم كلا، أرى أن يبحر قارب إلى الأمام بسرعة، والآخر يتبعه في المسار ذاته. هكذا إن وجد الأول نجدة، على بعد مئة ميل مثلاً، سيكون بوسع المنقذين أن يلحقوا بالقارب الآخر».

«مشهد افتراقنا كان مهيباً. حسبنا أننا لن نرى بعضنا مرة أخرى في هذه الحياة. حتى أكثر الرجال شجاعة، الذين خبروا كل أنواع المخاطر، انهاروا وبكوا كما الأطفال». اندفع قارب الضابط إلى الأمام. ولم يمض وقت طويل قبل أن يطالب طاقم ديبلويس بالأكل. كانوا بلا طعام ولا شراب طوال الساعات الأربع والعشرين المنقضية. لكن قبطانهم شعر أنه لا يزال من المبكر البدء في تناول القليل من الطعام الذي لديهم. كتب: «امتلأ عقلي بكل ما سمعت من حكايات غرق السفن، التي التجأ فيها الرجال المتضوّرون إلى أكل أجساد رفاقهم». فكر بالطبع في الإسكس وكيف اقترع بعض رجالها. «مثل هذه الصور كانت كافية لإثارة جنون المرء، عندما يشعر أن مثل تلك المحنة تقبع في انتظاره».

عند الغسق، وقف ديبلويس على مؤخرة قاربه، لينظر مرة أخيرة قبل أن يسقط الظلام بالكامل. في المدى البعيد، بعد قارب الضابط، رأى شراع سفينة. «حاولت أن أصرخ ثمة شراع!

t.me/qurssan

، لكني لم أقدر على التفوه بكلمة». ومع هبوط الليل، كان أفراد الطاقم جميعاً آمنين على متن الحوّاتة نانتوكت.

بعد خمسة أشهر، نجح طاقم الحوّاتة ريبيكا سيمز في قتل الحوت الذي أغرق آن أليكسندر. وقتها بدا الحوت «عجوزاً مريضاً منهكاً». كان جانباه متهدلين، وقد تدلت منه الحراب والحرابين الملتوية، وفي رأسه استقرت شظايا كبيرة. من ذلك الحوت حصدوا بين السبعين والثمانين برميل زيت.

عندما وصلت أنباء غرق آن أليكسندر إلى هرمان ملفيل، لم يكن بوسعه إلا التساؤل إن كانت روايته المستندة إلى غرق الإسّكس، قد استحضرت بشكل غامض الحوتَ محطِّم السفن؟ كتب في رسالة إلى صديق: «يا للآلهة! يا له من معلِّق حوتُ آن أليكسندر هذا... أتساءل إن كان لفني الشرير أي دورٍ في جلب هذا الوحش!».

بعدما كانت نانتوكت ذات يوم عاصمة التحويت في العالم، باتت شبح مدينة لا أكثر حينما حان أجل آخر الناجين من الإسّكس. تشارلز رامزديل كان أول من مات من الناجين النانتوكتيين في 1866. وقد عُرف عنه طيلة حياته التكتم فيما يخص الإسّكس، عاد هذا جزئياً، بحسب تخمين أحد سكان الجزيرة، لدوره في إعدام أوين كوفين.

ولم تكن الشيخوخة رحيمة بأوين تشايس. فذكرى معاناته في القارب المفتوح لم تفادره قط، وفي سنواته المتأخرة، بدأ يخبئ الطعام في عليّة منزله في شارع أورانج. وبحلول عام 1868 تقرّر أنه أصيب بالجنون. نوبات الصداع التي بدأت تنتابه منذ

t.me/qurssan

الحادثة صارت غير محتملة. متشبثاً بيد أحد الموجودين كان يبكي، «رأسي! يا رأسي!». انتهت معاناته بالموت في 1869.

تبع جورج بولارد ضابطه الأول السابق في العام التالي. كان نعيه حريصاً على ذكر أن سمعته في الجزيرة كانت تفوق صفته كقبطان الإسّكس. «لأكثر من أربعين عاماً عاش بيننا، تاركاً سجلاً كبيراً يحكي عن رجل طيب فاضل هو كل إرثه».

في سبعينيات القرن التاسع عشر، عاد توماس نيكرسون إلى نانتوكت، وانتقل إلى منزل في شارع نورث ووتر لا يبعد كثيراً عن حيث دُفن والداه في المقبرة الشمالية القديمة. وبدلاً من الحيتان، صار النانتوكتيون يطاردون زوار الصيف، وصارت لنيكرسون سمعة صاحب واحد من أفضل أنزال المدينة. أحد ضيوفه كان الكاتب ليون لويس، الذي اقترح عليه، بعدما سمع نيكرسون يحكي عن الإسّكس، أن يتعاون معه في وضع كتاب عن المأساة.

كان نيكرسون قد تحدث مع تشارلز رامزديل عن تجربته على قارب بولارد، وتحدث أيضاً مع سيث ويكس في كيب-كود عن وقته على جزيرة هندرسون. ما جعل سردية نيكرسون تحتوي على معلومات لم تتوفر لتشايس. وتضمنت أيضاً تفاصيل هامة عن الرحلة قبل هجوم الحوت. لكن نيكرسون، مثل تشايس قبله، لم يتوان عن ضبط حكايته لكي تناسب أغراضه. لأنه لم يرغب في أن يُذكر كآكل للحوم البشر، فقد ادعى أن الرجال على قارب تشايس لم يأكلوا جثة إيزاك كول، بل أصر بدلاً من ذلك أن ما أبقاهم أحياء كان الخبز الإضافي الذي توفّر لهم بعد

t.me/qurssan

وفاة كول وبيترسون. واختار أيضاً أن لا يعيد حكاية كيف أنه قرر فجأة، وقرب نهاية المحنة، أن وقت موته قد حان.

في أبريل 1879، مات آخر رفاق نيكرسون على قارب الضابط الأول، بينجامين لورنس. احتفظ لورنس طوال حياته بقطعة الحبل التي جدلها إبان رحلتهم في القارب. في مرحلة ما انتقلت حيازتها إلى أليكسندر ستاريك، النانتوكتي الذي اضطلع بدور أوبيد مايس كمؤرخ الجزيرة. في 1914، سيتبرع ستاريك بقطعة الحبل الملفوفة أربع مرات في ملف صغير مستقرة في إطار انيق إلى جمعية نانتوكت التاريخية. كُتب داخل الدائرة التي شكلها الحبل في الإطار «كانوا في القارب 93 يوماً».

قبل ثمانية عشر عاماً، في 1896، كانت جمعية نانتوكت التاريخية قد استقبلت تبرعاً آخر له علاقة بالإسّكس. فبعد غرق السفينة ببعض الوقت في نوفمبر 1820، عُثر على صندوق صغير مساحته عشرة في عشرين بوصة، طافياً بالقرب من مكان الحطام. مغلّفاً بالجلد ومرصعاً بالمسامير النحاسية، ربما استخدمه القبطان بولارد للاحتفاظ بأوراق السفينة. التقطه طاقم سفينة عابرة واشتراه منهم جون تابر، الحوّات الذي كان في طريقه إلى مدينة بروفيدنس في رود آيلاند. في 1896، قررت ابنة تابر التي كانت قد انتقلت إلى غاريتسفيل في أوهايو أن هذا الصندوق ينتمي إلى نانتوكت، وتبرعت به إلى الجمعية التاريخية.

وذلك كل ما تبقى من الإسّكس، صندوق مُهشم وقطعة حبل مهترئة.

t.me/qurssan

خاتمة
عظام

مبكراً في صباح الثلاثين من ديسمبر 1997، تلقت إيدي راي، منسّقة فريق نانتوكت للثدييات البحرية الضائعة، مكالمة تيليفونية. لقد جرفت الأمواج حوتاً بالقرب من سياسكونسيت في أقصى شرق الجزيرة، قبالة السهل الرملي المنخفض المعروف باسم كودفيش بارك. كانت فتحة النفث على رأس الحوت ترش المياه؛ أي أنه ما زال حياً. بعد قليل صارت راي في سيارتها المنطلقة على طريق مايلستون، سبعة أميال من الأسفلت تربط مدينة نانتوكت بالحافة الشرقية للجزيرة. كان الطقس شديد البرودة وثمة عاصفة على وشك الهبوب، والعصفات الجليدية تضرب السيارة.

علمت راي أن الموج سيكون عنيفاً في كودفيش بارك. في العقد الأخير، أكلت العواصف الشتوية حوالي خمسين ياردة من نهاية الجزيرة الشرقية. بصوت كالرعد تضرب الأمواج الهائلة التي سافرت ثلاثة آلاف ميل قادمة من سواحل البرتغال شاطئ الجزيرة؛ وفي خلال ستة أعوام فقط، اختفى ستة عشر منزلاً من مواقعها القريبة من البحر. منها ما نُقل ومنها ما حطّمته الأمواج ومنها ما جرفته معها إلى البحر. لكن هذه المرة، لم تأخذ الأمواج شيئاً، وإنما جلبت.

t.me/qurssan

رأت راي الحوت أخيراً. عملاق أسود هائل قبالة الحافة الشمالية من كودفيش بارك. كان حوت عنبر، نوعاً من الحيتان لم تشهده من قبل هذه المياه، عالقاً في المياه الضحلة على بعد 150 ياردة من الشاطئ. رأسه الشبيه بالمكعب كان يشير إلى الشاطئ، وعليه انهمرت الأمواج كالمطارق، وذيله يتقلب في المياه مع كل ضربة. وقد جعل ارتفاع الموج التنفّس عليه عسيراً.

سيتضح لاحقاً أن الحوت أُصيب، قبل أن يحمله البحر إلى مياه نانتوكت، بكسر في عدة ضلوع، نتيجة لارتطام إما مع سفينة أو مع حوت آخر. كان ذكراً طوله ستة وأربعونَ قدماً، نصف طول الحوت الذي أغرق الإسّكس. ضعيفاً مريضاً مشوشاً، لم يجد في نفسه القوة على مواجهة الأمواج. كان ذلك مشهداً مؤلماً لراي. كانت مدربة لمساعدة الثدييات التائهة، بما فيها الحيتان والفقمات، لكنها وبقية أعضاء فريقها الآن عاجزون عن مساعدة ذلك الكائن العملاق.

انتشر في أرجاء الجزيرة أن ثمة حوت عنبر عالق في مياه كودفيش بارك. بحلول العصر كان حشد قد تجمع برغم البرد القارس. استاء الكثيرون بسبب عدم اتخاذ أي اجراء لتقديم المساعدة. صار الجرح القريب من فمه واضحاً للناظرين، وصنعت دماؤه النازفة غيمة حمراء صغيرة في الماء. أوضحت راي ورفاقها أن الأمواج العالية وضخامة حجم الحوت جعلا من المستحيل عمل أي شيء، عدا المشاهدة.

بحلول العصر، كانت الطائرة التي تحمل أعضاء طاقم معرض الأحياء المائية في نيو إنغلند، الذين يتابعون حركة

t.me/qurssan

الحيتان التائهة في نطاق 2500 ميل من الساحل، قد وصلت من بوسطن. مع ارتفاع المد، استطاع الحوت من تحرير نفسه من المياه الضحلة، فقط لتُعيده إليها الأمواج. كان كلما استطاع تحرير نفسه، جرفته اندفاعة موج إلى الجنوب، بينما الحشد الذي يتابعه ويشجعه على الشاطئ يمضي خلفه. وأخيراً قبل غروب الشمس بقليل، استطاع الحوت من تحرير نفسه من الموج، وعامَ إلى المياه المفتوحة. هرعت راي وبعض القادمين من نيو إنغلند إلى سيارتها، وانطلقوا إلى رأس توم نيفرز، وهو جرف في الجنوب، آخر مكان شوهد الحوت فيه. استطاعوا لمحه هناك عدة مرات قبل أن يختفي تماماً مع الضوء المتلاشي.

في الصباح التالي، الحادي والثلاثين من ديسمبر، وُجد الحوت منجرفاً على الشاطئ المنخفض بين كودفيش بارك ورأس توم نيفرز. كانت الريح قد هدأت بما يكفي ليستطيع أعضاء فريق الثدييات التائهة وفريق معرض الأحياء البحرية الاقتراب من الحوت، الذي كان لا يزال على قيد الحياة، لكن بالكاد. بحلول الظهيرة كان قد مات.

إن متحف التحويت النانتوكتي، الذي يقع مكان ما كان من قبل مصنعاً للشموع العنبرية، يحتوي بالفعل على أعظم مجموعة في العالم من معدات التحويت والسكريمشا[1] والآثار من البحار

---

(1) السكريمشا scrimshaw: فن الزخرفة والنقش والنحت على العظام والعاج، وتشير الكلمة عادة إلى الأعمال الفنية التي كان يصنعها الحوّاتون من عظام وأسنان الحيتان. [المترجم]

t.me/qurssan

الجنوبية. ويحتوي حتى على هيكل عظمي لحوت زعنفي جرفه البحر إلى الجزيرة في ستينيات القرن العشرين. إضافة هيكل حوت عنبر -الكائن الذي بُنيت عليه سمعة الجزيرة- سيكون بمثابة واسطة العقد لمجموعة المتحف. علاوة على ذلك، فإن هيكلاً عظمياً لحوت عنبر، سيسمح للنانتوكتيين إدراك هول وفخامة الحوت بشكل مباشر، بتقديم الإجلال والاحترام للكائن الذي سخّر أسلافهم حيواتهم لقتله.

في الثاني من يناير، شرع فريق من العلماء -أغلبهم من معرض نيو إنغلند للأحياء المائية- في تشريح الجثة وتصويرها، وجمع عينات الدماء والأنسجة التي ستساعدهم لاحقاً في تحديد ما الذي كان الحوت يعاني منه. ثم اتضح أن الحوت كان يتحلل أسرع مما توقعوا، ما أشار إلى أنه كان مريضاً للغاية قبل موته. باستخدام المشارط والملاقط والسكاكين العملاقة، أخذ الفريق عينات من الرئتين والمعدات الثلاث والقلب الذي بحجم كرة البولينغ والكبد والطحال والأذن التي بحجم قبضة يد الرجل، الكامنة في مؤخرة الرأس.

وفيما عملت إحدى المجموعات في الجزء الأوسط من جسده، تسلّق أحد العلماء أعلى الحوت. وباستخدام أداة تحويت يابانية ذات مقبض طويل، صنع فتحة تجريبية طولها ستة أقدام في التجويف الداخلي، مطلقاً سراح انفجار غازي ألقاه جانباً وأغرق الجميع في نافورة دماء. على مدار الدقائق التالية، ظل جزء من الأمعاء الداخلية يبقبق من الشق ويسيل إلى الخارج. ورغم أن الحوت كان ميتاً منذ عدة أيام ومتروكاً في الهواء الطلق

t.me/qurssan

حيث درجة الحرارة تحت الصفر، فقد تصاعد البخار الساخن من طبقة الدهن التي تغطي الحوت في هواء يناير القارس.

انتهى التشريح في الثالثة عصراً. وصار عليهم الآن نزع أربعين طناً من الدهن المتعفن واللحم والأمعاء عن الهيكل العظمي. عند تلك النقطة، انضم لهم جيريمي سلافيتز وريك موركوم، وهما عضوان في طاقم إدارة متحف الجزيرة للتحويت. طلب موركوم من مديره استعارة بعض أدوات التحويت من مجموعة المتحف. وبعد بحث سريع، قرر أن ما يحتاجه هو سكين بوردينج boarding knife وجاروف تقطيع cutting spade، وجاروف العظام bone spade. ولم يمض وقت طويل قبل أن تتحول القطع الأثرية التي فقدت بريقها بمرور الوقت، إلى مشحوذة لامعة، جاهزة للاستخدام من جديد.

وحتى مع تسلح النانتوكتيين الآن بالمعدات المناسبة، فلا يزال عملهم مجهوداً قاصماً للظهر، ما جعلهم يقدرون حجم عمل التحويت الذي تطلبته المهنة في القرن التاسع عشر؛ حقّ قدره. لم يكن الدهن فقط صعب القطع حتى بأكثر الأدوات حدة، بل كان أيضاً ثقيلاً بدرجة ملحوظة. شريحة واحدة طولها أربعة أقدام وسمكها ثماني بوصات، وزنت 400 باوند [181.4كجم]. أما الرائحة، مثلما اتفق موركوم وسلافيتز، فكانت غير قابلة للوصف؛ إذ ظلت أعينهما دامعة طوال الوقت، وكمما فميهما طوال فترة عملهما. وكانا كل ليلة بعد عودتهما من العمل، يتركان ملابسهما أمام الباب الأمامي للمنزل، ليتخلصا منها تماماً في النهاية. وحتى بعد الاستحمام المطول، فقد كانا لا يزال بوسعهما

t.me/qurssan

شم رائحة اللحم المتعفن عالقة في جسديهما. ذات مساء، طبخت زوجة موركوم لزوجها شريحة لحم كبيرة، لعمله من الفجر إلى الغسق في يوم عطلته. لكن رائحة اللحم المقلي أصابته بالغثيان. لقد استوعب الآن تماماً أن الحوت ليس سمكة، بل حيوان ثديي.

في الثالث من يناير ثقبوا رأس الحوت وتدفقت منه العنبرية. في البدء كان سائلاً، بحسب تعبير موركوم، «رائقاً كالفودكا». ثم تحول بشكل سحري، إثر تعرضه للهواء، إلى مادة متجمدة غائمة أشبه بالشمع. في بضع ساعات، مُلئ كل دلو أو برميل متاح بالعنبرية، وظلّت هناك مع ذلك مئات الجالونات المتبقية. وصدف أن صياد سمك نانتوكتي كان يحتفظ في شاحنة سيارته بزورق صغير عرضه كوعاء للعنبرية. ليصير بعد قليل ممتلئاً حتى الشفير بالزيت. في النهاية جمعوا ما يقرب من مئة جالون من العنبر، واضطروا لترك ما قدروه بثلاث مئة جالون أخرى على الشاطئ.

بنهاية اليوم، كانوا قد أزالوا أغلب اللحم والدهن عن الهيكل العظمي، ودفنوا الفضلات في حفرة في الشاطئ، واحتفظوا بالعظام مؤقتاً تحت غطاء من التريبولين. استغرقهم لإكمال هذه المهمة ثلاثة أيام فقط، فيما كان يستغرقهم ثلاثة أسابيع للعمل على الحيتان العالقة الأخرى.

في النهاية، دُفنت العظام في حفرة لم يُصرح بموقعها، والفك والأسنان ذوات القيمة العالية دُفنت في حديقة منزل موركوم الخلفية، بعدما أقسم زوجته وأبناؤه على إبقاء ذلك سراً.

t.me/qurssan

واتباعاً لنصيحة عدد من الخبراء في المجال، قرر النانتوكتيون بناء أقفاص للعظام ووضعها في الميناء في الربيع التالي، متوقعين قدوم حيوانات نباشات الفضلات البحرية لتنظيف العظام مما تبقى من اللحم الملتصق. في اليوم التالي لعيد الأم، أخرج موركوم وسلافيتز وآخرون العظام من قبرها، كانت رائحتها لا تزال بنفس السوء، إن لم تكن أسوأ من رائحتها يوم دفنوها في يناير. وضع الفريق العظام في أقفاص، وأُنزلت الأقفاص في ماء الميناء بالقرب من برانت بوينت، حيث المياه راكدة نسبياً، وبوسع كل أنواع الكائنات البحرية، من السرطانات إلى الأسماك، تناول العشاء بلا إزعاج. باستثناء بعض العوالق، كانت العظام عند استخراجها بعد ستة أشهر نظيفة تماماً.

اليوم، تستقر العظام في سقيفة مخصصة لتخزين آثار جمعية نانتوكت التاريخية. في منتصف حجرة تحفها قطع مختلفة مثيرة للفضول، في منتصف غرفة مليئة بالتحفيات من قبيل زلاجة أثرية وأول ماكينة خياطة تدخل نانتوكت، تقبع قطع عظام حوت العنبر البيض المائلة إلى الرمادي: عظم الفك وأقراص العمود الفقري والضلوع الضخمة وعظام الزعانف الشبيهة بالأصابع. العظمة الأضخم بلا منازع هي الجمجمة، وتزن أكثر من طن، وتجلس في الخارج على مقطورة قارب.

العظام مُتشبعة بالزيت. هيكل حوت العنبر العظمي الموجود في جامعة هارفارد منذ أكثر من قرن، لا يزال ينضح دهناً. موركوم، الذي صارت وظيفته كمسؤول مقتنيات تتضمن العناية بالحوت، يغسل العظام النانتكوتية بهيدروكسيد الأمونيوم

ويبروكسيد الهيدروجين، مزيج يعمل على استخلاص الزيت. أنهت جمعية نانتوكت التاريخية بالفعل خططها لبناء متحف جديد، درة مقتنياته ستكون الهيكل العظمي لحوت العنبر.

تغيرت الجزيرة كثيراً في العقود الأخيرة. ما كانت قبل جيل واحد قرية صيد متداعية تشتهر بماضيها وبالسياح القليلين في يوليو وأغسطس، صارت منتجعاً صيفياً مزدهراً. بعد قرن من إهمال وسط المدينة النانتوكتي، رُمم من جديد. بدلاً من محلات خياطة الأشرعة والبقالة والحلاقة، صارت تحتوي على معارض فنية ومتاجر ملابس وقمصان راقية. ما كان لينثير حفيظة أي كويكري طيب من حقبة التحويت. بنى أصحاب الملايين النانتوكتيون الجدد منازلهم الفارهة على الشاطئ، متجاهلين أناقة الشارع الرئيسي المرصوف بالحصى. لا يزال الناس ينظرون من برج الكنيسة الأبرشانية، لكن بدلاً من فحص الأفق بحثاً عن الحوّاتات المحملة بالزيت القادمة، يشاهد السياح - الذين دفعوا دولارين للتعرق في أثناء صعودهم أربعة وتسعين درجة سلم- العبّارات السريعة التي تجلب سياح اليوم الواحد من كيب-كود.

في ذروة مجدها قبل 150 عاماً، قادت نانتوكت الأمة الوليدة إلى مصيرها كقوة عظمى. كتب ملفيل في موبي-دِك: «إذا شاءت أمريكا أن تضيف المكسيك إلى تكساس وأن تكدس كوبا فوق كندا فلتفعل، وليحتشد الإنجليز في طول الهند وعرضها مكاثرين أهلها عدداً، وليركزوا علَمهم الشهير على قرص الشمس، غير أن ثلثي هذه المعمورة المؤلفة من برّ وبحر من

t.me/qurssan

نصيب ابن نانتوكت». لكن إن كان أهل هذه الجزيرة قد خاضوا البحر من قبل إلى أبعد أركان العالم، فيبدو أن العالم هو من يأتي الآن إلى نانتوكت. ليس التحويت بالطبع هو ما يجلب السياح إلى الجزيرة، بل التبجيل الرومانسي للتحويت، بالنوع نفسه من الأساطير الذي تعلمت كل الأماكن المهمة تاريخياً في أمريكا كيفية صقله وتلميعه من أجل منافعها الاقتصادية. لكن، رغم السيرك -البعض يطلق عليها مدينة ملاهٍ- الذي صارت عليه نانتوكت المعاصرة، إلا أن قصة الإسكس أكثر تعقيداً وإرباكاً من أن يضمها كُتيب دعائي يصدر عن الغرفة التجارية.

على عكس سير إرنست شاكلتون ورجاله، الذين وضعوا أنفسهم بين يدي الخطر ثم جانبهم الحظ ليعيشوا مغامرة فانتازية عن الصحبة الذكورية والبطولة، فالقبطان بولارد ورجاله حاولوا ببساطة البقاء على قيد الحياة بعدما ضربتهم المأساة على هيئة حوت طوله خمسة وثمانون قدماً. بعدما فعلوا أقصى ما بوسعهم، لم يكن هناك مناص من ارتكاب الأخطاء. بينما كانت غريزة القبطان بولاد على حق، لم يمتلك قوة الشخصية الكافية لفرضها على ضابطيه الأصغر سناً. بدلاً من الإبحار إلى تاهيتي حيث الأمان، انطلقوا في مغامرة بحرية مستحيلة، وهاموا في صحراء الهادئ المائية حتى مات أغلبهم. مثل جماعة دونر، كان بوسع رجال الإسكس تجنب المأساة، لكن هذا لا ينتقص من مدى المعاناة التي عاشوها، ولا مقدار شجاعتهم، ولا انضباطهم المذهل.

أثنى البعض على مهارات ضباط الإسكس الملاحية، لكن

t.me/qurssan

الأكثر إثارة للإعجاب هي قدراتهم كبحارة؛ تمكّنهم من الحفاظ على قواربهم الصغيرة معتدلة ومبحرة لشهور ثلاثة في المحيط المفتوح. أبحر القبطان بلاي ورجاله مسافة مقاربة، لكن في حالتهم كان هناك ساحل أستراليا وسلسلة من الجزر لتتبّعها، بالإضافة إلى الرياح المواتية. استمرت رحلة بلاي ثمانية وأربعين يوماً، قوارب الإسكس ظلت في البحر ضعفي هذا الوقت تقريباً.

منذ البداية اتخذ النانتوكتيون الإجراءات لتوفير أفضل دعم ممكن لبعضهم بعضاً، دون المساومة بأمن الآخرين بشكل سافر. ورغم أن المؤن وُزعت على ما يبدو بالتساوي، لكن النانتوكتيين كانوا كما لو أنهم عاشوا في فقاعة آمنة فيما تساقط الأجانب عن الجزيرة، السود أولاً ثم البيض منهم، طوال الطريق، حتى لم يعد للنانتوكتيين، في حالة طاقم بولارد، أي خيار إلا أكل بعضهم. مأساة الإسكس ليست قصة مغامرة، بل هي حكاية تراجيدية صدف أنها واحدة من أعظم القصص الواقعية على الإطلاق.

لا يزال من الممكن إيجاد دليل على الكارثة والرجال الذين نجوا منها في شوارع نانتوكت. منزل القبطان بولارد ذو السقف الخشبي الأحمر في الشارع المركزي تحول منذ زمن إلى متجر هدايا. في ركن المبنى لافتة صغيرة تقول «بناه القبطان ويليام بروك عام 1760. امتلكه لاحقاً قبطان سفينة الإسكس بولارد الابن. هرمان ملفيل تحدث مع القبطان بولارد، الذي كانت حكايته أساساً لموبي-دِك». في الزمن الذي جُددت فيه منازل الجزيرة عدة مرات، يبقى بيت أوين تشايس واحداً من آخر البيوت التي لم تتغير في شارع أورانج. زخارفه الخضر المعتمة

t.me/qurssan

وألواحه الخشبية المبقعة بالمياه، تستحضر الاضطراب الكئيب الذي شهده القبطان في أعوامه الأخيرة. نُزل توماس نيكرسون، الذي كان يُسلي نزلاءه بحكايات الإسّكس، لا يزال منتصباً في شارع نورث ووتر، كجزء من مجموعة مبان تابعة لفندق كبير.

يُكرس متحف التحويت معرضاً صغيراً لحكاية السفينة التي أغرقها حوت. ثمة قائمة بأفراد الطاقم في رحلة الإسّكس قبل الأخيرة تتضمن توقيعات جورج بولارد وأوين تشايس وأوبيد هيندريكس وبينجامين لورنس وتوماس تشابل. وهناك سجل أوبيد مايسي للأرصفة، الذي سجل فيه التاجر والمؤرخ التفاصيل المالية التي تتعلق ببيع زيت الإسّكس في 1819. لسبب ما، جذع السفينة الذي وُجد طافياً في المحيط الهادئ بعد غرقها غير معروض. الذكرى الشخصية الوحيدة للكارثة، على الأرجح معروضة لأنها لا تتطلب سوى مساحة عرض قليلة في معرض مزدحم، هي قطعة الحبل التي جدلها بينجامين لورنس.

لكن هيكل حوت العنبر العظمي، الذي ينضح زيتاً في سقيفة جمعية نانتوكت التاريخية هو أكثر ما يتحدث عن مأساة حوّاتة الإسّكس بقوة. عظام الرفاق المُغذية كانت ما أنقذت حياة بولارد ورامزديل، اللذين ظلا متمسكين بها بعنف حتى بعد انتهاء المحنة. والعظام هي ما يتشبث به النانتوكتيون الآن، كتذكار ملموس للوقت الذي سخرت فيه الجزيرة نفسها لتحويل الحيتان إلى أموال.

في موبي-دِك يتحدّث إسماعيل عن رؤية هيكل حوت عنبر جُمع ورُكّب في بستان من النخيل على جزيرة في جنوب المحيط

t.me/qurssan

الهادئ. يقول: «ما أحمق وأجهل المرء الجبان الذي لم يتمرّس بالأسفار وهو يجرب أن يتصور هذا الحوت العجيب تصوراً شاملاً صحيحاً بالاستغراق في تأمل هيكله العظمي الميت المهزول... كلا، لا يدرك أحد الحوت وهو في كامل لبوسه إدراكاً صحيحاً حياً إلا وهو في قلب الخطر الوحَيّ، إلا وهو دون خطران شطيرتيه الغاضبتين، إلا وهو على أثباج البحر العميق المترامي». لكن، مثلما أدرك الناجون من الإسكس، بعد بلوغ النهاية، وبعد استهلاك كل الأمل والشغف والقوة، لا يبقى إلا العظام.

t.me/qurssan

ملاحظات

لكل من أراد الاستزادة بخصوص مأساة الإسكس، لا يوجد مصدر أغنى من (توماس فاريل هيفرنان - أغرقها حوت: أوين تشايس والإسكس). بالإضافة إلى النص الكامل من سردية تشايس، يتضمن كتاب هيفرنان كل الحكايات ذات الصلة التي تركها بقية الناجين خلفهم، باستثناء سردية نيكرسون بالطبع. فصول هيفرنان التحليلية -والتي تتضمن مناقشة ما حدث للناجين وكيف انتشرت حكاية الإسكس- هي مثال للدقة الأكاديمية وسلاسة القراءة. كتيب إدوارد ستاكبول (ضياع الإسكس، أغرقها حوت في منتصف المحيط) يتضمن ملخصاً وافياً لما حدث. مثلما يوجد في فصله عن المأساة في (صيادو البحر)، وهو كتاب مهم لكل من يرغب في معرفة المزيد عن نانتوكت والتحويت. مقدمة ستاكبول لكتاب توماس نيكرسون (ضياع سفينة الإسكس، أغرقها حوت)، الذي نشرته جمعية نانتوكت التاريخية (NHA) أيضاً مهمة. توجد طبعة جديدة من سردية نيكرسون متوفرة عبر دار بينغوين. رواية هنري كارليسلي (الرجل جوناه) تحوي معالجة فاتنة لمأساة الإسكس. رغم استخدام كارليسلي لرخصة الروائي مع بعض الحقائق -مثلاً بولارد في الرواية كان ابناً لمزارع، بينما تشايس هو من كان كذلك- إلا أن روايته تقدم تصويراً مقنعاً للمحنة ولمجتمع نانتوكت.

t.me/qurssan

مجموعة جمعية نانتوكت التاريخية تحوي كمّاً هائلاً من الوثائق المتعلقة بالإسكس. بالإضافة إلى سجل أوبيد مايسي للأرصفة، والذي سجل فيه كم من الزيت باعته السفينة بعد عودتها في أبريل 1819، وكيف قُسم العائد بين المُلاك والطاقم. ثمة وثائق تذكر ما تبقى من المؤن وكيف بيعت في مزاد ذلك الشهر، وتكاليف الإصلاحات في أمريكا الجنوبية. من تجميعة وثائق إدوارد ستاكبول وجمعية نانتوكت التاريخية، من الممكن وضع صور نسبية لبنية الطاقم على متن الإسكس قبل رحلتها الأخيرة.

أحبّ أيضاً لفت انتباه القارئ إلى أعمال لم تحظَ بالتقدير الكافي لاثنين من الحوّاتين اللذين أصبحا مؤلفَين. لأنه كان ناقداً دائماً للحوّاتين الكويكريين النانتكوتيين، فقد تجاهل مؤرخو الجزيرة ويليام كومستوك بالكامل تقريباً. لكن كتابيه (رحلة في المحيط الهادئ: وصف للعادات والأعراف والمعاناة على متن الحوّاتات النانتوكتية) و(حياة صامويل كومستوك)، الذي كان شقيق ويليام والقائد سيء السمعة لعصيان السفينة جلوب الدموي، يحتويان على أفضل السرديات الموجودة بخصوص التحويت في مطلع القرن التاسع عشر. أما ويليام هاسي مايسي فكان أكثر حوّاتي نانتوكت بلاغة وتبصراً على الإطلاق. لكن لسوء الحظ، فإن كتابه (ها هي تنفث!) منسيّ تماماً، بالرغم من أن عدداً من المؤلفين ذوي الشعبية اللاحقين اعتمدوا كتابه مصدراً للمعلومات. عملُ مايسي الذي عُرف بأنه كتاب أطفال كان أكثر بكثير من هذا، إذ وفر قصة دقيقة حية عن فتى يتعرف أول مرة على مدينة نانتوكت وعلى الحياة على ظهر حوّاتة.

t.me/qurssan

مقدمة: 23 فبراير 1821

نسختي من حكاية إنقاذ قارب الإسّكس الثاني تستند بشكل كبير إلى الوصف الذي قدمه تشارلز ميرفي في قصيدته ذات المئتين وعشرين مقطعاً، والتي نشرت عام 1877، تستقر نسخة منها في جمعية نانتوكت التاريخية. ميرفي كان الضابط الثالث على الدوفين، روى في قصيدته كيف شوهد القارب في اتجاه الريح قبل أن تهرع السفينة إليه لتبحث هويته. سجل العميد البحري تشارلز جودوين ريدجيلي في مذكراته أن الناجيين الاثنين كانا «في أسوأ حال ممكن؛ كانا غير قادرَين على التحرك عندما عُثر عليهما وهما يمصّان عظام رفاقهما الميتين المتناثرة في القارب، والتي كرها أن يتخليا عنها». (اقتبسه هيفرنان، ص99). لحكاية اكتشاف مخطوطة نيكرسون، انظر مقدمة إدوارد ستاكبول للطبعة الصادرة عن الجمعية عام 1984 (ص7) و(بروس تشادويك - غرق الإسّكس) في فصل «شراع». يمكن إيجاد سيرة ذاتية مختصرة لليون لويس في الجزء الثاني من (بيت بيدل وأدامز - ألبرت يوهانسن - ص183-186). قصيدة (ماضي أليم - تشارلز فيلبريك) موجودة في (لا أحد يضحك، لا أحد يبكي - ص111-127).

الفصل الأول: نانتوكت

تأتي تعليقات توماس نيكرسون من مخطوطته الأصلية (ضياع الإسّكس، أغرقها حوت) (مجموعة الجمعية التاريخية 106- مجلد 1). في بعض الأماكن وضعنا بعض التعديلات في

هجاء وترقيم كتابة نيكرسون، لتلائم قارئ زمننا المعاصر.

طبقاً لوالتر فولجر الابن، أحد أصحاب الإسّكس، كان هناك سبع وسبعون «سفينة ومركب من نانتوكت تعمل في مجال التحويت عام 1819» في كلا المحيطين الهادئ والأطلنطي، بما فيها خمس وسبعون سفينة في الهادئ فقط (مجموعة الجمعية التاريخية 118 - مجلد 71). في (يوميات أكثر الأحداث المثيرة للاهتمام، بدأها وسجلها أوبيد مايسي) (مجموعة الجمعية التاريخية 96 - السجل3 -13 نوفمبر 1814-27 أبريل 1822)، مايسي، الذي اضطلع بإجراء الإحصاء الرسمي للجزيرة في أغسطس 1820، سجل وجود 7,266 فرداً على الجزيرة.

قارن جوساياه كوينسي نانتوكت بسايلم عام 1801 (إيفرت كروسبي - نانتوكت في الطباعة - ص114). جوزيف سانسوم وضع تفاصيل مشهد واجهة نانتوكت البحرية عام 1811 (كروسبي - ص140)، وصف آخر مميز للأرصفة تجده عند ويليام إتش. مايسي - ها هي تنفث! (ص 12-15، 19-21). في كتاب رحلة في المحيط الهادئ يصف ويليام كومستوك رحلة قامت في نفس الإطار الزمني للإسّكس (ص6-7). تفاصيل الفتية النانتوكتيين عند الواجهة البحرية من مايسي (ص20).

تفاصيل الإسّكس موجودة في سجلها الأصلي العائد إلى 1799، الذي يصفها بأن لها «سطحين وثلاثة صواري، طولها سبعة وثمانون قدماً وسبع بوصات، عرضها خمسة وعشرون قدماً، وعمقها اثنا عشر قدماً وست بوصات، وتزن مئتين وثلاثة وثمانين طناً، [72/95] مربعة الكوثل، بلا شرفة ولا تمثال

t.me/qurssan

مقدمة» (هيفرنان - ص10). في قائمة المراكب المبحرة من نانتوكت عام 1815، أُدرجت الإسكس كسفينة غادرت الجزيرة يوم 13 يوليو، قائدها دانييل راسل وجورج بولارد الابن ضابطها الثاني وأوين تشايس أحد أفراد الطاقم. عادت في 27 نوفمبر 1816، أبحرت مرة أخرى 8 يونيو 1817 (مجموعة الجمعية التاريخية 335 - مجلد 976). القائمة الكاملة لأفراد طاقمها في رحلة 1817 موجودة في (مجموعة الجمعية التاريخية 15 - مجلد 57).

في كتابه القيم (سلة مهملات نانتوكت)، والذي يدين بالكثير لعمل ويليام إتش. مايسي السابق ها هي تنفث!، يقدم ويليام إف. مايسي تعريفاً للممشى «منصة مرتفعة على سقف العديد من البيوت النانتوكتية القديمة، منه ينظر الناس إلى البحر. لم يُدعى أبداً بممشى الأرملة أو ممشى القبطان أو ممشى الحوت مثلما يُكتب عنه كثيراً في أيامنا هذه [في 1916]، لكنه كان دائماً الممشى فقط، وجب التنويه عن ذلك للكُتاب والبقية». ذكر أوبيد مايسي المُذنّب بيومياته في 7 و14 يوليو 1819. تحدثت عنه جريدة نيو بيدفورد ميركيوري في أعداد 9 و23 يوليو. ذُكر أحد مُلاك الإسكس في سياق متصل بالمذنب في خطاب بتاريخ 16 يوليو من أحد المساهمين في بلايماوث. «السيد والتر فولجر من نانتوكت، كان هنا في ذلك الأسبوع، استدعته المحكمة كشاهد، وتابع ما بدأه في بيته من مراقبة المذنب. أحضر معه آلة سُدس وتيليسكوباً صغيراً». ذُكر ثعبان البحر في أعداد 18 يونيو و6 أغسطس من الميركيوري. حديثي عن تطور نظام عمل الهنود

t.me/qurssan

بالسخرة في نانتوكت يدين بالفضل لـ(عيون إبرام - ص 157 - 160). انظر أيضاً (دانييل فيكر - أول حوّاتي نانتوكت) في دورية (ويليام اند ماري كوارترلي).

لتفاصيل عن خطاب بيرك عن صناعة التحويت الأمريكية، انظر عملي (كل موجة ثروة: جزيرة نانتوكت وتحولها لأيقونة أمريكية) في دورية نيو انغلند كوارترلي. بدأ ويليام كومستوك وصفه لرحلة التحويت على حوّاتة نانتوكتية بمناقشة مفصلة لطريقة أهل الجزر المميزة في تكوين سلوكيات وثقافات فريدة، «قيل أن الجزر هي حضانات للعباقرة، وهو افتراض يمكن دعمه بسهولة إن استطعنا اثبات أن روما واليونان كانتا قطعتين صغيرتين منفصلتين من الأرض، تقعان في البحر الأبيض المتوسط وألمانيا هي جزء طافٍ من قارة أطلنطا الغارقة. لكني أفضل عزو ذلك الرأي إلى الوطنية المتعجرفة لجارنا (جون بول[1])، الذي قدمت جزيرته أشياء أكثر مما يستطيع العالم تحمل تكلفتها، وإن كنت أظن أن بوسع أمريكا مجاراته في برقها ورعدها». (رحلة إلى المحيط الهادئ - ص3). كان رالف والدو إمرسون في نانتوكت عام 1847، سجل في مذكراته أيضاً عن الجزيرة «شعوراً وطنياً قوياً» (الجزء العاشر - ص63).

في تاريخه، حكى أوبيد مايسي عن نبوءة التحويت وظهور إيتشابود بادكوك (ص45)، وقتل هاسي لأول حوت عنبر (ص48)،

---

(1) جون بول John Bull: تجسيد وطني للبريطانيين، يضاهي شخصية العم سام Uncle Sam في أمريكا. [المترجم]

t.me/qurssan

ومعرض حيتان العنبر الميتة عند الواجهة البحرية عام 1810 (ص151). وصف ج. هيكتور سانت جون دي كريفكور نانتوكت بأنها كثبان رملية مخصبة بالزيت في خطابات من مزارع أمريكي (ص142). لأنباء وصول الكويكرية إلى نانتوكت، انظر كتابي (بعيداً عن الشاطئ - الصفحات من 78 إلى 87) و(روبرت ليتش وبيتر جاو - نانتوكت الكويكرية - ص13-30). قصيدة بيليج فولجر مقتبسة في تاريخ أوبيد مايسي (ص279-281).

ويلكوم جرين كان الزائر الكويكري لنانتوكت عام 1821، الذي علّق على حالة الشوارع المزدرية ولاحظ استخدام ألواح مؤخرات السفن كأسياج. كتب جوزيف سانسوم عن تسمية شوارع المدينة (كروسبي - ص142). مقارنة والتر فولجر مجتمع المدينة بالأسرة في (كروسبي - ص97). تعليقات أوبيد مايسي بخصوص صلات القرابة النانتوكتية في تاريخه (ص66). لمزيد من الوصف التفصيلي لوسط مدينة نانتوكت انظر كتابي (بعيداً عن الشاطئ) (ص 7-10). انظر أيضاً (إدوارد ستاكبول - التجول في شوارع وأزقة نانتوكت). طبقاً لمقالة في جريدة نانتوكت إنكوايرر أند ميرور، 14 فبراير 1931، عاش في شارع أورانج ما يبلغ مجموعه 134 قبطاناً بحرياً.

في 1807 علق جيمس فريمان قائلاً: «ليس أكثر من نصف الذكور وثلثي الإناث الذين يحضرون لقاءات مجتمعات الأصدقاء، هم أعضاء فيه بالفعل». (كروسبي - ص132). تشارلز ميرفي -الرجل نفسه الذي كان على الدوفين وقتما عثرت على قارب الإسّكس- كتب قصيدة عن النظر إلى النساء

t.me/qurssan

إبان الاجتماعات الكويكرية، موجودة في مذكراته عن رحلته على سفينة ماريا بين 1832-1836، على ميكروفيلم في الجمعية التاريخية. وكتب في قصيدته عن «نزهة مع فتاة في تلال المطحنة». النانتوكتي ويليام كوفين، والد الرجل الذي كتب على الأرجح سردية تشايس عن الإسكس شبحياً، تحدث عن كيف كان خروجه من المدينة نادراً عام 1793 (مجموعة الجمعية التاريخية 150 - المجلد 78).

يحكي والتر فولجر عن تعلم الأطفال النانتوكتيين لمصطلحات التحويت الوامبانواجية «ما أن يعرفوا الكلام» (كروسبي - ص97). قصة الطفل الذي هاجم قطّ الأسرة بالحربون من ويليام ف. مايسي في سلة مهملات نانتوكت (ص23). فيما يتعلق بمجتمع نساء نانتوكت السري، انظر (جوزيف هارت - ميريام كوفين)، حيث كتب «ابنة صياد الحيتان تقل في أعين معارفها وتخسر مكانتها الاجتماعية إن تزوجت ابن يابسة» (ص251). رغم أن القصيدة التي تبدأ بـ «الموت للأحياء» كانت شائعة قبلها بزمن بعيد، لكن يبدو أنها كانت بين سلسلة من النُخب التي ألقاها المدعوون في مأدبة أقيمت للاحتفال برحلة سفينة اللوبر عام 1830 (نانتوكت إنكوايرر، 25 سبتمبر). إحصائيات الأطفال بلا آباء موجودة في (إدوارد باير - أمة نانتوكت - ص257). نقوش شاهدي قبر والدي نيكرسون مسجلة في (مجموعة الجمعية التاريخية 115 - الصندوق 2). كل ما يتعلق بأنساب طاقم الإسّكس النانتوكتيين مصدره سلالات العائلات النانتوكتية التي أُتيحت رقمياً مؤخراً بواسطة إليزا

t.me/qurssan

بارني. المعلومات عن آل نيكرسون تأتي من (عائلة نيكرسون - رابطة عائلة نيكرسون 1974).

تحدث كريفكور في خطابات مزارع أمريكي عن «الزوجات القويات» و«تزاورهن المتكرر» (ص157)، وكذلك عن استخدامهن للأفيون (ص160) وآثار الزواج (ص158). تعليقات لوكريشا موت بخصوص اختلاط الأزواج والزوجات النانتوكتيين في (مارغريت هوب بيكون - صديق شجاع - ص17). مذكرات إليزا بروك التي تحتوي أغنية الفتاة النانتوكتية في الجمعية التاريخية، احتفظت بمذكراتها بينما كانت في رحلة تحويت برفقة زوجها بين مايو 1853 إلى 1856. ناقشتُ ملاحظات كريفكور عن استخدام الأفيون في (سلسلة نانتوكت عن رسائل مزارع أمريكي) في دورية نيو إنغلند كوارتيرلي. لمناقشة عن «هو-لا-يزال-في-البيت» انظر كتابي بعيداً عن الشاطئ (ص257). لحكاية اكتشاف وجود «هو-لا-يزال-في-البيت» في نانتوكت، انظر (توماس كونغدون - عزاء السيدة كوفين) في (فوربس FYI).

سجل كريفكور «فاجئتني تلك الرائحة الكريهة التي قابلتني في أماكن عدة من المدينة؛ سببها كان زيت الحوت، ما يعني أنها لا مناص منها. النظافة المميزة لأولئك الناس لا تستطيع إزالتها أو منعها» (ص111). على ما يبدو أن الرائحة كان مبعثها زيت الحوت المناسب، على عكس زيت حوت العنبر، انظر (كليفورد أشلي - الحوّات اليانكي - ص56). في سرديته، يدعي أوين تشايس أن حبال الإسكس كلها تغيرت بالكامل قبل مغادرتها في صيف 1819. وصف ويليام إتش. مايسي تغليف قاع السفينة

بالنحاس في ميناء نانتوكت (ص14). عن متوسط أعمار الحوّاتات، انظر مطاردة اللوياثان لدايفز - ص240). روجر هامبيدج، بنّاء سفن في ميناء ميستيك، تحدث معي عن ظاهرة داء الحديد في سفن التحويت، موضحاً أن متوسط عمر السفينة هو عشرون عاماً، وهو ما أكده لانس دايفز (ص231). عبر أوبيد مايسي عن قلقه بخصوص حالة سفن التحويت في يناير 1822 بين يومياته. تحتوي قائمة بسفن التحويت وأصحابها عام 1820 على اسم جيدوين فولجر وأبنائه، كأصحاب الإسكس والأورورا (مجموعة الجمعية التاريخية 335 - مجلد 976).

التعليق المزدري لويليام كومستوك على الكويكريين النانتوكتيين في حياة صامويل كومستوك (ص39-40)، حيث تحدث أيضاً عن نزوع مُلاك السفن للتقتير في مؤن سفنهم (ص73). حسب دايفز عوائد الاستثمار التي يجنيها عملاء السفن عادة في نيو بيدفورد في مطاردة اللوياثان لدايفز (ص411)، لا شك أن ازدهار المُلاك النانتوكتيين عام 1819 كان حصاده مشابهاً، إن لم يكن أكثر. وصف سوء حال الاقتصاد في البر الرئيسي كان في عدد 4 يونيو 1819 من نيو بيدفورد ميركيوري، الذي اقتبس من مقال في بالتيمور فيدرال ريبابليكان. سجل دخول وخروج سفن أسطول التحويت النانتوكتي يمكن تتبعه في (تاريخ نانتوكت - أليكساندر ستاربك - ص428-433).

تحدث ويليام إتش. مايسي عن «ساحة نانتوكت الرئيسية» (ص15) وكيف كان الفتية يسخرون من خضر الأيادي (ص21). ويليام إف. مايسي وصف «مراقبة الممر» (ص140)، ووصف

t.me/qurssan

«manavelins» و(134ص) «rantum scoot» و(126ص) «foopaw» (ص131، والتعبير الشائع المستخدم لوصف أحول العينين (ص121). ويليام كومستوك حكى عن أكواد البري (رحلة في المحيط الهادئ – ص68). قبل أكثر من 50 عاماً، علق كريفكور عن رغبة النانتوكتيين شبه القسرية في البري، «نادراً ما يجلس الواحد منهم ساكناً، حتى عندما يذهبون إلى السوق، الذي هو (إن كان من الممكن استخدام هذا التعبير) بمثابة مقهى المدينة، إما لتبادل الصفقات أو مقابلة الأصدقاء، ثمة دائماً قطعة من خشب الأرز بين أيديهم، وبشكل غريزي فيما هم يتحدثون، يعملون على تحويلها إلى شيء ما مفيد، مثل سدادات براميل الزيت أو أي أداة أخرى» (ص156). قال جوزيف سانسوم إن كل من على الجزيرة كان يستخدم تعبيرات البحر (كروسبي – ص143). عينة من طريقة النطق المميزة للنانتوكتيين مُسجلة في «كلمات من اللغة الإنجليزية والمصطلحات الموازية لها عند الحوّاتين»، في حياة ويليام كومستوك (ص57).

يحكي أخضر اليد أديسون برات عن كيف فحصةُ صاحب السفينة وقبطانها (ص12)، يتحدث ويليام إتش. مايسي عن كيف يحكم المُلاك والقباطنة على الرجال من عيونهم وأجسادهم (ص19). يُخبر ويليام كومستوك عن خضر الأيادي الذين أصروا لانعدام خبرتهم على الحصول على أطول نسبة ممكنة (رحلة إلى المحيط الهادئ – ص11،12). يشرح ويليام إتش. مايسي كيف كان القباطنة لأول مرة هم آخر من في تراتبية اختيار طاقم جديد (ص19).

t.me/qurssan

استخدمت الإطار الزمني الذي وصفه نيكرسون لحساب متى عبرت الإسكس الحاجز النانتوكتي. وفر برات وصفاً مفصلاً لعملية تحميل حوّاتة نانتوكتية في تلك الفترة (ص13). طبقاً لريتشارد هنري دانا، «متوسط المخصصات الأسبوعية في سفن التحويت هو: ست أرطال من الخبز وثلاثة كوارتات[1] من الماء، ورطل ونصف من لحم البقر أو رطل وربع من لحم الخنزير في اليوم لكل رجل» (صديق الملاح - ص135). حكى ويليام إتش. مايسي عن كيف كانت الحوّاتة ممتلئة طوال الوقت، سواء بالمؤن أو بالزيت (ص33، 34).

يصعب تحديد عدد قوارب التحويت التي كانت في الإسكس بالضبط بعدما اختلف نيكرسون وتشايس في أمرها. كان بها على الأقل قاربان احتياطيان، ولم يكن من غير الشائع في تلك الفترة أن تحتوي السفن على ثلاثة قوارب احتياطية كما أشار كومستوك، «قاربا تحويت احتياطيان على الهيكل في الربع الأمامي، وثالث مثبت على العوارض التي تبرز من الكوثل، جاهز للنزول مع أي إنذار لحظي» (رحلة في المحيط الهادئ - ص14).

يصف برات ركوب مركب البريد من بوسطن إلى نانتوكت (ص11). طبقاً لجيمس ولويس هورتون، كان في نانتوكت تلك الآونة ثلاثة مجتمعات إفريقية أمريكية: القسم «الأسود» عند بيكون هيل في غرب بوسطن (حيث يقع متحف التاريخ الإفريقي الآن)، وشمالاً في المنطقة التي تحتلها الآن مستشفى

(1) الكوارت: ربع غالون. [المحرر]

t.me/qurssan

ماساتشوستس العامة، وبالقرب من الأرصفة في حي النهاية الشمالية. يقول آل هورتون أن حي النهاية الشمالية «كان ذات يوم أكبر حي سود في المدينة»، لكنه صار يخسر في المنافسة أمام بقية المناطق بدءاً من 1830 (ص4-5). في (عامان أمام الصاري) حكى هنري دانا عن طباخ أسود له زوجة تعيش في جادة روبينسون، بين شارعي هانوفر ويونيتي في النهاية الشمالية (ص179، .(180لمناقشة مختصرة عن المساواة النسبية التي استمتع بها السود على متن السفن، انظر (جيفري بولستر - بلاك-جاكس - ص1-6). يقدم جيمس فريمان وصفاً مختصراً لـ 1807 عن كيف استُبدلت القوة العاملة الهندية بالسوداء في صناعة التحويت النانتوكتية (كروسبي - ص135). يحكي كومستوك عن المعاملة القاسية التي تلقاها الأفريقيون الأمريكيون في (حياة صامويل كومستوك، ص73-38). يدعي ويليام إتش. مايسي أن سفن البريد التي تحمل لهم خضر الأيادي من نانتوكت كان يُشار إليها عادة بالنخّاسة (ص9، 17).

ويليام إف. مايسي عرف الـ(gam) بأنها «زيارات اجتماعية وتبادل حديث. كان المصطلح في الأصل يستخدم لوصف قطيع الحيتان، ولا شك أن استخدامه من قبل الحوّاتين مشتق من ذلك المصدر. عندما تتقابل الحوّاتات في البحر، تتوقف ويتبادل القباطنة الزيارات فيما تقضي السفن الوقت برفقة بعضها. وفي بعض الظروف المعينة يُسمح للبحارة بنفس الشيء» (ص126). في مستهل رحلته، يشعر أخضر اليد، الراوي في رواية ها هي تنفث!، «بالفخر ينمو بداخلي ببيتي العائم، الفخر نفسه الذي

t.me/qurssan

يشعر به كل بحار تجاه سفينته» (ص36). طبقاً لأشلي، تمتلئ حشية البحار إما بالقش أو بقشور الذرة، ويُطلق عليها «إفطار الحمار» (ص54). في 16 أغسطس 1819، بعد أربعة أيام من خروج الإسكس من نانتوكت، سجل أوبيد مايسي أن «الجراد دمر الجانب الأكبر من المحاصيل»، وذكرها أيضاً في سبتمبر. المعلومات بخصوص سفينة تشيلي تأتي من ستاربك (ص432).

الفصل الثاني، وقوع

الخطاب الذي كتبه مالكا الإسكس إلى القبطان دانييل راسل موجود في الجمعية التاريخية. زواج جورج بولارد وماري ريدل مقيّد بتاريخ 17 يونيو 1819 في سجلات الكنيسة الأبرشانية (التوحيدية الآن) جنوب نانتوكت. مثله مثل زواج أوين تشايس (ضابط الإسكس الأول) وبيجي جاردنر في 28 أبريل 1819، وماثيو جوي (الضابط الثاني) ونانسي سلايد في 7 أغسطس 1817. والمثير للاهتمام أن القس تلقى دولارين مقابل زواج جوي، و1.5 دولار مقابل زواج تشايس، و1.25 دولار مقابل زواج بولارد.

لتفاصيل عن تقسيم مسؤوليات الضباط خلال رفع المرساة، انظر (هنري دانا صديق الملّاح- ص139-140). المعلومات عن هيئة القبطان بولارد، تأتي من (جوزيف وارين فيني - نانتوكت، في مكان بعيد قبل زمن طويل - ص29)، بالإضافة إلى تفاصيل وفرتها حفيدة فيني ديانا تايلور براون، التي أشعر تجاهها بكل الامتنان لتوفيرها نسخة من مخطوطة جدها الأصلية. هيئة

t.me/qurssan

اوين تشـايس تسـتند إلى المعلومـات في قـائمـة أفـراد طـاقم الفلوريدا، أول سفـينة له بعـد الإسّكس، «خمسـة أقـدام وعشـر بوصـات طولاً، داكن البشـرة بني الشـعر» (هيفـرنان - ص120). في سجل نانتوكت للسندات الكتاب 22 (ص262)، جوداه تشايس، والد أويـن تشـايس، مُـقـيـد كـ «فـلاح». تعليـقـات أوين تشـايس بخصوص عدد الرحلات المطلوبة لتصبح قائداً تأتي من سرديته، مثل كل الاقتباسات التالية المنسوبة إليه. رغم ادعاء تشايس أنك تحـتـاج لرحلتين فـقـط لتـتـأهل كـقـبطان، يقـتـرح الواقـع أن أربع رحـلات كان الحـد الأدنى المعتـاد (ستيوارت فرانك - مراسـلات شخصية- 25 أكتوبر 1999). في الحوّات اليانكي، يصف كليفورد أشلـي استـخـدام الحـوّات للمـرفـاع (ص49-50)، ومـثله يفـعل فالكونر في (قاموس البحرية).

روبين ديلانو فـي (ترحـال ومغـامـرات روبين ديلانو) يتـحـدث عن التبدلات البحـرية الكبيـرة التي تحدث للضبّاط ما أن تغادر الحوّاتة النانتوكتيـة الجـزيرة (ص14). يصف ويليـام كومستوك «باصق النيران» في حياة صـامويل كومستوك (ص71)، ويحكي أيضـاً كيـف يلتـصق النانتـوكتـيـون ببـعـضـهم على متن الحـوّاتة (ص37). يصـف ويليـام إتش. مـايسي المنافسـة بين الضـبـاط بخصوص اختيـار طواقم القوارب (ص39)، ويتكهن أيضاً أن ربما كان نوح أول قبطان يلقـي خطبة على طاقمـه (ص40). تعليقـات برات بخـصـوص سكنى السود في القلعـة الخلفـيـة على سفـينة التـحويت النانتوكتـيـة من مذكراته (ص14-15). يحكي ريتشارد هنري دانا عن تفـضـيله للقلعـة الخلفـيـة (عـامان أمـام الصـاري

t.me/qurssan

ص85). ويتحدث جيفري بولستر عن تبادل الحكايات والنشاطات الأخرى في القلعة الخلفية (بلاك جاك ص88-89).

يصف ويليام إتش. مايسي علاج دوار البحر المتداول بين النانتوكتيين (ص19). خالص شكري إلى دون راسل، سليل قبطان الإسكس دانييل راسل، الذي ذكر لي تقليداً عائلياً بخصوص العلاج ذاته. طبقاً لأشلي، يستقر المراقبون في أطواق مثبتة على الصاري الملكي الرئيسي بدعامات بعلو الصدر فوق الدعامات المتقاطعة (ص49). لكن في هذه الفترة المبكرة نسبياً من التحويت، لا يوجد ما يثبت أن كان ثمة أطواق على صواري الحوّاتات النانتوكتية. كتب كومستوك في رحلة في المحيط الهادئ «يصنع القبطان دعامتين متقاطعتين، تُثبت إحداهما على رأس الشراع الرئيسي أعلى الصاري والأخرى في الشراع الأمامي أعلى الصاري، يكون هناك رجل متمركز في كل واحدة لمراقبة ظهور الحيتان، ويتبدل المراقبون كل ساعتين. دوماً في الأعلى هناك أحد موجّهي القوارب مع رجل آخر على الدعامة الثانية، لكي يراقب أحدهما، وينام الآخر سراً» (ص20). نقاشي بخصوص الشراع الإضافي المؤقت وحادثة الوقوع، يستند بشكل كبير إلى (جون هارلاند - فن الملاحة في عصر الأشرعة). طبقاً لهارلاند، خطر وقوع الشراع الإضافي في الماء ينطبق حتى على الشراع الإضافي المثبت أعلى الصاري. دليل دارسي ليفر للملاحة في 1819 يوفر معلومات مفصلة وموضحة بالرسم لثني الأشرعة الإضافية (ص82-83)، وفيه أيضاً قسم عنوانه «سفينة على أطراف عوارضها» (ص96-97). مخطط تيار الخليج الذي

t.me/qurssan

ِصمه بينجامين فرانكلين موجود في (كروسبي نانتوكت تحت الطباعة – ص88–89). طبقاً لهارلاند، عندما تُطوى الأشرعة ،تنزل أثقل الأشرعة وأكثرها بروزاً أولاً، والأفضل أن يكون ذلك قبل قدوم العاصفة. الأشرعة الإضافية (خاصة في أعلى الصاري وأسفله) ... عرضة للخطر عندما تضرب العاصفة السفينة دون استعداد» (ص222). قول البحرية المأثور ذُكر في (هارلاند – ص221) كما المصادر المقتبسة الأخرى.

يناقش هارلاند ما يحدث لسفينة مائلة تقترب من نقطة اللا-عودة. «مع الزوايا الكبيرة، يتزايد ذراع الاستعدال بمعدل سريع، بزاوية قد تصل إلى °45 درجة، بعدها يتناقص. ثم عند زاوية حرجة معينة، يتلاشى» (ص43). في قاموسه البحري يوفر فالكونر تعريفاً لـ (أطراف العوارض)، «يقال إن السفينة على أطراف عوارضها عندما تميل على أحد جانبيها بدرجة كبيرة حتى تصبح أطراف العوارض ذات وضع رأسي؛ من هنا يمكن القول عن الشخص النائم على جانبه أنه على أطراف عوارضه». يُخبر أديسون برات عن حادثة وقوع عند كيب كود: «أوقعتنا عاصفة رياحية ثقيلة على أطراف عوارضنا. نودي على الرجال جميعاً لثني الأشرعة، فيما كانت الأسطح... شبه عمودية، وفتحات التصريف كلها تحت المياه. الوسيلة الوحيدة للتحرك على السطح كانت عبر التمسك بالحواجز. تأرجحت السفينة بشدة والليل كان في غاية الظلمة» (ص17). خالص الشكر إلى تشاك جيج، الذي شاركني تجربته الشخصية الواقعية على متن سفينة التدريب ألباتروس في ستينيات القرن العشرين (أساس

t.me/qurssan

فيلم White Squall). ناقش هارلاند مخاطر الإبحار إلى الخلف (ص70، 222).

الفصل الثالث: أول دماء

ربما كان القنصل الأمريكي في جزيرة مايو من جزر الرأس الأخضر يعرف ضابط الإسّكس الثاني. كان كل من فرديناند جاردنر وماثيو جوي من عائلات نانتوكتية انتقلت إلى هدسون نيويورك، حيث كانت هناك محاولة لتأسيس ميناء تحويت نانتوكتي الأصل بعد الثورة.

وصفي لصيد الحوت يستند لمصادر متعددة، أهمها تلك التي وفرها ويليام إتش. مايسي وكليفورد أشلي؛ و (ويليتس أنسل - قارب التحويت)، وكم المعلومات المذهل الموجود في (دليل قوارب التحويت) الذي وضعه طاقم ميناء ميستيك البحري، خالص شكري لـ ماري كي. بيركو لتمكيني من الوصول إلى ذلك الدليل. وصف كيف كانت رؤية الحيتان «تعيد الحياة» للطاقم، من (تشارلز نوردهوف - صيد السمك والحيتان - ص100). تحدث أنسل عن أدوار القائمين على المجاديف (ص26) وسرعات قوارب التحويت وحيتان العنبر النسبية (ص16-17). حكى أشلي عن طواقم قوارب التحويت العازمين على «التحويت لأجل المجد»، «تسابقوا وناوروا بعضهم البعض، وتزاحموا وتلاصقوا خلف زعنفة الحوت. عُرف عنهم كيف كانوا يعيقون بعضهم عمداً، ويلقون الحرابين فوق القوارب الأخرى، معرضين القوارب وحيوات كل المشاركين للخطر، ثم ينطلقون مبتهجين، بسرعة إلى

t.me/qurssan

الحوت، وملوحين بأيديهم ويومئون باستهزاء بأنوفهم[1] لزملائهم اليائسين الذين يعانون في المياه» (ص110). يذكر كومستوك خطاب الضابط لطاقم قاربه في رحلة في المحيط الهادئ (ص23–24). في (سلوك حوت العنبر – كالدويل، كالدويل، رايس) تسجيل لملاحظة حوّات عن كيف كانت رائحة نافورة الحوت نتنة تلسع جلد الإنسان (ص699). يسجل أنسل ملحوظة تشارلز بيتل عن موجّه دفة غرّ فقد الوعي عند قذف الحوت بالحريون (ص21).

طبقاً لكليفورد أشلي، الذي خرج للتحويت في بدايات القرن العشرين، فإن حيتان العنبر قادرة على جر قوارب التحويت بسرعات تصل لخمسة وعشرين ميلاً في الساعة. يضيف «ركبت قوارب بخارية بسرعات تزيد عن خمس وأربعين ميلاً في الساعة، وشعرت أنها لا تختلف عن الزحلقة النانتوكتية» (ص80).

يصف فرانسيس أولمستيد استخدام المجداف في إعاقة الحوت الهارب (ص22). للحراب حبل معلق بنهايتها، ما يمكن الضابط من استعادتها بعد كل رمية (أشلي – ص87). تحدث كالدويل وآخرون عن تقيؤ الحوت المحتضر «قطعاً من الحبار تماثل قارب التحويت حجماً» (ص700). ردّ فعل إينوخ كلاود المتألم من موت الحوت حدث إبان رحلة في خمسينيات القرن

(1) وضع الإبهام على أرنبة الأنف وفرد بقية الأصابع وتحريكها. حركة استهزاء معروفة، تُسمى thumbing noses. [المحرر]

t.me/qurssan

التاسع عشر في (رحلة إينوخ – ص53). تحدث أنسل عن جر الحوت الميت إلى السفينة (ص23).

في تاريخه، وضع أوبيد مايسي وصفاً تفصيلياً لتقطيع الحوت (بما فيه فصل الرأس) وغليه (ص220–224). طبقاً لكليفورد أشلي فإن مراحل التقطيع الأولى تتضمّن «ألواحاً قصيرة أمامية وخلفية تُعلّق في الخارج، واحدة في الأمام وأخرى في الممر» (الحوّات اليانكي، ص 97). وضع تشارلز نوردهوف إلى أي مدى قد يصير سطح سفينة التحويت زلقاً دهنياً «يسيل الزيت على سطح السفينة من أقصاه إلى أقصاه فيما تتهادى على المياه برقة في البحر، فتصبح أكثر طرق التنقل من مكان لآخر أماناً هي الانزلاق من مكان إلى آخر على مؤخرة بنطالك» (ص129). وصف نوردهوف ايضاً خبث رائحة دخان التصفية. دايفز تحدث عن العنبر الرمادي (في مطاردة اللوياثان ص29–30). طبقاً لأوبيد مايسي، «يُبحث عن العنبر الرمادي بشكل عام عبر نخس الأمعاء بعصا طويلة» (ص224). رغم أن الحوّاتين سيصبحون عما قريب رواداً في فن السكريمشا الشعبي، بنحت التصماميم في أسنان حيتان العنبر، من غير المحتمل أن طاقم الإسّكس في 1819 كانوا يحتفظون بأسنان الحيتان (ستيوارت فرانك – مراسلات شخصية – يوليو 1999). تحدث جون روس براون عن «الهيئة الوحشية» لسفينة التحويت في الليل (ص63). ويليام إنش. مايسي يقدم وصفاً للملابس أعمال التصفية الملائمة (ص80).

تحدث هنري دانا عن كيف يمكن أن تتدهور معنويات

t.me/qurssan

الطاقم (عامان أمام الصاري ص94). لمناقشة عن الفرق بين الطعام المقدم على سطح السفينة بين القمرة والقلعة الخلفية، انظر (ساندرا أوليفر - الطعام في المياه المالحة - ص97-99، 113). توفر أوليفر معلومات بخصوص متوسط السعرات الحرارية التي يحصل عليها بحار القرن التاسع عشر (ص94). أخضر اليد موزيس موريل رثى لنفسه تضوّره التدريجي على متن حوّاتة نانتوكتية، يومياته في الجمعية التاريخية. إن بدا انفعال بولارد أمام شكوى رجاله بخصوص الطعام مبالغاً فيه. فهو لا شيء مقارنة برد فعل القبطان وورث على متن سفينة جلوب، «عندما يتذمر أي رجل من شعوره بالجوع للقبطان وورث، كان يأمره بأكل الأطواق الحديدية، وأكثر من مرة كان يسد الثغور الشاكية بالمسامير» (حياة صامويل كومستوك - ص73).

الفصل الرابع: ثمالة نيران

هجر القبطان بلاي محاولته للدوران حول كيب هورن بعد ثلاثين يوماً (وهو الوقت الذي استغرقته الإسّكس في عبورها) اتُخذ القرار تحت الضغط الشديد الذي وضحه سير جون بارو، «بدأت السفينة في الشكوى، واحتاجت إلى نزح المياه كل ساعة، وصارت الأسطح مرشّحة للماء إلى حد أن القائد أمر بتخصيص القمرة الكبرى لأولئك الذين صارت أسرتهم مبتلة» (ص41). يحكي ديفيد بورتر عن عبور كيب هورن في مذكراته (ص84). رغم أن البيفر كانت أول حوّاتة نانتوكتية تدخل المحيط الهادئ، كانت الإيميليا، سفينة بريطانية قبطانها جيمس شيلد، أول

t.me/qurssan

حوّاتة تدور حور كيب هورن في 1788 (سليفين - ص52).

كلمات القبطان سواين عن ندرة الحيتان مقتبسة من (ستاكبول - صيادو البحر - ص266). ذكر أوبيد مايسي للحاجه إلى أرض تحويت جديدة مسجل في 28 سبتمبر 1819، تكشف مذكراته أيضاً أنه تتبع الوضع السياسي في أمريكا الجنوبية عن كثب.

روبرت ماكنالي يصف موقف الحوّاتين تجاه الحيتان كـ«أحواض زيت» في (خراب بلا رحمة - ص172). أشار نوردهوف إلى ولع الحوّات القديم بالتصفية (ص131). يخبر ويليام إتش مايسي عن كيف يحفز «الغلي» الحنين إلى البيت (ص87). الأحداث التي وقعت في نانتوكت في ديسمبر 1819 من يوميات أوبيد مايسي. ويليام إتش. مايسي ذكر إلى أي مدى يطول الوقت قبل أن يبلغ البريد المحيط الهادئ «أيّة أخبار من الوطن، حتى وإن كان عمرها عاماً، تكون محل احتفاء وترحيب، ومقدَم حوّاتة لم تخرج سوى من أربع أو خمس شهور من الوطن فقط هو هدية غير متوقعة» (ص154). لأنباء اكتشاف الأرض البحرية، انظر (ستاكبول - ص267-266).

يتضمن وصف أولمستيد لمباهج اتاكاميس (ص161-163) وصفاً مثيراً للاهتمام لكنيسة صغيرة: «أسفل جانب المذبح، تجري نقاط شمع زيت العنبر المستخدمة في الطقوس مثل الرواسب الكلسية للكهوف الجوفية» (ص171).

حسبما بلغ علمي، تلك هي أول مرة يُذكر فيها اسم الهارب هنري دي ويت مطبوعاً. الاسم مسجل في قائمة طاقم يبدو أنها

t.me/qurssan

تثبت بعدما خرج بولارد في رحلته التالية في خريف 1821 (بولارد فيها مقيد كـ قبطان الأخوين). تتضمن القائمة أسماء كل العشرين المعروفين من طاقم الإسكس السابق، زائد «هنري دي ويت – هارب» (مجموعة الجمعية التاريخية 64 - كتاب القصاصات 20). في نقاشه لعدد حراس السفينة على البيفر في 1791، يدعي كليفورد أشلي أن «لا يكفي رجلان للتعامل مع» سفينة تزن 240 طناً (ص60).

سجل ويليام إتش. مايسي النُطق المميز لغالاباغوس (ص167). سرد كولنت لاستكشافه في المحيط الهادئ يتضمن رسماً لكيفية تقطيع حوت العنبر سيستخدمه أوبيد مايسي في تاريخه. وصف كولنت غالاباغوس بأنها حضانة حيتان عنبر (رحلة إلى جنوب المحيط الهادئ - ص147). تلخيصي لملاحظات هال واتهيد عن مجتمع حيتان العنبر يأتي من مقالاته «إناث اجتماعية وذكور جوالة» و«سلوك ذكور حيتان العنبر الناضجة في أماكن التزاوج في جزر غالاباغوس». لم يشهد وايتهيد تزاوج الحيتان في غالاباغوس. كتب «كوننا لم نرَ تزاوجها على أنه ليس أمراً مفاجئاً؛ رغم أنه توجد بعض التقارير عن رؤية تزاوج حيتان العنبر، إلا أن تلك التقارير قليلة، ومتناقضة بعض الشيء، وليست دائماً مقنعة» (ص696). يقتبس وايتهيد وصف ألفريد بيرزين لاقتراب ذكر حوت من أنثى من أسفلها (ص694).

سرد إصلاحات الأورورا في (ستاكبول صيادو البحر- ص305-306). طبقاً لريجنالد هيجارتي، «لا تستطيع ديدان

t.me/qurssan

البحر اختراق المعدن، لكن إن كانت قطعة صغيرة من النحاس منزوعة بالصدفة، فسيتآكل قدّر كبير من التغليف قريباً وسينزع مزيداً من النحاس. سينكشف عندها جزء من الخشب، وفي خلال وقت قصير سيتآكل بدوره» (ص60). لوصف مفصل عن كيفية إصلاح المراكب الخشبية، انظر (هارلاند - ص303-304).

وصف هيرمان ملفيل لجزر غالاباغوس يظهر في (الجزر المسحورة - ص126). عن درجة حرارة جسد السلاحف الباردة، انظر (تشارلز تاونسند - سلاحف غالاباغوس - ص93). تحدث تاونسند أيضاً عن بورت رويال توم (ص86). للملخص عن تاريخ مكتب البريد على جزيرة تشارلز، انظر (سليفين - جزر غالاباغوس - ص108-111). سجل تاونسند أن «سلحفاة المستنقعات على جزر تشارلز انقرضت مبكراً جداً» (ص89).

الفصل الخامس: الهجوم

يعتمد وصفي لمدى اتساع المحيط الهادئ إلى حدّ كبير على (إرنست دودج - جزر وإمبراطوريات - ص7)، انظر أيضاً (تشارلز أولسون - سمّني إسماعيل)، خاصة الفصل الختامي «رجل المحيط الهادئ» (ص113-119). لحديث عن نشاط التحويت في غرب المحيط الهادئ في بدايات القرن العشرين، انظر (ستاكبول صيادو البحر- ص254-256). موت حزقيا كوفين بالقرب من جزيرة تيمور مُشار إليه في (ماري هايدن راسل - يَوميات رحلة تحويت)، بعد ذكرها لجزيرة أمبون [Aboyna هكذا ورد] وكتبت «هنا أجبر سوء الطالع والدك العزيز

t.me/qurssan

في رحلة سابقة على أن يدفن رفيقاً، حزقيا كوفين، وهنا نجا بنفسه من بين فكي الموت» (مجموعة الجمعية التاريخية 83). لقائمة الجزر المدرجة في نسخة بولارد من ملاح بوديتش، انظر (هيفرنان أغرقها حوت- ص243-246). يحكي ستاكبول عن أول الحوّاتات في هاواي وجزر سوسايتي (صيادو البحر ص275-289).

وصف كومستوك للضابط الذي أخذ الحربون من موجّه قاربه يأتي من رحلة في المحيط الهادئ (ص24-25). سرد نيكرسون يدعي أن تشايس كان على مجداف التوجيه -وليس مثلما يدعي تشايس في مقدمة القارب يحمل الحربون- إبان آخر محاولتين لربط أنفسهم بالحوت. في هذه الحالة قررت الثقة في حكاية تشايس، برغم وجود احتمال أنه كان على مجداف التوجيه في الواقع لكن الكاتب الشبح ارتكب خطأ. يضيف إلى ذلك الالتباس قول تشايس في سرديته: «هناك بحارة عاديون، وموجّهو دفة، وحملة حرابين؛ آخر هؤلاء هو الأهم والأكرم. في مثل هذا الموقف تتجلّى كل قدرات البحار الشاب، في التحكم الحاذق بالحربون والحبل والحرية، وفي الموقع المغامر الذي يتخذه بالقرب من عدوه، معتمداً اعتماداً كلياً على نجاح هجومه» (ص17). على عكس ما قاله تشايس في كلماته، كان موجّه الدفة هو من يلقي الحربون، والضابط أو رأس القارب boatheader (الذي لم يُطلق عليه أبداً حامل الحربون harpooner، استُخدم ذلك التعبير فقط لوصف موجّهي القوارب) هو من يعتبر «الأهم والأكرم». قد يرجع هذا، مرة أخرى،

t.me/qurssan

لاختلاط الأمر على الكاتب الشبح في توزيع الأدوار في القارب. لكن لأجل أغراض هذه السردية اخترت أن أتبنى وصف تشايس للدور الذي اخترعه لنفسه على قارب التحويت، ضابط يرمي الحربون والحراب، ويوجه موجّه القارب من المقدمة.

وصف دي. دابليو. رايس في (حوت العنبر - ص204-203) عادات الحيتان في الغطس، وذكر قاعدة الحوّات التقريبية في الحكم على طول مدة غوص حوت العنبر تحت الماء. حكى أوبيد مايسي عن غرق يونيون في تاريخه (ص230-235). لتشايس ونيكرسون نسختان مختلفتان من حكاية ما حدث بعد هجوم الحوت الأول. يدعي تشايس أن السفينة بدأت في الغرق على الفور تقريباً، في حين لا يذكر نيكرسون أي شيء عن دخول الماء في الإسكس بعد أول صدمة، وكان حريصاً على ذكر أن تشايس كانت لديه فرصة لإلقاء حربة على الحوت بعد ذلك الهجوم، وهو شيء لم يذكره تشايس. قررت اتباع نسخة نيكرسون الذي شعر أنه بحاجة إلى تصحيح حكاية الضابط الأول في سرديته. كلّ من تشايس (ص31) وهيرمان ملفيل في فصل «المنجنيق» من موبي-دِك ناقش كيف يتكيف حوت العنبر مع مهاجمة السفن برأسه. مقالة في (سيدني غازيت)، مستندة في الغالب على معلومات وفّرها الناجون الثلاثة من الإسكس الذين اختاروا البقاء على جزيرة هندرسون وحُملوا لاحقاً لأستراليا، تقول «كانت السفينة تمضي بسرعة 5 عقد، لكن القوة التي ضرب بها الحوت السَفينة جعلتها تتراجع إلى الخلف، بسرعة 3 أو 4 عقد؛ النتيجة كانت أن البحر دخل من نافذة القمرة، وكل رجل على

t.me/qurssan

السطح وقع أرضاً، والأسوأ من كل شيء، تحطمت المقدمة تماماً» (هيفرنان – ص240). صدر بعد الكارثة كُتيب وضعه موجّه الدفة توماس تشابل، أشار فيه إلى أن السفينة دُفعت إلى الخلف. يدعي تشابل أن الحوت «أوقع الأرينة الزائفة» عندما ارتطم في السفينة بظهره (هيفرنان – ص218). رغم أن كلا الحكايتين لم تذكرا أن ذيل الحوت كان لا يزال يتحرك بعد الاصطدام الثاني –ما يسبب دفع السفينة إلى الخلف بعدما أوقفها الارتطام– لكن يبدو أن ذلك هو التفسير الوحيد للتوفيق بين تقدير تشايس غير الدقيق لسرعة الحوت عند الاصطدام (6 عقد) مع الحكايات الأخرى عن كون السفينة تراجعت للخلف.

ناقش وايتهيد كيف كان الحوّاتون يسعون خلف ذكور الحيتان (في سلوك ذكور حيتان العنبر الناضجة في أماكن التزاوج في جزر غالاباغوس ص696). بخصوص الأحجام التي بلغتها ذكور حيتان العنبر الضخمة، كتب أليكسندر ستاربك في (تاريخ صناعة التحويت الأمريكية): «ذكور العنبر التي تنتج مئة برميل تُعتبر ضخمة للغاية، لكن كثيراً ما يتم تجاوز هذا العائد» (ص155). ثم يقتبس من (ويليام دايفز – نمرود البحر)، حيث ذُكر حوت طوله تسعون قدماً أنتج 137 برميل زيت. ادعى دايفز أيضاً أن حوّاتة من نيو بيدفورد قتلت حوت عنبر في الأرض البحرية أنتج 145 برميلاً. يؤكد ستاربك أن عام 1876 قتلت السفينة ويف من نيو بيدفورد حوتاً أنتج 162 برميلاً و5 جالونات (ص155). من الواضح إذن أن حوتاً طوله خمسة وثمانون قدماً في إطار المعقول.

t.me/qurssan

لنقاش مفصّل عن حجم مخ وذكاء حوت العنبر، انظر (كارل زيمر - على حافة المياه - ص219-296). ريتشارد إيليز في (رجال وحيتان) يتحدث ببلاغة أيضاً عن مخ حوت العنبر (ص29). هال وايتهيد وليندا ويلجارت في (موبيز كليك) تحدثا عن كيف تستخدم الحيتان صوت النقرات لتحديد الموقع عبر الصدى والتواصل، وعن حيتان عنبر تلقب بـ «سمك النجار» (ص64). كلاهما بالإضافة إلى كاثرين باين كتبوا عن التشابه الفريد بين حيتان العنبر والأفيال في (تقارب هائل). وصف المعركة بين ذكري العنبر كانت في (كالدويل وآخرون - ص692-693). في رواية كارليسلي، الرجل جوناه ينظّر بولارد أن الحوت سمع طرقات تشايس عبر الهواء، «حملت الرياح الشرقية دقات المطرقة، فصار بالإمكان سماعها على بعد ميل غرباً» (ص106). لكن مثلما يؤكد وايتهيد في رسالة إليكترونية شخصية، في الغالب سمعت حيتان العنبر صوت الطرق عبر المياه، الوسيط الذي تكيفت معه آذانها لنقل الأصوات بكفاءة أكثر من الهواء. في الواقع، الحوت الذي هاجم الإسكس لا بدّ أنه سمع أيضاً الفوضى التي جلبها بولارد وجوي بين قطيع حيتان العنبر على بعد أميال. في حين يبدو ذلك تأييداً لاعتقاد تشايس أن الحوت «هاجمنا بغرض الانتقام لمعاناتها»، يشير وايتهيد إلى أن «من المهم فَهْم أننا نعلم الآن أن طبيعة العلاقة بين الذكور الضخمة وقطعان الإناث مؤقتة وغير دائمة. لهذا... فمن غير المحتمل أن كان عندَ الذكر أي ارتباط بالإناث التي تُقتل» (مراسلات شخصية - 5 أغسطس 1998).

t.me/qurssan

نظرية وايتهيد في أن ضربة الحوت الأولى للإسّكس كانت ربما بالخطأ، وسببت الصدمة الكثير من الاضطراب للحيوان، ممّا أدى للحادثة الثانية، والتي يمكن اعتبارها كهجوم» (مراسلات شخصية – 5 أغسطس 1998). ويبدو أن كثيراً من الحوّاتين في القرن التاسع عشر اتفقوا مع وايتهيد. طبقاً لملحوظة بخصوص الإسّكس (من نورث أميريكان ريفيو) اقتبسها فرانسيس اولمستيد في (حوادث رحلة تحويت)، «لكن لا توجد حادثة أخرى معروفة، افتُرض فيها أن الأذى جاء عن ترتيب متعمد خبيث مسبق من قبل المُهاجِم [الحوت]، ويعتقد أغلب الحوّاتون الخبراء أنه حتى في تلك الحادثة، لم يكن الهجوم متعمداً» (ص145). لكن هناك حوّاتون آخرون لديهم رأي مختلف. في (ها هي تنفث!) يقول قبطان نانتوكتي قديم: «سمعنا كلنا بحادثة الإسّكس... أذكرها جيداً، كنت أبحر عند تشيلي في ذلك الوقت على متن بلوتارخ، ومن أقوال الناجين بدا من الواضح بما فيه الكفاية أن الحوت شرع في الهجوم عامداً وباستعداد خبيث، كما يقول المحامون، لتدمير السفينة» (ص133).

جاء وصفي لكيفية بناء الإسّكس اعتماداً على مصادر عدة. يدعي جون كورير في (رسم تخطيطي تاريخي لبناء السفن على نهر ميريماك) أن السفن كانت تُبنى في أميسبوري في الوقت الذي بُنيت فيه الإسّكس «بالكامل تقريباً من خشب البلوط. أسطحها فقط كانت من الصنوبر الأبيض. الأضلع والألواح والأسقف والعوارض كلها قُطعت من أخشاب البلوط، ونقلت

t.me/qurssan

طافية عبر النهر أو جرّتها فرق من الثيران، داخل دائرة نصف قطرها حوالي خمسة عشر ميلاً» (ص34). خالص شكري إلى روجر هامبيدج وتيد كاي من ميناء ميستيك لتمكيني من الوصل إلى قائمة مواصفات الحوّاتة هيكتور في (ألبيرت كوك تشيرش - السفن الحوّاتة والتحويت - ص174-179). شكري أيضاً إلى مارك ستار من مكتب وثائق ورشة بناء السفن في ميناء ميستيك، لتوفيره مواصفات تشارلز دابليو. مورجان. اعتمدت أيضاً على (ريجنالد هيجارتي - ولادة سفن التحويت).

شكري لبروفيسور تيد دوكاس من قسم الفيزياء بكلية ويلزيلي، لحديثه معي بخصوص فيزياء الحيتان بشكل عام وغرق الإسّكس بشكل خاص. شكري لبيتر سميث، مهندس بحري في يخوت هينكلي، إذ قام بحساب القوى المحتمل اشتراكها في الاصطدام بين حوت بوزن 80 طن وسفينة بوزن 238 طن، وقوة بنية سفينة التحويت (مراسلات شخصية - 18 و23 ديسمبر 1998).

الفصل السادس: الخطة

في (سيكولوجيا النجاة)، يكتب جون ليتش عن اللامبالاة التي تصيب الناجين عقب وقوع الحادثة مباشرة، فيما يعرف باسم «فترة الارتداد recoil period» (ص 24-37، 129-134). في (وارين كينستون، ريتشل روسر - كارثة: التأثير على الحالة العقلية والبدنية) يناقش المؤلفان تردد الناجين في مغادرة مسرح الكارثة (ص444). فيما يخص قوارب التحويت في بدايات القرن التاسع عشر، يقول إريك رونبرج جونيور: «أشكال قوارب تلك

t.me/qurssan

الحقبة -من اللوحات والمطبوعات الحجريات ورسومات كتب السجلات- تظهر أن التجديف كان وسيلة الدفع المعتادة إن لم تكن الحصرية. المصادر التي تظهر قوارب تحويت تبحر بأشرعة تشير إلى أن الأشرعة القطرية كانت الأكثر شيوعاً، وأنها كانت توجه بمجداف التوجيه دون أي دفة ظاهرة. يوافق هذا افتقارها للوح الوسطي، الذي كان ليعوق من قدرة القارب على الإبحار باتجاه هبوب الريح. لا شك أن هذا التجهيز ونظام التوجيه سيكون كفؤاً فقط في حالة مطاردة الحيتان مع الريح» (لبناء قارب تحويت - ص1). مثلما يشير رونبرج، القوارب القديمة كانت ذات بنية ألواح متداخلة clinker، لا عوارض ملتصقة batten-seam مثلما صارت في الأعوام اللاحقة. قوارب الإسّكس كانت على الأرجح ملونة، ربما الأزرق الداكن والأحمر مثل علم السفينة، لا بيضاً مثل كل قوارب التحويت تقريباً في منتصف القرن التاسع عشر، انظر (أنسل - ص95).

يحتوي (كالب كرين - عشاق اللحم البشري: المثلية الجنسية والكانيبالية في روايات ملفيل) ملخصاً ممتازاً لحكايات أكل لحوم البشر والمثلية الجنسية في ماركيساس ببدايات القرن التاسع عشر (ص30). لمناقشة عن نوع الحكايات التي تداولها البحارة عن كانيبالية سكان الجزر الأصليين، انظر «الولائم الكانيبالية في فيجي القرن التاسع عشر: حكايات البحارة والخيال الإثنوغرافي» لجاناثات أوبيسكيري في (الكانيبالية والعالم الاستعماري)، حرره فرانسيس باركر وبيتر هولم ومارجريت إيفرسن. كان هناك أيضاً جانب عنصري مزعج في

t.me/qurssan

إشاعات الكانيبالية التي تبادلها البحارة في القلاع الخلفية من سفن التحويت. زعيم ماوري جُلب إلى لندن عام 1818 أكد أن «لحم الرجال السود أفضل بكثير من لحم البيض» (راي تاناهيل - لحم ودم - ص151). ما يقترح أن تلك كانت حقيقة مقبولة بين حوّاتي نانتوكت، هو تجربة القبطان بينجامين وورث قبالة ساحل نيوزيلندا في 1805. حكى وورث عن كيف هددت عاصفة مرعبة بضرب السفينة في الشاطئ، وكيف توسل إليه الرجال السود من الطاقم أن يفعلوا كل ما بوسعه للبقاء في المحيط المفتوح لأن «السكان الأصليين يفضلون لحم الزنوج على لحم البيض» (ستاكبول صيادو البحار - ص399-400). كان ضباط الإسكس بين الرحلات عندما صدرت في عدد 28 أبريل 1819 من نيو بيدفورد ميركيوري قصص عن شعب نوكاهيفاه Nukahivah الأصلي المسالم. تعليق ملفيل بخصوص قرار طاقم الإسكس «حتى يصلوا لموانئ العالم المتحضر» هو جزء من تعليقاته التي كتبها في الصفحات الخلفية من نسخته من سردية تشايس، نسخة من هذه التعليقات موجودة في طبعة Northwestern-Newberry من موبي-دك (ص978-995). في جزر وإمبراطوريات تحدث إرنست دودج عن كنيسة إرسالية تبشيرية هائلة في تاهيتي، بُنيت في 1819، العام نفسه الذي غادرت فيه الإسكس نانتوكت (ص91).

علق أوبيد مايسي على معرفة النانتوكتين الحميمية بالبحر في تاريخه (ص213). لكن كما هو واضح لم يكن لديهم علم مشابه بأراضي العالم. يحكي ويليام كومستوك حادثة تظهر إلى

t.me/qurssan

اي مدى يبلغ جهل النانتوكتيين الجغرافي؛ ذات مرة «تمنى ضابط على حوّاتة نانتوكتية بمنتهى الصدق أن يعرف إن كانت إنجلترا جزء من القارة أم تقف وحيدة مع نفسها ، وعندما أجابه ضابط آخر أنها ضمن مقاطعة بريطانيا العظمى، أراد أن يعرف كم تبعد عن لندن» (حياة صامويل كومستوك - ص57). إن كانت معرفة الحوّات ببلد تربطها بنانتوكت علاقات تجارية قوية بهذه الضبابية، فليس من العجيب أن رجال الإسّكس كانوا بلا معلومات عن جزر منتصف المحيط الهادئ. لرسوم تفصيلية للانش الذي أبحر فيه الريان بلاي ورجاله إلى جزر تيمور، انظر نسخة ريتشارد مانسير من (يوميات بلاي في لانش الباونتي).

ناقش ليتش في سيكولوجيا النجاة الفرق بين القائد السلطوي والاجتماعي (ص140)، بينما تحدث غلين بينيت في (ما بعد التحمل: النجاة في الشدائد) عن أنواع الشخصيات المختلفة المطلوبة فيما يسميه فترات الهروب والنجاة التي تعقب الكارثة (ص210-211). تحليل مشوار الضابط الأول الوظيفي و«سمكية» الرجال يستند إلى كلمات ويليام إتش. مايسي عن الضابط الأول جرافتون، الذي وصفه مايسي بأنه «رجل ذو عقل وقور وذكاء كبير ويعلم الكثير عن كم هائل من الأمور، ولديه عادة في التعميم والتعبير بوضوح إلى درجة تجعله رفيقاً مثالياً لكل من يتواصل معه. رغم كونه حوّاتاً ممتازاً، لم يكن جرافتون [الضابط الأول] ما يُطلق عليه بالرجل السمكي» (ص44-45). كتب جون ليتش عن أهمية الصلات الأُسرية خلال الأزمة (ص156)، وكذلك علاقة القيادة القوية بالنجاة (ص139).

t.me/qurssan

انظر (رونبرج - ص1-4) لتحليل ممتاز بخصوص الصعوبات التي واجهت الإبحار بقارب تحويت في بدايات القرن التاسع عشر. فيما يخص الأصوات الصادرة عن قارب تحويت ذي بُنية الألواح المتداخلة، كتب كليفورد أشلي في الحوّات اليانكي: «اسم القارب [كلينكر clinker] جاء من محاكاة الصوت الذي يصدره القارب عندما يمضي في المياه. لاحظت هذا مراراً في القوارب الكلينكر. وبعدما صارت الحيتان أكثر حذراً [لاحقاً في القرن التاسع عشر]، صارت أصوات القارب مكروهة، لذا صُنعت القوارب مصقولة الجوانب لتنسل بنعومة منقضة على الحيوان غير المدرك» (ص61).

سجل أشلي موقع الأرض البحرية بين دوائر عرض 5و 10 جنوباً، وخطوط طول 150 و125 غرباً (ص41). ذكر هيفرنان على الأقل سبع حوّاتات في محيط الإسّكس عند غرقها: ثلاثة من نانتوكت (جوفرنر سترونج، وتوماس، وجلوب) وثلاثة من نيو بيدفورد (بالاينا، وبيرسيا، وجولكوندا)، وواحدة من إنجلترا (كوكويت) (ص77).

لمعلومات عن حصص الهارد-تاك انظر (أوليفر، الطعام في المياه المالحة - ص107). وُضع تقدير المحتوى الغذائي للهارد-تاك وسلاحف غالاباغوس وتخمين كم الوزن الذي ربما خسره الرجال في مدة ستين يوماً، بمساعدة بيت تورنوفيش ود.تيموثي ليوبر في نانتوكت. الاحصائيات فيما يخص احتياجات جسم الإنسان من المياه، تأتي من (إيلانور ويتني وآخرون - فهم

t.me/qurssan

التغذية الطبيعية والسريرية - ص272-275). على سبيل المقارنة، قرر القبطان بلاي حصص الرجال المبدئية من المؤن: اونصة من الخبز (مقارنة بست أونصات لرجال الإسكس) وربع باينت من المياه (مقارنة بنصف باينت) [البـاينت نصف لتر] (لانش الباونتي - ص36). لاحظ أولمستيد أن عدداً كبيراً من طاقم الحوّاتة الذي أبحر فيها «استهلكوا بين خمسين وسبعين رطلاً من التبغ على سبيل السلوان خلال رحلتهم، وربما سيتعيّن عليهم أن يحصلوا على كمية جديدة من القبطان قبل العودة إلى الوطن» (ص83-84).

تحدث كينستون وروسر عن تأثير «الذاكرة المُعذبة» واقتبسا من ويليام جيمس عن زلزال سان فرانسيسكو (ص443-444). هيلدي بلوم في (كيف نجوا؟ آليات الدفاع في معسكرات الاعتقال النازية) تحدثت عن أهمية التعبير عن النفس في تعزيز النجاة النفسية (ص10). أشار جون ليتش في سيكولوجيا النجاة إلى النشاطات، مثل جدل لورنس لقطعة الحبل، على أنها «تكليفات»، ما يعرفه بأنه «تقسيم هدف المرء إلى مهام بسيطة بحيث تصبح حياته خطوات يأخذها واحدة تلو الأخرى» (ص152)، وتحدث عن أحد الأمثلة الذي قضى أزمة لفترة طويلة في صناعة «مجموعة بدائية من مضارب الجولف والكرات الخشبية» (ص153).

نقاشي الملاحي يستند على (جي. بي. هيوسون -تاريخ ممارسة الملاحة)، خاصة فصله عن الملاحة بخطوط العرض والرصد السلبي (ص178-225). فرانسيس أولمستيد قدم أيضاً

t.me/qurssan

حكاية مثيرة للاهتمام عن الملاحة في سفينة تحويت (ص43-44). شكري لدونالد تريورجي من ميناء ميستيك لمشاركتي خبرته؛ طبقاً لتريورجي في مراسلات شخصية: «إن كان بولارد لم يتعلم حساب اللونار حتى رحلته التالية، فمن غير المحتمل انه امتلك كرونومتر لقياس الوقت بدقة في 1819 . الكرونومتر البحري في 1819 كان لا يزال يدوي الصناعة وغالي الثمن، ودقته ليست أكيدة على الدوام». طبقاً لأوبيد مايسي، الذي قال عن قباطنة التحويت النانتوكتيين أنهم «لوناريين» في تاريخه، بحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانت كل حوّاتات الجزيرة تقريباً «مجهزة بالكرونومترات» (ص218). بخصوص انتصار الريان بلاي الملاحي العظيم في قارب مفتوح، انظر (لانش الباونتي - ص24، 60-61).

يحكي أوبيد مايسي عن كيفية ربط طاقم اليونيون لقاربيهما معاً (ص233). في (دوجال روبرتسون - النجاة في بحر متوحش)، يحكي المؤلف عن كيف نطحت بعض الحيتان القاتلة يخته الخشبي مراراً وأغرقته. يصف روبرت بيتمان وسوزان تشيفرز كيف هاجم قطيع من الحيتان القاتلة حوت عنبر وقتله في (رعب بالأبيض والأسود)، دورية تاريخ طبيعي إصدار ديسمبر 1998 (ص26-28). وصف تشريح تشايس للسلاحف يستند جزئياً على حكي روبرتسون التفصيلي لقَطع سلحفاة خضراء (ص109).

وصف تشايس الظروف التي خبروها في 8ديسمبر ب «العاصفة gale الكاملة». (دين كينج) في (بحر من الكلمات)

t.me/qurssan

يعرف (gale) بأنها «ريح ذات شدة تقع بين النسيم القوي والعاصفة الشديدة. في القرن التاسع عشر، عُرفت بشكل أدق بأنها تهب بسرعة بين 28 و55 ميلاً بحرياً في الساعة. فيها ترتفع الأمواج عالياً وتتفتت قممها إلى رذاذ، وإن كانت أقوى تسقط قمم الأمواج وتتدحرج وتتناثر مع الرياح خطوط كثيفة من الرغوة» (ص202). ريتشارد هوبارد في (بودويتش القوارب: الدليل العملي الملاحي للقوارب الأمريكية الصغيرة) وضع جدولاً يحدد الارتفاع النظري الأقصى للأمواج ذات المسافة السطحية fetch اللانهائية بقوة (41–47 عقدة) بحوالي 40 قدم (ص312). ويليام فان دورن في (علم المحيطات والملاحة) يضم أيضاً جدولاً ممتازاً يشير إلى معدل نمو حالة البحر كدالة لسرعة الرياح ومدتها (ص189).

تحدث جون ليتش عن «ضيق الأفق الإدراكي» الذي يحدث بعد الكوارث (ص124)، وهو عامل ساهم بلا شك في تمسك الناجين من الإسكس غير المتزعزع بخطتهم الأصلية، برغم بقاء احتمالية التوجه إلى جزر سوسايتي طوال الشهر الأول بعد الغرق.

الفصل الثامن: تمركز في الداخل

أفضل سرد لمعاناة من كانوا على متن طوف ميدوسا يأتي من الناجيَين جاي. بي. هنري سافيني وأليكسندر كوريارد في (حكاية رحلة إلى السنغال). انظر أيضاً (أليكسندر ماكي – طوف الموت). دابليو. جي. ماكجي يحلل معاناة بابلو فالنسيا في

جنوب غرب صحراء آريزونا بمقالته الشهرية (ظمأ الصحراء كمرض).

استند وصفي لبرنقيلات الإوز إلى المعلومات التي وفرها جيمس كارلتون، مدير برنامج ويليام-ميستيك بميناء ميستيك البحري (مراسلات شخصية، أكتوبر 1998). لوصف عن كيف تؤكل القشريات عادة، انظر ابيكيوريوس ديكشينوري في (http://www2.condenet.com). خالص شكري لجيمس مكينا من برنامج ويليام-ميستيك لتزويدي بمعلومات مفصلة عن كيف تفتقر بعض الأماكن في المحيط الهادئ للحياة مقارنة بأماكن أخرى (مراسلات شخصية - 23 مارس 1999). جدول ماثيو فونتين موري بخصوص النطاق المهجور، يظهر في الصفحة الخامسة من عمله (جداول الرياح والتيارات).

يوضح أنسل في قارب التحويت كيف تثبت مسماراً (ص88-89). ناقش جيفري بولستر «قيادة السود الروحية» على السفن في بلاك جاكس(ص125)، أخبر أيضاً بالقصة عن الطباخ الأسود الذي صلى لخلاص سفينة التحويت. يرتكز وصفي لتمركز الكويكريين لأسفل على (أرثر وورال - كويكريين في الشمال الشرقي الكولونيالي - ص91-95). ملخص ممتاز عن تأثير التضوّر جوعاً على ضحايا الكوارث، انظر (ليتش-ص87-99). ناقش تشايس ونيكرسون نفسيهما في سرديتيهما فيما يخص حصص الماء، وبالذات الخبز، أحياناً. في هذا الفصل وغيره، افترضتُ أن نزول حصصهم من الخبز التدريجي بدأ من ست أونصات إلى ثلاث أونصات، وفي النهاية (بعد مغادرة

t.me/qurssan

جزيرة هندرسون) صارت أونصة ونصف، بينما حصة الماء ظلت ثابتة عند نصف باينت.

الفصل التاسع: الجزيرة

لأنباء «اكتشاف» مايهيو فولجر لجزيرة بيتكيرن، انظر (جريج دينينج – لغة السيد بلاي السيئة – ص307–338) و(والتر هايس – القبطان النانتوكتي وتمرد الباونتي – ص41–47). إلى يومنا هذا، لا يزال سكان بيتكيرن يعتمدون على خشب الميرو والتاو المحصود من هندرسون لصنع منحوتاتهم الخشبية التي يبيعونها للسياح، انظر (دي بيركيت – ثعبان في الجنة) لوصف رحلات حصد الخشب المعاصرة من بيتكيرن إلى هندرسون (ص81–96). من 1991 إلى 1992، أقامت مجموعة من العلماء تحت إشراف (بعثة سير بيتر سكوت التذكارية لجزر بيتكيرن) معسكراً متواضعاً في الشاطئ الشمالي من جزيرة هندرسون، في المكان ذاته تقريباً الذي رسى فيه الناجون من الإسكس قبل 170 عاماً. ذهب العلماء بالطائرة إلى تاهيتي، ثم أبحروا ألفي ميل إلى هندرسون على يخت مستأجر. كل ثلاثة أشهر كانت تُرسل إليهم شحنات من الطعام والماء من أوكلاند في نيوزيلندا. اعتمدتُ كثيراً على الكتاب الذي أنتجته تلك البعثة (جزر بيتكيرن: الجغرافيا الحيوية، والبيئة، وما قبل التاريخ)، حرره تيم بينتون وتوم سبينسر، للمعلومات التي تخص جزيرة هندرسون.

وجود «عدسة مياه عذبة freshwater lens» تحت الجزيرة المرجانية، يناقشه (ويليام توماس – تنوع البيئات المادية بين جزر

t.me/qurssan

المحيط الهادئ) في (موقع الإنسان في نظام الجزيرة البيئي: نقاش - حرره إف أر فوسبرغ - ص26-27). اقتبس هيفرنان حديث روبرت ماكلولين للفحص الطبي للهياكل العظمية التي وُجدت في جزيرة هندرسون (أغرقها حوت ص84-85). سلوك الصقور المحاربة تجاه الطيور الاستوائية لا يزال يمكن ملاحظته على جزيرة هندرسون. انظر (جي. إيه. فيكري، د. مايكل بروك - العلاقة الطفيلية بين طائر الفرقاط العظيم وطائر الأطيش المبرقع على جزيرة هندرسون جنوب المحيط الهادئ) في (الكوندور). رغم أن الفرقاط العظيم هو اسم آخر للصقر المحارب، إلا أن الأطيش المبرقع هو فصيلة مختلفة تماماً عن الطيور الاستوائية التي ادعى نيكرسون أنه رآها على هندرسون.

وصف بينتون وسبينسر كيف انتشرت أنواع الطيور والحيوانات بين جزر المحيط الهادئ في (التطور البيوجغرافي على حواف النطاق الهندي-غربي من المحيط الهادئ) في جزر بيتكيرن (ص243-244). يعود ذكري لسكن الإنسان جزيرة هندرسون إلى بينتون وسبينسر في «تأثير الإنسان على جزر بيتكيرن» (ص375-376) و«مارشال ويزلير - جزيرة هندرسون ما قبل التاريخ - الاستعمار والانقراض على الجزيرة البولينزية البعيدة» في جزر بيتكيرن (ص377-404). في «سمنة الساموبون وتأمل أسبابها المرضية عند البولينزيين» في (المجلة الأمريكية للتغذية السريرية)، كتب ستيفن ماكجارفي:

«استيطان البولينزيين تطلّب رحلات محيطية طويلة مع الرياح التجارية السائدة في مياه مجهولة. تلك الرحلات القديمة

t.me/qurssan

التي كانت بلا وجهة محددة ولا تُعرف مدّتها، ربما عانى بحارتها من خطر التضوّر والموت جوعاً مع تضاءل المؤن على متن سفنهم وتلاشيها. ربما من نجا من تلك الرحلات هم ذوو الوزن الزائد و/أو أصحاب عمليات الأيض المثالية، بافتراض مساعدة زيادة الأنسولين، بسبب مخزون الطاقة الكبير على شكل أنسجة قابلة دهنية... البحارة الناجون من تلك الرحلات الاستكشافية هم أول المستوطنين في تلك الأرجاء، غالباً هم من استطاعوا تخزين واستخدام طاقة الغذاء بكفاءة، ربما عبر آليات النمط الجيني المقتصد» (ص1592s).

يُنظّر ماكجارفي أنه لذلك يتصف الساموين المعاصرون «بالكثرة الشديدة للدهون والقابلية العالية للسمنة». انظر أيضاً مقالته «مفهوم الجين المقتصد ودراسات السمنة في الأنثروبولوجيا البيولوجية». فيما يتعلق برجال الإسكس على قوارب التحويت، يفترض ماكجارفي في مراسلات شخصية (11 مايو 1999) أن العامل الرئيسي المؤثر في قدرة الرجال على النجاة، هو تغذيتهم وصحتهم فيما قبل هجوم الحوت، وليس أية قابلية عرقية أو جينية مسبقة. الإحصائيات التي تخص متوسط الأعمار النسبي للأطفال البيض والسود تأتي من (بابرا إم. ديكسون - صحة طيبة للإفريقيين الأمريكيين - ص27).

خطاب بولارد المتروك على هندرسون، مُقتبس من عدد 9 يونيو 1821 لجريدة سيدني غازيت. ثمة أقوال أخرى تدعي أن تشايس أيضاً ترك خطاباً، أحد المصادر يقول إنه كان موجّهاً لزوجته، وقال آخر إنه لشقيقه. على سبيل مزيد من الحماية،

t.me/qurssan

وضع بولارد الخطابات في حاوية رصاصية قبل إيداعها في الصندوق الخشبي وتسميره في الشجرة.

الفصل العاشر: همس الضرورة

المعلومات الإحصائية عن اتجاهات الرياح في مناطق الرياح التجارية من (ويليام توماس تنوع البيئات المادية بين جزر المحيط الهادئ في مكان الإنسان في النظام البيئي للجزيرة الذي حرّره ف. ر. فوزبيرغ- ص31). خالص شكري لخبير نانتوكت الكويكرية روبرت ليتش على تزويدي بمعلومات عن خلفية ماثيو جوي (مراسلات شخصية - 28 مايو 1998). طبقاً لخطاب أرون باداك (المستند على حكاية بولارد والموجود في الجمعية التاريخية) «الضابط الثاني ماثيو بي. جوي مات من الوهن والإمساك».

نتائج تجربة مينيسوتا للتضوّر موجودة في جزئي (أنسل كيز وآخرون - بيولوجيا الجوع البشري). يمكن إيجاد ملخص قابل للقراءة للنتائج وتحليلها في (هارولد جوتزكو، بول بومان - الناس والجوع: دليل سيكولوجي لعمال الإغاثة)، وهو دليل لايزال يستخدم اليوم. المصطلح «استمناء غذائي» من (هيلدي بلوم كيف نجوا؟ - ص20). تحدث جوتزكو وبومان عن التضوّر و«ما يدعى بالصفات الأمريكية» (ص9).

أحد أمثلة الادعاءات أن الموت جوعاً وعطشاً كوسيلة «طبيعية ومحتملة» للموت، يمكن إيجادها على الموقع http://www.asap-care.com/fluids.htm: «ثبت أن التضوّر

t.me/qurssan

والجفاف محتملان جداً عند الموت. يمكن فهم هذا لأن الناس كانوا يموتون بسلام لآلاف السنين قبل أنابيب التغذية والمحاليل الداعمة... هذه هي الطريقة الطبيعية التي يجب السماح بحدوثها عندما يصبح الموت وشيكاً، لا محاربته بلا هوادة وتجنبه بأي ثمن».

الفصل الحادي عشر، لعبة الحظ

كتاب تشايس وخطاب أرون باداك اختلفا قليلاً فيما يخص توقيت الأحداث على قاربي بولارد وهيندريكس بعد الانفصال عن تشايس. بما أن باداك كتب خطابه في ليلة إنقاذ بولارد بعد الاستماع للقبطان يحكي ما صار معه، اعتبرته المصدر الأرجح بخصوص ما وقع لهذين القاربين.

معلومة أن الكانيبالية للنجاة كانت منتشرة في القرن التاسع عشر مصدرها (براين سيمبسون - الكانيبالية والقانون العام - ص121). النشيد الثاني من (لورد بايرون - دون خوان) المنشور في صيف 1819، توضح السلوكيات والافتراضات السائدين في ذلك الوقت:

66

الناس في قارب مفتوح
يعيشون على حب الحياة، ويتحملون
أكثر مما يمكن تصديقه، أو حتى تخيله
ويقفون كما الصخور

t.me/qurssan

في خضم البلايا والمحن
كانت المصاعب دوماً حياة البحار
منذ أبحرت سفينة نوح هنا وهناك

67

لكن الإنسان شره مفترس
ويجب أن يأكل، ولو وجبة في اليوم
لا يستطيع العيش، مثل دجاج الأرض، على الامتصاص
بل مثل القرش والنمر، يحتاج لضحية
رغم أن بنيته التشريحية
تتحمل الخضروات،
يفكر الناس الكادحون، متذمرين، فيما بعد كل الأسئلة
لحم البقر والعجل والضأن، أفضل للهضم

68

وهذا ما كان مع رجال الطاقم التعساء...

أكثر معالجة شاملة لنوتنغهام جالي موجودة في الإصدار الأكاديمي من رواية (كينيث روبيرت - جزيرة بون). استخدمت أقدم نسخة من سردية القبطان دين، المنشورة عام 1711، وأُعيد طبعها في (دونالد وارتون - في غور البحر: مختارات من قصص النجاة البحرية الأمريكية، 1610-1766- ص153-155). ثمة مناقشة ممتازة لنوتنغهام جالي في (إدوارد ليزلي - رحلات

t.me/qurssan

بائسة، أرواح مهجورة: قصص حقيقية للضائعين وناجين آخرين)، مع بعض قصص حوادث الكانيبالية البحرية الشهيرة، بما فيها كارثة الإسكس. انظر أيضاً الفصل الخامس «العادات في البحر» في (سيمبسون، الكانيبالية والقانون العام- ص95-145).

كريستي ترنر وجاكلين ترنر في (ذرة الرجال: الكانيبالية والعنف في ما قبل التاريخ بالجنوب الغربي الأمريكي) توفران تحليلاً مفصلاً لكم من اللحم قد يوفره الإنسان المتوسط (ص34-35)، ويفعل ذلك أيضاً ستانلي جارن والتر بلوك في «القيمة الغذائية المحدودة للكانيبالية» في (أميريكان أنثروبولوجيست - ص106). في (بيولوجيا الجوع البشري) يستشهد كيز بعمليات تشريح لضحايا الجوع، فيها «الأنسجة الدهنية لا تحتوي على خلايا ذات كرات دهنية» (ص170)، كما ويذكران معلومات عن النسبة المئوية للوزن المفقود لأعضاء أجساد ضحايا المجاعة (ص190). جزيل شكري لبيت تورنوفيش وتيم ليبور لتخمينهما كم اللحم والسعرات الحرارية الذي ربما وفره ضحايا الجوع من الإسّكس. لدليل معاصر للكانيبالية، كامل وشامل رسم لجسم الإنسان يوضح القطع المفضل للحم بل وحتى قائمة بالوصفات، انظر (شيغورو تاكادا - الكانيبالية للطوارئ: سر النجاة الصغير القذر).

طبقاً لبي. ديورينبيرج وآخرين في «مؤشر كتلة الجسم ونسبة الدهون: تحليل شمولي بين مجموعات عرقية مختلفة»، في (مجلة السمنة المفرطة العالمية)، «في أجساد السود دهون أقل من القوقازيين الذين يشاركونهم نفس مؤشر كتلة الجسم

«BMI» (ص1168–1169). لأنباء جماعة دونر وارتفاع نسبة النجاة بين النساء مقارنة بالرجال، انظر (جورج ستيوارت - محنة الجوع) و(جوزيف كينج - شتاء الفخ). مثال آخر لنساء عشن أكثر من الرجال في موقف تضوّر، يمكن إيجاده في رواية آن ساوندير لمحنتها بعدما تعطلت سفينة كانت راكبة فيها (هي وامرأة أخرى غيرها) في طريقها من نيو برونزويك إلى ليفربول عام 1826. بعد البقاء 22 يوماً في أطلال السفينة التي تخللتها المياه، برفقة ستة ناجين آخرين (بما فيهم الراكبتان من النساء)، لجؤوا جميعاً للكانيبالية. بالإضافة إلى الميزات السيكولوجية ربما منح العمر لبولارد أفضلية سلوكية فيما يتعلق بالنجاة طويلة المدى. طبقاً لجون ليتش «يعاني من هم تحت الخامسة والعشرين أكثر لأنهم لم يتعلموا بعد كيف يحافظون على طاقتهم. إذ يواجهون صعوبة في جر أنفسهم لمسافات بعيدة... لا يأتي السكون بسهولة مع صغر السن» (سيكولوجية النجاة ص172).

كلّ من غلين بينيت (ص205–209) وجون ليتش تحدثا في كتابيهما عن قدرة شاكلتون الفريدة على تجسيد طرق قيادة مختلفة. طبقاً لليتش، شاكلتون كان «رجلاً نادراً، في وسعه التنقل بين نوعي القيادة. كان ذا شخصية مهيمنة قادرة على القيادة الحاسمة الأولية فيما يمتلك قدراً مذهلاً من العزيمة» (ص141). علق فرانك ورسلي على حساسية شاكلتون تجاه رجاله في (رحلة قارب شاكلتون - 169–170).

في بيولوجيا الجوع قدم كيز ملخصاً للتأثيرات الفسيولوجية للتضوّر، منها انخفاض القدرة على تحمل البرد وقتامة البشرة

t.me/qurssan

خاصة في الوجه (ص827-828). تحدث سيمبسون عن «الاعتقاد في أن الكانيبالية تصبح عادة إن مورست مرة» (ص149). تحدث جوتزكو وبومان عن كيف أدى تجويع الرجال في تجربة مينيسوتا إلى زيادة فظاظتهم (ص32). ذكر ديفيد هاريسون للمعاناة على متن البيجي يظهر في (وارتون في غور البحر - ص258-277)؛ رغم زعم البحارة أن العبد الأسود وقع عليه الاختيار بالقرعة، إلا أن الربان هاريسون كانت لديه «شكوك أن الإثيوبي المسكين لم ينل معاملة عادلة. بل أجد نفسي، عند تذكر ما صار، أشك إن كانوا قد أعطوه أية فرصة للمشاركة العادلة معهم» (ص269). وصف هربرت بلوخ «المجتمع الوحشي المعاصر» في (شخصية نزلاء معسكرات الاعتقال - ص335). هيلدي بلوم في كيف نجوا؟ حكت في كتابها عن السجين الذي تحدث عن «قتل» مشاعره (ص8)، واقتبست أيضاً من السجينة الأنثى التي اتخذت «الخداع الوحشي» وسيلة للنجاة في معسكرات الموت (ص22). بينما عاش فارلي موات بين ناس إيهالموت Ihalmiut في أراضي الشمال الغربي، تعلم الأهمية الحيوية للدهون بين أناس تتشكل كامل حميتهم من اللحم. كتب في (ناس الغزال) «التوق الأبدي للدهون هو جزء من ثمن العيشة على حمية من اللحم فقط» (ص85).

أول واقعة مسجلة للاقتراع في موقف نجاة بحري نُشرت عام 1641، انظر (سيمبسون، الكانيبالية والقانون العام - ص-122-123). وصف ردّ فعل ديفيد فلات على حكم الإعدام الواقع عليه على متن البيجي يحكيه هاريسون (وارتون -

t.me/qurssan

ص271–276). انظر أيضاً (إتش بلوستون، وسي. إل. ماكجاهي - ردّ الفعل على الضغط الشديد: الموت الوشيك بالإعدام).
شكري لروبرت ليتش ومايكل رويستون على رؤيتهما فيما يخص الموقف الكويكري تجاه القرعة والقتل (مراسلات شخصية - 3 يونيو 1998). ساعدني ليتش أيضاً بتوفير معلومات بخصوص الخلفية الكويكرية لجورج بولارد (مراسلات شخصية 22 مايو 1998). أر. بي. فوربس في كتيبه (ضياع الإسّكس، دمرها حوت)، أشار إلى كيف اصطاد رجال البولي القروش باستخدام أجزاء الجثث (ص13–14). حكايتي للاقتراع وإعدام أوين كوفين، لا تستند فقط إلى شهادات بولارد (كما سجلها جورج بينيت - هيفرنان ص–215) وتشايس ونيكرسون، لكن أيضاً إلى خطاب كتبه نيكرسون إلى ليون لويس في 27اكتوبر 1876) في الجمعية التاريخية). يدعي نيكرسون في الخطاب أن بولارد كان منفذ حكم الإعدام في كوفين، ما يعارض حكايته في قصته نفسها، حيث يقول أن رامزديل هو من أطلق الرصاص على كوفين. بما أن بقية الحكايات تقول أنه رامزديل، افترضت أن نيكرسون كان مخطئاً في الخطاب.

الفصل الثاني عشر: في ظل النسر

تحدث جون ليتش عن النهج الإيجابي-السلبي للنجاة في المواقف طويلة الأمد (سيكولوجية النجاة ص167). في فهم التغذية الطبيعية والسريرية، وصفت ويتي وآخرون آثار نقص الماغنيسيوم «تشنجات، حركات عضلية غريبة (خاصة العينين

t.me/qurssan

وعضلات الوجه)، هلوسة، وصعوبة في البلع» (ص302). حديث القبطان هاريسون عن البحار الذي مات مجنوناً بعد أكل كبد العبد الأسود نيئاً في (وارتون، في غور البحر-ص269). يبدو أن نسخة من تلك الحكاية وجدت طريقها للأقاويل التي أحاطت بمأساة الإسكس. في كتيب ضياع الإسكس، فوريس -الذي اعتمد على المعلومات التي وفرها فريدريك سانفورد ذو المصداقية المشكوك في أمرها عادة- زعم أنه «عندما مات رجل أسود في أحد القوارب، أكل آخر من كبده، فصار مجنوناً، وقفز من القارب» (ص11).

معنى «بارزيلاي» يأتي من (ألفريد جونز - قائمة الأسماء المناسبة في العهدين القديم والجديد) في (فهرس كرودين الكامل - ص791). كتب كينستون وروسر عن التأثيرات النفسية للمعاناة من الخسارة الجسيمة في المعركة (ص445-446). ناقش كيز وآخرون ما أطلقوا عليه «مشكلة الاستسقاء Edema» (بيولوجيا الجوع ص935-1014).

أتاح لي روبرت ليتش معلومات بخصوص نشأة بينجامين لورنس الكويكرية (مراسلات شخصية، 22 مايو 1998). كتب جوساياه كوينسي عن محادثته مع القبطان لورنس المنتكس مادياً، جد بينجامين، «عرف لورنس أياماً أفضل، وكان في مرحلة ما لديه من الممتلكات ما جعله من أعيان الجزيرة. لكن سوء الحظ حل عليه في أواخر أيامه، وكان يتجهز للانتقال بأسرته إلى الإسكندرية» (كروسبي - ص119). مثلما يوضح ليتش، توفى والد بينجامين في رحلة إلى الإسكندرية عام 1809.

t.me/qurssan

بخصوص سرعة إبحار قارب التحويت، كتب ويليتس أنسل في قارب التحويت «المتوسط الجيد لقارب يجري لفترة من الوقت هو من 4 إلى 6 عقد» (ص17). في 1765 شاهد طاقم البيجي العاجزون ربان قبطان سفينة نجاة محتملة يأمر بحارته بالابتعاد عن المركب المعطوب (وارتون - ص265). مثلما كتب ليزلي في رحلات يائسة وأرواح مهجورة، «إنقاذ الضائعين يتضمن مخاطر ولا يعِد بأية جوائز ملموسة؛ لا شكّ أن استقبال الناجين يستنزف الموارد الشحيحة في الأصل من الطعام والشراب» (ص218). طبقاً لتورنوفيش؛ بودنغ التابيوكا هو «طعام لين يسهل على المعدة المتضوِّرة هضمه. غني بالسعرات الحرارية والبروتين... والطعام الغني بالسعرات والبروتين هو ما يُنصح به للمرضى الذين مروا بعمليات جراحية لتسهيل الشفاء واستعادة ما خسرته أجسادهم قبل وأثناء الجراحة» (مراسلات شخصية - 28 مارس 1999).

ناقشت كريستي وجاكلين ترنر أساليب استخراج النخاع من العظام البشرية (ص33-38). كتب ماكدونالد كريتشيلي في (الناجين من الحطام: دراسة طبية) عن الهذيان المتشارك بين الضائعين «ما يؤدي لنوع من الهلوسة الجماعية» (ص81). تشارلز ميرفي، ضابط الدوفين الثالث، يحكي كيف عُثر على قارب بولارد في قصيدته المنشورة ذات الـ220 مقطعاً، عام 1877، وفّر ميرفي أيضاً قائمة بالطاقم، ما يشير إلى وجود أمريكيين أصليين على متن السفينة. لذكر الأسطورة الهندية عن كيف تتبع العملاق ماوشوب النسر إلى نانتوكت، انظر كتابي

t.me/qurssan

(عيـون إبرام: إرث الأمـريكيين الأصليين في جـزيرة نانتـوكت – ص35). يروي ملفيل مـرة أخرى نسخة من الأسطورة في الفصل 14 من موبي–دِك.

العميد البحري تشارلز ريدجيلي سجّل كيف عُثر على بولارد ورامزديل يمتصان عظام رفاقهما (هيفرنان – ص99). كما يشـير هيفـرنـان، لا بدّ أن ريدجلي سـمع بالحكاية من النانتوكتي أوبيد ستاريك، ضابط سفينة هيرو الأول (ص101). قصة في صحيفة (سـيـدني غـازيت – 9 يونيـو 1821) تزعم أن «وُجـدت في جـيب القبطان والفتى أصابع المتوفين وقطع من عظامهم عندما حُملوا إلى سطح الحوّاتة». ثمة نسـخة مـصورة غير كاملة من خطاب أرون باداك الذي يذكـر فـيــه حكاية بولارد عن الإسّكس في (مجموعة الجمعية التاريخية 15 – مجلد 57). في الخطاب كتب باداك «رغم سـوء حـالة القـبطان بولارد عند إنقـاذه، إلا أنه عـاد للحياة بسـرعة، لكن يؤسفني قول إن الشاب رامـزديل ساءت حاله منذ الإنقاذ». أخبـرني كلود روسـون، بروفيسـور اللغة الإنجليـزية بجامعة ييل، عن ميل أولئك الذين انحدر بهم الحال إلى كانيبالية النجاة إلى مشاركة تجربتهم بصراحة تصل إلى إفزاع سـامعيهم (مـراسـلات شخصيـة، 13 نوفمبـر 1998). الحـديث عن الناجين السـتـة عشـر من تحطم الطائرة على جبـال الإنديز عـام 1972، صـار ممكناً بعـد حكاية بيـرس بول ريد التي باتت شـهيـرة عن كانيبالية النجاة (حي: قصة نَجاة الإنديز).

t.me/qurssan

في (اغرقها حوت) يقدم توماس هيفرنان سرداً مفصلاً للوضع السياسي في تشيلي وقت وصول الناجين من الإسكس إلى فالبارايسو (ص89-91). يحتوي ملف الإسكس الأزرق في الجمعية التاريخية النانتوكتية نسخة طبق الأصل من مُدخل 25 فبراير في الأرشيف القومي لتشيلي، الذي يصف مأساة تشايس ولورنس ونيكرسون. تحدث نيكرسون عن مجهودات القائم بأعمال القنصل الأمريكي هنري هيل لصالحهم. قول العميد البحري ريدجيلي عن مظهر الناجيين وعلاج د.أوزبورن لهم اقتبسه هيفرنان (ص100-101). يزعم ريدجيلي أن البحارة على متن الكونستيليشن عرضوا التبرع بقيمة راتب شهر كامل لعلاج الناجين من الإسكس (وهو ما كان ليبلغ مجموعه من ألفي إلى ثلاثة آلاف دولار)، لكن لما أدرك أن المقيمين الإنجليز والأمريكيين في فالبارايسو أنشؤوا لهم صندوقاً، حدّ ريدجيلي من تبرعات رجاله إلى دولار واحد لكل منهم (هيفرنان - ص100).

تحدّث أنسل كيز وآخرون في بيولوجيا الجوع عن العملية المؤلمة التي مرّ بها المشاركون في تجربة التضوّر في مينيسوتا لاستعادة أوزانهم المفقودة (ص828). ذكر القبطان هاريسون لصعوبة استعادة قدرات جهازه الهضمي موجودٌ ضمن سرده لمأساة البيجي (وارتون - ص275). وفّر نيكرسون وصفاً مفصلاً للمشاكل التي مرت بها سفينة هيرو قبالة جزيرة سانتا ماريا، انظر أيضاً كتابي (بعيداً عن الشاطئ - ص161-162). وصفي لكيف ذهب بولارد ورامزديل إلى فالبارايسو يعود الفضل فيه

t.me/qurssan

لهيفرنان (أغرقها حوت ص95-109)، وكذلك ذكري لإنقاذ الرجال الثلاثة من جزيرة هندرسون (ص109-115). تحدث سيمبسون عن «شهوة آكل المحارم» في (الكانيبالية والقانون العام - ص141).

يحكي تشابل عن متاعبهم في هندرسون في كتيب بعنوان (ضياع الإسّكس)، طُبع من جديد في (هيفرنان - ص218-224). تحدث نيكرسون مع سيث ويكس عن مدته على الجزيرة، وأكد ويكس أن نبع الماء العذب لم يظهر مرّة أخرى فوق خطّ المدّ. طبقاً لمتخصص المحيطات جيمس مكينا، لا بدّ أن ما سمح لطاقم الإسّكس بالوصول إلى مياه النبع مؤقتاً في ديسمبر 1820، كان مداً ربيعياً عالياً (ومنخفضاً) بشكل استثنائي، بالإضافة إلى عدة عوامل تتعلق بطور القمر والتبدل في أنماط الدوران للشمس والقمر (مراسلات خاصة - 10مايو 1999). كتب القبطان بيتشي عن قارب الإسّكس المفقود: «لم يُسمع عن [القارب] الثالث قطّ. لكن ليس من غير المحتمل أن حطام القارب والهياكل العظمية الأربعة التي شاهدها مركب تجاري في جزيرة دوسي، كان القارب المفقود وطاقمه» (في السردية، المجلد 1، ص 59-61). هيفرنان، الذي يقتبس من بيتشي، يشك إن كان قارب التحويت الذي عُثر عليه ينتمي إلى الإسّكس (أغرقها قارب، ص88).

ذكر أوبيد مايسي لما حدث على نانتوكت خلال شتاء وربيع 1821 في الجزء الثالث من يومياته في (مجموعة الجمعية التاريخية 96). وصف فريدريك سانفورد للخطاب المتعلق

بالإسكس، الذي قُرِئ «أمام مكتب البريد بطريقة جماهيرية» من مقال مختصر بعنوان (قصص حيتان) يبدو أنه نُشر في جريدة أجنبية عن الجزيرة في 1872 تقريباً. توجد نسخة غير مؤرخة من المقال في الملف لدى الجمعية التاريخية؛ خالص شكري لإليزابيث أولدهام لتنبيهي إليها. يضمّن سانفورد نسخة محمومة أكثر من اللازم من هجوم الحوت، «حوت [عنبر] عملاق هاجم السفينة، بعنف شديد جعلها تميل وتهتز مثل ورقة شجر. دار الحوت مولياً بصره إلى اتجاه الريح وابتعد مسافة ميلين، ثم دار وعاد بسرعة إلى السفينة وضربها ضربة قاضية في مقدمتها، ممّا قلبها على جانبها لتمتلئ وتغرق».

عدد 14 يونيو 1821 من نيو بيدفورد مركيوري تضمن قصتين عن الإسكس. الأولى مصدرها القبطان وزد لسفينة تريتون، الذي سمع عن الكارثة من القبطان باداك لسفينة ديانا، وسجل فيها انقاذ الدوفين لبولارد ورامزديل، والقصة الثانية تُخبر عن خطاب وصل إلى نانتوكت يخبر بوصول النسر على متنها تشايس ولورنس ونيكرسون ورامزديل ركاباً. الإنكوايرر، جريدة نانتوكت المحلية، لم تبدأ في النشر عن الإسكس قبل 23 يونيو 1821، بعد أسبوعين تقريباً من وصول أول مجموعة من الناجين. الخطاب الذي يصف عجز تشايس عن الحديث عن المأساة يعود إلى 17 يونيو 1821، في حوزة روزماري هيمان، سليلة برناباس سيرز، الذي كان الخطاب موجّه إليه. شكري للسيدة هيمان لتنبيهي إلى الخطاب. ذكر استقبال بولارد كان مختصراً في جملة وحيدة: «القبطان بولارد، قائد سفينة

t.me/qurssan

الإسكس السابق، وصل على متن الأخوين يوم الأحد السابق، (9 أغسطس 1821). ذكر فريدريك سانفورد لقدوم بولارد في (غوستاف كوبي - مخاطر وورومانسية التحويت - مجلة القرن - أغسطس 1890 - ص521). كتب أيضاً عن عودة بولارد في انكوايرر (28 مارس 187). رغم أن كثيراً من الكتاب أساؤوا عزو قصة سانفورد عن الاستقبال الصامت إلى أنه كان لوصول تشايس ورفقته، لكن عودة بولارد هي ما أثارت ردّ الفعل ذلك. وصف ردّ الفعل النانتوكتيين على وصول سفن التحويت مأخوذ من نانتوكت إنكوايرر (14 مايو 1842).

تحدث لانس دايفز وآخرون عن مسؤوليات قبطان التحويت الأعظم مقارنة بالقبطان التجاري، والراتب الأعظم أيضاً (مطاردة اللوياثان ص175-185). ذكريات القبطان أماسا ديلانو عن العودة من رحلة غير ناجحة مصدرها (أماسا ديلانو - قصة رحلات وأسفار - ص252-253). كتب إدوارد ستاكبول عن حزقيا جدّ أوين كوفين وانخراطه في حفلة الشاي في بوسطن في (الحيتان والمصير -ص38). أتاح لي روبرت ليتش معلومات بخصوص عائلة كوفين واجتماعات الأصدقاء (مراسلات شخصية - 20 مايو 1998). قصة توماس نيكرسون عن ردّ نانسي كوفين على جورج بولارد من خطابه إلى ليون لويس.

تحدث بيرس بول ريد عن حكم رئيس أساقفة مونتيفيديو على الناجين من الإنديز (ص308). لكن هناك مسؤول كاثوليكي آخر قال، بخلاف ما قاله أحد الناجين من الأنديز إن أكل لحم الإنسان في ظل تلك الظروف ليس مساوياً للتناول المقدس

t.me/qurssan

(ص309). الوثائق المتعلقة بانتشار الكويكرية في نانتوكت ذكرت نقاشاً دينياً أشار بشكل مثير للاهتمام للكانيبالية وطقس التناول. في ربيع 1698، قبل انتشار الكويكرية في الجزيرة بعدة أعوام، زار نانتوكت صديق [كويكري] متجول اسمه توماس تشالكلي، وسجل محادثة مع واحد من أوائل المستوطنين يدعى ستيفن هاسي. عاش هاسي من قبل في بريادوس، حيث سمع كويكرياً يقول: «يجب أن نأكل اللحم الروحي، ونشرب الدم الروحي للمسيح»، سأل هاسي: «ألا يناقض الطبيعة كون اللحم والدم روحيين؟». عندما وضح تشالكلي أن المسيح تحدث مجازياً عندما قال للرسل: «إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ [يوحنا 6:53]»، أجاب هاسي ساخطاً: «لا أظنهم قضموها من ذراعه أو من كتفه» (ستاربك تاريخ نانتوكت- ص518). بوسع المرء التساؤل كيف كان هاسي وتشالكلي ليستجيبوا لقصة الناجين من الإسّكس الحرفية للغاية. وصف كلاود راوسون الكانيبالية بأنها «عار ثقافي» في مراجعة لكتاب الكانيبالية والقانون العام لسيمبسون في (مراجعات لندن للكتب – 24 يناير 1985 – ص21). في ما يخص الناجين الذين لجؤوا للكانيبالية، كتب جون ليتش: «إن جرى تبرير الكانيبالية وقبولها أو في بعض الحالات عقلنتها، إذن يمكن استيعاب فعل الاضطرار للكانيبالية بقليل من الضغط النفسي أو بلا ضغط على الإطلاق» (سايكولوجية النجاة ص98).

أشار هيفرنان للتشابهات بين سردية تشايس لما حدث على قاربي بولارد وجوي وبين ما وصفه خطاب أرون باداك (إغرقها

t.me/qurssan

حـوت ص231). كـتب هرمـان ملفـيل عن أصل تـأليف سـردية تشـايس في الصـفحـات الخلفـيـة من نسـختـه (انظر طبـعـة Northwestern-Newberry من مـوبي-دِك - ص984). لكن هناك جانب آخر من الكارثة لم يذكره تشايس، فهو لـم يقُل إن كان قد حـقق أمنيـة وفـاة ريتـشـارد بيـتـرسـون وتواصل مـع أرملتـه في نيويورك أو لم يفعل. لعائلة ويليام كوفين الابن تقليد ما للكتابة في المواضيع المثيرة للجدل. فقبل خمس سنوات كتب والده، الذي اتهمته النخبة الكويكرية ظلماً قبل عشرين عاماً بسرقة بنك نانتـوكت؛ دفاعـاً بليـغـاً يثبت أن الجـريمـة ارتكبـهـا أجـانب عن الجـزيرة؛ انظر عـملي (بعـيـداً عن الشـاطئ - ص156-159). تحـدثتُ أيضـاً عن مـؤهلات ويليـام كـوفين الابن ككاتب شـبح لسـردية تشـايس في نفس الكتـاب (ص158، 249). التـعليق بخصـوص ويليـام كـوفين «حبـه الشـديد للأدب» ظهـر فـي نعي بنـانتـوكت إنكوايرر (2 مـايو 1838). صـدر فـي إنكوايـرر إعـلان يخص نشر قصة تشايس في 22 نوفمبر 1821.

سجل ملفيل سماعه عن سردية للربان بولارد في الصفحات الأخـيـرة من نسـخـتـه لكتـاب تشـايس (طبـعـة Northwestern-Newberry من مـوبي-دِك - ص985). تعليقـات رالف والدو إمرسـون بخصوص حساسيـة النانتوكتيين «تجاه كل ما يخزي الجزيرة» يظهر في مدخلات مذكراته عن الجزيرة لعام 1847 (ص63). في 1822، نُشـر خطاب من مجهول في صحيفة ببوسطن يتسـاءل عن الشـخـصـيـة الدينيـة لسكان الجـزيرة. ردّ نانتوكتي غاضب بكلمات ربما كانت تعني أوين تشايس «بيننا

جاسوس، يرسل مثل كل الجواسيس الجبناء تقارير لما يحسب أنه لا يمكن دحضه» (نانتوكت إنكوايرر - 18 أبريل 1822). طبقاً لقائمة أليكسندر ستاربك برحلات التحويت في تاريخ نانتوكت، فقد غادرت الأخوين في 26 نوفمبر 1821. تحدث نيكرسون عن كونه جزءاً من طاقم الأخوين (برفقة تشارلز رامزديل) في قصيدة بعنوان «سفينة الأخوين» (مجموعة الجمعية التاريخية 106 – مجلد 3.5).

الفصل الرابع عشر: العواقب

تستند حكايتي عن رحلة الأخوين الأخيرة، في الغالب إلى قصيدة نيكرسون «سفينة الأخوين» وسرده النثري «ضياع سفينة الأخوين النانتوكتية»، وكلاهما لم ينشرا من قبل وموجودان في (مجموعة الجمعية التاريخية 106 – مجلد 3.5). ضابط الأخوين الأول إيبين جاردنر ترك أيضاً ذكراً للحادثة موجوداً في الجمعية التاريخية. تشارلز ويلكس ضابط الصف البحري في سفينة ساحرة المياه، الذي سجل محادثته مع جورج بولارد، سيصبح قائد البعثة الاستكشافية الأمريكية. كما يشير هيفرنان إلى أن ثمة احتمالية أن ويلكس قابل أيضاً أوين تشايس في 1839، عندما رست أربعة من سفن البعثة لعدة أسابيع في تاهيتي، حيث كانت تشارلز كارول حينها (ص130–131). ذكر ويلكس لمقابلته للقبطان بولارد متضمنة في (سيرة ذاتية للواء البحري تشارلز ويلكس، البحرية الأمريكية، 1798–1877)، واقتبسها هيفرنان باستفاضة (ص146–148).

t.me/qurssan

يحكي إدوارد ستاكبول عن اكتشاف فريدريك كوفين لأرض تحويت في اليابان (صيادو البحر ص268)، لا يعتقد كل دارسي التحويت أن كوفين هو أول من وجد هذه الأرض. ربما تعلم جورج بولارد كيفية القيام برصد قمري من قبطان الأخوين السابق جورج وورث، إبان الشهرين في طريقهم للعودة إلى نانتوكت من فالبارايسو في ربيع وصيف 1821. رغم أن كلاً من بولارد وقبطان المارثا جون بيس كانا مقتنعين أنهما دخلا نطاق مياه ضحلة مجهولة، إلا أن نيكرسون كشف في خطابه إلى ليون لويس أنه وضابط المارثا الأول توماس ديريك اعتقدا أنها كانت فرينش فريجيت شولز، وهي خطر معروف جيداً بالفعل غرب الجزر الهاوائية.

قصة مقابلة جورج بينيت مع بولارد ظهرت أصلاً في (يوميات الرحلات والأسفار بواسطة القس دانييل تيرمان، والمحترم جورج بينيت، منتدب من مجتمع لندن التبشيري). فيما يخص الشخصية المبنية على بولارد، كتب ملفيل في قصيدة كلاريل:

أيونس [أجوناه] هو؟
أذاع الرجال القصة
ولن يُعطيه أيٌ منهم فرصة ثالثة

تحدث نيكرسون عن رحلة بولارد الوحيدة في الخدمات التجارية في (ضياع سفينة الأخوين النانتوكتية). إشاعة أن جورج بولارد استبدل نفسه بأوين كوفين سجلها سيراس تاونسند برادي في «حكاية الإسكس، الحوّاتة» في مجلة (كوزمابولتين –

t.me/qurssan

نوفمبر 1904 – ص72). كتب برادي أن برغم تداولها حتى الآن في نانتوكت، إلا أنه يشك في مصداقيتها.

شكري لديانا براون، حفيدة جوزيف وارين فيني، لتزويدي بنسخة من الأجزاء ذوات الصلة من النسخة الأصلية من ذكريات فيني، سجلتها ابنته روث بيرس. نشرت السيدة براون مختارات من ذكريات جدها تحت اسم «نانتوكت، في مكان بعيد قبل زمن طويل» في (هيستوريك نانتوكت – ص23–30). في مراسلات شخصية بتاريخ 9 أغسطس 1998، أوضحت السيدة براون علاقة فيني بالقبطان بولارد: «القبطان وارين فيني، والده، تزوج فالينا وورث، ابنة جوزيف تي. وورث وصوفرونيا ريدل، في 6 يونيو 1834، كانت صوفرونيا ريدل بحسب ظني شقيقة ماري ريدل التي تزوجت الريان بولارد. بعد وضعها لثلاثة بنات ماتت عام 1843. بعدها بقليل تزوج من هنريتا سميث، التي ماتت في نهاية 1845، عام ولادة جوزيف وارين. مات والده بعد خمس سنوات في إحدى كوارث السفن في إحدى البحيرات العظيمة، فاضطر للذهاب ليربيه جدّاه من آل سميث. هو بالطبع ليس قريباً لآل بولارد بالدم، لكنهم كانوا جزءاً من عائلته الممتدة».
إشاعة أن جورج بولارد كان يمزح بشأن أكله اوين كوفين سجلها هوراس بيك في (الفولكلور والبحر – ص379). حتى نهاية ستينيات القرن العشرين، كان التقليد لا يزال متبعاً من قبل النانتوكتيين؛ شكري لتوماس مكجلين، الذي قضى مدرسته على الجزيرة، لمشاركته ذكرياته عن حكاية بولارد.

ما يُعرف عن حياة أوين تشايس بعد مأساة الإسكس يحكيه

t.me/qurssan

هيفرنان (أغرقها حوت ص119-145). سجل إمرسون محادثته مع بحار عن الحوت الأبيض والوينسلو/الإسّكس في 19 فبراير 1834 (اليوميات، الجزء الرابع، ص 265). ذكريات ملفيل عن مقابلة ابن تشايس ومقابلة تشايس نفسه في الصفحات الخلفية من نسخته من سردية الإسكس (طبعة Northwestern-Newberry من موبي-دك – 981-983). رغم أن ملفيل قابل على ما يبدو بالفعل ابن أوين تشايس، إلا أنه خرج إلى البحر بعدما تقاعد أوين من وظيفته كقبطان تحويت، ولا بدّ أنه أساء التعرف على شخص آخر على أنه ضابط الإسّكس السابق. لكن حتى لو لم يقابل ملفيل تشايس بالفعل، فهو حسب أنه فعل، وسيكون إحساس ملفيل هو المسؤول عن كيف ستتخيل الأجيال المستقبلية مأساة الإسكس؛ عبر عدسة موبي-دِك. تعليقات ملفيل بخصوص معرفة تشايس بخيانة زوجته موجودة أيضاً في نسخته من السردية (طبعة Northwestern-Newberry من موبي-دِك – ص995).

في (ضياع سفينة الأخوين النانتوكتية) يخبر نيكرسون بما حدث بعدما نُقل الطاقم إلى أواهو على متن سفينة المارثا، «ترجل كل أفراد طاقم الأخوين بسلام في الوقت الذي كان فيه أسطول التحويت في الميناء، اتخذ كل مساره وانضم لسفينة مختلفة بحسب الفرص المعروضة». تحدث هيفرنان عن كيف صار رامزديل قبطاناً لجينيرال جاكسون (أغرقها حوت، ص152). سجلات السلالات المتاحة رقمياً في الجمعية التاريخية تظهر أن زوجة رامزديل الأولى ميرسي فيشر وضعت

t.me/qurssan

أربعة أطفال وماتت في 1846، وزوجته الثانية إليزا لامب وضعت طفلين. توماس جي. نيكرسون مُسجل في سجل مدينة بروكلين كقائد سفينة، عاش في 293 شارع هيويس حتى أواخر عام 1872. ظهر نعي بينجامين لورنس في نانتوكت إنكوايرر أند ميرور في 5 أبريل 1879. كتب نيكرسون في سرديته عن مصير ويليام رايت وتوماس تشابل. نعي سيث ويكس ظهر في نانتوكت إنكوايرر أند ميرور في 24 سبتمبر 1887، جاء في ختامه «أمسى كفيفاً لعدة سنوات، وأنهى حياته في سلام وسكون بين أهله، سيظل دوماً موقراً مبجلاً».

إدوارد ستاكبول يذكر حكاية عن كون النانتوكتيين لا يتحدثون عن الإسكس في نسخة الجمعية التاريخية من سردية نيكرسون (ص78). لأنباء عن سمعة الجزيرة كمعقل للكويكريين ضدّ الرقّ، انظر عملي (كل موجة ثروة:جزيرة نانتوكت وتحولها لأيقونة أمريكية)، كتب ويتير عن نانتوكت أغنيته «المنافي»، عن رحلات (توماس مايسي) إلى الجزيرة في 1659. ناقشتُ نجاح اللوبر ذات الطاقم الأسود بالكامل تقريباً في (بعيداً عن الشاطئ - ص162-163). ختم فريدريك دوجلاس نسخته الأولى من قصة حياته بخطابه في أثينيوم نانتوكت.

تتبع توماس هيفرنان الاستخدامات الأدبية لقصة الإسكس في فصله «حكي الحكاية» (ص155-182). كاتب مقال في جريدة غاريتسفيل أوهايو عن عودة صندوق الإسكس إلى نانتوكت (3 سيبتمبر، 1896) قدم دليلاً مقنعاً عن تأثير قصة الإسكس على قراء أمريكا الصغار: «اعتدنا قراءة تلك الحكاية

t.me/qurssan

في القارئ الرابع الانتقائي لوليام هولمز مكفوفي، أخبرتنا عن الحوّاتين في قوارب تحويت مفتوحة على بعد ألفي ميل من اليابسة... لمثل تلك الحكايات تأثير على عقول الأطفال يدوم طويلاً». تشهد على أي مدى انتشرت قصة الإسكس أغنية بعنوان «حطام الإسّكس»، سُجلت في كورنوال بإنجلترا. تتعامل الأغنية ببعض الحرية مع حقائق الكارثة، فهي تدعي على سبيل المثال أن الاقتراع حدث ما لا يقل عن ثمان مرات بينما الرجال لا يزالون في جزيرة دوسي (سيمبسون، الكانيبالية والقانون العام- ص316-317). خطاب إمرسون لابنته عن الإسّكس في خطاباته المجمَّعة، حررها رالف راسك، الجزء الثالث (ص398-399). عن زيارة ملفيل الوحيدة إلى نانتوكت، انظر (سوزان بيغل - هرمان ملفيل: سائح نانتوكت الأول). سجل ملفيل انطباعاته عن جورج بولارد في الصفحات الخلفية من نسخته من سردية تشايس (طبعة Northwestern-Newberry من موبي-دِك - 987-988).

عن تدني حال ميناء تحويت نانتوكت والحريق العظيم عام 1846، انظر عملي بعيداً عن الشاطئ (ص195-198، 203-204، 209-210). كريستوفر هاسي في (أحاديث عن نانتوكت القديمة) كتب عن كيف أحاط الزيت المشتعل برجال الإطفاء في المرفأ (ص61)، انظر أيضاً حكاية ويليام سي مايسي الممتاز عن الحريق في الجزء الثالث من تاريخ أوبيد مايسي (ص287-289). بخصوص البلوطة، آخر حوّاتة نانتوكتية، كتب أليكسندر ستاربك: «بيعت في بنما عام 1872، شحنت إلى الوطن 60

برميلاً من زيت العنبر، و450 برميلاً من زيت الحوت المناسب. آخر حوّاتة نانتوكتية» (ص483).

الإحصائيات بخصوص عدد حيتان العنبر المقتولة في القرنين التاسع عشر والعشرين، من (دال رايس - حوت العنبر - ص191)، انظر أيضاً (دايفز وآخرون، مطاردة اللوياثان- ص135) و(وايتهيد سلوك ذكور حيتان العنبر الناضجة في أماكن التزاوج في جزر غالاباغوس - ص696). تشارلز ويلكس، نفس الرجل الذي تحدث مع بولارد عندما كان ضابط صف بحري، سجل ملاحظة أن حيتان العنبر «صارت أكثر وحشية» (قصة بعثة الاستكشاف الأمريكية - الجزء الخامس - ص493). جمع أليكسندر ستاربك قصص هجوم الحيتان على السفن في (تاريخ صناعة التحويت الأمريكية - ص114-125). وصف الربان ديلويس لمواجهته مع الحوت الذي اغرق آن أليكسندر من (كليمنت ساوتيل - سفينة آن أليكسندرمن نيو بيدفورد، 1805-1851- ص61-84). ذكر ملفيل الحوّاتة آن اليكسندر في خطاب يعود إلى 7 نوفمبر 1851 موجّه إلى إيفرت دويكينك في عمله (المراسلات - ص139-140).

في خطاب يعود إلى 15 نوفمبر 1868، موجّه إلى وينيفريد باتي، حكت فيبي تشايس عن رؤيتها لأوين تشايس، «ناداني بابنة العم سوزان (ظناً أني الأخت وورث) وامسك بيدي وبكى مثل طفل، قائلاً رأسي! يا رأسي . كان من المحزن رؤية رجل قوي مثله منحنياً، هيئته حينها كانت قد تغيرت كثيراً، فلم يعد يرتدي ما هو محترم من الثياب، وصار الخوف يغلف عالمه» (مجموعة

t.me/qurssan

الجمعية التاريخية 105 – مجلد 15). لمعلومات بخصوص نيكرسون، انظر مقدمة ستاكبول في نسخة الجمعية التاريخية من سردية نيكرسون (ص8-11). شكري لايمي نيويل، أمينة المجموعات في الجمعية التاريخية، لتوفيري بمعلومات تخص حبل بينجامين لورنس وصندوق الإسّكس. انظر «رفات الحوّاتة إسّكس» في نانتوكت إنكوايرر أند ميرور (22 أغسطس 1986) و«الرفات الثمينة المحفوظة» في جريدة غاريتسفيل (3 سبتمبر 1896).

خاتمة: عظام

المعلومات بشأن حوت العنبر الذي حملته الأمواج إلى نانتوكت في نهاية 1997 تأتي من المصادر التالية: مقالات ديونيس جوفين وكريس وارنر في نانتوكت إنكوايرر أند ميرور (8 يناير 1998)، مقالات جي. سي. جامبل في (نانتوكت بيكون – 6 يناير 1998)، و«قصة حوت نانتوكت العنبري» بواسطة سيسيل بارون جينسين في هيستوريك نانتوكت (صيف 1998 – ص5-8)، ولقاءات أُجريت مع إيدي راي وترايسي بلاوت وترايسي سانديل وجيرمي سلافيتز وريك موركوم ود. كارلين كيتين في مايو ويونيو 1999. د ويسلي تيفني مدير مركز جامعة ماساتشوستس- بوسطن الميداني تحدث معي عن التآكل في كودفيش بارك (مراسلات شخصية – يونيو 1999).

أشرف على تشريح الحوت كوني ماريجو وهوارد كرام من معرض الأحياء المائية في نيو إنفلند. أدار تقطيع الحوت توم

t.me/qurssan

فرينش من قسم صيد الأسماك والحياة البرية في ماساتشوستس. مع فرينش عمل ديفيد تايلور، مدرس علوم من مدرسة تريتون الثانوية في نيوبريبورت ماساتشوستس، وثلاثة من تلاميذ تايلور. كان من الملائم أن تلاميذ تايلور من نيوبريبورت، حيث استقر الكثير من أوائل المستوطنين في نانتوكت في القرن السابع عشر. منحت خدمة المصايد البحرية الوطنية هيكل الحوت العظمي إلى الجمعية التاريخية في نانتوكت رسمياً في شتاء 1998.

طبقاً لـ (كلاي لانكستر - جزيرة العطلات)، أدار نيكرسون نُزلاً في شارع نورث ووتر في منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر، حيث قابل الكاتب ليون لويس، لكنه انتقل إلى الشارع الشمالي (الذي صار الآن كليف رود) في عام 1882 (ص55). قال إعلان في إنكوايرر أند ميرور بتاريخ 26 يونيو 1875، إن نيكرسون افتتح «نزلاً عائلياً ذا غرف رحيبة متجددة الهواء، بكل وسائل الراحة المنزلية». شكري لإليزابيث أولدهام على لفت انتباهي لهذا الإعلان.

t.me/qurssan

شكر وعرفان

خالص شكري لألبرت إف. إيجان جونيور ودوروثي إتش. إيجان؛ دون دعمهما طوال السنوات السبع الماضية من خلال مؤسسة إيجان ومعهد إيجان للدراسات البحرية، لم أكن لأقدر على كتابة هذا الكتاب. شكري أيضاً لمارجريت مور، التي حافظت على المعهد مزدهراً طوال سنة غيابي الطويلة.

لأكثر من عقد ساعدني طاقم الجمعية التاريخية النانتوكتية في استكشاف تاريخ الجزيرة. شكراً لجين ويبر وبيتسي لوينشتاين وإليزابيث أولدهام وايمي نيويل وسيسيل بارون جينسين وريك موركام وجيريمي سلافيتز وماري وودروف وكل من في الجمعية التاريخية، في ماضيها وحاضرها. مؤسسة أخرى لا يمكن الاستغناء عنها: نانتوكت أثينيوم، أتاحت لي مدخلاً إلى المكتبات في تلك المنطقة وفي البلد كلها، شكر خاص لتشارلوت مايسون وبيتسي تايلر وشارون كارلي وكريس تورينتين. باتي هانلي، أمينة مكتبة ماري ميتشيل العلمية، قدمت أيضاً مساعدة كبيرة. أدين أيضاً لصاحبة متجر الكتب في الجزيرة ميمي بيمان، التي دعمت عملي بلا كلل. طاقم ميناء ميستيك وكلية برنامج ويليام-ميستيك كانوا مصدراً دائماً للمعرفة والخبرات طوال كتابة الكتاب. شكري لجيمس كارلتون وماري كي. بيركاو إدواردز وجيمس مكينا وكاترينا بيركاو ودونالد

t.me/qurssan

تريورجي وجلين جـوردينيـر وغلين جـراسـو ودون سـينيـتي. بالإضافة للحديث معي عن مواضيع تتراوح بين أغاني الحوّاتين والسكريمشا، ستيوارت فرانك، مدير متحف كيندال للتحويت، عرض عليّ استخدام مسكن المتحف للباحثين. شكري لمايكل دير لإرشاده لي في مكتبة كيندال وتوفيره نسخ من المقالات فور طلبها. وكان مايكل جيهل وجوديث داوني من متحف نيو بيدفورد للتحويت في غاية المساعدة.

النانتوكتيان تشاك جيج وديفيد كوكر ساعداني في ترتيب الأسئلة الملاحية المتعلقة بالقصة؛ أدين بكل شيء ممكن في سردي لوقوع الإسكس إلى خبرة تشاك المباشرة في حادثة مماثلة. شكري لديانا براون على مشاركتها مذكرات جدها عن القبطان بولارد. د تيم ليبور وبيث تورنوفيش وفرا لي مقالات وآراء لا حصر لها عن فسيولوجيا الجوع والجفاف. روبرت ليتش كان أكرم ما يمكن بمشاركته معي خلاصة أبحاث حياته عن مجتمع الجزيرة الكويكري. خبير الإسكس وملفيل توماس هيفرنان في جامعة أديلفي استمع بصبر لأفكاري عن شخصيات بولارد وتشايس. هال وايتهيد من جامعة دالهوزي ساعدني على فهم سلوك حيتان العنبر بشكل أفضل. تيد دوكاس من كلية ويلسلي تحدث معي عن فيزياء الحيتان وعلّق على الفصل الخامس. صانع النماذج مارك سازلاند والفنان البحري لين تانتيلو شاركا معي معرفتهما بحوّاتات القرن التاسع عشر، بينما بيتر سميث المهندس البحري في يخوت هينكلي وفر لي تحليلات كمية لما كان ليحدث إن نطح حوت سفينة. كلاود روسون من

t.me/qurssan

جامعة بيل تحدث معي عن الكانيبالية. ستيفن ماكجارفي من جامعة براون عرفني على مجال البيولوجي التطوري. ستيفن جونز ساعدني في عدة مسائل تتعلق باقتصاد التحويت بينما تحدث معي ويس تيفني من مركز جامعة ماساتشوستس-بوسطن الميداني عن تاريخ الجزيرة الطبيعي. ابنا عمي ستيف فيلبريك وبين فيلبريك علّماني عن تربية المواشي وبناء القوارب، بالترتيب. مؤرخ الجزيرة روبرت موني وخبير جريدة نانتوكت لي راند بورن وجّهاني لعدة مقالات مهمة في نانتوكت إنكوايرر. خلال صيفه في جزر غالاباغوس، وجّهني نيد كلافلين لعدة مصادر قيمة، كما فعل خبير غالاباغوس ريتشارد كريمر. ماري سيتشيو من مكتبة الكلية المجتمعية في كيب-كود ساعدتني مع شجرة عائلة أسرة نيكرسون. لامونت توماس من جامعة بريدجبورت وفر مساعدة في البحث، مثلما فعلت سالي أونيل، التي بحثت في أراشيف إنجلترا وأستراليا. ناثانيل كلاب أرشدني لموقع المواد في بروفيدنس رود آيلاند. جون تورينتين جعل من الممكن الوصول لنسخة من حكاية تشابل شديدة الندرة لكارثة الإسكس. عرض جايمي جونز أفكاراً بشأن الروح الجماعية لمجتمع جزيرة، بينما حكى إيدي راي وتراسي بلاوت وتراسي سانديل ذكرياتهم عن حوت العنبر الذي ألقته الأمواج على شاطئ نانتوكت.

شكر خاص للصديق والجار النانتوكتي توم كونجدون، الذي كان حماسه وحكمه التحريري الحاذق خير عون، خاصة في المراحل الأولى من المشروع. جريجوري وايتهيد وفر إضافات

t.me/qurssan

أساسية للمسودة الأولى. مارك وورتمان ساعدني بعدة أبحاث وأسئلة طبية وقرأ جزءاً من النص. ممن قرؤوا النص وعلقوا عليه والداي: توماس وماريان فيلبريك، وسوزان بيفيل وماري كي. بريكاو إدواردز وغلين جراسو وتوماس هيفرنان وستيوارت فرانك ومايكل جيهل وتشاك جيج وبيت تورنوفيش وتيم ليبور وسيسيل بارون جينسين وبيتسي لوينشتاين وهاوي ساندرز وريتشارد جرين وريك جافا وريتشارد جونسون وبيتر جاو وريتشارد إيليس. أما الأخطاء كلها فهي أخطائي وحدي.

في دار نشر فايكينغ، محررتي ويندي وولف جعلت هذا الكتاب على قمة أولوياتها. خلال كل مراجعات الصيف المحمومة، لم تتوقف عن دفعي لكي أرتقي إلى مستوى المواد المتاحة. من أعماق قلبي شكراً لكِ يا ويندي. تعليقات كريس بوبولو على الثلث الأول من النص لا يمكن تقديرها بثمن، فيما وفر لي هال فيسيندين إضافات متأخرة أغنت الكتاب كثيراً. شكري أيضاً لبينا كاملاني لعملها الدقيق شديد الانتباه للتفاصيل على النص.

شكر خاص لوكيلي ستيوارت كريشيفسكي، الذي ثبتني على الطريق خلال عام ونصف من الأشغال الشاقة.

أخيراً، حبي وإعجابي وامتناني لزوجتي ميليسا (التي إليها أهديت هذا الكتاب) وابنينا المراهقين جيني وإيثان، اللذين وافقا على الاستماع للمسودة الأولى لكل فصل، حتى عندما كان عليهما القيام بواجب مدرسي.

t.me/qurssan

الفهرس

مقدمة	9
الفصل الأول: نانتوكت	19
الفصل الثاني: وقوع	59
الفصل الثالث: أول دماء	81
الفصل الرابع: ثمالة نيران	105
الفصل الخامس: الهجوم	125
الفصل السادس: الخطة	145
الفصل السابع: في البحر	161
الفصل الثامن: تمركز في الداخل	187
الفصل التاسع: الجزيرة	203
الفصل العاشر: همس الضرورة	223
الفصل الحادي عشر: لعبة الحظ	241
الفصل الثاني عشر: في ظل النسر	259
الفصل الثالث عشر: العودة إلى الوطن	277
الفصل الرابع عشر: العواقب	299
خاتمة: عظام	329
ملاحظات	341
شكر وعرفان	407

t.me/qurssan

NATHANIEL PHILBRICK

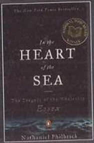

جائزة الكتاب الوطني عام 2000
National Book Award - 2000 -

جائزة كتاب السفير للدراسات الأمريكية عام 2001
Ambassador Book Award for - American Studies - 2001

واحدة من أعظم قصص المغامرات الحقيقية الأمريكية، عندما يتعلق الأمر بكسر الحدود، "في قلب البحر" هي ما تحتاج.

Wall Street Journal

كتاب يتغلغل إلى أعماقك، صنع فيلبريك ملحمة مثيرة، من حكاية بالغة القدم درسها بعناية وكتبها بأناقة، لا شك أن "هرمان ملفيل" كان لينبهر بها.

The New York Times Book Review

"كُتبت باندفاع وأصالة، حكاية كلاسيكية عن البحر"

San Francisco Chronicle

t.me/qurssan